مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تاليف

سماحة آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي

السبزواري

دام ظله العالي

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

بعدما سرد عز وجل جملة من قصص عيسى (عليه السلام) وذكر ان مولده وان كان على غرابة لكنه كان امراً عادياً بالنسبة إلى قدرة الخالق ومشيئته كما في خلق آدم (عليه السلام) ومنحه النبوة والكتاب واقام الحجة عليه بما لا يدع مجالاً الى الشك والارتياب بأن عيسى عبد الله فلا مبرر لتأليهه وعبادته .

ما ذكره سبحانه وتعالى حق لا يرتاب فيه احد لانه بيان الهي اشتمل على برهان قويم يقبله العقل السليم ويسطع نوره على كل القلوب فيدفع عنها الزيغ والضلال ويستشعر السامع برد العلم واليقين في قلبه فكانت تلك البيانات الالهية قد اوجدت عند السامعين قوة الاحتجاج مع كل خصم بما لا يدع مجالاً للارتياب .

امر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الرسول الكريم (صلى الله عليه

وآله) وغيره ممن حصلت له قوة الاحتجاج والكلمة الحاسمة الفاصلة بين الحق والباطل واحسّ ببَرْد اليقين في قلبه بالمباهلة - في دفع عناد المعاندين وازهاق الدعاوى الباطلة غير المنصفة - قطعاً للمعاذير وحسماً لكل اصرار على الغي والضلال ، وارشدهم إلى كيفيـة الاحتجاج ووعدهم النصر والغلبة باذنه عزوجل .

والمباهلة من الانبياء اظهار لاتصال نفوسهم القدسية بروح القدس وبيان لتأييداته تعالى لهم ، وارشاد الى انفعال عالم الشهادة وتأثره بعالم الغيب .

والمباهلة لا تصدر الا من النفوس الملكوتيّة ولذا كان لها التأثير الكبير على النفوس غير الكاملة وانفعالها بها كما انفعلت نفوس النصارى من نفس الرسول (صلى الله عليه وآله) فتنازلوا عنها بعد قبولها لما استشعرت انفسهم الخوف ، واحجمت عنها وطلبت الموادعة والمعاهدة خوفاً من اللعنة وما يلحقهم من الوزر والوبال كما نصحهم رهبانهم في ذلك الحين .

التفسير

قوله تعالى : فمن حاجك فيه .

تفريع على ما تقدم من بيان الحق في عيسى (عليه السلام) والضمير في « فيه » يرجع إما الى عيسى (عليه السلام) الذي بين سبحانه وتعالى الامر فيه بياناً شافياً بما لا يدع فيه الشك والارتياب وقد اشتمل على البراهين الساطعة والحجج القويمة . أو الى « الحق » المذكور في الآية السابقة الذي هو اقرب لفظاً ويكون عبارة اخرى عن بيان اصل قصة عيسى (عليه السلام) .

والمحاجة تبادل الاحتجاج وهي تستعمل في الحق وغيره كما حصلت

في المقام من النصارى في عيسى بن مريم (عليه السلام) زاعمين انه إله أو ابن الله باعتبار انه ولد من غير أب كما حكى الله تعالى عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم قال عزوجل : « وقالت النصارى المسيح ابن الله » التوبة ـ ٢٠ وقال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » المائدة ـ ٧٢، وقال تعالى : «ءأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله » المائدة ـ ١١٦ .

قوله تعالى : من بعد ما جاءك من العلم .

تطييب لنفس الرسول (صلى الله عليه وآله) بانه على العلم المطابق للواقع والحق اليقين ،ووعد منه عزوجل بأنه ناصره وانه لا يخذله في المواطن ، وارشاد الى ان ما عنده من العلم هو الحق الذي لا ارتياب فيه ويقبله العقل السليم ، فلا ينبغي التردد في المحاجة والمجادلة على الحق.

والمراد من العلم الاعم الحاصل من البرهان عن طريق الحس أو عن طريق العقل أو الوحي الالهي فان الجميع يتفق على ان المخلوق الممكن المربوب لا يمكن ان يكون إلهاً ورباً . وان الله واحد لا شريك له وانه لم يلد ولم يولد .

قوله تعالى : فقل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم .

تعال : فعل امر يدل على طلب الاقبال من مكان مرتفع ثم استعمل في مطلق طلب المجيء توسعاً اي : اقبلوا بثبات وعزيمة .

والخطاب للرسول (صلى الله عليه وآله) بالمحاجة لقطع كل عذر ، ودفعاً لكل ضلالة ، وحسماً لكل فساد . والتباهل الى الله عزوجل لمعرفة المحق من المبطل ، وهو امر لابد منه لحفظ الحق عن الضياع ، واتماماً للحجة على العباد وصوناً للمؤمن ومقامه في الحياة .

والحاق الخزي والعار والهلاك للمبطل ومَن هو على الغي والضلال .

والمخاطب في « ندع » هو المتكلم مع الطرف الآخر ممن يراد المحاجة معه وهو في المقام النصارى اي : يدعو كل منا ومنكم ابنائه ونساءه ونفسه .

والمباهلة وان كانت بين الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وبين النصارى ولكن عممت ليشمل مَن ذكر في الآية الشريفة من الابناء والنساء والانفس لامور كثيرة اهمها :

اولاً : ان للاجتماع خصوصية في الظفر على المطلوب والنيل بالمحبوب ليست هي في غيره وان دعاء الجمع أقرب الى الاستجابة ولذا امرنا الله تعالى في غالب الآيات المباركة الى الجمع في الدعاء قال تعالى : « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » الاعراف - ١٨٠ وفي السنة الشريفة الشيء الكثير قال (صلى الله عليه وآله): «يد الله مع الجماعة» .

وثانياً : الاعلام بأن الحق اظهاره اعظم من كل ما يرتبط بالانسان وانه لا غاية اشرف منه وان كل شيء هو دونه سواء كان النفس والشرف والاهل .

فالآية الشريفة ترشد الانسان الى انه لابد ان يكون سعيه ومقصده هو احقاق الحق واظهاره وان لا يثبطه في ذلك الاهل والعشيرة والشرف بل يفدي كل ذلك دونه .

وثالثاً : بيان ان مورد المباهلة من الامور النوعية والاجتماعية فلابد من الاجتماع فيه لاتمام الحجة وايضاح المحجة .

ورابعاً : اعتماد الداعي والاعلام بانه على الحق وانه يقدم الابناء والنساء والانفس للمباهلة ويخاطر بهم في العذاب ويشركهم في الدعاء على الكاذبين لينقطع دابرهم ويبطل مزاعم المبطلين ويظهر ابطالهم .

وخامساً : الاعلام بأن الداعي مطمئن باستجابة الدعاء وصدق دعواه ويقدم مَن هو اقرب الناس اليه ويذب عنهم في الشدائد والاهوال ويظهر الشفقة عليهم والمحبة بهم ويتحمل الصعاب دونهم ومع ذلك فهو يخاطر بهم في شمول العذاب لهم وليس ذلك الا لكون الداعي على يقين باستجابة دعائه .

وسادساً : الاشارة الى انهم على عظيم من الشرف والكمال وانهم اقرب الناس الى الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله) وان دعاؤهم لا يرد ولهم منزلة عظيمة عند الله تبارك وتعالى ولذا أمر سبحانه وتعالى رسوله باشراكهم في الدعاء والمباهلة معهم .

وسابعاً : الاعلام بأن المباهلة وان كانت محاجة بين طرفين إلا انه لابد ان تكون باشراف من الله تعالى على الجميع ولا يعقل ان تكون الرعاية الالهية لكل فرد في هذا الامر العظيم ، وتشمل كل مَن لا يكون مرضياً لديه عزوجل .

والمراد من الابناء هم اولاد الرسول (صلى الله عليه وآله) الذكور المنحصرون في الحسن والحسين (عليهما السلام) حين نزول الآية الشريفة .

والآية المباركة ليست في مقام تكثير الافراد في الابناء والنساء والأنفس وانه لابد من تحقق ذلك الجمع خارجاً كما هو الشايع بين الناس ، بل هي ظاهرة في مقابلة الجمع بالجمع سواء كان كل جمع مشتملاً على الكثرة اولا ، مع انه من مجرد الانشاء والامر بالمباهلة وهما لا يستلزمان كون المصداق الخارجي ايضاً متحققاً في الجمع والكثرة بل المقصود هو الحكم والانشاء والامر فقط سواء كان مصداقه واحداً أو متعدداً ومثل هذا كثير في الاستعمالات القرآنية وغيرها قال تعالى :

وقال تعالى :
« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » البقرة ـ ٢١٩ وقال تعالى :
« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم » آل عمران ـ ١٧٣ .

وبعبارة اخرى : مصداق النزول والتنزيل لا يكون مقيداً لاصل الحكم وهذا ظاهر .

يضاف الى ذلك ان اتيان لفظ الجمع من الادب الحاوري الذي يلاحظه القرآن الكريم وهو دائر في المحاورات الفصيحة .

قوله تعالى : ونسائنا ونساءكم .

النساء جمع لا واحد له من لفظه ومفرده المرأة ، ولفظ النساء يشمل المرأة التي تنسب الى الشخص بسبب أو نسب كالزوجة والام والاخت والبنت وقد ورد استعماله في جميع تلك الموارد في القرآن الكريم قال تعالى : « نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم » البقرة ـ ٢٢٣ وقال تعالى : « فان كن نساء فوق اثنتين » النساء ـ ١١ والمراد بهن الاخوات وقال تعالى : « وللنساء نصيب مما ترك الوالدان » النساء ـ ٧ والمراد بهن البنات والمتيقن منهن في المباهلة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) بالاجماع ونصوص متواترة كما سيأتي نقلها .

قوله تعالى : وانفسنا وانفسكم .

الانفس جمع النفس وهي تطلق تارة ويراد بها الروح قال تعالى : « ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم » الانعام ـ ٩٣ واخرى : يراد بها الذات والشخص وهو المراد بها في المقام ، وتقدم في قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » آل عمران ـ ٢٨ بعض الكلام .

والمقصود بها نفس الرسول (صلى الله عليه وآله) القائم بالدعوة

إلى الله تعالى ومَن هو بمنزلته في العلم والعمل والقضاء بالحق وهو منحصر في علي (عليه السلام) نصوصاً واجماعاً .

وقيل : انه لا يمكن دخول الرسول (صلى الله عليه وآله) في الآية الشريفة لان الداعي لابد ان يكون غير المدعو ولا يصح دعوة الشخص نفسه .

ويرد عليه : انه لم يقم دليل على بطلان دعوة الشخص نفسه بل الامر يدور مدار الغرض الصحيح ، وقد ورد في الفصيح ذلك يقال: آليت على نفسي ان لا افعل كذا ونحو ذلك مما هو كثير . مضافاً الى ان دخول النبي (صلى الله عليه وآله) الذي له مقام الجمع في الجمع وبمنزلة الكل ينفي أصل هذا الاشكال .

على ان دخول الرسول (صلى الله عليه وآله) انما هو لاجل اثبات منزلة علي (عليه السلام) والاعلام بأن وجوده (عليه السلام) بمنزلة وجوده (صلى الله عليه وآله) في العلم والعمل والخصال الحميدة.

وفي اتيان النساء والانفس جمعاً ما تقدم ذكره من ان المراد هو وقوع هذا الجمع مقابل الجمع سواء تعددت الافراد أم لا .

قوله تعالى : ثم نبتهل .

مادة (بهل) تدل على شدة الاجتهاد والاسترسال في الأمر المطلوب قال لبيد :

في قروم سادة من قومه نظر الدهر اليهم فابتهل

اي فاجتهد في اهلاكهم . وقد استعمل في الاجتهاد في الدعاء سواء كان لعناً أو غيره ، ونبتهل افتعال بمعنى المفاعلة اي يدعو بعضنا على بعض ، ويختص هذا الدعاء في المقام باللعنة بقرينة ما يأتي .

قوله تعالى : فنجعل لعنة الله على الكاذبين .

بيان للابتهال . والمراد من اللعنة النكال والعذاب مطلقا ومنه البعد عن رحمته تعالى وتوفيقاته ، كما ان المراد بالكاذبين هم الذين كذبوا وافتعلوا الباطل في شأن عيسى (عليه السلام) فيكون اللام للعهد اي : الكاذبين من احد طرفي المباهلة الواقعة بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين النصارى ويستفاد من ذلك ان احد الطرفين كان كاذباً والآخر كان صادقاً ، وقد ذكرنا ان الآية الشريفة تجعل هذا الجمع مقابل الجمع فتكون الافراد في كل طرف شركاء في الدعوى فلو كان أحد الجمعين كاذباً كان الافراد يشتركون فيه ويلزمه اشتراك الافراد في الجمع الآخر في الصدق ، وفي ذلك فضل عظيم لمن اشترك في دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

وفي اتيان الكاذبين جمعاً الدلالة على ان في كل طرف افراداً متصفين بالدعوى سواء كانت صادقة ام كاذبة وهذا بخلاف ما ذكرنا في الابناء والنساء والانفس حيث انه لا يعتبر تعدداً في كل عنوان ، إذ المنساق هو جعل هذا الجمع مقابل الجمع سواء تعددت الافراد ام لا .

قوله تعالى : ان هذا لهو القصص الحق .

إشارة إلى ما قصه الله تعالى في امر عيسى (عليه السلام) من ولادته إلى حين رفعه من عالم الارض ، والقصص جمع القصة وهي مجموعة من المعاني يتابع بعضها بعضاً من يقص فلان اثره اي يتبع اثره ومنه قوله تعالى : « وقالت لاخته قصيه » القصص ـ ١١ وقال تعالى : « فارتدا على آثارهما قصصا » الكهف ـ ٦٤ .

وفي تأكيد الجملة بـ إن واللام وضمير المنفصل دلالة على ان هذا

هو الحق فقط دون غيره مما تدعيه النصارى في عيسى بن مريم (عليه السلام) الذي هو خلاف الحق، وتطييب لنفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) واعلامه بانه على الحق واليقين وتشجيعه على المباهلة والمحاجة مع المبطلين.

قوله تعالى : وما من إله الا الله .

حصر الالوهية في الله تبارك وتعالى ، وابطال لما ادعاه النصارى من التثليث والحلول في عيسى ابن مريم (عليهما السلام) . والجملة كالنتيجة للآيات الشريفة المتقدمة .

قوله تعالى : وان الله لهو العزيز الحكيم .

تطييب لنفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) بانه عز وجل ناصره وانه لا يخذله في نصرة الحق فهو الذي لا يعجزه شيء ، الحكيم في افعاله وتقديره وتدبيره في خلقه فليس احد يضاهيه في عزته وحكمته ولا يساويه في الوهيته وجميع ما سواه مخلوق ومربوب له فما قاله الخصماء اوهام باطلة .

والجملة تفيد قصر الالوهية في الله عز وجل وتنفي ما سواه مما يدعيه المشركون ، فالآيتان تفيدان القصر والحصر وان احدهما تفيد توحيد الذات وتنفي الشرك في العبودية وفي مقام الذات . والثانية تفيد توحيد الافعال ، وتنفي التشريك في الفعل .

قوله تعالى : فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين .

اي : فان تولوا عن اظهار الحق والاعتقاد به فان الله تعالى عليم بفسادهم ويقضي بالحق وهو الذي يجزيهم جزاء التولي عن الحق .

ولما كانت المباهلة طريقاً لاظهار الحق وابطال الباطل فيكون التولي

عنها تولياً عن الحق واظهاره واعراضاً عن السعادة ويكون البقاء على اهوائهم الباطلة وافكارهم المزيفة فساداً والله عليم بانهم مفسدون لا يريدون الا الفساد والشقاء ، ولافساد اعظم من البقاء على الباطل وترويجه وافساد عقائد الناس واضلالهم والاعراض عن التوحيد والحق وليس ذلك إلا إفساداً للفطرة وجلب الشقاء للناس وان الله تعالى عليم بجزيهم جزاؤهم الذي يستحقونه .

ويستفاد من قوله تعالى : « عليم بالمفسدين » ان الله تبارك وتعالى عليم بانهم يعرضون عن المباهلة لان الفساد استولى عليهم فلا يذعنون للحق ، وقد تحقق ذلك منهم وصدق ما اخبره الله تعالى .

بحوث المقام

بحث دلالي :

تدل الآيات الشريفة على امور :

الاول : يدل قوله تعالى : « فمن حاجك فيه بعد ما جاءك من العلم » ان ما اوحي إلى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) هو العلم المطابق للواقع الذي يلزم قبوله وان غيره من مجرد الظن وهو لا يغني من الحق شيئاً .

ويستفاد منه أيضاً ان ما مع الرسول الكريم يشتمل على البرهان الساطع الذي لا يشك فيه احد ، ولعل ارتداع النصارى عن المباهلة لاجل اقتناعهم بذلك .

الثاني : يدل قوله تعالى : « من بعد ما جاءك من العلم » ان

الذي جاء مع الرسول (صلى الله عليه وآله) هو الحق المطابق للعقل السليم الذي يتقبله كل فرد فلا فرق حينئذ بين ان يكون مع الرسول أو مع غيره .

وبعبارة اخرى : ان المورد لا يكون مورد تعبد شرعي مختص به فان ما انزل الله تعالى عليه هو من الاحكام المستقلة العقلية التي يقبله الطبع المستقيم فيكون مع كل احد وان الرسول الكريم هو واسطة الفيض .

الثالث : ذكرنا ان اتيان هيئة الجمع في قوله تعالى : « ابنائنا ـ ونسائنا ـ وانفسنا » لا تدل على لزوم تعدد الافراد في كل عنوان من العناوين الواردة في الآية الشريفة بل المقصود هو جعل هذا الجمع مقابل ذلك الجمع وان القضية ليست من قبيل القضايا الخارجية التي يطلب فيها وجود الافراد وتعددها بل هي من قبيل القضايا الحقيقية سواء تعددت الافراد اولا وقد ذكرنا الوجه في إدراج الابناء والنساء مع شخص الرسول الامين (صلى الله عليه وآله) مع ان المباهلة انما كانت بينه وبين النصارى .

الرابع : يدل قوله تعالى : « فنجعل لعنة الله على الكاذبين » على ان اللعنة موجودة ومقررة وامر مفروغ عنه لان بها يمتاز الحق عن الباطل ولذا كانت دعوة طلبها غير مردودة فالتعبير بـ (نجعل) كان ادل على المطلوب من غيره .

الخامس : تدل آية المباهلة على الفضل العظيم والمنزلة الكبرى ، والمنقبة العظمى لاهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) من وجوه عديدة :

منها : اختصاصهم باسم النفس والنساء والابناء للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) دون سائر الامة رجالاً ونساءً وابناءً .

ومنها : دلالة الآيـــة الشريفة على ان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) شركاء معه في الدعوة والدعاء والصدق مقابل الطرف الآخر الذين وصفوا بالكذب كما عرفت في التفسير .

ومنها : ان الدعوى لما كانت مختصة بالرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وقائمة به وقد عرض نفسه الاقدس للبلاء واللعن والطرد والعذاب على تقدير الكذب ولا يتعدى إلى غيره لو لم يكن معه شخص ولكن اتيانه (صلى الله عليه وآله) بمن كان معه يدل على انهم في المنزلة كنفسه الشريفة وانحصار مَن هو قائم بدعواه من الابناء والنساء والانفس بمن أتى بهم ، وغـــير ذلك من الوجوه المستفادة من لحن الآية الشريفة وسياقها الدالين على فضل اهل البيت ومنزلتهم .

ونوقش في الاستدلال على ذلك بوجوه :

الاول : ان احضار الرسول (صلى الله عليه وآله) بمن أحضرهم انما كان على سبيل الا نموذج لان جميع الامة من غير اختصاص بأحد تعتقد بأن الله واحد لا شريك له وان عيسى بن مريم (عليه السلام) عبده ورسوله في مقابل النصارى الذين يعتقدون بخلاف ذلك فكانت المقابلة بين دعويين بلا فرق بين رجال كل طرف وابنائهم ونسائهم فان الجميع في ذلك سواء ، فلا يكون لمن احضره الرسول (صلى الله عليه وآله) فضل على غيره .

وفيه : أولا : ان الامر لو كان كذلك لكان في إحضار رجل واحد أو امرأة واحدة أو غيرهما الكفاية،ولم يحتج الى احضار رجل وأمرأة وابنين إلا لأن فيهم سراً الهياً لم يكن في غيرهم .

وثانياً : ان الدعوة في عيسى بن مريم كانت قائمة بالرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) كما يستفاد من الآيات السابقة وأما سائر الامة

الذين اتبعوه فلم يكن للنصارى الذين وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهم ارتباط ونسبة فيكون اتيان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاهل بيته ليس الا انهم كانوا مشتركين في الدعوة والدعاء.

الثاني: ان الآية المباركة لا تدل على اكثر من ان إتيان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاهل بيته في المباهلة كان لاجل وثوقه بالسلامة والعافية واستجابة دعائه واما انهم كانوا شركاء في الدعوة وغيرها فهي بمعزل عن ذلك .

وفيه : ان الآية الشريفة بمجموعها - كما عرفت - تدل على ان كل طرف من طرفي الدعوة في المباهلة شركاء في الدعوة وهي إما صادقة أو كاذبة ولذا احجمت صاحبة الدعوة الكاذبة عن المباهلة لما علمت صدق الطرف الآخر .

الثالث : ان الامر لو كان كذلك - وكانت الآية المباركة تدل على فضلهم وكرامتهم - لاشتركوا مع الرسول في النبوة لان الدعوة التي كانت مختصة به انما كانت كذلك لان الله اوحى اليه .

وفيه ان الاشتراك في الدعوة لا يستلزم اشتراكهم في النبوة فانهما غير الدعوة بل هي من شؤنها ولوازمها .

الرابع : ان الآية الشريفة تأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) ان يدعو المحاجين والمجادلين في عيسى من اهل الكتاب إلى الاجتماع رجالاً ونساءً واطفالاً ، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساءً واطفالاً ويبتهلوا إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب ، ولا تدل الآية الشريفة على اجتماع الفريقين في مكان واحد بحيث يشتمل على النساء والاولاد والانفس مع ان الآيـة المباركة نزلت في النصارى ولم يكن معهم نساؤهم ولا اولادهم

وفيه : ان ما ذكر خلاف ظاهر الآية الشريفة فانها تدل على دعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى اجتماع المتخاصمين والمجادلين من الفريقين إلى المباهلة مع الاولاد والنساء والانفس فكأنه قد جمع اهل بيته مع وفد النصارى الموجودين حين الابتهال واما ان النصارى لم يكن معهم الاولاد والنساء فهذا مطلب آخر وقد ذكرنا ان المفهوم من الآية المباركة شيء والمصداق شيء والخلط بينهما اوجب الالتباس .

السادس : ذكرنا ان الآيات الشريفة والاستعمال الفصيح يدلان على صحة استعمال النساء في البنات ، ولكن استبعد بعض المفسرين ذلك وذكر في معرض كلامه : « ان كلمة نسائنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته لاسيما إذا كان له ازواج ولا يفهم هذا من لغتهم » .

والمناقشة في ما ذكره واضحة بعد الاحاطة بما ذكرناه في تفسير الآية الشريفة والشواهد القرآنية والشعر العربي الفصيح تدلان على صحة استعمال الكلمة في البنات ولم يستشكل احد من فرسان البلاغة والفصاحة على القرآن الكريم في استعماله هذا لاسيما إذا كان قصد المتكلم الاحتشام من التصريح بابنته ، مع ان الروايات الكثيرة المتواترة التي تدل على ان المراد من النساء ابنته (صلى الله عليه وآله) فاطمة الزهراء (عليها السلام) كافية في رده . وأحسب ان الامر اوضح من ان يخفى إلا ان يراد عدم صحة استعمال الجمع في الواحد . ولكنه مردود بما ذكرناه من ان الآية المباركة تدل على استعمال الجمع مقابل الجمع من دون النظر إلى الافراد . والاشتباه انما حصل من خلط المفهوم بالمصداق .

السابع : انما ذكر سبحانه وتعالى النساء مع ان بناء القرآن على الكناية عنهن والتحفظ عليهن مهما امكن لامور :

منها : الاعلام باشتراك النساء في امور الدين اصولاً وفروعاً إلا ما خرج بالدليل .

ومنها : الاهتمام بالدين والاعتناء بشريعة سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) .

ومنها : جعلهن في سياق المتدينين بتعلمهن الاعمال الصالحة وتلبسهن بالمعارف الحقة . وغير ذلك من المصالح .

الثامن : انما اخر سبحانه وتعالى « انفسنا » وذكرها بعد تفدية الابناء والنساء لبيان اهمية المباهلة والتفدية لله جلت عظمته لاثبات الحق واظهاره بتفدية جميع العلائق حتى علاقة الاهل .

التاسع : ان كلمة « انفسنا » تدل على شمولها لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) تنزيلاً له منزلة نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا لأجل ان الداعي لابد ان يكون غير المدعو كما ذكره بعض المفسرين بل لان وجود علي (عليه السلام) في الاثر والمزايا والفضيلة والصفات بمنزلة وجود رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاسيما إذا كان التنزيل بأمر من الله تعالى ولم يوجد احد غير علي (عليه السلام) يكون واجداً لتلك المزايا التي تؤهله لهذه المنحة الالهية ويكون كنفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا يمكن ان يكون احد نفس شخص آخر إلا إذا كان مشتملاً على مزايا كبيرة يكون ثانياً في مزاياه أو الوجود المكرر له في الخصال ونحوها .

ويستفاد من الآية المباركة المنزلة الجليلة والمنقبة العظمى لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وهذا ما يستفاد من سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالنسبة إلى علي (عليه السلام) في مواطن كثيرة تكون مبينة لمعنى « انفسنا » في هذه الآية المباركة ومع ذلك

فقد اشكل على دلالة الآية الشريفة بوجوه :

الاول : ان المراد بالانفس في الآية المباركة ممّن يتصل بالقرابة والقومية واستشهد لذلك بقوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » البقرة ـ ٥٤ وقوله تعالى : « ولا تخرجون انفسكم من دياركم» البقرة ـ ٨٤ وقوله تعالى : « هؤلاء تقتلون انفسكم » البقرة ـ ٨٥ .

وفيه : ان اطلاق الانفس باعتبار رابطة القرابة والقومية صحيح ولابأس به ولكن هذا الاستعمال في الآية الشريفة بعيد فان جعل الانفس مقابل الاقرباء مثل النساء والابناء لا يراد منها إلا المعنى الحقيقي الواقعي والادعائي التنزيلي ونظير ذلك في القرآن كثير قال تعالى : « الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة » الشورى ـ ٤٥ وقال تعالى : « قوا انفسكم واهليكم ناراً » التحريم ـ ٦ .

الثاني : إن المراد من النفس القريب وقد عبر عن علي (عليه السلام) بالنفس لما كان له (ع) اتصال بالنبي (صلى الله عليه وآله) في النسب والمصاهرة واتحاد في الدين .

وفيه : ان التنظير لو كان في القرابة فقط لما كان في علي (عليه السلام) خصوصية فان العباس عم الرسول واولاده وبني هاشم كانوا من قرابته (صلى الله عليه وآله) ومن المسلمين والمهاجرين .

مع انا ذكرنا انه ليس المراد من هذه الكلمة على (عليه السلام) بل المراد انه بمنزلة الرسول (صلى الله عليه وآله) ولذا لم يأت في مقام الامتثال غير علي (عليه السلام) وانه المصداق الوحيد لانفسنا فلعل الاشتباه نشأ من الخلط بين المفهوم والمصداق .

الثالث : انه لو كانت الآية الشريفة دالة على المساواة بين علي (عليه السلام) وبين النبي (صلى الله عليه وآله) لزم كون علي (عليه السلام)

نبياً . وانه أفضل من الانبياء والمرسلين (عليهم السلام) .

وفيه : انه لا ملازمة بين كون علي (عليه السلام) نفس الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين مشاركته في النبوة ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك ، واما افضلية علي (عليه السلام) من الانبياء والمرسلين فهي ثابتة مستفادة من قوله تعالى : « اني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهـــدي الظالمين » البقرة ـ ١٢٤ وادلة اخرى تقدم بعضها ويأتي بعضها الاخرى .

العاشر : الآية الشريفة تدل على صحة نبوة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بل هي من اجلاها وقد اعترف الخصم بها بإباءهم عن المباهلة لما دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) اليها واحجموا عنها ورضوا بالجزية .

الحادي عشر : يدل قوله تعالى : « ان هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله » على الحد الفاصل في كل من دعوى الالوهية ودعوى الشرك أو الحلول فانه قصر الالوهية في الله عزوجل المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال وقد وردت هذه الجملة الشريفة في نفي التثليث في قوله تعالى : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله اله واحد » النساء ـ ١٧١ وفي قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله إلا اله واحد » المائدة ـ ٧٣ ويحمل على المعنى الاعم من نفي الشرك في الذات أو المعبودية أو الصفات حملاً لظاهر اللفظ على اطلاقه ، وحينئذ لا فرق بين ان يكون القصر قصر افراد أو غيره .

الثاني عشر : يدل قوله تعالى : « العزيز الحكيم » على وجـــه انحصار الالوهية فيه عزوجل ولعله في خلق عيسى (عليه السلام)

من غير أب فهو الحكيم المتقن في صنعه العليم بما فعله ، العزيز الذي لا يمنعه احد ولا يغلبه فهو الاله الذي لا نظير له وليس كمثله شيء .

الثالث عشر : يدل قوله تعالى : « فان الله عليم بالمفسدين » على ان كل من امتنع عن قبول الحق فهو من المفسدين والله تعالى عليم بحالهم ويجزيهم في الحال والمآل .

بحث روائي

اتفقت الروايات المتواترة على ان آية المباهلة نزلت في وفد نصارى نجران الذين هم من اشرافهم وفيهم السيد والعاقب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المدينة المنورة في السنة التاسعة أوالعاشرة من الهجرة ومع رسول الله (صلى الله عليه وآله) اهل بيته وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم الصلاة والسلام) وقد روي خبر المباهلة عن اكثر من خمسين طريقاً من الصحابة مذكورة في كتب أحاديث الجمهور وغيرهم .

ففي تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) : : ان نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان سيدهم الاهتم ، والعاقب ، والسيد . . . إلى ان قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فباهلوني فان كنت صادقاً انزلت اللعنة عليكم وان كنت كاذباً انزلت عليّ . فقالوا: انصفت فتواعدوا للمباهلة فلما رجعوا إلى منازلهم قال: رؤساؤهم السيد والاهتم : ان باهلنا بقومه باهلناه فانه ليس نبياً ، وان باهلنا باهل بيته خاصة لم نباهله فانه لا يقدم إلى اهل بيته إلا وهو صادق فلما اصبحوا جاؤوا إلى رسول الله

(صلى الله عليه وآله) ومعه أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فقال النصارى مَن هؤلاء ؟ فقيل لهم : هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب وهذا ابنته فاطمة وهذا ابناه الحسن والحسين فتفرقوا فقالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) على الجزية وانصرفوا » .

اقول : دلالة هذا الحديث على فضل اهل البيت مما لا ينكر .

وفي تفسير العياشي باسناده عن حريز عن أبي عبدالله (عليه‌السلام) قال : « ان أمير المؤمنين (عليه السلام) سئل عن فضائله فذكر بعضها ، ثم قالوا له زدنا فقال : ان رسول الله (صلى الله‌عليه‌وآله) أتاه حبران من احبار النصارى من اهل نجران فتكلما في امر عيسى (عليه السلام) فانزل الله هـذه الآية : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم » فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة (عليهم السلام) ثم خرج ورفع كفه إلى السماء وفرّج بين اصابعه ودعاهم إلى المباهلة قال : وقال أبو جعفر (عليه السلام) وكذلك المباهلة يشبك يده في يده يرفعهما إلى السماء فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه : والله لئن كان نبياً لنهلكن وان كان غير نبي كفانا قومه فكفا وانصرفا » .

اقول : تقدم في بحث الدعاء انه على اقسام منها التبهل كما ورد في هذه الرواية .

وفي العيون باسناده إلى موسى بن جعفر (عليهما السلام) في حديث له مع الرشيد قال له الرشيد . كيف قلتم إنا ذرية النبي (صلى الله عليه وآله) والنبي لم يعقب وانما العقب للذكر لا للانثى وانتم ولـد

البنت ولا يكون له عقب فقلت له : اسأله بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما اعفاني عن هذه المسألة فقال : تخبرني بحجتكم فيه ياولد علي وانت ياموسى يعسوبهم وامام زمانهم ، كذا أنهي الي ، ولست أعفيك في كل ما اسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله ، وانتم تدعون معشر ولد علي على انه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو إلا تأويله عندكم واحتججتم بقوله عزوجل : « ما فرضنا في الكتاب من شيء » وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم فقلت تأذن لي في الجواب ؟ فقال : هات قلت اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس مَن أبو عيسى ياأمير المؤمنين ؟ فقال : ليس له اب فقلت : إنما الحقه بذراري الانبياء من طريق مريم ، وكذلك الحقنا الله تعالى بذراري النبي من امنا فاطمة ، ازيدك يا أمير المؤمنين ؟ قال هات قلت قول الله عزوجل : فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . ولم يدع احد انه ادخل النبي (صلى الله عليه وآله) تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فكان تأويل قوله ابنائنا الحسن والحسين ونسائنا فاطمة وانفسنا علي بن أبي طالب » .

اقول : تقدم ما يتعلق بهذه الرواية في التفسير .

وفي سؤالات المأمون عن الرضا (عليه السلام) قال المأمون : « ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب ؟ قال (عليه السلام) آية انفسنا قال : لولا نسائنا قال : لولا ابنائنا » .

اقول : هذا اشكال وجواب بالمعارضة فان قوله (عليه السلام) « آية انفسنا » يعني جعل نفس علي (عليه السلام) بمنزلة نفسه (صلى الله عليه وآله) وقول المأمون « لولا نسائنا » فانها صريحة في الاختلاف فتكون كذلك انفسنا فاجاب (عليه السلام) : « لولا ابنائنا » فنزل ابناء على منزلة ابناء نفسه (صلى الله عليه وآله) وهكذا يكون في علي (عليه السلام) .

واخرج حديث المباهلة الشيخ المفيد في اختصاصه باسناده عن محمد بن الزبرقاني عن موسى بن جعفر (عليه السلام) ورواه أيضاً محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده .

واخرجه الشيخ في اماليه باسناده عن عامر بن سعد عن أبيه وباسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن الصادق (عليه السلام) ، وباسناده عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) ورواه عن أبي ذر ان علياً احتج بذلك يوم الشورى .

ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن سعيد الاردني عن موسى بن الرضا عن أخيه (عليه السلام) ، ورواه أيضاً عن أبي جعفر الاحول عن الصادق (عليه السلام) ورواه أيضاً عن المنذر عن علي (عليه السلام) ورواه أيضاً باسناده عن عامر بن سعد .

ورواه في روضة الواعظين واعلام الورى والخرائج ، والفرات في تفسيره معنعناً عن أبي جعفر (عليه السلام) وأبي رافع ، والشعبي وعلي (عليه السلام) وشهر بن حوشب .

اما عن طريق الجمهور فقد روى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : « أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال : ما يمنعك ان تسب أبا تراب ؟ قال اما ما ذكرت ثلاثاً قالهن

رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلن اسبه ، لان يكون لي واحد منهن احب الي من حمر النعم ، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي؟ وسمعته يقول يوم خيبر : لاعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال : فتطاولنا لها فقال : ادعوا لي علياً فأتى به ارمد العين فبصق في عينيه ودفع الراية اليه ففتح الله على يده . ولما نزلت هذه الآية : قل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل » دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء اهل بيتي » .

وروى مثله الترمذي ، والحاكم ، وابن المنذر ، والبيهقي عن سعد أيضاً والحمويني في فرائد السمطين وأبو المؤيد الموفق بن احمد في كتاب فضائل علي .

اقول : امثال هذه الروايات عن طرقهم كثيرة .

وفي حلية الاولياء لأبي نعيم باسناده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : « لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء اهل بيتي » .

اقول : تبين هذه الرواية معنى آية المباهلة .

وفي تفسير الثعلبي عن مجاهد والكلبي : « ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما دعاهم إلى المباهلة قالوا نرجع وننظر فلما تخالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ قالوا : يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال والله لقد عرفتم يامعشر النصارى ان محمداً نبي مرسل ولقد جائكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان ابيتم الاالف دينكم والاقامة على ما انتم

عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فاتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد غدا محتضناً بالحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول : إذا انا دعوت فأمنّوا فقال اسقف نجران : يامعشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله ان يزيل جبلاً من مكانه لازاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصراني إلى يوم القيامة ، فقالوا: ياأبا القاسم رأينا ان لا نباهلك وان نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال : فاذا ابيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا قال : فأني اناجزكم فقالوا : مالنا بحرب العرب من طاقة ولكن نصالحك على ان لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدي اليك كل عام الفي حلة: الف في صفر والف في رجب وثلاثين درعاً من حديد فصالحهم على ذلك وقال (صلى الله عليه وآله) : والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على اهل نجران ولو لاعنوا لمسخو قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران واهله حتى الطير على رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا » .

وروى قريباً منه في المغازي عن أبي اسحاق ، والمالكي في الفصول المهمة ، والحموي عن ابن جريح .

اقول : ان صفر في السنة العربية القديمة كان يشمل فترة من الزمن تتضمن شهرين احدهما المحرم وكان يسمى بالصفر الاول أيضاً .

وفي حلية الاولياء لأبي نعيم باسناده عن الشعبي عن جابر قال : « قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) العاقب والطيب فدعاهما إلى الاسلام فقالا : اسلمنا يامحمد ، فقـال كذبتما إن شئتما اخبرتكما ما يمنعكما من الاسلام فقالا : فهات الينا قال : حب الصليب وشرب

الخمر، وأكل لحم الخنزير قال جابر فدعاهما إلى المباهلة فواعداه إلى ان يأتياه بالغداة ، فغدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة فارسل اليهما فابيا ان يجيباه واقرا له فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً فقال جابر : فيهم نزلت « ندع ابنائنا وابنائكم » قال جابر : انفسنا وانفسكم رسول الله وعلي وابنائنا الحسن والحسين ونسائنا فاطمة .

ورواه ابن المغازلي في مناقبه عن الشعبي عن جابر والحمويني في فرائد السمطين عن جابر أيضاً ، ورواه المالكي في الفصول المهمة مرسلا عنه وعن أبي داود الطيالسي عن شعبة الشعبي مرسلا أيضاً. وفي الدر المنثور عن الحاكم وصححه ، وعن ابن مردويه وأبى نعيم في الدلائل عن جابر .

وفي الدر المنثور اخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده : « ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كتب إلى اهل نجران قبل ان ينزل عليه طسم سليمان : بسم الله اله ابراهيم واسحق ويعقوب اما بعد فاني ادعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فان ابيتم فالجزية وان ابيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام . فلما قرأ الاسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً ، فبعث إلى رجل من اهل نجران يقال له : شرحبيل بن وداعة فدفع اليه كتاب النبي (صلى الله عليه وآله) فقرأه فقال له الاسقف ما رأيك ؟ فقال شرحبيل قد علمت ما وعد الله ابراهيم في ذرية اسماعيل من النبوة فما يؤمن ان يكون هذا الرجل ليس لي في النبوة راي ، ولو كان رأي من امر الدنيا اشرت عليك

فيه أو جهدت لك ، فبعث الاسقف إلى واحد بعد واحد من اهل نجران فكلمهم قالوا مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على ان يبعثوا شرحبيل بن وداعة وعبدالله بن شرحبيل وجبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى بن مريم ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال في عيسى صبح الغد فانزل الله تعالى هذه الآية « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب إلى قوله تعالى ـ فنجعل لعنة الله على الكاذبين » فأبوا ان يقروا بذلك فلما اصبح رسول الله الغد بعدما اخبرهم الخبر اقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي خلف ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبه اني ارى امراً مقبلاً ان كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الارض منا شعر ولا ظفر الاهلك فقالا له . انت وذلك ، فتلقى شرحبيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال : اني رأيت خيراً من ملاعنتك قال وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز ، فرجع رسول الله (ص) ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية » .

اقول : الحديث لم يتعرض لذكر علي (عليه السلام) لاجل الاكتفاء بذكر الابناء والزوجة عن ذكر الزوج أو لاجل معلومية كونه فيهم .

والذي يتحصل مما تقدم ان المستفاد من جميع الروايات التي رواها الجمهور والخاصة ان القدر المشترك بينها هو ان رسول الله (صلى الله

عليه وآله) دعـا علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) ليباهل بهم نصارى نجران وهذا القدر هو المتواتر بينهم إلا ان بعض المفسرين ناقش في تلك الروايات فقال : « انها متفقة على ان النبي (صلى الله عليه وآله) اختار للمباهلة علياً وفاطمة وولديهما، ويحملون كلمة نسائنا على فاطمة ، وكلمة انفسنا على علي فقط . ومصادر هذه الروايات الشيعة ، ومقصدهم منها معروف وقـد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من اهل السنة » . ثم ذكر بعض الايرادات وقد ذكرنا جملة منها واجبنا عنها .

وانت بعدما ذكرنا شطراً من الروايات التي نقلت عن طرق الجمهور يتضح لك فساد ما ذكره فانها بلغت مبلغاً لا يمكن انكارها وقد ذكرها بعض ارباب الصحاح كمسلم والترمذي في صحيحيهما وبعض اهل التاريخ كالطبري وابو الفداء وابن كثير وجمع غفير من المفسرين واهل الحديث وقـد نقلوا جميعاً تلك الاحاديث عن الصحابة امثال سعد بن أبي وقاص وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وعليا اليشكري وجد سلمة وغيرهم من الصحابة وكثير من التابعين امثال الشعبي ، والحسن ، والسدي ، والكلبي ، ومقاتل ، وابن صالح ، فهل هؤلاء كانوا من الشيعة وارادوا ترويج مذهبهم ؟ ! ! أو انهم دسوها في كتب السنة وهل هذه التهمة كانت مختصة بهذه الاحاديث أو تسري في كثير من السنة ؟ ! ! إذن لا يبقى اعتماد عليهـا فتبطل ولا تكون حجة ، ولا يبقى للدين اساس وهذا ما لا يرتضيه احد .

بحث كلامي

ذكرنا أن المباهلة نوع من الدعاء والابتهال والتضرع والتبتل إلى الله تعالى لاثبات حق علم به وهي عادة جارية بين الناس في جميع الملل والاقوام ممن يعتقد بوجود عالم الغيب وراء هذا العالم المادي فتكون نظير صلاة الاستسقاء أو الاستخارة ونحوهما .

والمستفاد من الآيات الشريفة وماورد في شأنها من السنة المقدسة انها تتقوم بأمرين :

الاول : ثبوت حق علم بانه حق قد سبق الاعلام بـه بالحجة والبيان وبعد اليأس عن الفائدة فيهما يرجع بالدعاء واللعان واللجوء إلى الأمر الغيبي الذي يعترف به الخصمان وهذا يدل عليه قوله تعالى: « فمن حاجك فيه » اي في الحق المعلوم .

الثاني : وجود الرابط بين عالم الغيب وعالم المادة إما في شخص الرسول أو من يقوم مقامه علماً وعملاً أو حالة الانكسار والخضوع والتضرع التي تكون رابطة حالية فاذا تحقق هذان الامران تجوز المباهلة لاثبات الحق بالتماس من عالم الغيب ، فلا تختص المباهلة بمورد خاص وقد ورد في السنة الشريفة ما يدل على التعميم ففي الكافي عن أبي مسترق عن الصادق (عليه السلام) : « قلت له انا نكلم الناس فنحتج عليهم بقول الله عزوجل « إطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم» فيقولون نزلت في امراء السرايا فنحتج عليهم بقوله عزوجل : « انما وليكم الله ورسوله »فيقولون في المؤمنين ونحتج عليهم بقول اللهعزوجل « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » فيقولون نزلت في قربى

المسلمين قال : فلم ادع شيئاً مما حضرني ذكره من هذا وشبهه إلا ذكرته فقال (ع) لي: إذا كان كذلك فادعهم إلى المباهلة قلت كيف اصنع ؟ قال (ع) : اصلح نفسك ثلاثاً واظنه انه قال : وصم واغتسل وابرز إلى الجبان فشبك اصابعك من يدك اليمنى في اصابعه ثم انصفه وابدء بنفسك وقل : « اللهم رب السماوات السبع ورب الارضين السبع عالم الغيب والشهادة الرحمان الرحيم » ان كان أبو مسترق جحد حقاً وادعى باطلاً فانزل عليه حسباناً من السماء أو عذاباً اليماً ثم رد الدعوة عليه فقل : وان كان فلان جحد حقاً أو ادعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً من السماء أو عذاباً اليماً ثم قال (ع) لي فانك لا تلبث ان ترى ذلك فيه ـ الحديث ـ » وقريب منه غيره .

وفي الدر المنثور عن علباء بن أحمر اليشكري قال : « لما نزلت هذه الآية « قل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل » ارسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى علي وفاطمة وابنيها الحسن والحسين ودعا اليهود ليلاعنهم فقال شاب من اليهود : ويحكم اليس عهدتم بالامس اخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير ؟ لا تلاعنوا فانتهوا » وهذه الرواية تدل على تعدد المباهلة.

وللمباهلة آداب خاصة مذكورة في أبواب الدعاء ولا ريب في تقومها بمَن يقوم به الاحتجاج واظهار الحق وهو في المقام نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) . وحيث انها تدل على الملاعنة والهلاك يكون احضار من يريده صاحب الحق اولى في الاحتجاج واثبت للمدعى واقطع لدعوى الخصم ، ولان الاجتماع في الدعاء والتأمين عليه مرغوب اليه كثيراً في السنة المقدسة .

بحث عرفاني

مظاهر تجليات الحق جل جلاله في عالم الشهادة لاحد لها ولا حصر عميت عين لا تراها وخسرت صفقة عبد ليس له فيها نصيب ، ومن اعظم تجلياته عزوجل إستجابة دعوات المحرومين واغاثـة الملهوفين والتنفيس عن كربات المكروبين .

ومنها : المباهلة التي يتحقق فيها الارتباط بين عالم الغيب وعالم الشهادة بل انها من اشد انحاء الارتباط واشرفها لا يمكن تحديده بحد ولا توصيفه بوصف بل لا يعقل الاحاطة به لأحد الا العلام الغيوب والمطلع على السر المحجوب ، وهي الكرامات الصادرة من الاولياء والمعجزات المتحققة من الانبياء لاسيما إذا لاحظنا ذلك بعد قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » الانفال ـ ١٧ .

وتتجلى عظمة المباهلة انها لاقامة الحق ودحض الباطل وإبقاء الشريعة الختمية والنور المحمدي وفيها يتحد الداعي والمدعو فان الله هو الذي باهل الكفار .

والمباهلة وان كانت في الظاهر فيها العذاب للكفار ولكنهـا في الواقع تكون لحفظ النظام وابقاء سلسلة الاسباب والمسببات بين الانام .

وفي المباهلة الاحمدية تجلت العنايات الخاصة من الحضرت الاحدية وقد جمعت في هذه المباهلة انوار كلها واسطة الفيض ظهرت فيهم عظمة الباري وعنايته وفيها قابل الحق المحض مع الباطل كذلك .

وفدّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسه الشريفة واهل بيته فيها دون إقامة الحق واظهاره واماتة الباطل .

ولم يتعرض للمال لأنه لا شيء اغلى من النفس ولا قيمة له في مقابل تفديتها ، مع أن المفدى اجل واكرم من ان يفدي بشي آخر لا قيمة له بل يعد من متاع الغرور . وتكون هـذه المباهلة تعليماً لكل مرشد قام بين الناس داعياً للحق وناصراً له ، فلابد من خلوص النية وصفاء السريرة ليستعد بذلك لتجلى الله جل جلاله وفي الحديث « اتقوا دعوة المظلوم فانها تخرق الحجب السبع » .

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

بعد ما بين سبحانه وتعالى الحق في عيسى بن مريم وانه عبد الله ورسوله إلى بني اسرائيل وان مولده ـ على غرابته وتفرده ـ امر عادي

بالنسبة إلى قدرة الخالق ومشيئته . ونفى عنه الالوهية واقام الحجة تلو الحجة على جميع ذلك وامرهم بالايمان والاعراض عن كل ما يخالف ذلك ، فانتهى بامره تعالى لنبيه بطلب المباهلة مع المنكرين الجاحدين.

أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الشريفه نبيه إلى دعوة اخرى لاهل الكتاب عامة لاسيما النصارى منهم وهي الدعوة إلى التوحيد وتأمرهم بالاتحاد ونبذ النفاق والتعرض لرد المسلمين عن هذه العقيدة والكلمة الفاصلة الحقة .

ودعاهم إلى الحق الذي يجب اتباعه بمقتضى الفطرة وهو الذي اجتمع عليه جميع الكتب السماوية والرسالات الالهية وهو عبادة الاله الواحد ونبذ الشرك والاعراض عن الاحتجاج العقيم المفضي إلى الاختلاف والتفرقة ، فالنداء يقرب النفوس المستعدة إلى اقصى الكمالات الانسانية ويهديها إلى الالطاف الربوبية .

ثم بين تعالى كلمة الفصل في ابراهيم الذي يعتقد به جميع الاديان السماوية واعترفت الامم بالولاية له على دينها والامام المفترض طاعته وقد بين القرآن الكريم ان اقرب الناس اليه هو الرسول الكريم ومن يتبعه في العلم والعمل وان جميعهم تحت ولايته عزوجل ورعايته .

التفسير

قوله تعالى : قل يااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء.

الخطاب صدر عن حقيقة العقل المجرد وقرره وحي السماء من ذروة العرش الامجد إلى الرسول الكريم خاتم الانبياء لانه واسطة الفيض وانه جامع الشمل ، ومجمع كل فضل وفضيلة ، والاحرى لغيره اتباعه في ما يدعو اليه .

وتعال اسم فعل ومعناه هلمّ ، كما مر في الآيات السابقة .

والكلمة في المقام كناية عن الاجتماع والاتحاد في العمل بمقتضى مدلول الكلمة ومعناها والاذعان بها ونظير ذلك شايع في الألسنة يقال: اتفقت كلمة القوم على كذا . اي : اتحدوا واجتمعوا على امر .

وسواء : يأتي إما مصدراً بمعنى متساوية أو بمعنى الوصف اي العدل والتساوي . والنظام الاحسن في الدارين يتقوم بالسواء والاستواء في الحق وبالحق ، وبهما تفتح أبواب البركات بانواع الخيرات ، ويتجلى حينئذ حقيقة الوحدانية المطلقة في العابد والمعبود فلا معبود غير الله ولا اله سواه وتضمحل الكثرة والكلمات ويبقى النور الواحد المطلق في جميع الاقوال والافعال والمعتقدات والمراد من الكلمة هنا الكلمة المساوية بيننا وبينكم في الاعتقاد والعمل .

وكيف كان فاما ان يكون المراد من الكلمة هي كلمة التوحيد التي اتفقت الكتب الالهية القرآن والانجيل والتوراة على الدعوة اليها فيكون قوله تعالى : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ـ الآية ـ » تفسيراً لهذه الكلمة المتفق عليها بما يزيل كل غموض وابهام ، ويكون لازمه هو الاعراض عما في ايديهم من الشرك والتثليث والاتحاد والحلول وجميع ما لعبت به اهواءهم من التفسير غير المرضي للكلمة .

واما ان يكون المراد بها معنى الكلمة والاعتقاد الحق والعمل بمعناها فيكون توصيفها بالسواء من باب الوصف بحال المتعلق لان الدعوة انما تكون إلى معنى الكلمة لانفسها ، ويدل عليه قوله تعالى: « فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » فان الاسلام هو التوحيد العملي وترك عبادة غير الله تعالى عملاً .

ولكن الذي يهون الخطب ان القرآن لا يدعو إلى التوحيد القولي والاعتقاد وحده من دون ان يتم ذلك بالعمل ، كما انه لم يأمر به

إلا باعتبار كونه طريقاً إلى العمل وموجباً إلى الخضوع والتسليم لامر الله تعالى ، قال عزوجل : « ان الدين عند الله الاسلام » آل عمران ـ ١٩ ، وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية الشريفة ان الدين الذييكون منهاجاً للانسان في الحياة الدنيـا هو التسليم لله والخضوع له والعمل الصالح ، وحينئذ لا فرق بين ارجاع السواء إلى نفس الكلمة فتكون توصيفاً لنفسها أو ارجاعه إلى معنى الكلمة فيكون التوصيف توصيفاً بحال المتعلق .

وعلى أي تقدير ففي الآية المباركة روعة الاسلوب وتتضمن من النكات البلاغية ولطائف العنايات ما لا يخفى .

والآية تدعو الضمير الانساني وتخاطبه بخطاب رقيق لطيف وتدعوه إلى الرجوع إلى الفطرة والعمل بمقتضاها ونبذ الفرقة والاختلاف ، وتطلب منـه ان لا يصده عن هذا الهدف السامي اختلاف الاهواء وتشعب الفرق .

قوله تعالى : بيننا وبينكم .

اي : نكون نحن وانتم متساوين في الكلمة وحيث ان التساوي من الامور الاضافية المتقومة بين الطرفين عبر سبحانه وتعالى بقوله : « بيننا وبينكم » لنبذ التفرقة والاختلاف .

قوله تعالى : ان لا نعبد الا الله .

بيان للكلمة السواء التي هي الحد الفاصل لكل ما يقال في معنى الكلمة التي تلاعبت به اهواء المضلين وزيغ المفسدين المبطلين . وهو الذي اتفقت عليه جميع الكتب الالهية .

والجملة تدعو إلى نبذ عبادة غير الله تعالى وأن لا يخضع العبد لغيره

عزوجل ويلازمه انحصار العبادة فيه عزوجل . كما أنها تشتمل على الحكم وعلته فانها تقرران الاله الذي تنحصر العبادة فيه لابد ان يكون مستجمعاً لجميع صفات الكمال ومنشاء لـكل كمال في غيره ، وهو ينحصر في الله تعالى فالواجب عبادته والخضوع لديه وتسليم الامر اليه لا الخضوع إلى غيره الذي هو قرين الحاجة والفقر بذاته . وهذا هو الامر الفطري الذي يدعو اليه الانبياء وجميع المرسلين ، وقد أكد ذلك القرآن في عدة آيات ، وقد ذكرنا ما يتعلق به في تفسير قوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفو فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » البقرة - ٢١٣ .

فالآية الشريفة مضافاً إلى انها تدل على حصر الالوهية فيه عزوجل تشير إلى ما تقدم من الامر الفطري الذي كان هو غرض الانبياء في بعثهم ولذلك كانت عقيدة التوحيد تحريراً للبشرية كلها ، وقد اتفق عليها هدف الانبياء كلهم .

قوله تعالى : ولا نشرك به شيئاً .

النكرة في سياق النفي تدل على العموم اي نبذ كل انواع الشرك في الالوهية ، والعبودية ، والخلق ، والفعل ، بل كل ما ينسب اليه في الالوهية فتدل على نفي التثليث ، والاتحاد ، والحلول فلا يقال لشيء مطلقا انه إله .

والجملة تفيد التأكيد لما تضمنته الآيـــة السابقة ، ونفى الشرك

الحاصل من الاعتقاد بغير الله تعالى ، لان الجملة الاولى تفيد نفي الشرك في العبادة وهذا غير كاف في قطع الشرك الحاصل من اعتقاد النبوة والايمان بالرسل والنبيين وتوهم الحلول والتثليث ونحو ذلك .

كما انها تدل على الخلوص في العبادة والاعتقاد ، فان الاعتقاد بعبادة الله تعالى لا يصير العبادة خالصة ما لم يطرح كل رأي واعتقاد فيه شائبة الشرك ويؤكد ذلك النهي عن اتخاذ الارباب من دون الله كما في الآية التالية .

قوله تعالى : ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله

الارباب جمع الرب ، ومن دون الله اي من غير الله .

والآية المباركة في مقام بيان السبب في النهي عن اتخاذ الشريك لله تعالى . وهي تفيد التوحيد الفعلي ، لان الله تعالى هو الرب يفعل ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد بعدله لا مبدل لحكمه ، وان العالم وجميع ما فيه مخلوق له عزوجل ومربوب له لا يمكن ان يخضع إلا لواحد له من الكمال والجلال ما لا يوجد لغيره . فالربوبية من خصائص الالوهية والشرك لا يجامعها بوجه من الوجوه .

فالآية الشريفة تنفي إطاعة الانسان لمثله في التشريع والتصرفات من دون معارضة فان ذلك من اتخاذ الرب من دون الله لا يقدم عليه من يعترف بالربوبية لله تعالى ويسلّم امره اليه عزوجل . وهي عامة تشمل انحاء الاتخاذ كما تشمل البعض جميع انواعه واقسامه بأي عنوان كان من الاعتبارات الموهومة في الربوبية أو الاطاعة في الاحكام والتشريع والتصرف في الابدان من دون معارضة وانعكاس ويشير إلى بعض ذلك قوله تعالى في موضع آخر « اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً

من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله إلا هو سبحانه عما يشركون » التوبة ـ ٢١ وهو يختص بالاطاعة في معصيةالله تعالىوتشريع الاحكام والتسلط على الابدان والأموالوالاعراض.

وفي التعبير بالبعض إشارة إلى انهم من افراد البشر ومن جنسنا وان الفقر والحاجة يلازمانه فلا ينبغي إطاعتهم من دون الله المستجمع لجميع صفات الكمال ، ومن هو مربوب في ذاته كيف يكون رباً لمثله والخطاب عقلي قرره الله تعالى .

كما ان في قوله تعالى : « من دون الله » إعلاماً بان كل ما يتوهمه الانسان في ذلك هو في مرتبة نازلة وموهومة لا حقيقة لها ولا يمكن ان تجتمع مع الاعتراف بالربوبية لله تعالى .

ومن ذلك يعرف ان الخطاب يصلح ان يكون لليهود والنصارى والمشركين وان كان للنصارى الحظ الاوفر من هذه الموهوماتوالكل منهي عنه .

والآية الشريفة تبين حقيقة من الحقائق الاجتماعية وهي ان افراد الانسان أبعاض متساوية في جميع شؤون الحياة وانهم في الغرائز الانسانية والطبيعة النوعية على حد سواء وان كل ما يوجب الخروج عن هذه الحقيقة باطل في نظر الاسلام الامافضلالله تعالى به بعضهم على بعض وفي غير ذلك منهي عنه لانه تغيير لناموس الفطرة وهدم لكيان الانسانية وضياع للهدف السامي الذي خلق لاجله الانسان وهو التعاون في سبيل نيل الكمال والتزود من الفضائل والاخلاق الحسنه ، وان الشعور بالتساوي يستدعي الحياة الهنيئة والترابط الوثيق بين افراد المجتمع والتعاون الأكيد بينهم وبه تنحل كثير من المشكلات وتزول الصعاب وهذا ما تؤكده آيات كثيرة في القرآن الكريم .

قوله تعالى : فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون.

اي فان اعرضوا عن الحق وما تدعو اليه الفطرة المستقيمة في التوحيد وما اتفقت عليه الكتب والرسل فقد لزمتهم الحجة والحق أوضح من ان تقام عليه الحجة وانما كان اعراضهم عناداً ولجاجساً « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلمساً وعلواً » النمل - ١٤ ولذا امر سبحانه وتعالى نبيــه والمؤمنين باظهار ايمانهم وانهم على الدين الحق المرضي عند الله تعالى وهو الاسلام الذي هو ملازم للتوحيد في العبادة والفعل .

والشهادة منهم بانهم مسلمون انما تكون في قولهم وعملهم في التوحيد فتكون تثبيتا لمقامهم واعترافاً منهم بالحق .

وفي الآية الشريفة تعريض لهم بانهم على غير الحق وان المسلمين لا يبالون بأباطيل غيرهم مهما كلفهم الامر .

قوله تعالى . ياأهل الكتاب لِمَ تحاجون في ابراهيم .

خطاب لليهود والنصارى معاً . والجملة مقول القول في الآيــة السابقة ، وهذه الآيات التي تليها مسوقة لبيان الدين الحق والدعوة إلى الاسلام الذي له جذور من حين ابراهيم الخليل (عليه السلام) .

والمحاجة في ابراهيم من اهل الكتاب هي ادعاء اهل كل دين انه كان منهم وعلى دينهم وتعصب كل طائفة على ذلك فزعمت اليهود انه كان يهودياً والنصارى انه كان نصرانياً وقد وقع بسبب ذلك النزاع بينهم واكذبهم الله تعالى في عدة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى: « ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءانتم اعلم أم الله » البقرة - ١٤٠ .

قوله تعالى : وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده .

احتجاج على اهل الكتاب بأن التوراة والانجيل نزلتا بعد ابراهيم فلا ريب ان اليهودية والنصرانية انما حدثتا بعد نزولها . وفي إتيان نزول التوراة والانجيل في الاحتجاج لبيان انه لو كان ابراهيم (عليه السلام) من احدى الطائفتين لكان كتاب كل طائفة يشير إلى ذلك وهذا لم يتحقق فلا يمكن ان يكون ابراهيم منهم .

قولة تعالى : أفلا تعقلون .

اي : افلا تعقلون دحوض دعواكم وبطلانها وان المتقدم لا يكون تابعاً للمتأخر ، والتعبير بذلك انما هو لبيان ان الامر يكفي فيه ادنى تنبيه.

وفي الآية الشريفة تجهيل لهم واعـــلام لهم بان الحق في ابراهيم (عليه السلام) وانه كان على الدين الحنيف مسلماً لله عزوجل كما نبه عليه عزوجل في الآيات اللاحقة .

قوله تعالى : ها انتم هؤلاء حاججتم في مالـكم به علم .

تثبيت لتكذيبهم واظهار لجولهم ، وانما أتى سبحانه باسم الاشارة إما للتحقير والتنقيص ، أو لبيان ان الخطاب والتوبيخ انما يكون اليكم وفي انفسكم دون اسلافكم ، أو لأن المحاجة كانت بينهم وفي انفسهم لا بينهم وبين المسلمين وإلا كان المسلمون طرفاً في المحاجة الباطلة .

والمعنى : انكم حاججتم وتنازعتم في امور معلومة البطلان لديكم بالوجدان : منها : ما حكاه عزوجل آنفاً عنهم وهو محاجتهم في كون ابراهيم (عليه السلام) يهودياً أو نصرانياً مع علمهم بانه على الدين الحق وان المتقدم لا يكون تابعاً للمتأخر بل هو منبعث عن الاول وقد غالوا

في هذه الامور وتشبثوا بحجج هي اوهن من بيت العنكبوت :

ومنها : انهم كانوا يتنازعون في عيسى (عليه السلام) فكانت النصارى تحاج اليهود في بعثه أو نبوته أو انه الله أو ابنه أو ثالث ثلاثة ، وكانت اليهود تحاج النصارى فيه فتبطل نبوته والوهيته والجميع يعلمون بانه مخلوق من مريم ورسول ارسله الله تعالى إلى بني اسرائيل.

قوله تعالى : فلم تحاجون في ما ليس لكم به علم .

الاستفهام توبيخي يعني : فلِمَ تتنازعون وتحاجون في امور لا تعلمون بها وتغالطون فيها والواجب عليكم اتباع الوحي المبين ومتابعة سيد المرسلين .

وقد اختلف المفسرون في تعيين الذي لهم به علم وجمهورهم انه امر ابراهيم المتنازع في كونه يهودياً أو نصرانياً إلا ان ذلك أمر واضح لا يجهله احد منهم ويعلمون ان ابراهيم (عليه السلام) كان متقدماً عليهم ولا يمكن ان يكون تابعاً للمتأخر كما ذكرنا ولذا عقب سبحانه وتعالى بعد تكذيبهم في ذلك بقوله « افلا تعقلون » الدال على تقبيحهم في هذا الإمر المعلوم .

وذكر بعض المفسرين ان المراد من عدم علمهم بأمر ابراهيم هو عدم علمهم بأن دين الله واحد وهو الاسلام وان اليهودية والنصرانية والاسلام شعب من ذلك الدين الحق وانها تتدرج في سلم الكمال ، واليهود والنصارى جهلت ان ابراهيم هو المؤسس لهذا الدين الحق ، والاصل لا ينسب إلى فرعه بل الامر بالعكس .

وفيه : ان ما ذكره يرجع إلى ما تقدم الذي عرفت المناقشة فيه، مع ان كون ابراهيم (عليه السلام) هو المؤسس للدين امر مسلّم

عند الجميع ، بل هو معروف عند الاديان الثلاثة ، إلا ان النزاع يرجع إلى ان اليهود تدعى ان الدين الحق هو اليهودية فقط وان ابراهيم يهودي ، والنصارى تدعي ان الدين الحق هو النصرانية وان ابراهيم هو الذي اسسها . فالنزاع بينهم في تعيين الدين الذي اسسه ابراهيم لا في كونه المؤسس للدين الحق وانه لا يجهله احد منهم .

والحق ان يقال : ان ما كان يجهله اليهود والنصارى هو ادعاء اليهود الالوهية في بعض انبيائهم كما زعموا في عزير ابن الله وادعاء النصارى في عيسى ابن الله أو هو إلاله أو التثليث ، وقد جهلوا جميعاً ان المخلوق المربوب لا يمكن ان يكون إلهاً وان الله تعالى هو الاله الواحد الأحد .

مع ان الآية الشريفة تدل على امر أبعد من ذلك وهو ان التشبث بامور معلومة لا تجعل المستحيلات اموراً ممكنة بالمغالطة فجميع ما زعموه مغالطة بين الحق الواقعي والوهم الاعتقادي وهم بمعزل عن الواقع مع تشبثهم بهذه الاوهام .

قوله تعالى : والله يعلم وانتم لا تعلمون .

تأكيد لنفي العلم عنهم اي : والله يعلم الحق واهله وما انتم عليه من تلبيس الحق بالباطل ومغالطتكم فيه وانتم لا تعلمون شيئاً ولستم بأهل لان يعلمكم الله تعالى شيئاً لجحودكم وضلالكم .

والآية الشريفة دليل على ان كل علم ما لم ينته إلى العلوم التي اودعها الله تعالى في الفطرة أو ما أوحاه إلى انبيائه لم يكن منتجاً بل لا يكون إلا من المغالطات والاوهام كما اثبته اكابر الفلاسفة .

قوله تعالى : ماكان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً .

بيان للبرهان المقرر سابقاً في شأن ابراهيم (عليه السلام) وان التوراة والانجيل نزلتا بعده وتنزيــه من الله تعالى له من كل افتراء عليه فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما كان يدعيه كل فرقة منهما لانه لا يقول بامر يمس بجلال الله تعالى وعظمته ولا يحد قدرته عزوجل ولا ينسب اليه ما لايليق به كما تقوله اليهود ولا يقول بالتثليث والوهية البشر كما عليه النصارى المبتعدين عن التوحيد الخالص الذي هو دين ابراهيم (عليه السلام) فالامر هنا امر عقايد لا امر نسب وصلة .

قوله تعالى : ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .

مادة حنف تدل على الميل إلى الحق وحيث ان الحق فيه تعالى فيكون الميل إلى التوحيد حينئذ ويلازمه نفي كل خلاف الحق والتوحيد من الشرك والضلال فكانت عقيدة ابراهيم (عليه السلام) مائلة عن الشرك ومتمحضة في التوحيد الخالص الذي ينفي كل شرك وضلال كما عليه محمد (صلى الله عليه وآله) .

ويقابلها مادة (جنف) الدالة على الميل إلى الباطل . وقد كان عرب الجاهلية يدعون انفسهم بالحنفاء لانهم تبعوا ابراهيم في بعض شرايعه كالختان والحج . وكان اهل الكتاب يسمونهم بالحنفية الوثنية .

والمراد بالاسلام في المقام هو التسليم لله تعالى والانقياد لطاعتــه والخضوع لربوبيته وليس المراد من الاسلام الدين الذي جاء به محمد ابن عبدالله (صلى الله عليه وآله) فانه حادث بعد ابراهيم بعدة قرون وتابع له لقوله تعالى : « واتبع ملة ابراهيم حنيفاً » النساء ـ ١٢٥ وقد تقدم في قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » آل عمران

ـ ١٩ بعض الكلام .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ابراهيم (عليه السلام) بأوصاف ثلاثة كل واحد منها يدل على بطلان ما تدعيــه اليهود والنصارى والوثنية المشركة ، ففي توصيفه بكونه حنيفاً لاجل كونه تاركاً لكل العقائد الزائفة ومائلاً إلى التوحيد الحق كما تقدم ، وفي توصيفه بكونه مسلماً لبيان انه منقاد للحق وداخل في طاعة الله تعالى مخلص له خاضع لوجهه الكريم ، وفي توصيفه بكونه لم يكن من المشركين للاعلام بانه لم يكن من عبدة الاصنام ولا من الحنفية الوثنية كما كانت عليه عرب الجاهلية ، وفيه التعريض بأنهم مشركون فتكون الجملة تأكيداً لما تضمنه الكلام السابق ، كما ان فيه التنبيه على أن الحنفية المصطلحة بين عبدة الاوثان لم تكن مرادة بل المراد هي الحنفية الحقة التي جاء بها ابراهيم .

ويستفاد من الآية الشريفة ان ابراهيم (عليه السلام) الذي اتفق على اجلاله واكرامه جميع الاديان انما هو المرضي لله تعالى والمستسلم لامره لم يكن على ملة احد منهم ، وبهذا الاعتبار صار موضع احترام واجلال جميع الاديان بل يعتبر اصلها ومؤسسها .

قوله تعالى : ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه .

اولى افعل التفضيل من وليه يليه ولياً وهو بمعنى اقرب . اي : اقرب الناس إلى ابراهيم في الدخول في ولايته من كان متبعاً له ، فاذا كانت نسبة بين احد وبين هذا النبي العظيم المبجل فانما هي نسبة المتابعة له في حق وموافقته في الدين الذي جاء به ، ومن استحق هذه الاولوية من المتقدمين من أجاب دعوته واهتدى بهديه واتبعــه على

الحنيفية واسلافه من الانبياء السابقين والموحدين الصالحين .

وفي الآية المباركة التعريض لاهل الكتاب بأنهم لم يتبعوه فليسوا اولى بابراهيم (عليه السلام) فكيف يكون منهم .

قوله تعالى : وهذا النبي والذين آمنوا .

اي : ومن المتأخرين هذا النبي والمؤمنين به فان دينه على الحق، وانه من أكبر الداعين إلى الحنيفية التي دعى اليها ابراهيم (عليه السلام) بل ان دينهما واحد .

وفي إفراد النبي والمؤمنين به عن الذين اتبعوه تجليل لهذا النبي العظيم وصون له من ان يطلق عليه الاتباع . هذا إذا جعلنا قوله تعالى: « وهذا النبي » جملة معطوفة على الضمير المفعول .

وقيل : الجملة معطوفة على الموصول قبله فيكون من عطف الخاص على العام .

وقيل : انه معطوف على ابراهيم فتكون الجملة مجرورة . والمعنى ان اولى الناس بابراهيم وهذا النبي للذين اتبعوه . واعترض عليه أنه ينبغي أن يثنى ضمير (اتبعوه) . ولكن اجيب بانه نظير قوله تعالى: « والله ورسوله أحق ان يرضوه » التوبة ـ ٦٢ .

والحق أن الاعتراض ساقط ، لأن الضمير المنصوب في قوله تعالى: « اتبعوه » يرجع إلى خصوص ابراهيم (عليه السلام) . وكون نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) مقصوداً أيضاً في واقع المراد ، لا يوجب تثنية الضمير في ظاهر اللفظ ، مضافاً إلى انه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي . فالصحيح ما ذكرناه ، وهو الموافق لادب القرآن في خاتم الانبياء والمرسلين مثل قوله تعالى : « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » الانعام ـ ٩٠ ولم يقل عز وجل فبهم اقتده .

قوله تعالى : والله ولي المؤمنين .

اي : مَن دخل في ولاية ابراهيم (عليه السلام) دخل في ولاية الله تعالى والله ولي المؤمنين ينصرهم بالحسنى ويصلح شؤونهم دون غيرهم من الكافرين المشركين .

وفيه ايماء إلى أن اهل الكتاب خارجون عن ولايته سبحانه وتعالى وان ادعوا الايمان بالله جلت عظمته .

بحوث المقام

بحث أدبي :

كلمة سواء في قوله تعالى : « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء » تأتي مصدراً ، وتأتي بمعنى الوصف اي متساوي الطرفين والعدل ، وتقرأ ممدودة إذا فتح السين ومقصورة إذا كسر السين أو ضم . وهي نعت للكلمة مستوية أو متساوية ، فتكون مجرورة ويمكن أن تكون منصوبة على المصدر .

ولِمَ في قوله تعالى : « لِمَ تحاجون في ابراهيم » اصله (لما) حذفت الالف فرقاً بين الاستفهام والخبر .

وها في قوله تعالى : « ها انتم هؤلاء » حرف تنبيه ، أطرد دخوله على المبتدأ إذا كان خبره إسم الاشارة و « انتم هؤلاء » قيل : مبتدأ وخبر على أن يكون هؤلاء بمعنى الذين وما بعده صلة له وقيل : انتم مبتدأ وهؤلاء منادى حذف منه حرف النـــداء وجملة « حاججتم » خبر .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور :

الاول : يدل قوله تعالى : « كلمة سواء » على ان الكلمة من اساسيات كتب اهل الكتاب واوليات العقل وانها من البديهيات ، فتدل بالملازمة على انها من الامور التي يجب العمل بها عقلاً وشرعاً .

الثاني : ان قوله تعالى : « ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً » بيان للكلمة السواء ـ كما عرفت ـ ويبين علة الحكم بالرجوع إلى الكلمة السواء وهي كون الله معبوداً واحداً لا شريك له في ذلك فلابد من الاجتماع على عبادته وأن لا يتخذ دونه معبود آخر ولا يجوز لاحد ان يخضع إلا لواحد له من الكمال والعظمة والكبرياء ما لا يوجد في غيره ، وان وحدة النظام في العالم تقتضي ان يكون المعبود واحداً كما ان خالقه واحد .

الثالث : يدل قوله تعالى : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً » على نفي الولاية لاحد على احد إلا ما يمنحها الله تعالى لعبد من عباده وان افراد الانسان أبعاض من حقيقة واحدة .

كما ان الآية الشريفة تدل على نفي ربوبية غير الله تعالى ، وأن لا رب سواه ، وأن الربوبية الحقيقية من خصائص الالوهية .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « فلِمَ تحاجون في ما ليس لكم به علم » أن الاحتجاج المنتج لابد أن يكون عن علم صحيح مطابق للواقع .

الخامس : يدل قوله تعالى : « أفلا تعقلون » على ان الاوهام الباطلة والمغالطات توجب عزل الفكر عن الواقع وبُعـد الانسان عن الحق .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » ان المناط في كل دين وملة هو الخضوع والطاعة لله تعالى ونبذ الشرك بكل انحائه وبهذا الاعتبار لم يكن ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً لكونهما مشتملين على الشرك .

السابع : إنما قال سبحانه وتعالى : « والله ولي المؤمنين » . ولم يقل : (والله وليهم) ايماءً إلى ان الإيمان هو العلة في ولايته تعالى لعباده المؤمنين ، للقاعدة المعروفة بين الادباء : ان تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعلية .

الثامن : يستفاد من قوله تعالى : « ها انتم هؤلاء حاججتم في مالكم به علم فلم تحاجون في ما ليس لكم به علم » الفرق والاختلاف بين الواقع والاعتقاد وأنهما أمران قد يتطابقان وقد يختلفان ، ومن ذلك جاء الاختلاف والتنازع في العلوم والمعارف الانسانية ، وأساس المغالطات على هذا الاختلاف ، وهو يدور مدار قلة التأمل والتفكر وكثرتهما . ولذا ورد في القرآن الكريم والسنة المقدسة الترغيب الكبير إلى التفكر والتعقل ، ولعل من اسرار ذلك رفع التنازع والاختلاف بين الناس ولو وفق فرد لتمييز الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع عن غيره لارتفع النزاع وقلّ التشاجر والتناحر بين الانام ، لكن الخلاف والاختلاف غريزة لا يمكن رفعها ، ولا دفعها .

بحث روائي

روى محمد بن الحسن الشيباني عن جعفر بن محمد (عليه السلام) في قوله تعالى : قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ـ الآية ـ قال (عليه السلام) : « إن الكلمة السواء ههنا هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن عيسى عبد الله وانه مخلوق كآدم » .

أقول : يستفاد من الحديث أن الكلمة السواء هي الدعوة إلى التوحيد ، ونبذ الشرك ، فتكون الدعوة عامة بالنسبة إلى اهل الكتاب وغيرهم ، وفي كل وقت .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ـ الآية ـ أخرج ابن جرير عن السُدّي : دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفد نجران ، فقال : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ـ الآية ـ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس عن أبي سفيان في حديث ـ يذكر فيه كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى هرقل عظيم الروم ، قال أبو سفيان : ثم دعا ـ يعني هرقل ـ بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقرأه فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك

مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الإريسين ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله . . . . واشهدوا بأنا مسلمون ـ الحديث ـ . .

ورواه مسلم في صحيحه أيضاً ، ورواه السيوطي في الدر المنثور عن النسائي ، وعبد الرزاق ، وابن أبي حاتم عن إبن عباس .

وفي بعض الروايات أن كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى مقوقس عظيم القبط يشتمل أيضاً على قوله تعالى : « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » . وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن ابن عباس : أن كتاب رسول الله إلى الكفار تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ـ الآية ـ .

أقول : البحث في هذه الأحاديث من جهتين : ـ

الأولى : أن كتب رسول الله (صلى الله عليه وآله) المشتملة على قوله تعالى : « تعالوا إلى كلمة سواء » إلى من ذكر في الروايات كعظماء الروم ، والقبط ، وفارس ليس من جهة الاختصاص بهم ، بل هي دعوة التوحيد ونبذ الشرك ، فيشمل كل من لم يكن على التوحيد حتى المشركين . كما أنها بحسب معنى الدعوة إلى التوحيد لا تختص بزمان دون زمان فان الدعوة عامة وابدية .

الجهة الثانية : اتفق أرباب التواريخ أن إرسال رسول الله (صلى الله عليه وآله) الرسل والكتب إلى الملوك والرؤساء كان في السنة السادسة من الهجرة ، ويلزم ذلك أن هذه الآية الشريفة ـ قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ـ نزلت في تلك السنة أو قريبا منها ، لأن الكتب كانت مشتملة على هذه الآية الشريفة .

ولكن اختلف أهل التاريخ في وفد نصارى نجران ، فمنهم من قال

أنهم وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في السنه العاشرة من الهجرة ، ومنهم من قال : بأنهم وفدوا سنة تسع من الهجرة، ويلزم من ذلك الاختلاف في وقت نزول الآية الشريفة .

ويمكن القول بأن الإعتبار يشهد بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد كتب إلى نصارى نجران أيضاً في السنة التي كتب إلى الملوك والرؤساء ، لأنهم كانوا اقرب اليه من غيرهم . فيكون ما ذكره المفسرون في شأن نزول هذه الآية الشريفة من باب الجريان والتطبيق ويمكن أن تكون الوفود متعددة فتارة وفدوا في سنة ست ، وأخرى في سنة تسع أو عشر من الهجرة .

بقي شيء وهو أن البيهقي نقل في الدلائل : أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان : بسم الله إله ابراهيم وإسحق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران إن إسلمتم فاني احمد اليكم الله إله ابراهيم وإسحق ويعقوب أما بعد فاني ادعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وإلى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام ـ الحديث ـ .

وأشكل عليه أولاً : بأن الكتاب لم يتصدر ببسم الله الرحمن الرحيم بخلاف سائر كتبه (صلى الله عليه وآله) .

ويمكن الجواب عنه : بأنه ربما يكون الكتاب إلى نجران متعدداً أو انما فعل ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاجل التودد والمجاراة معهم .

وثانياً : أن سورة النمل مكية نزلت قبل هجرة النبي ، وكيف يجتمع مع قصة نجران .

وفيه : بأن النزول له مراتب والمراد به في المقام قبل ظهورها

بين الناس وانتشاره . أو كان الكتاب اليهم قبل هجرته (صلى الله عليه وآله) لقرب دار نجران منه .

وثالثاً : انه يشتمل على أمور لا يمكن توجيهها ، كحديث الجزيه والايذان بالحرب وغير ذلك . وفيه : أن ذلك كان في مرحلة الانشاء بداعي الترهيب دون الفعلية .

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ـ الآية قال : « قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لا يهودياً يصلي إلى المغرب ، ولا نصرانياً يصلي إلى المشرق ، لكن كان حنيفاً مسلماً على دين محمد (صلى الله عليه وآله).

أقول : المراد من قوله (عليه السلام) : لا يصلي إلى المغرب.. ولا يصلي إلى المشرق . هو لزومه حد الوسط وعدم الانحراف عنه ويلزم ذلك انحراف الطائفتين عن الحق .

وأما قوله (عليه السلام) : كان ابراهيم على دين محمد . أي ما يتخذه محمداً (صلى الله عليه وآله) ديناً لأمته ، وهو عبارة أخرى عن الدين الذي أوحاه الله تعالى إلى ابراهيم ، وأمر تعالى محمداً أن يتبعه ، فيصح أن يقال أن ابراهيم على دين محمد (صلى الله عليه وآله) حيث انه شارح لملة ابراهيم ، كما يصح أن يقال : أن محمداً على دين ابراهيم ، أي أن اصول دين محمد متخذة من ملة ابراهيم .

وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام) : « خالصاً مخلصاً ليس فيه شيء من عبادة الاوثان » .

اقول : هذا هو معنى الوسط الذي قلناه وانه لم يكن منحرفاً عنه ولو بشيء يسير ، وأن دين غيره لا يخلو عن الشرك . وفي المحاسن عن عبد الله بن سليمان الصيرفي في قوله تعالى : أن أولى الناس بابراهيم

للذين اتبعوه ـ الآية ـ قال : « سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : أنتم والله على دين ابراهيم ومنهاجه ، وانتم أولى الناس به ».

أقول : وردت في مضمون ذلك عدة روايات . والمراد بكونهم على دين ابراهيم لأنهم يبينون حقيقة دين ابراهيم علماً وعملاً ، فلا محالة يكون أولى الناس بـه من يكون تابعاً لمن يشرح ملة ابراهيم قولاً وعملاً .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) : «هم الأئمة ومن اتبعهم » .

اقول : تقدم ما يتعلق بذلك .

وفي المجمع في قوله تعالى أيضاً : « قال أمير المؤمنين (عليه‌السلام) « أن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ، ثم تلا هذه الآية . وقال : إن وليّ محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته ، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قرُبت لحمته » . وروى الزمخشري في ربيع الأبرار عن علي (عليه السلام) قريباً منه .

اقول : الروايات بهذا المضمون كثيرة جداً ، وهي موافقة للقواعد العقلية التي تحكم بأن المتابعة إنما تتحقق في العمل بما يبينه المتبوع لا بمجرد القول فقط ، وهذا الحديث يكون شارحاً لجملة من الأخبار الواردة في المقام .

بحث تاريخي

روى أهل السير والتواريخ حديث هجرة أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الحبشة وما لقوه من المتاعب والمصائب وما جرى بينهم وبين النجاشي ، وهذه الهجرة كانت أول احتكاك بين المسلمين وبين غيرهم ، وقد اظهرت ثبات المسلمين ، وسمو اخلاقهم ، وعلو حجتهم ، وستبقى هذه الهجرة الميمونة رمزاً للفداء والتضحية، ولابد للمسلمين أن يجعلوا هذه الهجرة محط انظارهم ويستفيدوا منها في تنظيم مجتمعهم والاحتكاك مع غيرهم ، ونحن ننقل هذه القصة لما تتضمن من الفوائد الجليلة ولتكون نوراً يهتدي به المسلمون في جهادهم وكفاحهم وبلائهم .

وليست هي من سبب النزول في هــذه الآيات المباركة المتقدمة وإن ذكرها المفسرون في المقام .

فقد روى الواقدي في أسباب النزول ، والخازن في تفسيره وغيرهما عن الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، ورواه محمد بن اسحاق عن ابن شهاب ، قال : لما هاجر جعفر بن أبي طالب واناس من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبي (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة ، وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش في دار الندوة ، وقالوا : إن لنا في الذين عند النجاشي من اصحاب محمد ثأراً ممن قتل منكم ببدر فأجمعوا مالاً وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع اليكم من عنده من قومكم، ولينتدب

اليه رجلان من ذوي رأيكم . فبعثوا عمرو بن العاص ، وعمارة بن أبي معيط ومعهم الهدايا : الإدم وغيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه ، وقالا له : إن قومنا لك ناصحون شاكرون ، ولاصحابك محبّون ، وأنهم بعثونا اليك لنحذر هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب ، خرج يزعم أنه رسول الله ، ولم يتابعه أحد منّا إلا السفهاء ، وإنا كنا قد ضيّقنا عليهم الأمر ، والجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد فقتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتدّ عليه الأمر بعث اليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعهم الينا لنكفيكم ، قال: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ، ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك .

قال : فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله تعالى ، فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه ، ففعل جعفر ، فقال النجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو إلى صاحبه ، فقال : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك ؟ فساءهما ذلك .

ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له ، فقال عمرو بن العاص : ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟ فقال لهم النجاشي : ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق ؟ قالوا : نسجد لله الذي خلقك وملّكك ، وانما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الاوثان ، فبعث الله فينا نبياً صادقاً ، فأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام ، تحية أهل الجنة ، فعرف النجاشي أن ذلك حق ، وأنه في التوراة والانجيل ، قال : أيكم الهاتف : يستأذن

عليك حزب الله ؟ قال جعفر : أنا ، قال : انك ملك من ملوك الارض من أهل الكتاب ، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ، ولا الظلم ، وإنما أجيب عن أصحابي ، فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما، ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا ، فقال عمرو لجعفر : تكلّم .

فقال جعفر للنجاشي : سلْ هذين الرجلين ، أعبيد نحن أم احرار فان كنا عبيداً قد أبقنا من اربابنا فردنا عليهم . فقال النجاشي : أعبيدهم أم أحرار ؟ فقال : بل أحرار كرام ، فقال النجاشي : نجوا من العبودية ، فقال جعفر : سلهما ، هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا فقال عمرو : لا ولا قطرة ، قال جعفر : سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشيٰ : إن كان قنطاراً فعلي قضاؤها ، فقال عمرو : لا ولا قيراط ، فقال النجاشي : فما تطلبون منهم ؟ قال : كنا وإياهم على دين واحد ، على دين آبائنا فتركوا ذلك ، واتبعوا غيره ، فبعثنا قومنا لتدفعهم الينا . فقال النجاشي : ما هذا الذي كنتم عليه ، والدين الذي اتبعوه ؟ فقال جعفر : أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة ، وأما الذي تحولنا اليه فهو دين الله الاسلام جاءنا به من عند الله رسول بكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له ، فقال النجاشي : ياجعفر تكلمت بأمر عظيم .

ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب ، واجتمع اليه كل قسيس وراهب ، فلما اجتمعوا عنده ، قال النجاشي : أنشدكم بالله الذي انزل الانجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلاً ؟ قالوا : اللهم نعم قد بشرنا . فقال : من آمن به فقد آمن بي ، ومن كفر به فقد كفر بي ، فقال النجاشي لجعفر : ماذا يقول

لكم هذا الرجل ؟ وما يأمركم به ؟ ومـــا ينهاكم عنه : فقال يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف ، وينهانا عن المنكر ، ويأمرنا بحسن الجوار ، وصلة الرحم ، وبر اليتيم ، يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له فقال له : إقرأ عليّ مما يقرأ عليكم، فقرأ عليه سورة العنكبوت، والروم ، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع ، وقالوا : زدنـا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف ، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى وأمه ، فقال النجاشي فا تقولون في عيسى وأمـه ؟ فقرأ عليهم سورة مريم ، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين ، وقال : والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا .

ثم اقبل على جعفر وأصحابه فقال : اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ، يقول : آمنون مَن سبكم وآذاكم غرم . ثم قال : إبشروا ، ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم . فقال : عمرو : يانجاشي ومن حزب ابراهيم ؟ قال . هؤلاء الرهط ، وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ، ومن اتبعهم ، فانكر ذلك المشركون وادعوا دين ابراهيم .

ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه ، وقال : إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها ، فان الله ملكني ولم ياخذ مني رشوة قال جعفر : فانصرفنا فكنا في خير جوار ، وأنزل الله عز وجل في ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في خصومتهم في ابراهيم وهو في المدينة : إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين .

هذا هو حديث الهجرة الـــذي رواه الفريقان بطرق مختلفة ، ولابد من التأمل فيه والاستفادة منه في تكوين المجتمع الاسلامي

وفيه الدروس القيمة في كفاح المسلمين وبلائهم .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

بعد أن دعا عزوجل أهل الكتاب إلى الاسلام الذي كان عليه إبراهيم وسائر الانبياء العظام ، وسجل عليهم أفتراؤهم على ابراهيم بانه يهودي أو نصراني ، ورد عليهم حججهم في ذلك ، يبين سبحانه في هذه الآيات حالهم بالنسبة إلى الحق والمؤمنين به من الكذب والافتراء

والاضلال ، وما يضمرونه في انفسهم من العداوة بالنسبة إلى المسلمين وتثبت الآيات المتقدمة جملة من سجاياهم الفاسدة ، واخلاقهم الرذيلة وجهدهم في غواية المؤمنين واضلالهم والكيد بهم بكل وسيلة . وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالثبات ومتابعة هدى الله ، ووعدهم الحسنى والرحمة والفضل العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم .

الود هو المحبة ، ويأتي بمعنى التمني أيضاً إذا كان المحب مشتغلاً بمقدمات ما يحبه ، فيكون الود حينئذ اخصّ من التمني ، وجملة (لو يضلونكم) تفسير له . وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى . والطائفة الجماعة ، والمراد بها أهل الرأي والجاه من الرؤساء والأحبار والقسيسين فيكون (من) للجنس حينئذٍ .

وإضلال الكفار للمؤمنين هو صدهم عن الوصول إلى الكمال اللائق بهم بالغواية ، والتشكيك في الدين ، وإلقاء الشبهات وكل ما يوجب التزلزل في عقيدة المؤمنين ، والخروج عن ثباتهم ، وردّهم إلى الكفر.

والآية تثبت الضلالة لهم ، وحرصهم على الاضلال والغواية .

وانما ذكر سبحانه كلمة (لو) إشارةً إلى أن ودهم ومحبتهم في اضلال المؤمنين لا تجاوز نياتهم الفاسدة ولا يتحقق في الخارج .

قوله تعالى : وما يضلون إلا انفسهم وما يشعرون .

لأن حبهم لاضلال المؤمنين ، وصدهم عن الوصول إلى الكمال اللائق بهم لا يتحقق إلا بعد ضلالتهم واعراضهم عن الحق ، وبعدهم

عن الكمال الذي أعدّه الله تعالى لهم . وصرف انفسهم عن كسب الاخلاق الفاضلة ، والفضائل الانسانية التي من أهمها حب الخير والميل إلى الحق ، والتحبب إلى أهله ؛ وأن حرمانهم عن جميع ذلك والإشتغال بالاضلال والتوجه إلى الغواية صرف للنفس عن نيل الكمال والسعادة والهداية ، وهم لا يشعرون بذلك إذ أن قصدهم وهمّهم هو صدّ المؤمنين عن الإيمان والحق ، وقد استولى هذا الشرّ على نفوسهم فاوجب حرمانهم عن أهم الفضائل ومكارم الاخلاق . ومما ذكرناه يعرف وجه الحصر في الآية الشريفة .

ونفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم ، وحرمانهم عن الحقيقة الانسانية التي بها ميزّ الله تعالى الانسان عن غيره .

قوله تعالى : ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله .

الاستفهام إنكاري توبيخي ، والمراد بآيات الله الكمالات الانسانية والمعارف الحقة الآلهية ، والحقائق التي انزلت في الكتب السماوية مثل نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) ، والبشرى به ، وأن عيسى عبدالله ورسوله ، وان إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وأن الله واحد أحد لا شريك له وهو قادر على كل شيء ، وغني عن العالمين ، وغير ذلك من الحقائق التي قامت الدلائل الواضحة ، والبراهين القويمة عليها ، وأن انكارها والكفر بها بعد العلم بها يكون كفر جحود ومكابرة للحق ، وهما من اعظم انحاء الكفر وشناعته أكبر .

والكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى الذي يكون منشأه الإلتزام بالشرك ونفي التوحيد ، والأول إصطلاح قرآني يستعمل مع أهل الكتاب لانهم لا ينكرون الله تعالى .

وإن كان الكفر بآيات الله ، واحكامه المقدسة ، والمعارف الإلهية يستلزم الكفر به وعدم الايمان به واليوم الآخر ، ويدل عليه قوله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب » التوبة ـ ٢٩ . فانه يدل على أن الكفر باحكام الله تعالى ، وما جاء به الرسول الكريم وعدم الايمان بها يستلزم الكفر بالله واليوم الآخر .

ولكن الكفر قد يكون صريحاً معلوماً للكافر ، وقد يكون بالملازمة الخفية عليه بحيث لا يشعر به .

قوله تعالى : وأنتم تشهدون .

مبالغة في قبح كفرهم ، وتشنيع لفعلهم ، لان الكفر مع شهادة الآيات البينات على الوحدانية والرسالة ، لا يكون إلا عن جحود وفساد السريرة . والشهادة من الشهود بمعنى الحضور ، سواء كان بالحس أو بالوجدان .

والتعبير به لبيان أن علمهم انما هو من المشاهدة والحسّ .

قوله تعالى : ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل .

مادة (لبس) تدل على الستر والتغطية ، وسمي اللباس لباساً ، لانه يستر البدن ويغطيه . ولبس الحق بالباطل ستره وتغطيته بالباطل بالقاء الشبهات عليه وتمويهه وخلطه بالباطل .

والمراد بالحق الحقائق الواقعية ، والكمالات الانسانية والمعارف الالهية ، منها البشارة بنبوة النبي (صلى الله عليه وآله) ونزول

القرآن عليه وغير ذلك مما انزله الله تعالى على الانبياء السابقين وأخبروا به أممهم .

والاستفهام انكاري ، وفيه من التوبيخ لهم والتشنيع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : وتكتمون الحق .

كتمان الحق إما أن يكون بستره وعدم إظهاره ، أو بتحريف الكتاب وجعله قراطيس يبدون شيئا منها ويخفون الكثير . أو بتمويه الحق بالتأويلات الباطلة والاوهام الفاسدة ، والآراء المزيفة .

وقد بيّن سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم كتمان الحق الذي هو من أعظم الكبائر .

قوله تعالى : وانتم تعلمون .

أي وانتم تعلمون الحق وتعرفونه إلا إنكم تكفرون به وتكتمونه وفيه من التشنيع عليهم ، والتوبيخ لهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون .

الطائفة الجماعة من الناس . والمراد من أهل الكتاب هنا اليهود الذين عرفوا بالغدر والخيانة لأهل الإيمان . كما أن المراد بوجه النهار أوله في مقابل آخره ، وسمي وجهاً لأنه أول ما يواجه الانسان ويبدو

له بعد انقضاء الليل .

والآية تدل على أن طائفة من اليهود هي الآمرة لطائفة أخرى منها بالايمان أول النهار والكفر آخرى، مخادعة للمؤمنين أو كيداً بهم ، ومحاولة لاضلالهم عن الحق ، وبعث الشك والارتياب في نفوسهم والتشكيك في دينهم ، وهذا من أهم الاعمال العدوانية التي مارستها اليهود ضد المسلمين وله الأثر الكبير في النفوس ، ويعتبر من اعظم الحروب النفسية مع المسلمين أبان الدعوة الاسلامية .

وفي التعبير بـ«على الذين آمنوا » اشارة إلى ذلك ، فان قصدهم كان اضلال المؤمنين وحرمانهم من الثبات والاستقامة في الدين ، واعلان هذه الحرب معهم دون نفس القرآن والاسلام ، فان لهم بالنسبة اليهما شأناً آخر إما الكتمان أو التموية والخلط ونحو ذلك مما حكى الله تعالى عنهم آنفاً .

واختلف المفسرون في متعلق الظرف في قوله تعالى : « وجه النهار ... وآخره » . فالمشهور إن وجه النهار متعلق بجملة « آمنوا بالذي انزل » . وآخره متعلق بـ « واكفروا » . أي خادعوا المؤمنين بهذا النحو من الخديعة ، وهي الايمان الصوري بالقرآن والرسالة أول النهار ، والالتحاق بالمؤمنين في هذا الوقت ، ثم إظهار الكفر والارتداد آخره ، إيماء الى أن القرآن والاسلام عاريان عن الصدق والحقيقة ، وأن ما ورد من البشارات في كتبهم لا تنطبق على هذا الدين الجديد ورسوله الكريم ، وإيهاماً للمؤمنين بأن أهل الكتاب العالمين بهذا الدين لم يتحقق لهم صدق الرسول ، وحقانية الدين ، ولم يكن هو ذلك المبشر به ، فيرتاب المؤمنون في دينهم .

وقيل : ان الظرف متعلق بـ (أنزل) . أي آمنوا بالوحي النازل

على رسوله الكريم أول النهار الذي يوافق أهل الكتاب ، واكفروا بالوحي النازل عليه (صلى الله عليه وآله) آخر النهار الذي يخالف ما هم عليه ، فيكون الايمان والكفر متعلقين بشيء خاص ، وهو الوحي الموافق والمخالف . وحينئذ يكون من وضع الظرف موضع المظروف . وأيد ذلك ببعض الروايات .

وقيل : إن ذاك كان في شأن القبلة لما حولت الى الكعبة حيث ثقل ذلك على اليهود ، فأمر اشرافها جماعة منها بالصلاة الى القبلة ، الجديدة ، والإيمان بهذا التكليف الجديد أول النهار . والكفر آخره لعل المؤمنين يرجعون عنه .

والحق أن يقال : أن الآية لا غموض فيها ولا إجمال ، وهي تثبت هذه المكيدة لليهود التي صدرت عنهم مرات عديدة وبأساليب مختلفة وقد ذكرنا انها من الحرب النفسية التي شنتها ضد المسلمين ، وهي عامة تشمل جميع ما ذكر فلا وجه للتخصيص بشيء من ذلك .

ويحتمل أن يكون المراد من الآية الشريفة هو المعنى الكنائي أي المكر والخديعة بهذا النحو مع المسلمين فحينئذ لا يلاحظ المعنى المطابقي بل يكون من إحدى صغريات المعنى الكنائي ، كما هو معروف في علم الأدب . وحينئذ لا وجه لما ذكره المفسرون في الاختلاف في المتعلق .

قوله تعالى : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم .

غواية أخرى لأهل الكتاب وسبيل آخر من سبل اضلالهم . والجملة من اقوالهم التي أرادوا بها الكيد بالمسلمين .

والايمان يتعدى بالباء ـ وهو كثير ـ وقد يتعدى باللام فيفيد التصديق ، والثقة ، والركون ، قال تعالى : « ويؤمن للمؤمنين »

البراءة - ٦١ . فيكون تصديقاً خاصاً لا يكون في مطلق الايمان ، ويكون المراد من النهي هو عدم التصديق والركون إلى المؤمنين .

والمعنى وقالت طائفة من أهل الكتاب - وهم اليهود على ما عرفت - لطائفة أخرى منهم لا تثقوا بغيركم فتظهروا احاديثكم لأحد منهم وتلقون اليه السر الذي أودعه الله فيكم ، فيكون النهي نهياً عن افشاء ما عندكم من الحق ، وقد اخبرهم الله تعالى بظهور النبي (صلى الله عليه وآله) ، وجعل معجزته فيه ، وظهور الشواهد الكثيرة على صدقه .

وإنما نهوهم عن ذلك لما ذكره عزوجل في ما يأتي ، وهو لئلا يكون للمسلمين مثل ما عندهم من الحق ، أو تكون لهم الحجة .

وهذا هو كتمان الحق الذي عرفت به اليهود ، وانما قالوا ذلك تعصباً منهم في حصر الحق في انفسهم ، وحسداً منهم بأنهم أولى بالحق من غيرهم ، وكيداً بالمؤمنين .

وحينئذٍ فلا يختص هذا المكر باليهود فقط فكل من تعصب لنفسه وغلبت عليه العصبية يخفي الحق ولا يظهره لأحد من غير ملته ، فتشمله الآية الكريمة .

قوله تعالى : قل إن الهدى هدى الله .

جملة اعتراضية بين اقوال الكائدين جيء بها للتأكيد على عدم إضرار كيدهم بمن لطف به الله تعالى ، ولتثبيت إيمان المؤمنين ، والتعجيل في تقريعهم ، والاهتمام ببيان فساد ما ذهبوا اليه ، وتسفيهاً لآرائهم . والآية جواب عن جميع ما قالوه في الكيد بالمؤمنين وغوايتهم .

ونظير هذه الآية ما تقدم في سورة البقرة ، قال تعالى : « قل

إن هدى الله هو الهدى » البقرة - ١٢٠ إلا إن الفرق بينهما أن المقام من القضايا الحقيقية الكلية المنطقية على جميع الموارد ، وهناك من قبيل القضايا الخارجية باعتبار تغيير القبلة ، وانه كان من الله تعالى ، كما أن القبلة السابقة كانت كذلك ، وفي المقام يكون باعتبار اصل الدين اصولاً وفروعاً ، فيكون معنى قوله تعالى : « قل إن الهدى هدى الله » نظير قوله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » آل عمران - ١٩.

والمعنى إن الهدى الذي هو الغرض الاصلي من التشريعات السماوية وغاية سعي كل مؤمن انما هو هدى الله تعالى فقط الذي يحتاج اليه المؤمنون في جميع أمورهم دون ما اعتقده غيرهم ، والعقل حينئذ يحكم باتباع هدى الله ، والاعراض عن غيره فلا يضر بعد ذلك كتمان أهل الكتاب الحق أو اظهاره .

قوله تعالى : أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم .

عود إلى مقالتهم ، وبيان للسبب في نهيهم عن التصديق بغيرهم وافشاء السر ، أي لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يؤتى أحد من غيركم مثل أوتيتم من الحق فيعرفه فلا تنفع غواياتهم ومكائدهم وهذا يكون بحسب زعمهم الفاسد ، وهو السبب في كتمانهم للحق أيضاً .

وقيل : إن هذه الجملة متعلقة بالجملة السابقة التي أمر الله تعالى فيها رسوله بأن يقول لأهل الكتاب « إن الهدى هدى الله » . ويكون قوله تعالى : « قل إن الفضل بيد الله » تأكيداً لما أمر الله به أولاً فلا يكون في البين فصل بكلام أجنبي . وتفيد هذه الجملة الانكار لغيضهم وحسدهم ، وتكون جواباً عن خدعهم ، ولكن الأول هو الاولى .

قوله تعالى : أو يحاجوكم عند ربكم .

سبب آخر في كتمان الحق ، وقد بين سبحانه هذا الأمر في موضع آخر ، قال تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » البقرة - ٧٧ .

وربما يكون الأمران متلازمين فان إيتاء غير اليهود الحق يلازمه المحاجة عند ربهم .

وإنما قطع سبحانه هذا الأمر عن سابقه (بأو) لبيان استقلال كل واحد من هذين الأمرين في مكائدهم وغيضهم . أو يكون الترديد باعتبار اختلاف العوالم ، فان الأول في دار الدنيا ، والثاني يكون في عالم الآخرة .

قوله تعالى : قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ردّ لما زعموه ، وإبطال لحججهم في كتمانهم الحق . والفضل عبارة عما يؤتى زيادة عن أصل الاستحقاق ، وقد يطلق على أصل ما يؤتى ولو لم تكن زيادة . والمراد به المعنى الاعم من ذلك ، بناءاً على ما اثبته جمع من الفلاسفة والمتكلمين من أنه لا إستحقاق في البين أصلاً وانما يكون مطلق عطائه تبارك وتعالى فضلاً . ويراد به في المقام مطلق مواهبه وعطياته فتشمل اصل النبوة والرسالة ، وتفضيل بعض النبيين على بعض ، وما منحه الله تعالى لنبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) وأمته . فيكون مثل هذه الآية رداً على كل من زعم أن افعاله وحركاته وسعيه مؤثرة في إزالة الحق عن مقره ، أو تخصيصه لنفسه ، فان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده وفق الحكمة المتعالية ، لاسيما في الفضائل المعنوية التي لا يعلم خصوصياتها أحد إلا الله تعالى الذي بيده

الملك يمنحه من يشاء من عباده .

وما فضلّه الله تعالى اليهود ببعض النعم ، ومنحهم الملك والنبوة قال تعالى : « يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » البقرة - ٤٨ . لا يستلزم اختصاصهم بالفضل وحرمان غيرهم منه فان الملك والفضل بيد الله يعطيه من يشاء من خلقه ، ويمنعه عمن يشاء .

قوله تعالى : والله واسع عليم .

برهان قويم على بطلان مقالاتهم وحججهم في كتمان الحق. أي والله واسع في فضله ورحمته لا يحدّهما شيء إلا أن يكون التحديد في الموضوع والمفضل عليه ، عليم بخصوصيات فضله ، واستعداد الموضوع وقابليته وهذا من القواعد العقلية المسلمة المعروفة ، من أن الافاضات لابدأن تكون بقدر القابليات ، والله تعالى عليم بتلك القابليات لا يجهلها . والآية تدل على أن الفضل غير محدود بشي فلا يوصف بالقلة مطلقا فلا يلزم من اعطائه لأحد إنزوائه ومنعه عن آخر ، أو يحتاج إلى إلتماس مرجح لقلته وعدم وفائه للمجموع ، بل الحدّ انما يكون من ناحية الموضوع والمفضل عليه ، فتستفيض الموضوعات بقدر الاستعدادات وهو عليم بها .

فتكون الآية ردّاً على أقوالهم وافعالهم الفاسدة من تخصيص النعمة والفضل لانفسهم حسداً وبغياً ، كما أن الآية الشريفة ردّ واضح لمقالة اليهود التي حكاها عزوجل عنهم « قالوا يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوابل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » المائدة - ٦٤ .

قوله تعالى : يختص برحمته من يشاء .

لمّا اثبت سبحانه أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، واسع في إيتاء الفضل ، عليم بمواضعه . ذكر هنا أنه لم يمنعه أحد من ذلك ، ولا شيء يصرفه عن الرحمة بعباده فله أن يتصرف في ملكه بأي نحو أراد فيختص برحمته من يشاء منهم لعلمه بأهليته لها ، ولكن ليس كل أحد من عباده يستحق الفضل منه عزوجل ، فتكون الرحمة تحت إرادته ومشيته.

وإنما عدل سبحانه عن الفضل ، وذكر الرحمة هنا لبيان أن الأول من شعب رحمته ، وأوسعيتها من الفضل ، لقوله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » الاعراف ـ ١٥٦ . ويمكن أن تكون الرحمة استحقاقية بخلاف الفضل فانه ليس كذلك مطلقا .

وإنما اطلق سبحانه الرحمة لتشمل كل ما يكون دخيلاً في سعادة الانسان دنياً وآخرة أوهما معاً .

قوله تعالى : والله ذو الفضل العظيم .

تعليل لجميع ما تقدم ، فان عظمة الفضل تستلزم أن يكون واسعاً يشمل كل جهات الفضل ، وكل من يريده عزوجل وتتعلق به مشيته ويعلم بأهليته لهذه المنحة الربانية فيختص برحمته من يشاء من عباده ، ويعطيه ما هو اللائق بحاله . والفضل هنا يشمل الرحمة أيضاً .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على شدة الصراع بين الحق والباطل ، وكيد أهل الكتاب في اطفاء نور الله تعالى وستر الحق ، وقد توسلوا بجميع ما احتملوا تأثيره في اضلال المؤمنين وغوايتهم . وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات أصول مكرهم ، وبينها في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام :

الاول : كيدهم بالنسبة إلى أصل الإيمان والحق ، ويدل عليه قوله تعالى : « ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون » ، وقوله تعالى : « ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون » . وهما يدلان على أن كتمان الحق وتلبيسه بالباطل والكفر بآيات الله هي من عادتهم ، وقد بين سبحانه في مواضع متعددة من القرآن الكريم سبل هذه المكيدة والخديعة .

الثاني : خديعتهم بالنسبة إلى أهل الايمان والمؤمنين ، ويدل عليه قوله تعالى : « ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » ، وقوله تعالى : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » . وذكرنا أن هذه الخديعة من أهم ما أرادوا بها التأثير على نفسية المؤمنين وتذليلها ، والشك في إيمانهم .

الثالث : مكرهم بالنسبة إلى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ويدل عليه قوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ، ويدل

عليه ايضاً قوله تعالى : «ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون» أيضاً ، فقد كذبوا الآيات الباهرات التي دلت على صدق رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وما عرفوه من الدلائل على نبوته ورسالته وصدق دعواه التي وردت في كتبهم .

وقد واجه المسلمون أبّان الدعوة الاسلامية هذه المكائد والخدع من الكافرين وعانوا منها أشد المعانات ولا يزالون كذلك ، إلا أنه تعالى أظهر كيدهم وخدعهم ، وأمر المسلمين بالصبر والاستقامة والالتفاف حول الرسول الكريم واتباعه ، وفي قوله تعالى : « قل إن الهدى هدى الله » كمال العناية بالمؤمنين ، وفيه إيماء إلى انهم على هداية الله تعالى ، وأمرهم بالتمسك بها والاستقامة عليها .

بحث روائي

في تفسير القمي عن الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى : «وقالت طائفة من أهل الكتاب ... » قال « إن سول الله (صلى الله عليه وآله) لما قدم المدينة ، وهو يصلي نحو بيت المقدس أعجب ذلك القوم فلما صرفه الله عن بيت المقدس الى بيت الله الحرام وجدت اليهود من ذلك ، وكان صرف القبلة صلاة الظهر ، فقالوا : صلى محمد الغداة واستقبل قبلتنا فآمنوا بالذي انزل على محمد وجه النهار واكفروا آخره يعنون القبلة حين إستقبل رسول الله المسجد الحرام » .

أقول : يصح أن تحمل هذه الرواية على بيان بعض مصاديق عاداتهم لا الاختصاص ، وأن مورد النزول لا يكون مخصصاً للحكم

كما هو المعروف .

وفي اسباب النزول للواحدي في قوله تعالى : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا ... » . قال الحسن والسدي : تواطأ إثنا عشر حبراً من يهود خيبر ـ وقرى عُرينة ـ وقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد ، واكفروا به آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا في كتبنا ، وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه ، وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم وقالوا : إنهم أهل الكتاب وهم أعلم به منا ، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأخبر به نبيه محمداً (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين .

اقول : تقدم ما يتعلق بذلك آنفاً .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

بالكتاب لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨).

بعد أن بين سبحانه وتعالى بعض احوال اهل الكتاب بما يثبت غرورهم وتكبرهم على الحق ، وأظهر أخلاقهم الفاسدة وشرح معايبهم ذكر هنا مظهراً من مظاهر غرورهم وهو نقض العهد وخيانة الامانة فان بعض اهل الكتاب أباحوا لانفسهم استحلال أموال المسلمين اغتراراً منهم بالعصبية الحمقاء ، وقالوا بأن الله تعالى خصهم بالكرامة وحباهم بالنعمة حيث جعل فيهم النبوة والملك ، وأن غيرهم لاحظ لهم منها ونسبوهم الى الأمية ، وكان من آثار هذا الاعتقاد الفاسد أنهم استحلوا نقض العهد مع غيرهم ، وأباحوا لانفسهم سلب حقوق الناس ، ونهب اموالهم ، والخيانة معهم ، وارادوا من ذلك حصر المؤمنين والضغط عليهم بالحرب الاقتصادية عليهم ولكنهم احتفظوا لانفسهم هذه الحقوق ، وحظروا نقض العهود في ما بينهم ، وقد اوعدهم سبحانه وتعالى سوء الخاتمة ، وأشد العذاب والحرمان عن رحمته عزوجل جزاء كذبهم وافترائهم على الله تعالى .

التفسير

قوله تعالى : ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك .

تأمنه من الإيتمان . والقنطار هو المال الكثير المعبر عنه في الروايات

بملء مسك ثور ، والكثرة من الامور النسبية تختلف باختلاف الاعصار والأمصار ، ولعل اختلاف العلماء في معناه ناشیء من ذلك ، وتقدم بعض الكلام فيه في قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة » آل عمران ـ ١٤ .

والدينار لفظ أعجمي ، وياؤه بدل عن نون ، وأصله دنّار ، فأبدل أول النونين ياءً لوقوعه بعد كسرة ، وجمعه دنانير ، وهو مثقال شرعي من الذهب المسكوك ويساوي ٢٥ و ٤ غرام من الذهب وزناً في هذه الأعصار . والمراد من القنطار والدينار في المقام المعنى الكنائي وهو المال الكثير ، والقليل .

والمعنى إن من أهل الكتاب من لا يخون في الأمانة ولو كانت كثيرة ومنهم من يخونها وإن كانت قليلة .

والآية تبين العادة التي جرت عليها الطائفتان من أهل الكتاب فلا تختص بمورد خاص وأفراد معينين .

والترديد باعتبار اختلاف أهل الكتاب في حفظ الامانة ورعاية العهد ، وانهم على طرفي نقيض ، فان بعض أهل الكتاب يحفظ الامانات ويراعی العهود مطلقاً بلا فرق بين أن تكون الامانة من أهل ملتهم ، أو تكون من غيرهم ، وسواء كانت حقيرة أو خطيرة ، ومنهم على نقيض ذلك لا يحفظ العهد ، ولا يؤدي الامانة إن أؤتمن عليها مطلقا .

وانما قطع سبحانه هذه الآية عن الآيات السابقة ، ووضع الظاهر موضع المضمر وقال تعالى : « ومن أهل الكتاب » دون « ومنهم » لبيان أن هذه الطائفة التي تحفظ الأمانات غير الطائفة السابقة التي تخادع المؤمنين وتكيدهم بقولها « آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه

النهار » وأن الطائفة الخائنة هي تلك الطائفة المغرورة ، وهي اليهود ـ على ما عرفت سابقاً ـ التي تزعم أن الله تعالى فضلهم على سائر خلقه ، وأن لا سبيل عليها من غيرها من سائر الملل والنحل ، فيجوز لليهودي أكل أموال المسلمين ، ونقض كل عهد إلهي وإنساني معه ، بل لا حقوق ولا حرمة له ، ونسبوا ذلك الى كتبهم المقدسة ،وهذا هو التحريف الذي عرفت به اليهود ، وهم يعلمون أن الكتاب لا يحكم بذلك ، وانما أمرهم احبارهم ورهبانهم بها بعد ترويج النزعة العصبية بين اليهود ، والمغالاة في أنهم شعب الله المختار ؛ فاستولى عليهم روح البغي والفساد غروراً .

قوله تعالى : إلا ما دمت عليه قائماً .

استثناء من عموم الاوقات أو الاحوال . ودمت بضم الدال من دام يدوم ، كقام يقوم . وقرىء بكسر الدال من دام يدام ، كخاف يخاف . ويراد من هذه الجملة المعنى المجازي وهو الكناية عن شدة الالحاح في التقاضي والوفاء ، فان قيام المطالب على رأس المديون ، وملازمته له فيه المبالغة في الاقتضاء والمطالبة .

والمعنى انه لا يؤدي الأمانة التي ائتمنته إياها إلا إذا ألجئته إلى ذلك بالمطالبه والاقتضاء .

قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل.

الأمّي من لا يقرأ ولا يكتب . قيل : المراد من الاميين في المقام العرب باعتبار أن الغالب منهم لا يقرأون ولا يكتبون . وقيل : يحتمل أن يكون المراد منهم أتباع الرسول النبي الأمي (صلى الله عليه وآله)

وقيل : المراد منهم من عدا بني اسرائيل ، فانهم ينسبونهم إلى الأمة أو الأمم .

وكيف كان فان هذه التسمية التي وردت في القرآن أصلها ما ورد في كتب اليهود من تسمية غير بني اسرائيل بالأمي ، وهي من الألقاب التي أرادوا بها تحقير غيرهم ، والحط من كرامتهم باعتبار انهم بمنزلة البهائم غير مؤهلين للمخاطبة وانهم لا حرمة لهم يباح سرقة أموالهم ، والخديعة معهم ، والكذب عليهم ، وهتك اعراضهم ، وهدر كرامتهم وحرمانهم من جميع الاحكام الاجتماعية والعقلية . وقد أعرض سبحانه وتعالى عن ما ورد في كتبهم إبطالاً له ، وأوجز سبحانه جميع تلك الجرائم والموبقات في كلمة واحدة . وهي « ليس علينا في الأميين سبيل » .

وإسم الاشارة (ذلك) يرجع الى ما هو المدلول عليه في الآية السابقة وهو عدم أداء الامانة والخيانة فيها . وهذه هي حال الطائفة التي ذكرها عزوجل في قوله تعالى : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك » . فيكون ذكر الطائفة الأخرى الحافظة للعهود ، والمؤدية للأمانات لبيان إغترار الطائفة الأولى ، وبعدهم عن الحقيقة وهم يعلمون أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يرضى بأفعالهم القبيحة .

وضمير الجمع في (بأنهم قالوا) راجع إلى أفراد هذه الطائفة الخؤونة ، وكذلك الضمائر في الآية الكريمة اللاحقة .

قوله تعالى : ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

دليل على انهم كانوا ينسبون أقوالهم وأفعالهم الى الله تعالى ،

وقد ذكرنا آنفاً أنهم كانوا يدعون أن ذلك في كتابهم ، ويجعلونها من شريعة السماء . وقد أبطل سبحانه دعواهم ، وأثبت أن الكذب من عادتهم . وهم يعلمون أن ذلك تشريع باطل ، وافتراء على الله عزوجل ، وهو لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، بل إن كتبهم المقدسة تأمرهم بالصدق في أقوالهم وأفعالهم ، وتنهاهم عن الخيانة ، والغدر والكذب ، مضافاً إلى أن جميع ذلك من الاحكام العقلية التي استقل العقل بحسنها ، ويلزمهم الشرع باتيانها .

قوله تعالى : بلى من أوفى بعهده واتقى .

ردّ على مزاعمهم ، وتكذيب لدعواهم ، واثبات لما أراده الله تعالى من خلقه ، وهو الحق . وأوفى من الايفاء وهو العطاء والبذل تاماً من غير زيادة ولا نقيصة . ووفاء العهد هو حفظه ، ومراعاته والعمل به . وقد استعملت هـذه المادة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، فقد ورد فيه : وفى ، وأوفِ ، واوفوا ، والموفون .

والعهد عبارة عن الالتزام بشيء فيجب الوفاء به عقلاً وشرعاً ، بلا فرق فيه بين عهود الله تعالى مع خلقه ، أو عهود بعضهم مع بعض ، كما لا فرق بين العهود الخاصة بين بني اسرائيل ، والعهود العامة بين جميع الناس . والمراد بالعهود في المقام ما عاهده الله تعالى على عباده بواسطة أنبيائه من الإيمان به ، وعبادته ، والتصديق برسله والعمل بما انزله عزوجل من مكارم الأخلاق وغيرها .

وعلى هذا لا فرق بين رجوع الضمير في (عهده) إلى (من) المتقدمة ، أو الله في قوله تعالى : « ويقولون على الله الكذب » . إذ العهود الواقعة بين الناس من عهد الله تعالى ، يجب الوفاء بها شرعاً

ويحرم نقضها ، والغدر بها .

والمراد من (اتقى) ملازمة تلك العهود ومراعاتها عملاً واظهارها خارجاً ، وترك الخيانة فيها والغدر بها .

والمعنى : إنكم - ياأهل الكتاب - أخطئتم في دعواكم بل السبيل ثابت عليكم في جميع ما نفيتم عنه السبيل ، وأن من أوفى بعهده ، وأتقى الله تعالى في دينه ، ولم يغدر ولم يخن في عهوده ولم يخالفه ، فان الله يحب المتقين .

قوله تعالى : فان الله يحب المتقين .

قضية عقلية مشتملة على المعلول وعلته ، وهي تبين أن من اوفى بعهد الله تعالى ، واتقاه عزوجل بالطاعة والانقياد له ، وعدم مخالفته في أمر من الامور يكون من المتقين ، والله يحب المتقين .

ومحبة الله تعالى هي غاية الكمالات الانسانية ، بل لا يتصور فوقها كمال ، وهي السعادة القصوى التي تعمر بها الدنيا ، وتصلح الآخرة وهي الكرامة الربانية التي لا يمكن أن ينالها إلا من جاهد فيه حق جهاده وقد قرر سبحانه إنها تحصل بالوفاء بعهده تعالى ، والتقوى في الدين التي هي الحصن الذي يمنع التعرض لسخطه تعالى وغضبه ، والوقوع في محارمه ومخالفته . ولا يمكن أن يحظي بمحبته كل مدع ومحتال .

وانما ذكر سبحانه المتقين لبيان أن العلة للمحبة هي التقوى . كما أن فيه التعرض لاهل الكتاب بانهم ليسوا على التقوى .

قوله تعالى : إن الذين يشترون بعهـد الله وايمانهم ثمناً قليلاً .

بعدما ذكر سبحانه أن محبة الله تعالى تختص بمن أوفى بعهده مع الله تعالى ، واتقاه في دينه . بيّن تعالى في هذه الآية أهـل الغدر والخيانة ، وأنهم لا كرامة لهم حتى يستحقوا محبة الله، وذكر جزاءهم والعلة في استحقاقهم له ، وهم الذين حرمّوا انفسهم من المحبة الإلهية جزاءاً لافعالهم القبيحة ، وهي الغدر ونقض عهد الله عز وجـل ، وترك التقوى .

والمراد بالثمن القليل متاع الدنيا ، فان الدنيا وما فيها بالنسبة إلى محبة الله وكرامته والايمان به قليل ، كقلة ما هو فانٍ بالنسبة إلى ما هو أبدي دائم ، وإن كان زمان الفاني طويلاً جداً .

والاشتراء هو البيع ، ويراد به مطلق المبادلة ، أي يبدل الايمان به عزوجل والوفاء بعهده ، والجزاء الأوفى الذي أعدّه الله تعالى لمن وفى واتقى بالثمن القليل وهو متاع الدنيا .

قوله تعالى : أولئك لا خلاق لهم في الآخرة .

الخلاق النصيب والحظ . وأولئك إشارة الى الطائفة الخؤونة بالعهد الناقضة للميثاق . وإنما أشار اليهم بالبعيد إيماءاً لبعدها عن قربه عزوجل بسبب نكث عهد الله واستبداله بالاغراض الموهومة ، بخلاف الطائفة الاخرى التي آثرت طاعة الله عز وجل فوفت بعهـده تعالى فانهم مقربون بحبه تعالى لهم ، لانهم تقربوا اليه عزوجل بالتقوى والوفاء

بالعهد والمراد بالآخرة الدار الآخرة ويوم المعاد ، إكتفاء بذكر الوصف عن الموصوف .

اي لا نصيب لهم من نعيمها ، لانهم آثروا نعيم الدنيا القليل الزائل على الآخرة ونعيمها الدائم الباقي .

قوله تعالى : ولا يكلمهم الله .

إستهانة بهم ، لتوغلهم في سخطه تعالى وغضبه عزوجل .

قوله تعالى : ولا ينظر اليهم يوم القيامة .

نظر عطف ورحمة في يوم القيامة .

وهذان الأمران كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم والبعد عنهم ، لعدم حب الله تعالى لهم الذي كرّم به عباده الموفين بعهده المتقين في دينه .

وفي تخصيص هذين الأمرين لبيان منتهى الغضب ، وعدم الاعتناء في يوم يشتد إحتياج الانسان إلى تكليم الله ونظره اليه ، لعظم محنته وبانتفائها لا يبقى له أمل ورجاء في رفع الشدائد والاهوال .

قوله تعالى : ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

التزكية التنمية والتطهير والتخليص عن كل ما يشينه . اي ولا يدخلهم في عداد الاولياء لبرفع عنهم أوزارهم بالمغفرة والعفو . ولهم عذاب مولم . وظاهر السياق أن التزكية والعذاب لا يختصان بالآخرة بل يعمان الدنيا أيضاً .

قوله تعالى : وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب .

مادة (لوي) تدل على الفتل ، والطي ، والاخفاء . والجامع في ذلك كله الميل ، قال تعالى : « لوّوا رؤوسهم » المنافقون - ٥ . أي أمالوا رؤوسهم والمراد بـ (ليّ ألسنتهم) صرف الكلام عن معناه إما بالتحريف ، أو بالقراءة بلحن خاص . وقد بين سبحانه وتعالى ذلك في موضع آخر قال عز وجل : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعناليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم » النساء - ٤٦ . ويستفاد من هذه الآية أن المراد من الفريق في المقام هم اليهود خاصة .

قوله تعالى : لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب .

الحسبان هو الظن أي أن الّتي كان لاجل الايهام عليكم - أيّها المؤمنون - بأن الكلام يشابه كلام الله تعالى وما هو من كلام الله .

وانما كرر سبحانه الكتاب لدفع اللبس ، فان الأول يراد به الكتاب المحرف ، والثاني كتاب الله المنزل ، وكذلك الثالث ، وانما وضع الظاهر موضع المضمر فيه لبيان أن كتاب الله أرفع منزلة من أن يشتمل على المفتريات والأباطيل ، وأعظم شأناً من أن يندرس بالتحريف .

قوله تعالى : ويقولون هو من عند الله .

بيان لشدة غوايتهم ، وانغمارهم في الغرور . أي لا يكتفون بالتعريض والايهام فقط ، بل يصرحون بأن ما حرفوه هو من عند الله نازل منه عزوجل .

قوله تعالى : وما هو من عند الله .

تكذيب لدعواهم ، ونفي لكون ما لووا ألسنتهم فيه نازلاً من عنده عزوجل .

وانما كرر لفظ الجلالة لبيـان عظيم الجرأة على الله المستجمع لجميع صفات الكمال .

قوله تعالى : ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

تأكيد لكذبهم وأفترائهم على الله . وزيادة في التشنيع عليهم ، ولبيان أن تحريفهم للكتاب كان عن عمد واصرار منهم ، ولنفي جميع انواع التحريف واقسامه تعريضاً وتلويحاً وتصريحاً ، وفيه الاشارة إلى أن الكذب من دأبهم وعادتهم .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور : -

الأول : يدل قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنـه

بقنطار يؤده اليك . . . » على وجود الاختلاف في طوائف اهل الكتاب في الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة واداثها . والسبب في ذلك ما ذكره عزوجل في ذيل الآية الشريفة : « بلى من أوفى بعهده واتقى » ، فان الوفاء بعهد الله والتقوى في دينه يقتضي الامانة في اموال الناس ونبذ الخيانة فيها ، وتختلف درجات الإيمان حسب تفاوت درجات الوفاء بالعهد والتقوى .

فيستفاد من هذه الآيات الشريفة أن أداء الامانة ، والوفاء بالعهد انما يكونان من أجزاء الإيمان ولا يتحقق إلا بهما .

ومن ذلك يظهر أن ما ورد في هذه الآيات لا يختص باهل الكتاب بل ينطبق على المسلمين إذا نقضوا العهد وخانوا الامانة ويترتب على ذلك جميع الآثار الدنيوية والاخروية ترتب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر) ، وهذا حكم عقلي غير قابل للتخلف والاختلاف وقد وردت أحاديث كثيرة عن المعصومين (عليهم السلام) تدل على ما ذكرناه .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل » انحصار جرائم اليهود والموبقات التي ارتكبوها في حق انفسهم وبالنسبة إلى غيرهم في الغرور الذي هو أم المفاسد والخبائث الخلقية والدينية ، ويتشعب منه التكبر على سائر الخلق والظلم بالنسبة إلى العباد ، وتحقير الضعيف ، وعدم الاعتناء بالفقير ، والكذب على الله وعلى الناس إلى غير ذلك من المفاسد ، وقد كذبهم الله تعالى وشنع عليهم ، وأوعدهم العذاب الشديد .

الثالث : إنما ضرب سبحانه وتعالى المثل بالقنطار والدينار لكثرة اهتمام الناس بالأموال ، ولمعلومية الامانة والخيانة فيها عندهم ، وهما

مثالان للقلة والكثرة ، وانما بدأ بالطائفة الأولى الأمينة لشرف الأمانة وعظم أمرها .

الرابع : يدل قوله تعالى : « فان الله يحب المتقين » على أن التقوى في كل دين هي الاساس في الالتزام باحكام الله تعالى والعمل بدينه ، وهي السبب لتقرب العبد إلى الله عزوجل ، والدخول في محبته .. كما انها الدرع الحصين الذي يمنع الانسان عن الوقوع في مخالفة الله سبحانه والدخول في غضبه ، والبعد عنه .

الخامس : يدل قوله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً » على أن كل ما يكون بازاء الايمان ، ويعوض عنه وبعهد الله يكون قليلاً ، كائناً ما كان في الرفعة ، والعظمة ، والكثرة بل ولو كانت الدنيا وما فيها ، لشرف الايمان وعهد الله وعظم الجزاء الذي أعدّه الله تعالى لهما .

السادس : يستفاد من تكرار الوعيد واختلاف انواعه عظم الذنب وبشاعة الجريمة ، فان شدة العذاب تدل على عظم موجبه . وهو يدل على التشديد في الوفاء بالعهد واداء الامانة ، وهو كذلك فان بهما ينتظم النظام الاعتقادي والاجتماعي للانسان وبذهابهما يفسد النظام وتكثر الجرائم وتسود الخديعة والابتزاز ، ويذهب المعروف بل يصير منكراً ، فلا يبقى خلق كريم ولا معيار اخلاقي لتميز مكارم الاخلاق عن سفاسفها.

ويمكن أن يكون تعدد الوعيد لاجل تعدد موجباته التي فصلها عزوجل في الآيات السابقة من حبهم لاضلال المؤمنين ، وكفرهم بآيات الله ، وتلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق ومن خديعتهم بالمؤمنين ، وخيانتهم في الأمانات ، فتكون هذه الآية الشريفة كالنتيجة لتلك الآيات السابقة .

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ليس علينا في الاميين سبيل » قال : فان اليهود قالوا يحلّ لنا أن نأخذ مال الاميين . والأميون الذين ليس معهم كتاب .

أقول : لابأس بتفسير الاميين بذلك ، فانه تفسير لبعض مصاديق الاميين ، وقد تقدم في التفسير ما يتعلق بهذه الكلمة ، فراجع .

وفي مجمع البيان في قوله تعالى أيضاً عن النبي (صلى‌الله‌عليه‌وآله) قال : « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية ألا وهو تحت قدمي إلا الأمانة ، فانها مؤدات الى البر والفاجر » .

أقول : هذا الحصر إضافي ، وإلا فان جملة مما كان في الجاهلية قررتها الشريعة المقدسة ، كما هو المعروف . والحديث في مقام نفي مقالة اليهود ودعاويهم الباطلة لا في مقام الحصر الحقيقي .

وفي الكافي في قوله تعالى : «إن الذين يشترون بعهد الله - الآية» عن الباقر (عليه السلام) قال : « أنزل في العهد : إن الذين يشترّون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. والخلاق النصيب ، فمن لم يكن له نصيب في الآخرة فبأي شيء يدخل الجنة » .

أقول : ما ورد في الحديث دليل عقلي على عدم دخولهم الجنة . ويؤيده قول نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن لم يزرع شيئاً لم يحصد غداً » .

وفي توحيد الصدوق عن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) في

قوله تعالى : « ولا ينظر اليهم » . يعني لا يصيبهم بخير .

وفي أمالي الشيخ باسناده عن عدي بن عدي عن أبيه . قال : اختصم أمرؤ القيس ورجل من حضرموت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أرض . فقال : ألك بينة ؟ قال . لا ، قال: فبيمينه ، قال : إذن والله يذهب بأرضي . قال (صلى الله عليه وآله) إن ذهب بارضك بيمينه كان ممن لا ينظر الله اليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم . قال : ففزع الرجل وردّها اليه » .

وفي اسباب النزول للواحدي ، والدر المنثور في الآية الشريفة . قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال أمرىء مسلم لقى الله وهو غضبان ، فقال الأشعث بن قيس : فيّ والله نزلت كان بيني وبين رجل من اليهود ارض فجحدني ، فقدمته الى النبي (صلى الله عليه وآله) . فقال : ألك بينة ؟ قلت: لا ، فقال لليهودي : أتحلف؟ فقلت : يارسول الله إذن يحلف فيذهب بمالي . فانزل الله عزوجل : إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ـ الآية ـ » .

أقول : يمكن أن يكون مورد النزول واحداً وهو اليمين الكاذبة وما ذكر في شأن النزول المتعارضة يكون من باب التطبيق ، وحينئذ يكون كل من اشترى بعهد من عهود الله تعالى أي عهد كان ، فقد اشترى بعهد الله ثمناً قليلاً ، وقد ذكرنا أن جميع احكام الله تعالى عهوده بالنسبة إلى عباده .

بحث قرآني

الآيات الشريفة التي وردت في أحوال أهل الكتاب - ذات المقاطع الثلاثة - هي من أدق ما ورد في القرآن الكريم فيوصف أهل الكتاب في الحال والمآل ، فقد استوفت جميع الجوانب الظاهرة والخفية التي لم يطلع عليها أحد إلا الله تعالى ، وتبين ما تطويه ضمائرهم ، وما يختلج في نفوسهم بالنسبة إلى الرسول والمؤمنين وأصل الإيمان ، ولا أظن أحداً يمكنه - مهما بلغ به الأمر - أن يصف عدواً بمثل ما وصف به القرآن الكريم أهل الكتاب ، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات جميع الوسائل والسبل التي تشبث بها أهل الكتاب في الهدم والتخريب والتشويه ، وهي من ملاحم القرآن الكريم التي ظهرت آثارها من حين نزوله وبلغت أعلى مراتبها في هذه الأعصار . وهي تدل على أمور لابد من ملاحظتها والبحث حولها ، وهي :

الاول : أن أهل الكتاب من أعداء الاسلام والمسلمين ، بل من ألد أعدائهم .

الثاني : انهم يضمرون في نفوسهم الكيد بالمسلمين وخديعتهم ، ولا يدعون فرصة يمكن أن يستفيدوا منها في تحقيق نواياهم .

الثالث : أنهم يخادعون المؤمنين ويشنون الحرب النفسية عليهم، وهي من أهم السبل في زعزعة الإيمان ، وقد عرفنا القرآن الكريم بهذه الخديعة قبل استعمالها في عصرنا الحاضر بأشد انواعها ووسائلها وحذر المسلمين من آثارها .

الرابع : الحرب الاقتصادية بالاستيلاء على أموال المسلمين ووسائل

عيشهم ، وجميع ما يمكن أن يتمتعوا بها في حياتهم .

الخامس : إثارة الفتن وتشويه سمعة الرسالة والمؤمنين ، وهما الحرب الدعائية التي بلغت أوجها في العصر الحاضر ، وبيّن سبحانه وتعالى مخاطر هذه الطريقة ، وطرق التحذر منها .

السادس : وهو من أهم الأمور التي أكد عليه سبحانه وتعالى في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، وحذّر المؤمنين منه ، وبين كذب أهل الكتاب وأوعد عليه أشد العذاب ، لعلمه عزوجل بشدة تأثير هذا الأمر في الناس ، وهو هدم الدين بالدين ، أو التستر به في تحقيق جرائمهم ونواياهم الفاسدة ، وهو من أشد الوسائل التي تمسك بها أهل الكتاب لاظهار الفتن ، وقتل النفوس أو سلب الاموال ، وهتك الاعراض ولا يمكن معرفة هذه الطريقة إلا بالرجوع إلى تعاليم القرآن الكريم ، لشدة تأثيرها ، ودقتها وعدم امكان التمييز بينها وبين الطريق المستقيم .

ولابد للمسلمين من الالتفات إلى جميع ما ذكرناه والتحذر من أهل الكتاب . والرجوع إلى تعاليم الاسلام في التصدي لخدعهم ومقابلتهم فانها السبيل الوحيد في ردّ مكائدهم ، ويرشد إلى ذلك قول نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن الكريم - الحديث - » . ويبين طريق التخلص من هذه الفتن .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ
دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ
أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

الآيات تتعرض لحال أهل الكتاب بالنسبة إلى الأنبياء وافترائهم عليهم كما افتروا على الله تعالى على ما حكى عزوجل عنهم في ما سلف من الآيات ، وقد نسبوا الألوهية إلى الأنبياء واتخذوهم أرباباً من دون الله ، وفيها نزه عزوجل ساحة الأنبياء مما قد نسب اليهم وأثبت أنهم عباد مربوبون ، ولم يدع أحد منهم الربوبية لنفسه ، وأقام الحجة على ذلك ، وذكر أن كل عبد آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة لا يمكن أن يتعدى طور العبودية ، ولم يخرج عن زي الرقية لله تعالى فكيف يدعي الربوبية ويأمر الناس بالعبودية له ، والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة المتعرضة لاحوال أهل الكتاب وافتراؤهم على الله تعالى والانبياء ، وهي بمجموعها في مقام الاحتجاج والرد عليهم وإبطال دعاويهم ، ولا تخلو هذه الآيات عن التعرض لحال النصارى في ما يدعونه في المسيح وتثبت براءته منه .

براءته

التفسير

قوله تعالى : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة .

البشر لفظ يرادف الانسان ، يطلق على الواحد والجمع ، ذكراً وانثى ، لأنه بمنزلة المصدر . وانما سمي بشراً لظهور بشرته وعدم سترها بشيء ، واللام في (لبشر) للحق ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن عيسى : « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » المائدة - ١١٦ . والمراد به نفي الحقية التكوينية ، أي لا حق تكويناً .

وذكر هذا اللفظ وتعليق الحكم عليه لبيان الدليل والسبب أي أن البشرية تنافي الالوهية وانها غير ممكنة ذاتاً الا بمجرد الادعاء الباطل. وعلى هذا تكون جملة (ما كان لبشر) لنفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الوقوع . أي ليس من شأن بشر ذلك ولاحق له في أن يدعي الربوبية ، بل يمتنع تحقق ذلك ، لانه من الجمع بين المتناقضين ، وإن تحققت الدعاوي من مثل فرعون ونمرود ، لكنها خارج عن موضوع الآية رأساً لأنها بمعزل عن الكتاب والحكم والنبوة .

والمراد من الكتاب ما هو المشتمل على المعارف الربوبية، والاحكام الإلهية ومكارم الاخلاق . كما أن المراد من الحكم هو الولاية على فصل القضاء بين الناس بأمر إلهي . والمراد من النبوة تلك الصفة الخاصة التي يمنحها الله تعالى من يشاء من عباده .

وتصور هذه الموضوعات الثلاثة بنفسها يغني عن الاستدلال على إمتناع دعوى الالوهية ، فالآية الشريفة من القضايا التي قياساتها معها.

وإنما جمع سبحانه بين هذه الأمور الثلاثة ، لبيان أن هذه الصفات موجبة للدعوة لله ، والارشاد اليه . ولأجل الاعلام بأن الذي يؤتى هذه الأمور قد تربى بتربية إلهية لا تصدر منه هذه الدعوة الباطلة ، ولا يملك ذلك لعلمه ببطلانها ، لأن الانبياء هم أرفع شأناً وأجلّ قدراً من أن يدعي أحد منهم هذه الدعوة .

قوله تعالى : ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله .

العباد جمع عبد ، ويختص استعماله بما إذا نسب الى الله تعالى ، يقال : عباد الله . ولعله لأن العباد من العبادة دون العبيد الذي هو من العبودية التي لا تمتنع أن تكون لغير الله تعالى ، يقال : عبيد فلان . ولا يقال : عباده .

والتقييد بقوله « من دون الله » لبيان أن هذا القول جحد للألوهية وانكار لمقام الربوبية ، وتغيير للعبودية الحقة المنحصرة في الله تعالى وللاعلام بأن الشرك في الالوهية إنكار لاصلها ، لأن الله تعالى لا يرضى من عباده إلا الخلوص والاخلاص في عبادته ، قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » البينة - ٥ .

والمعنى : لا يحق لبشر قد أنعم الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة وتربى بالتربية الإلهية أن يدعو الناس - الذين بعث اليهم - إلى عبادة نفسه ، ويدعي الالوهية لها ، فان ذلك مستحيل لم يقع أبداً ، فان من كان كذلك لا يخرج عن زي العبودية لله تعالى ، وأنه عز وجل لم يمنح الكتاب والحكم والنبوة لمن يدّعي لنفسه الالوهية .

قوله تعالى : ولكن كونوا ربانيين .

الرباني المنسوب إلى الرب ، زيد الألف والنون للمبالغة في التفخيم والتعظيم ، كما يقال : رقباني لعظيم الرقبة ، ولحياني لعظيم اللحية . والمراد به التوغل والتحنّك في عبادة الله تعالى بحيث تعلق قلبه به عزوجل ولا يخطر بباله غيره ، وقد ظهرت آثار العبودية على جميع اقواله وأفعاله واحواله ومعارفه لاجل إنتسابه إلى رب العالمين ، ووضع نفسه تحت إرادته ومشيته .

والجملة استدراك عن ما ذكر سابقاً ، وإثبات لما نفي آنفاً . اي أن البشر المنوه به آنفاً يقول للمبعوث اليهم كونوا ربانيين متلبسين بالايمان بالله مشتغلين بعبادته ومختصين به في جميع شؤونكم ، ويقتضى ذلك الاعراض عن غيره عزوجل .

قوله تعالى : بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .

الباء للسببية ، متعلق بـ (كونوا) . والدراسة التكرار في القراءة درس الكتاب أي كرر قرائته ، وداوم على حفظه .

وإنما كرر عزوجل (بما كنتم) لبيان أن كل واحد من التعليم والدراسة له الاستقلال في الاثر وهو التلبس بالربانية . كما انه يستفاد من اتيان الفعل في (تعلمون وتدرسون) مضارعاً للدلالة على الاستمرار عليها والمثابرة في ذلك دون مجرد التلبس .

أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على الاستمرار بتعلّمكم الكتاب وتعليمكم له ، ودراستكم لما ورد فيه من المعارف الحقة والاحكام

الالهية ، فان ذلك يقتضي أن تكونوا على ايمان كامل ومعرفة حقه والتخلق بمكارم الاخلاق ، والتلبس بالاعمال الصالحة التي تسوقكم إلى الله تعالى ، فتكونوا اتقياء صلحاء علماء ربانيين .

قوله تعالى: ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً.

الارباب جمع الرب . والآية عطف على قوله تعالى : « يقول الناس » المنفي بمفاد « ما كان » ، فيكون (لا) لتأكيد النفي اهتماماً بالأمر واستعظاماً للشأن.

وفي الآية التعريض لطائفتين ، الطائفة التي تتخذ الملائكة أرباباً ، كبعض الصابئة الذين يعبدون الملائكة ، وينسبون ذلك إلى دين الله وأما العرب فقد كانت تعتقد ان الملائكة بنات الله ، وهم وإن لم يسندوا دعواهم إلى دين من الأديان إلا انهم كانوا يدّعون انهم على دين ابراهيم (عليه السلام) .

والطائفة الثانية هي التي اتخذت الأنبياء أرباباً ، وهي اليهود التي ادعت أن عزيرا ابن الله على ما حكي عنها عزوجل في القرآن الكريم ومن النصارى أيضاً من تعظيم عيسى (عليه السلام) ، ويعتبرونه ابن الله تعالى .

والآية تنفي هذه النسبة وتبطل ما يدعونه فان الانبياء لا يأمرون باتخاذ الملائكة والانبياء أرباباً ، وما كان لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة وأرسله لدعوة الناس إلى الله الواحد الأحد ونبذ الشرك والانداد وبعثه لارشادهم إلى الكمالات ومكارم الاخلاق يأمرهم بالشرك والكفر وأعظم انحاء الفساد فان هذا غير ممكن ، وهو كفر بالله العظيم .

وتختلف هذه الآية عن سابقتها ، في أن السابقة تنفي دعوى البشر

الالوهية والمعبودية لنفسه ، لانه فرض محال مشتمل على التناقض . كما عرفت ، وهنا نفي لأمر خاص ، وهو اتخاذ الارباب بعد فرض كون المخاطب مؤمنـاً بالله تعالى ، فيكون الأمر أمراً بالخروج عن الإيمان الى الكفر ، فتختلف الآيتان مورداً وحكماً ، وذلك يوجب الاختلاف في المخاطبين أيضاً .

قوله تعالى : أيامركم بالكفر بعد إذانتم مسلمون .

الاستفهام للانكار . والخطاب عام لكل من آمن بالله تعالى وانقاد له عزوجل ، واستسلم لأمره ، واعترف بدعوة الانبيـاء ، فيشمل أهل الكتاب ، وكل من يدعي الانتساب إلى دين سماوي : والمراد بالاسلام هو دين التوحيد ، والطاعة والانقياد لله عزوجل نظير قوله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » آل عمران ـ ١٩ .

والمعنى كيف يأمر الانبياء باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً مع انكم تعتقدون بالله الواحد الاحد وتعبدونه ، فان ذلك كفر وضلال ، وهم لا يأمرون بالكفر . والآية تنفي كل انحاء الشرك في العبادة .

وذكر جملة من المفسرين أن الخطاب للمسلمين الذين اعترفوا بنبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) ، فانهم المسلمون . فيكون أمراً بالكفر بعد الاسلام وأيدوا ذلك بما ورد من انهم قالوا له (صلى الله عليه وآله) : أفلا نسجد لك ؟ فنزلت هذه الآية .

وفيه : إن الاسلام في التنزيل غير ما هو المصطلح بعد النزول . فان المراد به الأذعان بالتوحيد والانقياد بالطاعة الذي هو دين الفطرة التي دعا الانبياء اليها ، وقد تقـدم الكلام فيه مفصلاً . فراجع آية ١٩ من هذه السورة .

بحوث المقام

بحث أدبي :

المعروف بين المفسرين أن الظرف (لبشر) في قوله تعـالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله » خبر مقدم ، وجملة (أن يؤتيه الله) اسم كان مؤخر . ولكن يمكن أن يجعل (كان) تامة فلا تحتاج إلى الخبر أي لا تحقق لمثل ذلك ويمتنـع ، فتدل الآية على نفي الوقوع بالفحوى ، وتكون جملة « أن يؤتيه الله » لبيان الموضوع ، يعني أن هذا الموضوع يمتنع تحقق دعوى الألوهية فيه . فالآية تؤكد عـدم تحقق مثل ذلك بلفظ كان في المقام ، ولا محذور في أن تكون الجملة بحسب الظاهر مفيدة لشيء ، وهي في الواقع تفيد شيئاً أدق من ذلك.

وانما عطف عزوجل الجملة بـ (ثم) في قوله تعالى : « ثم يقول للناس كونوا عباداً لي » لتعظيم الأمر ، أي أن هذا الايتاء العظيم لا يجامع هذا القول أبداً وإن كان بعد زمان وفي مهلة .

و (لي) ظرف متعلق بمحذوف تقديره كائناً ، أي عباداً كائنين لي .

وقوله تعالى : « من دون الله » ظرف متعلق بـ (عباداً) لأن فيه معنى الفعل ، ويحتمل أن يكون صفة ثانية .

و (ما) في قوله تعـالى : « بما كنتم تعلّمون » مصدرية ، وإنما جعل الخبر مضارعاً في الموردين لبيان الاستمرار على التعليم والدراسة والمثابرة عليها .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور : ـ

الأول : يشتمل قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » على براهين ثلاثة تدل على امتناع دعوى الالوهية من البشر وبطلانها .

أولها : إن البشر بما له من الاطوار المختلفة ، فطوراً هو جنين وآخر يكون طفلاً ، ثم صغيراً ، ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً إلى غير ذلك من الاطوار . ثم في جميع أحواله واطواره قرين الفقر والاحتياج ، كما انه يتدرج في الكمال فينشأ وهو جاهل ثم يتدرج في المعرفة ، ويطرأ عليه من التبدلات كالصحة والمرض ، والفقر والغنى والعلم والجهل ، والألم والجوع ونحو ذلك ، وجميع ذلك ينافي كونه إلهاً واجب الوجود يمتنع ان يطرأ عليه الاختلاف والتبدلات ويستفاد ذلك من كلمة البشر .

ثانيها : إن البشر الذي آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، وتربي بالتربية الإلهية لا يحق له أن يدعي الالوهية ويدعو الناس إلى عبادته ، وإن اتفق لبعض الناس أن يدعي هذه الدعوى لكنه ناقص لم يتصف بما ورد في الآية الشريفة فانه لا يعقل أن يدعي هذا البشر الموصوف بما ورد في الآية بتلك الدعوى ، لانه خلف ويناقض الحكمة الالهية وهو تعالى الحكيم كالعليم لا يؤتي الكتاب والحكم والنبوة لكل احد فضلاً من أن يدعو العباد إلى عبادته .

ثالثها : إن الله تعالى أخبر في الآية الشريفة بانه لم يقع مثل ذلك من البشر الموصوف بما في الآية الكريمة ، وهو أصدق القائلين .

الثاني : إنما قدم سبحانه الكتاب على غيره لكثرة أهميته فانه أصل المعارف الالهية ، والاحكام الربوبية ، ومكارم الاخلاق ، وأن غيره يرجع اليه ، كما أن النبوة تدعو اليه .

ويمكن أن يراد به الاعم مما كتبه الله تعالى على عباده من المعارف الحقة ، فيشمل السنة المقدسة أيضاً .

الثالث : إنما ذكر سبحانه هذه الأمور الثلاثة لبيان أن من اتصف بها قد فاز بالتربية الالهية ، ونال جميع الكمالات الانسانية ولبيان مراتب الانبياء ، فنهم من نال جميع هذه الأمور ، ومنهم من نال بعضها على اختلاف مراتبهم ، فيدخل فيهم العلماء العاملون بشريعة خاتم الانبياء الذين قال فيهم نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « علماء أمتي افضل من أنبياء بني اسرائيل » والآيـــة بمفهومها تدل على أن كل من لم يتصف بمفاد واحد منها ليس له من البشرية حظ بل يكون أقرب إلى الحيوانات ذوات الاشعار والاوبار .

الرابع : إنما عبر سبحانه بقوله : « أن يؤتيه الله » لبيان أن هذا الاعطاء قد تمكن في الفرد الممنوح له هذه النعم ، وأثّر فيه ، فلا يمكن أن يدعي الربوبية والالوهية ، فان التربية الالهية لا تتخلف عن مقصدها .

الخامس : إنما قدم سبحانه التعليم والتعلم لشرفهما وان بهما يحظي الانسان المقامات العالية . كما أن الآية الشريفة تشير إلى أن شأن الانبياء إنما هو الارشاد والدعوة إلى الحق .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : «بما كنتم » التعريض بالنصارى من أهل الكتاب باعتبار انهم كانوا يدرسون الكتاب السماوي ويعلمونه

ولكنهم حرّفوه وغيّروا ما فيه من الاحكام ، وانما كان الواجب عليهم أن يكونوا ربانيين بالتعليم والدراسة لا يقولون في عيسى بما ينافي عبوديته ، ولا يأتون بما يخالف الاحكام الالهية . وقد حكي الله تعالى ذلك عنهم في مواضع متفرقة ، وصرحت بها كتبهم المقدمة، راجع أناجيل يوحنا : ٣٣ ـ ٣٦ . ومتى ٢٢ : ٤١ ـ ٤٦ . ومرقس ١٣: ٣٥ ـ ٣٨ . ولوقا : ٤١ ـ ٤٥ وغيرها تجد الشيء الكثير ، وفي بعض الفقرات : أن عيسى اخبرهم انه ابنه وكلمته . وقد اكذبهم عزوجل وابطل دعاويهم وانذرهم عليها بأشد العذاب وذكر أن عيسى وغيره من الانبياء انما هم كسائر البشر وقد بعثهم عزوجل ليرشدوا الناس إلى الكمال بدعوتهم إلى التوحيد ، ويعلمونهم الكتاب والحكمة ليكونوا ربانيين حكماء صلحاء ، ليسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : « أيامركم بالكفر » أن الانبياء الذين اوتوا الكتاب والحكم والنبوة لا يأمرون بأي نحو من أنحاء الكفر سواء في العبودية ، أو في الخلق ، أو في الحكم . كما انهم مبرأون عنه .

الثامن : يدل قوله تعالى : «أيأمركم بالكفر بعد اذانتم مسلمون» على أن الكفر لا يمكن اجتماعه مع الاسلام اعتقاداً وعملاً ، فانه أعظم رادع عن الكفر .

التاسع : تدل الآيات الشريفة على ذم العلو والاستعلاء من أي فرد تحقق ، ولكن يمكن أن يقال أن العلو إما أن يكون من الحق وبالحق : وهو الحاصل من الانبياء ، والاولياء الذين فضلهم الله تعالى على غيرهم . وإما أن يكون بالباطل وفي غير الحق ، كاستعلاء الناس بعضهم على بعض لاغراض وهمية خيالية ، وهذا هو المذموم غاية الذم ولا منشأ له إلا الغرور والغفلة عن الله تعالى ، وهو يوجب البعد عن

الواقع والابتعاد عن الحق ، وله اسباب عديدة واثار خطيرة ، وقد عالج الاسلام هذه الرذيلة ، وبين اسبابها وآثارها الخطيرة الفردية والاجتماعية الدنيوية والأخروية . وذكر ما يوجب علاج هذا المرض النفسي ، ومنه ما ورد في المأثور انه إذا مدح أحد آخر ينبغي للممدوح أن يقول : اللهم اجعلني فوق ما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون. والجدير بالانسان أن يعمل الطاعات ويجتنب عن المعاصي والموبقات ليفوز بثناء الله تعالى فانه الغاية القصوى ، والسعادة الحقيقية ، ومع وجوده يشكر ومع عدمه يستمد العون منه عزوجل .

العاشر : انما قال تعالى : « بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » لبيان أن تعليم الكتاب وتدريسه لابد أن يكون عن معرفة وكمال حتى يكون قابلاً لأن يكون ربانياً ، فلا يصلح لكل أحد تعليم الكتاب الكريم والسنة الشريفة وتدريسها إلا إذا كان جامعاً للشرائط منها العمل بما علم ، والتخلق بمكارم الاخلاق ، ويدل على ذلك جملة من الاحاديث .

وانما عبّر سبحانه بـ (تعلّمون) دون غيره للدلالة على ما ذكرناه ، فان التعليم والتدريس لابد ان يكونا عن تعلم وفهم واخلاص .

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ـ الآية . إن عيسى لم يقل للناس إني خلقتكم

اقول : قد ذكرنا في التفسير أن ذلك ممتنع عن الانبياء ، وفي نفس الحديث ما يدل عليه أيضاً فان قوله : إني خلقتكم . الاحتجاج على ذلك ويمكن ان يستفاد ذلك من نفس الآية الشريفة لما فيها من التعريض بالنصارى .

وفي العيون عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : « لا ترفعوني فوق حقي ، فان الله تعالى إتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً ، ثم تلا هذه الآية » .

اقول : قد ورد في مضمون ذلك روايات كثيرة ، وفي بعضها قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « هلك فيّ أثنان محب غال ، ومبغض قال » . ويظهر من جميع ذلك أن ما يفعله بعض الناس في شأن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) والائمة الهداة (عليهم السلام) داخل في مضمون هذه الاحاديث .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ـ ألآية » . قال : كان قوم يعبدون الملائكة ، وقوم من النصارى زعموا أن عيسى رب ، وأن اليهود قالوا : عزير ابن الله فقال الله : ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً ـ الآية .

اقول : تقدم ما يتعلق بذلك في التفسير .

وفي أسباب النزول للواحدي في قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي ـ الآية . نزلت في نصارى نجران حين عبدوا عيسى . وقوله : (لبشر) يعني عيسى . أن يؤتيه الله الكتاب ، يعني الانجيل .

أقول : هذا بيان لبعض المصاديق ، وإلا فالآية الشريفة عامة تشمل جميع الانبياء .

وفي الدر المنثور عن ابن عباس في نفس الآية الشريفة : أن أبا رافع القرظي حين اجتمعت الاحبار من اليهود ، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) ودعاهم إلى الاسلام قال : أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد يامحمد منا ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره مابذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني، فانزل الله من قولهما : ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ـ الآية .

وفي أسباب النزول عن الحسن قال : بلغني أن رجلاً قال : يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك؟ قال : لا ينبغي أن يسجد لاحد من دون الله ، ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ، فانزل الله هذه الآية .

اقول : أن جميع ذلك من المصاديق والآية عامة تشمل جميع ماذكر في اسباب نزول هذه الآية الشريفة .

بحث عرفاني

من المعلوم انه لا كمال أرفع وأجل وأعلى من العبودية لله تعالى ، فهي فوق الرسالة والنبوة ، والولاية ، بل بها تنال تلك المقامات الرفيعة ، والدرجات العالية ولا غاية لها إلا جماله وجلاله جلّت عظمته وبما انهما غير متناهيين ، فلا يعقل التناهي فيها أيضاً ، وكيف

جوهرة لا يعلم كنهها إلا الله سبحانه . ولكن آثارها عظيمة ، فهي التي تهيء العبد لنيل الكمالات الواقعية ، والسعادة الحقيقية ، والعبد يكون مظهراً من مظاهر تجلي الله تعالى ، وتظهر آثار العبودية على جميع جوارحه ، وافعاله ، واقواله ولحظاته ، فلا يخرج لحظة عن طور العبودية وزيّ الرقية ، ولا يعقل لمثل هذا العبد أن يدعو إلى غير الله تعالى ويتخذ غيره عزوجل رباً ، فانه خروج عن الفطرة واستبدال الطيب بالخبيث الذي هو قبيح عقلاً .

والآية الشريفة ترشد الناس إلى نبذ كل انحاء الأنانية ، وتدعو إلى العبودية الحقة ، والتوجه إلى الله الواحد الأحد ، والاعراض عن كل ما يبعد عن ذكر الله عزوجل ، وتحرضّهم إلى نيل الكمالات بالتعلم والتعليم ودراسة المعارف الحقة الإلهية ، وتبين أن الغرض الاقصى من سعي الانسان في الدنيا أن يكون ربانياً قد تخلّق باخلاق الله عزوجل وزكّي نفسه بالتخلية عن الرذائل ، والتحلية بالفضائل ومكارم الاخلاق ليستعد بذلك أن يكون معلّماً للمعارف الإلهية ، ومرشداً إلهياً ، وداعياً إلى كتاب الله تعالى ، ولا ينال هذه الدرجة إلا بتهذيب النفس وتزكيتها ، والتخلق بمكارم الاخلاق ، وتعلم المعارف الحقة وتعليمها فلا يليق بهذا المنصب كل متطاول ليس له حظ من ذلك . فان الاغيار لا يمكنهم الوصول والتقرب إلى دار الحبيب إلا بعد الجهاد مع النفس والتزين بما يرضي المحبوب . وعلى مرشدي الامة وطلاب العلم لاسيما علوم الدين أن يزكوا انفسهم اولاً ويتخلقوا بمكارم الأخلاق ، وأن يكونوا داعين إلى الله تعالى علماً وعملاً بل يكونوا داعين إلى الله بعملهم اكثر من دعوتهم اليه بعلمهم ، ولا يخرجوا عن زي العبودية أبداً .

بحث فلسفي

المعبود الحقيقي لا يعقل التعدد فيه بوجه من الوجوه ، لأنه عبارة عن الكمال المطلق المسلوب عنه جميع النواقص الواقعية والإدراكية ، وهو الربوبية العظمى بالنسبة إلى جميع الموجودات تدبيراً وعلماً وحكمة فلا يعقل التعدد في مثـــل هذه الحقيقة ، لأن التعدد فيها نقص ، والمفروض انتفاء جميع النواقص عنه . وقد أكد سبحانه وتعالى وحدته مطلقا في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ببراهين متعددة ، وهو اساس نظام الشرايع السماوية ، وجميع ما افتعل في التعدد انما حصل من مغالطات الوهم والآيـــة الشريفة بأسلوبها الواضح المتين تبين امتناع التعدد في المعبود ببراهين ثلاثة ذكرناها في البحث الدلالي ، والمعروف بين الفلاسفة أن بسيط الحقيقة من كل حيثية وجهة لا يعقل الاثنينية والتغاير فيه ، لانه خلاف لفرض البساطة ، لأن معنى بساطته من كل جهة انه مع الكل ، قال تعالى : « وهو معكم اينما كنتم » الحديد ـ ٤ وقال تعالى : « نحن أقرب اليه من حبل الوريد » ق ـ ١٦ . فكل فرض اثنينية يكون خلاف للمعية المطلقة ، ولا يعني بالمعية الحلول الذي يدعيه النصارى ، ولا وحدة الوجود والموجود التي يذهب اليها بعض المتصوفة ، بل المعية القيومية ، كما فسرها علي (عليه السلام) بقوله : « خارج عن الاشياء لا بالمغايرة والمزايلة ، وداخل في الاشياء لا بالممازجة » فهو الحي القيوم باحاطة قيوميه على جميع ما سواه ، وفي

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي تبين دستور الانسان ومنهاجه في الدنيا ومصيره في الآخرة وهي عامة تشمل جميع أفراد الإنسان بما فيهم الانبياء ، وهي باسلوبها الخلاب نفياً واثباتاً تقرر حقيقة من الحقائق ، وهي عالم الميثاق وأخذ العهود المؤكدة من أفراد الإنسان بالايمان بالله تعالى وتصديق الأنبياء ونصرتهم ، ودعوة كل نبي سابق

إلى نبيّ لاحق ، وهي تدعو الناس باتباع الاسلام والانقياد إلى الله تعالى وطاعته ، وعدم الخروج عن طور العبودية له عزوجل ،وهي تثبت نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) ، وتدحض حجج المخالفين ، وتقطع اعذار المعاندين ، وتبطل ما ادعاه أهل الكتاب في الانبياء العظام وانكار نبوة خاتم الانبياء ، وترجعهم إلى الفطرة التي تدعوهم إلى الوفاء بالعهد والتسليم لله تعالى والايمان بالانبياء لاسيما خاتمهم ، ونبذ كل ما يخالف ذلك العهد المأخوذ منهم . والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة التي تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان والتسليم والانقياد ، وطرح كل مكر وخديعة ،والاجتناب عن الكذب والافتراء على الأنبياء وفي هذه الآيات يأمرهم عزوجل بالجري على الميثاق.

التفسير

قوله تعالى : واذا أخذ الله ميثاق النبيين .

الآية تقرر عالماً من العوالم الإلهية وهو عالم الميثاق الذي أخذ فيه من الانسان العهود المؤكدة بالتسليم لله والتصديق بالانبياء ونصرتهم ، والعمل بما انزل عليهم ، وأودعه عزوجل في الفطرة الانسانية، فهي تدعو إلى الله تعالى كما تخبر عن أن هناك ميثاقاً مأخوذاً من أفراد الإنسان يجب الوفاء به بحكم العقل .

وتتجلى عظمة هذا الميثاق انه ذو اطراف عديده ، فمن ناحية انه

بعضهم لبعض ، بأن يبشر كل نبي سابق لنبي لاحق ويدعو الناس بالإيمان به ونصرته ، كما أن كل نبي لاحق ينوهّ بالنبي السابقويدعو إلى الايمان به ، كما قال تعالى « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » البقرة ـ ٢٨٥ . وثالثة بينه تعالى وبين الأنبياء جميعاً لسيد الأنبياء وخاتمهم ، كما في قوله تعالى في ما يأتي « لتؤمنن به ولتنصرنه » ورابعة بين الله تعالى وجميع عباده مطلقا بالايمان به ، والعمل بما أنزله على الأنبياء وجميع هذه المواثيق متلازمة يتقوم بعضها ببعض .

والميثاق الأول دليل اعتماد المعاهد (بالفتح) على نفسه من حيث انه مبعوث إلهي لا ينطق عن الهوى ، كما يوجب زيادة اعتماده على من يصدر عنه لاتصاله بالحي القيوم .

واماالثاني فلأن وحدة المعبود الحقيقي بالوحدة الحقةالحقيقية لابد له من وحدة الداعي اليه ، والتقدم والتأخر الزماني وتعدد الأفراد لا اثر له في ذلك ، لانه من لوازم هذا العالم المادي المبني على التكثر والتعدد . كما أن المرايا المتقابلات لشيء واحد لا يوجب تكثر ذلك الواحد ، وإن تكثرت المرايا .

واما الثالث: فلأن الغاية مقدمة في العلم وإن كانت متأخرة في الوجود خصوصاً في مثل هذا الكمال المطلق الذي هو أصل الكمالات بل هو مرآت الكمال المطلق الأتم الأرفع .

وأما الأخير فلأتمام الحجة وايضاح المحجة ، وقطع اعذار الناس لئلا يقولوا بانه لو كنا في غير هذا النحو من الوجود لآمنا باللهتعالى ولاظهار كمال قدرته عزوجل على كافة مراتب الوجود ، وجميع العوالم الممكنة ، وعالم الميثاق من اظهر عوالمه وقد تجلّت فيه قدرة الله

عزوجل ولا يمكن الاحاطة به لغير علام الغيوب ، والمطلع على السّر المكنون المحجوب ، وسياتي في البحث القرآني تتمة الكلام .

والميثاق هو العهد المؤكد المشدّد ، وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في عدة مواضع ، ولكن تستعمل في الكتاب والسنة في موضوع خاص ، وهو عالم الميثاق وقد جمع بعض المحدثين ـ رفع الله تعالى شأنهم ـ أحاديث هذا الموضوع الواردة في أبواب متفرقة في باب واحد ، وسماّه باب الطينة والميثاق .

وقد ذكر المفسرون في المراد من هذا الميثاق وجوهاً كثيرة لم يقم دليل يصح الاعتماد عليه على اعتبارها ، بل بعضها خلاف ظاهر الآية الشريفة ، وهي قد بينت الميثاق العام المأخوذ من الأنبياء عن أممهم على ما عرفت تفصيله ، ووجه الميثاق ، وقررته باسلوب لطيف لا غموض فيه .

وذكر بعض المفسرين أن المروي عن الصادق (عليه السلام) أن المراد أمم النبيين على حذف المضاف . كما ذكر السيوطي وغيره عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس : أن اصحاب عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ يقرأون وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ونحن نقرأ ميثاق النبيين . فقال ابن عباس : انما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم » .

والظاهر انه من تفسير الآية الشريفة لا كونه من القرآن، وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلق بذلك أيضاً .

والمراد بأخذه تعالى الميثاق هو الجعل والإلزام ثم قبوله منهم على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والنصرة للنبيين ودعوتهم إلى خاتم الانبياء.

وانما ذكر سبحانه ميثاق النبيين أولاً لأن ميثاقهم هو الاصل في كل

ميثاق . وتشريفاً لهم ، وتعظيماً لميثاقهم ، ولكونه أشد وآكد بالنسبة إلى غيرهم ، قال تعالى : « واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » الأحزاب ـ ٨ ، ولورود ذكرهم في الآية الشريفة السابقة .

قوله تعالى : لما آتيتكم من كتاب وحكمة .

قرأ الجمهور (لما) بفتح اللام والتخفيف . وقرىء بالكسر . والمعروف أن اللام هي الموطئة للقسم ، لأن الميثاق كالعهد والنذر في دخول اللام على جوابه ، نظير قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا الله من فضله لنصدقن » التوبة ـ ٧٦ . وقيل : (ما) شرطية ، كما في قوله تعالى : « لمن تبعك منهم لاملئن جهنم منكم اجمعين » الأعراف ـ ١٧ ، وهي في موضع نصب مفعول أول لـ (آتيت) ، والمفعول الثاني الضمير المخاطب . و (من) بيانية .

وقيل : اللام ابتدائية ، و (ما) موصوله ، وآتيتكم صلته ، والضمير المحذوف يدل عليه قوله : من كتاب وحكمة ، والموصول في موضع رفع مبتدأ ، والخبر « لتؤمنن به » الذي يكون اللام فيه لام القسم .

والحق أن يقال : إن (ما) موصولة ، كما هو المتفاهم العرفي والجملة تتضمن معنى الشرط ، فيكون فهم الشرطية منها سياقياً ، لا أن يكون لفظياً دلالياً بالمطابقة ، أو التضمن وأما الدلالة الالتزامية فقد تكون داخلة في الدلالات السياقية ، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلق بذلك أيضاً .

والخطاب للنبيين وأممهم بقرينة قوله تعالى : « أأقررتم وأخذتم

على ذلكم إصري » .

والمعنى كلما آتيتكم يا أيها الناس ـ الانبياء والأمم ـ من كتاب يتضمن التشريعات السماوية ، والمعارف الإلهية ، والبشارات بنبوة خاتم الأنبياء والأحكام الإلهية ، والدلائل الدالة على حكمة إرسال الرسل وبعث الانبياء.

قوله تعالى : ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

تقرير للميثاق المأخوذ من الانبياء واللام في (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم ، والجملتان جواب القسم والشرط معاً إن جعلنا (ما) شرطية والضمير في الموضعين راجع إلى الرسول ، كما هو الظاهر . وقيل : إن الضمير في « لتؤمنن به » يرجع إلى ما أوتوا من كتاب وحكمة . والضمير الثاني راجـع إلى الرسول . ولكن الظاهر ـ كما عرفت ـ هو الأول ، ويستفاد الثاني من السياق .

والتراخي الزماني المستفاد من إتيان (ثم) في الكلام لبيان الميثاق المأخوذ من النبي السابق وهو الدعوة بالإيمان بالنبي اللاحق ونصرته ، كما أن كل نبي لاحق لابد له من التنويه بالنبي السابق والإيمان به .

والمراد بقوله تعالى : « معكم » هو المعية المعنوية المستكملة للنفوس الانسانية ، لا خصوص المعية الجسمانية ، فانه (صلى الله عليه وآله) أرسل بعد فترة من الرسل ، وهو خاتمهم .

والآية في مقام بيـان حقيقة النبوات السماوية ، وكيفية ارتباط بعضها مع بعض ، وارتباطها مع الخلق ، وتفصيلها أولاً ثم بيان مجملها بما هو منطو في خاتم رسله ، لأن النبوات السماوية متقومة

بالبيانات الإلهية التي هي عبارة عن الكتاب والحِكَم المودعة فيه . وهي تشمل جميع المعارف الضرورية من المبدأ والمعاد . وكل ما يحكم به العقل السليم ، والفطرة المستقيمة التي قررتها الكتب السماوية ، وهي الميثاق المأخوذ من الجميع ، فالحكمة ترجع إلى الكتاب وهو يرجع اليها ، والفرق بينهما بالاجمال والتفصيل ، كما أن الفرق بين جميع الانبياء وخاتم النبيين أيضاً كذلك ، لانه يبين حقيقة ما أوحي اليهم مع شيء زائد ، فلذلك كانت دعواتهم اليه (صلى الله عليه وآله) ولاجل ذلك فصّل سبحانه الدعوة اليه بقوله عزوجل : «ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم» اهتماماً به . وارشاداً إلى علوّ درجته وسموّ مقامه .

قوله تعالى: قال أأقررتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا.

خطاب للمأخوذ منهم الميثاق والاستفهام تقريري . والاقرار معروف وهو الإثبات والإلزام . والإصر هو العهد والميثاق ، سمي به ، لأنه إما من الإصر وهو الثقل ، لأن العهد فيه ثقل وتشديد . أو من الإصار ، وهو ما يعقد به ويشدّ ، لأن العهد يشد به ، وتقدم في قوله تعالى : «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا» البقرة - ٢٨٦ بعض الكلام .

وإنما عدل سبحانه عن لفظ العهد إلى هذه الكلمة (إصري) للارشاد إلى أن ناقضه محروم من الثواب وواقع في مأزق العقاب وشدة العذاب ، فيكون مثل هذا العهد قد حبس صاحبه عن التهاون في التزامه ، والتسامح فيه .

أي قال الله تعالى للنبيين: أأقررتم بالميثاق المذكور آنفاً وأخذتم

من الأمم العهد وبلغتموه اليهم . قال النبيون أقررنا بذلك وأخذنا من الامم العهد والاصر .

وانما ذكر جواب الأنبياء باعتبار انه كان جواباً عما أراد عزوجل تقريره منهم إبتداءاً ، فيتضمن عهد الامم وتقريرهم أيضاً ، فاكتفي بالأول . هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الشريفة .

وقيل : المراد من أخذ العهد هو القبول ، واستشهد لذلك بقوله تعالى : « ولا يؤخذ منها عدل » البقرة ـ ٤٦ ، بقرينة قوله تعالى في موضع آخر « ولا يقبل منها عدل » البقرة ـ ١٢٣ . فيكون قوله : واخذتم على ذلكم إصري عطف بيان لقوله : «أأقررتم». وعلى هذا يكون الميثاق مختصاً بالانبياء لا يتعداهم إلى غيرهم من الأمم .

لكنه بعيد عن ظاهر الآية الشريفة . والأخذ هو بمعناه المعروف وهو الاستيفاء . ويبعده أيضاً قوله عزوجل : «قال فاشهدوا » لظهوره في كون الشهادة على الغير . ولكن يهون الخطب أن الميثاقين متلازمان يغني ذكر أحدهما عن الآخر ، كما ذكرنا سابقاً .

قوله تعالى : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .

ظاهر السياق أن تكون الشهادة من النبيين والامم ، أي شهادة الانبياء على الأمم بأخذ العهد منهم ، وشهادة الأمم عليهم بالتبليغ والمناصرة لهم ، وأقرار منهم بالقبول . وأما شهادة خاتم النبيين فانها تقوم على امضاء شهادتهم وتقريرها باعتباره العلة الغائية للخلق ، وأن شهادة النبيين كانت لاجله (صلى الله عليه وآله) ، فكأن شهادتهم لا تقبل إلا بشهادته (صلى الله عليه وآله) .

وقيل : ان المراد من الآية شهادة الانبياء بعضهم لبعض ، وهذا

وإن كان صحيحاً في نفسه ولكنه تخصيص بلا موجب .

وقيل : الخطاب للملائكة أمروا بالشهادة على الانبياء والأمم ، وقد وردت به رواية أيضاً . وفيه : انه خلاف الظاهر .

والحق أن الشهادة عامة ، وهي من الانبياء على الأمم وبالعكس من قبيل مقابلة الجمع بالجمع .

ثم إن هذه المحاورة التي وقعت في الآية الشريفة إنما هي لتأكيد الميثاق وتثبيته ، وبيان أهميته ، وظاهرها الاخبار بوقوعها في ما مضى من الزمان لاأن يكون من مجرد التمثيل ، ولكنها مجملة في تعيين زمان هذه المحاورة ، فأصل السبق الزماني معلوم وأما تعيينه في انه كان في عالم الذر الأول ، أو الثاني ، أو انه كان في عالم المثال المعبر عنه بعالم الاشباح والاظلة ، أو انه كان في الاعيان الثابتة المسماة بالثابتات الأزلية - بناءاً على صحة هذا القول - أو انه من قبيل لوازم الماهيات الممكنة مطلقاً واو في هذا العالم ، أو غير ذلك احتمالات ، ولا يظهر من الآيات الشريفة ، والادلة العقلية والنقلية تعيين واحد منها .

قوله تعالى : فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون.

تأكيد للميثاق المذكور ،أي من تولّى بعد أخذ الميثاق منه واقراره به ، فلا ريب في فسقه وخروجه عن طاعة الله تعالى ، بحكم العقل والفطرة ، لانهما يحكمان بوجوب الوفاء بالعهد . فان كان توليه عن أصل الايمان بالتوحيد والمعاد فهو كافر مضافاً إلى فسقه ، وإن كان توليه عن العمل بالاحكام فهو وإن كان فاسقاً ولكنه ليس بكافر إن لم يحصل منه ما يوجب الكفر . ولاجل ذلك عبّر سبحانه بالفسق ليشمل الجميع ، ولم يبين جهته ، ولا ما يترتب على ذلك للتنبيه على

عظمة هذا الموضوع وكثرة اهميته .

قوله تعالى : أفغير دين الله يبغون .

عطف على الآية السابقة ، وتفريع على أخذ الميثاق من النبيين والأمم ، وتوبيخ لمن اعرض عنه ، ويدل على أن دين الله واحد وهو دين الاسلام ، فانه تعالى بعدما ذكر أخذ الميثاق من جميع افراد الانسان ، واثبت انهم متفقون في الدين الذي أراده عزوجل منهم ، وأخذ الميثاق من النبيين على الدعوة اليه . كما أخذ ميثاق كل نبي بالدعوة إلى النبي اللاحق ، والتنويه بالنبي السابق ، وأن على جميعهم الدعوة إلى الرسول الكريم خاتم النبيين ، والتبشير به والتصديق به ونصرته فاذا تولى أحد عن هذا الميثاق ، ولم يف بما عاهد عليه وأقر به ، فليس هناك دين آخر يعتقد به . كيف وقد خرج عن الطاعة ودين الحق . واعرض عن الدين الحقيقي الذي أمر العباد بالاعتقاد به وعانده فلا يرجى منه خير حيث لم يؤمن بدين الاسلام ولم يعترف بنبوة الرسول الكريم الذي يسوق الانسان إلى دين الفطرة الذي اخذ عليه الميثاق.

والهمزة في (أفغير) للانكار والتسفيه لمن تولى عن دين الله ونبذ العهد ، ولها التصدر في الكلام ، ولذا جاءت قبل حرف العطف بين المعطوف والمعطوف عليه .

قوله تعالى : وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً.

جملة حالية مؤكدة ، وهي في مقام الاحتجاج على كون الاسلام دين الفطرة . والاسلام إما أن يراد به التسليم التكويني القهري لله

تعالى ، فيكون المراد من الطوع مقهورية الممكنات تحت إرادته عزوجل القهارة ، والمراد من الكره قهارية إرادته عزوجل التامة بالنسبة اليها فيجتمع في كل شيء الطوع والكره معاً ، فانه من حيث الاضافة إلى ذات المخلوق يكون طوعاً ، ومن حيث اضافته إلى الخالق والجاعل يكون كرهاً ، ولا محذور فيه . ويكون التعبير بـ (من) المستعمل في ذوي العقول إمــا لاجل الفضل ، أو الغلبة ، كما يكون الواو في قوله تعالى : « طوعاً وكرهاً » لمطلق الجمع .

وإما أن يراد من الاسلام التشريعي الاختياري ، فيكون المراد من الطوع هو إسلام من آمن بالله تعالى لانه وجده أهلاً للعبادة فعبده ، ولم يتعلق غرضه بغيره جل جلاله فوجد الذات ذاتاً لا تليق الا للعبادة والايمان بها . والمراد من الكره هو اسلام الذين آمنوا به عزوجل لاغراض زائدة على اهلية المعبود للعبادة ، كدخول الجنة أو الخوف من النار أو غير ذلك .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية الشريفة ، فقيل : المراد من الاسلام طوعاً ما اذا حصل من الدليل والفكر والرويّة بخلاف الاسلام كرهاً وهو ما اذا حصل من السيف والخوف .

وقيل : إن المراد بالاسلام طوعاً ما اذا حصل من غير معارضة في النفس ، والاسلام كرهاً هو الانقياد مع معارضة النفس والوساوس والتعلق بالوسائط .

والحق ما ذكرناه ، ويمكن أن يرجع الاخير اليه بالعناية .

قوله تعالى : وإليه يرجعون .

حجة أخرى على لزوم الرجوع إلى الدين الحق والتسليم لله تعالى والانقياد له ، وقبح التولي عن الميثاق . لأن جميع من في السموات والارض مرجعهم اليه عزوجل فيجزيهم على معتقداتهم واعمالهم ، رجوعاً قهرياً لا دخل للارادات مطلقا وإن بلغت ما بلغت فيــه ، فاللازم هو الرجوع إلى ما بينـه المعبود الحقيقي ، والالتزام بالدين الحق والرجوع إلى ما أخذ عليه الميثاق .

ويمكن أن يكون هذا قرينة على أن المراد من الكره هذا المعنى في الآية السابقة . فان من كان مرجعه اليه بلا اختيار منه ولا إرادة كيف يعقل أن يتخذ إلهاً غير الله تعالى الذي ترجع اليه الأمور ، وهو مرجع العباد ، فيقبح منه التخلّي عن الميثاق المأخوذ منه ، والتولى عن دين الحق.

قوله تعالى : قل آمنا بالله وما أنزل علينا .

أمر للرسول الكريم بالجري على الميثاق المأخوذ منه ودعوة منه به وهو الميثاق الذي أخذ منه (صلى الله عليه وآله) بالايمان بالله تعالى والتنويه بالانبياء السابقين والايمان بهم ، وبالقرآن الكريم المشتمل على جميع المعارف الحقة ، وقد بين سبحانه هذا الميثاق بعد أن اشار اليه في الآيات السابقة ، وبين الميثاق المأخوذ من الانبياء بالايمان بالرسول الكريم خاتم النبيين والتبشير به والدعوة إلى نصرته .

وانما قدّم سبحانه المنزّل عليه (صلى الله عليه وآله) على المنزل عليهم اشارة إلى علّو منزلته ، ولانه واسطة الفيض ، وهو الوجود الجمعي الكامل .

وقد عبر عزوجل في المقام (علينا) ، وفي غيره (الينا) ، ولا فرق بينهما ، إلا انه اذا لوحظ المنزل من الله عزوجل باعتبار انـه محيط بالجميع ومستولٍ عليهم ، فتكون فيه جهة العلو من جميع الجهات فيصبح التعبير بـ (على) حينئذٍ . واما إذا لوحظ المنزل عليه فيعبر حينئذٍ (الينا) .

قوله تعالى : وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط .

الأسباط جمع السبط وهم القبائل من ابناء يعقوب الاثني عشر والانزال عليهم باعتبار الانزال على أنبيائهم بقرينة ذكر الانبياء المنزل عليهم قبلهم وبعدهم. وهم كثيرون، كداود وسليمان ويونس وغيرهم .

وانما خص عزوجل هؤلاء بالذكر باعتبار اعتراف أهل الكتاب بنبوتهم جميعاً ، وقبول ما انزل عليهم، والمراد بما انزل عليهم الصحف .

قوله تعالى : وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم .

من التوراة والانجيل وسائر الكرامات الباهرات ، وانمـا ذكر النبيين بعد ذكر آحادهم للتعميم ليشمل جميع الانبياء ، وقد خصّ موسى وعيسى بالذكر تشريفاً لهما وتعظيماً لما انزل عليهما ، ولأن الكلام مع اليهود والنصارى .

وانما ذكر سبحانه الرب ابيان كمال العنايـة بهم ، ولانه الرب الرؤوف بالعباد نزّل عليهم الكتاب لتكميل النفوس المستعدة .

قوله تعالى : لا نفترق بين أحد منهم .

تأكيد بالايمان بجميع الانبياء ، فان الميثاق قد اخذ منهم بالايمان بجميعهم من دون تبعيض ، وفيه التعريض باليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض دون بعض تبعاً لأهوائهم الفاسدة . وما تمليه عليهم العصبية البغيضة .

قوله تعالى : ونحن له مسلمون .

اي نحن جميعاً منقادون لله تعالى مطيعون له في جميع ما انزله عزوجل على الأنبياء وما أراده عزوجل .

في التعبير بالاسلام كمال التذلل والانقياد ، أي منسلمون لكل ما هو في الميثاق .

وفيه اشارة إلى أن الايمان لا يتم ولا يكمل إلا بالاستسلام والانقياد من كل جهة

قوله تعالى : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه .

بعدما بين عزوجل أن الايمان المطلوب هو الاسلام دون غيره ، وبه أخذ الميثاق ، وانه الجامع لجميع الاديان الالهية ، والكمالات الانسانية ، فيكون الاسلام لله تعالى هو الجامع بين جميع الاديان السماوية ذكر هنا أن غيره باطل لا أثر له ولا يهدي الانسان الى الكمال المنشود بل يوجب بطلان الانسانية ومقامها الرفيع .

وفي التعبير بالابتغاء الاشارة الى أن الإنسان وان اجتهد في ما ابتغاه وارتاض

فيه كمال الجهد والرياضة لا يقبل منه .

قوله تعالى : وهو في الآخرة من الخاسرين .

دليل على أن الاعمال مع غير الاسلام تكون فاسدة ومفسدة للآخرة فانها هي المحل الأتم لظهور مقام الانسانية الكاملة . فمن ذهب من العرفاء وعظماء الفلاسفة إلى وحدة الوجود والموجود إن كان نظره إلى ذلك فلا بأس ، وتشهد له الادلة الكثيرة ، وإلاّ فلا يرجع إلى محصل . وهذه الآية الشريفة تشتمل على الاثبات والنفي بطريق برهاني علمي ، وهو ترتب المعلول على العلة التامة .

بحوث المقام

بحث أدبي :

(إذ) في قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » منصوب بفعل مقدر ، أي واذكر إذا أخذ الله . . . كما في غير هذا المورد . وقيل : انه مقول لقوله تعالى في ما يأتي : « قال أأقررتم » . وأورد عليه بعضهم أن خطاب أأقررتم إنما كان بعد أخذ الميثاق . ولكن فساده واضح . وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية فراجع .

والميثاق كالنذر والقسم في دخول اللام على جوابه . لانه يتضمن العهد الذي يؤخذ من المعاهد (بالكسر) للمعاهد (بالفتح) . وهي

لتلقي القسم ونحوه ، كما انها هي التي يؤتى بها مع الشرط تثبيتاً لدخول الشرط على حيز القسم والعهد تقوية لتلقيها بالجواب .

واللام في قوله تعالى : « لما آتيتكم من كتاب وحكمة » بالفتح والتخفيف على قراءة الجمهور . وقرأ حمزة بالكسر . وقرأ غيره بالفتح والتشديد . والأول هو المتبع . وهي اللام الموطئة - كما ذكرنا - وقد اختلف الادباء في اعراب هذه الآية الكريمة بحيث عدّوها من مشكلات القرآن إعراباً .

فقيل : إن اللام هي الموطئة للقسم و (ما) شرطية ، وهي في موضع نصب بـ (آتيت) والمفعول الثاني ضمير المخاطب ومن بيانية كما عرفت في التفسير . واعترض عليه بأن حمل (من) على البيانية شايع بعد الموصولة دون الشرطية فانه يحتاج إلى النقل . ولذا قال بعضهم انها زائدة ، وقال آخر انها تبعيضه ذكرت لبيان (ما)الشرطية .

وقيل : أن (ما) موصولة ، واللام الداخلة عليها هي لام الابتداء و (ما) مبتدأ والخبر (لتؤمنن به) مع القسم المقدّر . أو يكون الخبر (من كتاب وحكمة) والنكرة هنا بمنزلة المعرفة . أو يكون مقدراً . والهاء محذوف من آتيتكم ، تقديره للذي آتيتكموه من كتاب وحكمة .

وأورد عليه أولاً : بأن الميثاق كالقسم مما يعتني بربطه بالجواب وتلقيه بروابط القسم ، وهما ينتقضان بلام الابتداء التي لها الصدارة في الكلام فتقطعه .

ويمكن الجواب عنه بأن مجموع الكلام مرتبط بعضه مع بعض من دون أن يضره لام الابتداء وصدارتها .

وثانياً : إذا جعلنا (لتؤمنن) خبراً لقوله تعالى : « لما اتيتكم »

وكذا (لتنصرنّه) فما هي اللام فيها ، فانها حينئذٍ لا تصلح أن تكون رابطة لجواب العهد والميثاق ، ولا مزحلقة لانها مختصة بخبر (إن) والجواب عنه يظهر مما سبق . وثالثاً : إن الضمير في (به) إن عاد على المبتدأ - كما هو الظاهر - كان الميثاق هو ايمانهم بما آتاهم، ولكن المقصود من الآية أخذ الميثاق بالايمان بالرسول (صلى الله عليه وآله) ونصرته . وإن عاد على الرسول - كالضمير الثاني المنصوب العائد عليه مطلقا - خلت الجملة عن العائد .

وأجيب عنه بأن الجملة المعطوفة لما كانت مشتملة على ما هو بمعنى المبتدأ الموصول استغني عن الضمير ، فيكون ضمير (به) راجعاً للرسول مع ملاحظة (مصدق لما معكم) القائم مقام الضمير العائد على (ما) فاكتفي بذلك عن الضمير في خبرها لارتباط الكلام بعضه مع بعض.

وفيه : إن التكلف ظاهر فيه ، وقد ذكر في التفسير ما يرتبط بذلك أيضاً . ورابعاً : أنه لو كان الأمر كذلك يلزم أن يكون الذي آتيتكم من كتاب وحكمة لتؤمنن به فردا ، وجملة (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتنصرنه) ، فرداً آخر .

وفيه ما لا يخفى ، مع انه فرض يجلّ القرآن الكريم عن مثله لانه تعقيد للكلام ، واخراج له عن الاسلوب الفصيح المرغوب فيه . هذا كله بناءاً على القراءة المعروفة .

وأما بناءاً على قراءة حمزة فان (ما) مصدرية ، واللام للتعليل متعلقة بـ (لتؤمنن) أي لاجل اتياني إياكم بعض الكتاب ثم مجيء رسول مصدق له .

واعترض عليه بانه يستلزم إعمال ما بعد لام القسم في ما قبلها .

ويمكن الجواب عنه بانه لا يضرّ ، وبعض العلماء يقول بجواز ذلك .

والحق أن يقال : أن كل ذلك تطويل بلا طائل تحته ، بل قد

يضرّ بعض تلك الاقوال والاحتمالات بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته مع ان فيه من التكلّف والتعسف ما لا يخفى ، ومقتضى المتفاهم العرفي الذي هو الاصل في فهم الآيات الشريفة ما ذكرناه في التفسير من أن كلمة (ما) موصولة ، والجملة بتمامها متضمنة لمعنى الشرط ، فيكون فهم الشرطية سياقياً لأن يكون دلالياً ، وما ذكروه في وجـه بطلان ذلك كله لا يمكن المساعدة عليه ، وقد أجبنا عن بعض ذلك .

وقرىء (تبغون) بالتاء الفوقانية ، وعليه يكون في قوله تعالى: « واليه يرجعون » إلتفات .

وطوعاً وكرهـاً في قوله تعالى : « وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً» مصدران في موضع الحال أي طائعين وكارهين والطوع مصدر طاع يطوع ، والإطاعـة مصدر أطاع يطيع ، وهو بمعنى الانقياد .

و(كرها) بفتح الكاف من الكره بقرينة المقابلة للطوع، نظير قوله تعالى : « ولا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » النساء ـ ٢٣ أي إكراهاً . وقيل من الكراهية أي كارهين . وديناً في قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً » منصوب على التمييز من غير ، وهو مفعول (يبتغ) ، وقيل : ديناً مفعول (يبتغ) ، وغير صفة قدمت فصارت حالاً وهو الاصح .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة أمور :

الأول : قد أكد سبحانه وتعالى الميثاق المأخوذ من جميـع افراد الإنسان ، لأنه أصل العهود ، وبه تتم الوحدة ، وعنه ينتزع الكل وهو بمنزلة البذرة والاعمال نتائجها وثمراتها ، وقد ذكرنا في التفسير

انواعه ، ويستفاد اهمية هذا الميثاق من الآية الكريمة أن نسب عزوجل الأخذ إلى نفسه المقدسة ، واخذ الاقرار من المعاهد (بالكسر) ، وشهادة الأنبياء ، وخاتم النبيين عليه ، فيكون هـذا الميثاق أصل الانسانية الكاملة التي خلق الانسان لاجلها ، والقرآن الكريم وسائر الكتب الالهية شرح لهذا الميثاق .

الثاني : يستفاد من الآيات الشريفة أن هذا الميثاق يقوم على وحدة الدين بين جميع أفراد الانسان الأنبياء والامم على السواء - لأن مبدأ الممكنات جل جلاله واحد بالوحدة البسيطة الحقيقية ، والرجوع والمعاد إنما يكون إلى واحد لأنه أتم مظهر للعدل فلابد أن يكون الدين واحداً لأنه أتم تجلٍّ للواحـد الحقيقي الظاهر في عبادة واحد ، ولا محالة يكون غيره باطلا محضاً وخسراناً صرفاً ، فمن ذهب من العرفاء، وعظماء الفلاسفة إلى وحدة الوجود والموجود في عين الكثرة إن كان نظره إلى ما قلناه فهو -وإلا فلا دليل على صحته .

الثالث : تدل الآيات الشريفة على أن حقيقة الميثاق هي الايمان بالمبدأ والمعاد ، والتصديق بالانبياء وما أنزل عليهم ، والبشارة بخاتم النبيين ، ويصح أن يكون الميثاق مأخوذاً على الكليات لا بالنسبة إلى الجزئيات وإن شملها لا محالة .

الرابع : ذكر بعض المفسرين أن من اللطائف الواقعة في هذه الآية الشريفة أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسل على ما يعطيه قوله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين - إلى قوله : ثم جاءكم » فيكون الميثاق مأخوذاً من مقام النبوة لمقام الرسالة من غير عكس للفرق بين المقامين.

وفيه : إن ذلك وإن كان حسناً في نفسه ، ولكنه يستلزم تقديم الفرع على الاصل وهو خلاف مقـام المشهود عليه ، لما يستفاد من

الآية التلازم بين أخذ الميثاق والشهادة ، فالحق ما ذكرناه في التفسير.

الخامس : قد ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بنقض الميثاق والتولي عنه ، واعتبر الناقض فاسقاً ولكن لم يذكر هنا ما يتعلق بالوفاء بالميثاق والتعهد به ، ولعله لأجل انه لاحد لعظمة هذا المقام وجلالته، فاهمله تعالى ليذهب ذهن السامع أيّ مذهب أمكن ، ويصح أن يقال إن ذكر النبي والرسول إشارة إلى رفعة ذلك المقام وعلوّه ، وأن العمل به والوفاء به يوجب الالتحاق بدرجة الانبياء والمرسلين .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : « ومن يبتـغ غير الاسلام ديناً . . . » أن الميثاق ليس من العلة التامة في شيء ، بل هو من المقتضيات المحضة ، وإلا لزمت أمور كثيرة لا يقول بها أحد منهما بطلان الاختيار ، وزوال الثواب والعقاب وغير ذلك .

السابع : يدل قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام » على أن المنهاج السليم للانسان هو التسليم لله تعالى والانقياد له عزوجل، وأن دستوره في الحياة هو الطاعة لله تعالى ، والعمل بما انزله على أنبيائه المرسلين ، وفي غير ذلك بطلان الانسانية والحط من مقامها الرفيع ولاجل ذلك كان في الآخرة من الخاسرين ، لأن الآخرة المحل الاتم لظهور مقام الانسانية الكاملة والخاسرة .

الثامن : يستفاد من قوله تعالى : « طوعاً وكرهاً » أن جميع من في السموات والارض لا يخرج عن أحد هذين الأمرين هما الاسلام طوعاً والاسلام كرهاً ، بل يمكن أن يكون كلا الامرين في فرد واحد باعتبارين ، وقد ذكرنا إن العبادة والتسليم إن كانا للذات وبالذات يكونان طوعاً ، وإن كانا لجهات خارجية يكونان كرهاً ، ولكنه ليس باكراه ، بلا فرق بين أن يكون الاسلام تكوينياً أو تشريعياً ، ولا

يستفاد من لفظ (أسلم) الدال على المضي والتحقق خصوص التسليم التكويني لأمر الله تعالى . لأن المراد منه تحقق الاسلام أما الزمان فهو خارج عن مفهوم اللفظ .

التاسع : الآيات الشريفة تدل على صحة نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) بل يستفاد منها أن التبشير بـه من اصول الدعوات الالهية والرسالات السماوية .

العاشر : انما قدم سبحانه الايمان بما انزل علينا على الايمان بما انزل على من قبلنا في قوله تعالى : « قل آمنـا بالله وما انزل على ابراهيم . . . » مع أن الثاني اسبق زماناً ، لأن الايمان بما انزل علينا هو غاية الرسالات السماوية ، والغاية متقدمة في التعلم وإن كانت متأخرة في الزمان، مع انه الاصل في معرفة السابق علينا، والطريق لاثباته.

الحادي عشر : من اللطائف الواقعة في هذه الآيات أن الله تعالى افتتحها بذكر الايمان واختتمها بالاسلام ، لبيان أن الايمان بدون الاخير لا ثمرة فيه ، وللاعلام بأن الاسلام هو الدستور في الحياة ، والمنهج في الدنيا ، وغيره باطل لا ثمرة فيه .

الثاني عشر : انما نفى عزوجل القبول بصيغة المجهول في قوله تعالى : « فلن يقبل » للاشارة إلى أن غـير الاسلام لا يفيد في النظامين التكويني والتشريعي ، ولعل هذا هو السر أيضـاً في إتيان (لن) في النفي الدالة على التأبيد فيه .

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة » . قال : فان الله أخذ ميثاق نبيه ، أي محمد (صلى الله عليه وآله) على الأنبيـــاء أن يؤمنوا به وينصروه ، ويخبروا أممهم بخبره .

أقول : وذلك لأن محمداً (صلى الله عليه وآله) العلة الغائية لخلق العالم من النبيين وغيرهم ، وشريعته أكمل الشرايع وأفضلها ، فيجب الاهتمام به بأخذ الميثاق من كل النبيين على كل الامم ، وهذه الروايات شارحة لمعنى الميثاق الوارد في الآية الشريفة .

وفي المجمع عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في الآية « إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا أن يخبروا أممهم بمبعثه ونعته ويبشروهم به ، ويأمروهم بتصديقه » .

وفي الدر المنثور أخرج إبن جرير عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : لم يبعث الله نبياً آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنّه ، وأمره بان يأخذ العهد بذلك على قومه ، ثم تلا : «وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ـ الآية ـ » .

وفي المجمع ، والجوامع عن الصادق (عليه السلام) في الآيـــة مامعناه : « وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين كل أمة بتصديق نبيها ، والعمل بما جاءهم به ، فما وفوا بـه ، وتركوا كثيراً من شرايعهم

وحرّفوا كثيراً » .

اقول : الميثاق من الامور الاضافية ، من النبيين على الأمم . ومن الأمم للنبيين على العمل بما جاءوا به ، والروايات تشرح بعض جهات الميثاق وتبين بعض المصاديق ، ولكن الآية شاملة للنبيين على الأمم ، وبالعكس ، وقد تقدم في التفسير ما يشيرالى الرواية الاخيرة أيضاً ، فراجع .

وفي تفسير العياشي عن زرارة قال : « قلت لأبي جعفر (عليه السلام) : أرأيت حين أخذ الله الميثاق الذر في صلب آدم فعرضهم على نفسه كانت معاينة منهم له ؟ قال (عليه السلام) : نعم يازرارة ذرّ بين يديه وأخذ عليهم بذلك الميثاق بالربوبية ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالنبوة ، ثم كفّل لهم بالارزاق ، وأنساهم رؤيته ، واثبت في قلوبهم معرفته ، فلابد من ان يخرج الله الى الدنيا كل من أخذ عليه الميثاق ، فمن جحد مما أخذ عليه الميثاق لمحمد (صلى الله عليه وآله) لم ينفعه اقراره لربه بالميثاق ، ومن لم يجحد ميثاق محمد نفعه الميثاق لربه » .

أقول : الرواية تشتمل على جهات من الكلام . أما قوله (عليه السلام) : « حين أخذ الميثاق الذرفي صلب آدم » فانه ظاهر في أن الميثاق كان في عالم الذر ، ولكن لا يظهر من الحديث اختصاصه بهذا العالم .

وأما قوله (عليه السلام) : « كانت معاينة منهم له » فانه ليس المراد المعاينة الحسية ، بل المراد المعاينة المعنوية بأن أفاض عز وجل عليهم ما يدركون به أنه خالقهم ومبدأهم ومعيدهم .

وأما قوله (عليه السلام) : « ذر بين يديه » أي بين يدي الله

تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد بين يدي آدم ، أي قدّامه بحيث انه (عليه السلام) يراهم بوجودهم الجمعي ، كما في بعض الروايات.

وأما قوله (عليه السلام) : « الميثاق بالربوبية ، ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالنبوة » . فقد تقدم وجه ذلك ، وأن أخذ الميثاق بالنبوة لمحمد (صلى الله عليه وآله) يرجع إلى أخذ الميثاق لجميع النبيين ، كما عرفت في التفسير .

وأما قوله (عليه السلام) : « ثم كفّل لهم بالارزاق » فان الرزق أعم من المادي والمعنوي ، وكل ما يكمّل به الإنسان روحاً وجسماً .

وأما قوله (عليه السلام) : « وأنساهم رؤيته » فانه لاجل توارد الصور الجسمانية عليهم ، وتوغلهم في الماديات ، فنسوا ذكر الله تعالى ويمكن أن يراد به الإنساء لانهم لو كانوا متوجهين اليه تعالى في كل طرفة عين وآن لاختلّ نظامهم الجسماني في الدنيا ، وفي بعض الآثار بمعصية إبن آدم عمرت العالم .

وأما قوله (عليه السلام) : « وأثبت في قلوبهم معرفته » فان المراد به الفطرة التي فطر الناس عليها ، وتظهر بعد ارتفاع الحجب الجسمانية ، والاغشية الظلمانية .

وأما قوله (عليه السلام) : « فلابد من أن يخرج كل من أخذ عليه الميثاق » . فلأن عهد الله غير قابل للتغيير والتبديل .

ويستفاد من قوله (عليه السلام) : « فمن جحد مما أخذ عليه الميثاق لمحمد (صلى الله عليه وآله) أن الميثاق المأخوذ بالتوحيد ، والميثاق المأخوذ بالنبوة واحد » لفرض أن الثاني شارح ومبيّن للأول.

وفي تفسير القمي عن ابن مسكان عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : « ما بعث الله نبياً من ولد آدم فهلم جرا إلا ويرجع إلى الدنيا

وينصر أمير المؤمنين (عليه السلام) . وهو قوله « لتؤمنن به » يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله) . « ولتنصرنه » يعني أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ثم قال لهم في الذر : « أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري » أي عهدي « قالوا أقررنا » قال الله للملائكة : « فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

أقول : وفي سياق ذلك جملة من الأخبار ، وهي تدل على تحقق الرجعة ، ويأتي شرحها مفصلاً إن شاء الله تعالى . ويمكن أن تحمل الرواية على مرتبة من مراتب التأويل ، وهو شيء ، وظاهر الآية الشريفة شيء آخر ، ويدل على ما ذكرناه ما رواه العياشي عن سلام ابن المستنير عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : لقد تسموا باسم ما سمى الله به أحداً إلا علي بن أبي طالب وما جاء تأويله . قلت : جعلت فداك متى يجيء تأويله ؟ قال (عليه السلام) : إذا جاء جمع الله أمامه النبيين والمؤمنين حتى ينصروه ، وهو قول الله : وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ـ إلى قوله ـ وانا معكم من الشاهدين » .

وفي المجمع عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى : « أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ». قال (عليه السلام) : أأقررتم واخذتم العهد بذلك على أممكم . قالوا اي الانبياء وأممهم : أقررنا بما أمرتنا بالاقرار به ، قال الله : فاشهدوا بذلك على أممكم ، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى اممكم » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى : « فاشهدوا » . يقول : فاشهدوا على أممكم بذلك ، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم ، فمن تولى عنك يامحمد بعد هذا

العهد من جميع الأمم فاولئك هم الفاسقون ، هم العاصون بالكفر».

أقول : الروايتان تدلان على أن المخاطب في الآية الشريفة هم النبيون ، ورواية القمي المتقدمة تدل على أن المخاطب الملائكة ، ولا منافاة بينهما لتعميم الخطاب بالنسبة إلى الجميع ، والآية ليست في مقام الحصر .

وفي التوحيد روى الصدوق عن ابن بكير عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال : « سمعته وهو يقول في قوله عزوجل : « وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً » . قال (عليه السلام) . هو توحيدهم لله عزوجل » .

أقول : روى مثله العياشي أيضاً ، والحديث يدل على أن المراد بالاسلام التوحيد الاعم من التكويني والاختياري ، لأن الجميع مجبولون على التوحيد فطرة .

وفي المجمع في الآية : إن معناه إكراه أقوام على الاسلام، وجاء أقوام طائعين . قال : كرهاً ، أي فرقاً من السيف » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « طوعاً وكرهاً » أي فرقاً من السيف » .

أقول : قد تقدم في التفسير ما يستفاد ذلك أيضاً .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً الآية ـ » أخرج أحمد ، والطبراني في الاوسط عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « تجيء الاعمال يوم القيامة ، فتجيء الصلاة ، فتقول : يارب أنا الصلاة ، فيقول : إنك على خير ، وتجيء الصدقة ، فتقول : يارب أنا الصدقة ، فيقول : إنك على خير . ثم يجيء الصيام . فيقول : أنا الصيام . فيقول : إنك

على خير ، ثم تجيء الاعمال كل ذلك يقول الله : إنك على خير ، بك اليوم آخذ ، وبك أعطي ، قال الله في كتابه : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

بحث كلامي

الآيات الشريفة التي تقدم تفسيرها من جملة الآيات الكثيرة التي دلت على ثبوت عالم العهد والميثاق ، وهي من جلائل الآيات التي وردت في هذا الموضوع فقد تكفلت ولو على سبيل الإيجاز لبيان العهد والمأخوذ منه العهد ، ومن أخذ له العهد ، والغاية منه ، وأثره على الإنسان ، وتأثيره في بقية العوالم التي يرد عليها الإنسان ، وقد وردت أحاديث في السنة الشريفة ، تبين بعض الجوانب التي تتعلق بهذا العالم الذي هو من العوالم الربوبية المتعددة .

ولكن لم يعلم ان أخذ العهد كان في عالم الذر الأول ، أو في عالم الذر الثاني ، كما لا يعلم الزمان والمكان الذي أخذ فيه الميثاق، ولذلك اختلف العلماء فيه فبعضهم عبر عنه بالثابتات الازلية وآخر يقول انه الاعيان الثابته ، وثالث انه عالم المثل الافلاطونية ، ورابع اعتبر انه عالم المثال المنفصل . وخامس انه عالم الاشباح والاظلة ، والجميع يريدون التوصل إلى معرفة هذا العالم الذي اقصى ما يمكن القول فيه انه من الغيب ولا يمكن الاطلاع عليه إلا لذوي النفوس القدسية الزكية التي يفاض عليها من عالم الغيب بقدر الاستعداد .

ويرجع الميثاق إلى المعارف اللائقة للانسان التي لابد أن يتلقاها في

جميع النشئات التي يمكن أن يرد عليها إتماماً للحجة ، وايضاحاً للمحجة والآخذ للميثاق هو الله تعالى والمأخوذ منه الانسان في أي عالم يمكن أن يرد عليه ، والمأخوذ هو حقائق الكتاب والحكمة وأصول المعارف الحقة التي يجب أن يتحلى بها الانسان الكامل ، وبعبارة أخرى المأخوذ هو الحق المطلق الذي يكون غاية خلق العالم بروحانياته وجسمانياته ، ولاجل عظمة هذا العهد المأخوذ اهتم به سبحانه لانه مرآت الكمال المطلق ، وقد أظهره سبحانه في كتابه الكريم لمصالح كثيرة .

وغاية ما يمكن أن يقال انه حادث مسبوق بالعدم ، ولكنه أبدي دائم بدوام الله تعالى ، تتبدل صوره بحسب تبدل النشئات ، فان العلم الازلي الأتم الاكمل الذي هو عين ذاته الأقدس من جملة مراتبه ، حيث يكون الكل فيه واحداً ، ومجرداً عن الزمان والمكان .

وله مراتب كثيرة ففي مرتبة يكون في مقام العلم بالنظام الاحسن وفي مرتبة اخرى عهد وعمل ، وفي مرتبة ثالثة جنة ورضوان ، كما انه الغاية من بعث الانبياء والرسل ، وخلق الجنة والتحذير عن النار ، ويصح أن يعبر عنه بالفلسفة العملية المعروفة بين الفلاسفة الإلهيين ، كما انه التجلي الجلالي والجمالي ، وعالم الجمع مقابل عالم التفريق ـ وهو العالم الذي نحن فيه ـ إذا لوحظ الجمع والتفريق بالمعنى الاضافي النسبي وهو الفطرة التي فطر الله عليها والوجوه الجامعة بين جميع الاديان الالهية ، فيكون التخلي عنها خروجاً عن الفطرة وفيه فساد العالم ، وخسران بني آدم ، فلا يفيد الانسان شيئاً آخر غيره ، كما قال تعالى في آخر الآيات المتقدمة « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

بحث عرفاني

لا ريب في أن الإنسان أشرف الموجودات بل هو اجلّها واعظمها فهو النوع الأتم الأكمل لسائر الانواع الممكنة ، وكيف لا يكون كذلك وقد تباهى الله عزوجل به على سائر المخلوقات في قوله تعالى « فتبارك الله احسن الخالقين » في نظام خلقه الجسماني فضلاً عن روحانيته المقدسة التي خرّت الاملاك ساجدة لها ، فهو مظهر جميع النشآت الممكنة في عالمي الغيب والشهادة ، وفي مثل هذه الاعجوبة التي حارت العقول فيها لابد أن يتجلى الله تعالى لها في كل نشاته ، فان المعية التي اثبتها سبحانه وتعالى للانسان في قوله : « وهو معكم أينما كنتم » ليس المراد بها المعية الزمانية أو المكانية في عالم الدنيا فقط ، بل المعية المطلقة في كل العوالم ، فان لله تعالى اطواراً من التجليات منها عالم الميثاق ، ومنها عالم الذر ، وعالم الشهادة ، وقد حصلت من هذه التجليات جذبة روحانية للانسان الى الله تعالى ، فهو عزوجل محبوبه في تمام حالاته وجميع نشئاته ، ولكن الحجب الجسمانية الظلمانية تحجبه عن الوصول الى المحبوب ، وفي عالم الميثاق تجلى الله تعالى فيه وأخذ عزوجل من الإنسان العهود المؤكدة بالنسبة الى معرفة خالقه وتوحيده ، والايمان برسله وما ينزل عليهم ، ليكون على معرفة في جميع العوالم التي يرد عليها عارفاً لمبدئه ومعاده ، ومنهجه في الحياة وعاقبته ، ويصح للعارف المطلع على الاسرار أن يعبّر عن عالم الميثاق بالتجلي الجمالي والجلالي لله تعالى ، ولكن الحجب الظلمانية المانعة عن

مشاهدة عالم الميثاق ، وحجب الابتعاد عن ما عوهد عليه الانسان كثيرة تختلف قلة وكثرة بالنسبة إلى النفوس ، ففي نفس تكون لاجل عدم فعالية القوى المدركة ، والاختصاص بالآلات الجسمانية فانها نحو حجاب ظلماني بالنسبة إلى درك ذلك العالم . ومن انسلخ عن هذه المرتبة ، فقد أزال عن نفسه حجاباً من الحجب ، كما أن التقرب إلى ساحة الحبيب ، والدخول في تجلياته عزوجل لا يكونان إلا بالعبودية الخالصة والخلوص لديه ، وقد ذكرنا أن عالم الميثاق من مظاهر تجلياته عزوجل والاشتغال بالوفاء عما أخذ منه العهود من آثار هذا التجلي الالهي .

ثم ان عموم قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » يشمل جميع المفتعلات التي ليست على طريقة الاسلام وهديه تماماً فيشمل كل ما ينسب إلى الدين ولو مع الواسطة ان لم يطابق الظواهر المقدسة الشرعية ، ولعله لذا ورد النهي عن التعمق في الدين ، بل عدّ في بعض الروايات من جنود الجهل والنفاق فان التسليم والاستسلام لما انزله الله تعالى شيء والتعمق شيء آخر .

والآية المباركة تنفي كل المذاهب المنسوبة إلى الطوائف الصوفية وجميع اعمال المرتاضين الذين يرتاضون على غير ظاهر الاسلام .

وبالجملة : فانها بعمومها تنفي كل مذهب ودين غير الاسلام الذي كان عليه سيد الانبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) وما بينه القرآن الكريم .

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) .

الآيات الشريفة لا تخلو عن الارتباط بالآيات المباركة المتقدمة ، فانه تعالى بعد ان بيّن حقيقة الدين الذي يجب اتباعه وانه الاسلام الذي بعث به جميع الانبياء وأخذ عليه الميثاق ، وبيّن ان غيره باطل لا يقبل منه .

ذكر عزوجل في هذه الآيات حال الكافرين به والظالمين الذين خرجوا عن هدايته سبحانه وتعالى واتبعوا اهواءهم وفسقوا بالخروج عن الميثاق الذي أخذ منهم ، وبيّن جزاءهم بأن اوعدهم سوء العذاب

وسجّل عليهم لعن مَن في السماوات والارض .

وفي معرض الكفر والايمـان قسّم سبحانه وتعالى الكافرين إلى اصناف ثلاثة ، فمنهم مَن يقبل توبته اذا رجع إلى الحق وانكر الباطل واصلح نفسه واتبع الاسلام ، ومنهم مَن ضل عن الصراط المستقيم واصّر على الكفر وتوغل فيه ، فهؤلاء افلتت منهم الفرصة فان الله لا يقبل توبتهم ومنهم مَن مات على الكفر ولم يؤمن به تعالى فلن تقبل منهم فدية ولو كانت ملء الارض ذهباً فانهم مخلدون في العذاب وما لهم من ناصرين .

التفسير

قوله تعالى: كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم .

كيف لفظ استفهام يفيد الاستبعاد والجحد والانكار . ويراد به استحالة الهداية نظير قوله تعالى : « كيف للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » التوبة ـ ٧ أي : يستحيل ان يكون لهم العهد .

والمعنى : انه لا طريق لهم يهديهم إلى الحق الا ما يريده الله عز وجل وقد كفروا به لانه تعالى اقام الدلائل الواضحة والحجج القويمة على الدين الحق وهم قد تركوه واعرضوا عنه باختيارهم فهم قد ابعدوا انفسهم عن الالطاف الالهية ، والتوفيقات الربانية التي هي سنة الله تعالى في هداية البشر إلى الحق وقد حرموا انفسهم عن الكمال .

والآية الشريفة [illegible] ان كافة [illegible] الهداية [illegible] مطلقا [illegible] لكن

ذيل الآية يدل على ان الهداية تستحيل مع تلبسهم بالظلم قال تعالى : « والله لا يهدي القوم الظالمين » فان الوصف فيه مشعر بالعلية اي لا يهديهم مع وجوده فيهم لانه من الجمع بين النقيضين المستحيل عقلاً فاذا رجعوا عنه بالتوبة الصادرة عن القلب فلا ينافي هدايته عز وجل لهم .

وفي الآية الشريفة إيئاس للنبي (صلى الله عليه وآله) من ايمانهم لانهم رأوا الهدي فنكبوا عنه وشهدوا الحق فاعرضوا عنه فاستحقوا جزاء الظالمين بطبيعة اختيارهم .

قوله تعالى : وشهدوا ان الرسول حق .

عطف على معنى الفعل في « ايمانهم » اي بعد ان آمنوا وشهدوا ان الرسول حق . والواو للحال والجملة حالية بتقدير (قد) .

والمراد بهم إما اهـل الكتاب فتكون شهادتهم هي الاعتراف بالدلائل الواضحة على صدق الرسول كما يدل عليـه قوله تعالى : « وجاءهم البينات » أو اهل الردة ، فشهادتهم تكون إقراراً منهم بالرسالة عن معرفة بحقية الرسول وصدق ما جاءتهم البينات فلا يكون اقرارهم اقراراً صورياً .

قوله تعالى : وجاءهم البينات .

البينات ـ جمع بينة مؤنث البين ـ وهي الدلائل الواضحة والحجج القويمة والبراهين الناطقة على حقية الرسول وصدقه سواء كانت هذه الدلائل هي الآيات القرآنية الدالة على صدق الرسول وصحة دعواه ، أو المعجزات الباهرات ، أو البشارات التي وردت في الكتب السماوية وصدقها العارفون بها فيكون كفرهم بعـد وضوح الحق وقيام

الحجة مكابرة للحق وعناداً منهم معه وعن بغي ولذلك كانوا ظالمين وقد استحبوا العمى على الهدى وآثروا الظلام على النور .

قوله تعالى : والله لا يهدي القوم الظالمين .

برهان قويم على عدم هدايتهم ، وقد أقـام عزوجل الوصف (الظالمين) مقام الضمير لبيان العلة في حرمانهم عن الهداية وهي الظلم الذي هو العدول عن الطريق الذي يجب سلوكه في الاهتداء إلى الكمال المنشود ، ولا يهتدي معه صاحبه إلى الفلاح والنجاح . ولكن ذلك لا ينافي هدايته عزوجل لهم بعد رجوعهم عن الظلم وتبريهم من الكفر .

ثم ان الظلم إما ان يكون قبل الدخول إلى الاسلام فيمحى بالاسلام ولا يبقى له اثر فان الاسلام يجب ما قبله . وإما ان يكون بعد الاسلام مع البقاء على الظلم والتلبس به فيكون الاسلام منه صورياً ومن مجرد الاقرار اللساني ولا يترتب على هذا الاسلام اثر بل يترتب عليه آثار الكفر والنفاق ، أو يكون الظلم مسبوقاً بالاسلام وهو الارتداد، أو يكون مسبوقاً بالاسلام ثم لا يزول حتى يموت . وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الاقسام في الآيات اللاحقة بعد اجمالها في هذه الآية الشريفة .

قوله تعالى : اولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

اولئك مبتدأ ، وجزاؤهم مبتدأ ثان وجملة « ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » خبر المبتدأ الثاني ، والجملة من المبتداء والخبر خبر للمبتدأ الاول .

واستحقاقهم هذا الجزاء وهو اعن جميع مَن في السموات والارض

لخبث ذواتهم وانطباع قلوبهم على الكفر ، فهم آيسون من رحمة الله تعالى مطرودون عن هدايته وتوفيقاته ، ولان الخارج عن الهداية والمارق عن الانسانية الكاملة التي خلق الله تعالى الانسان لاجلها يستحق لعن كل لاعن وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » البقرة ـ ١٥٩ ما يتعلق بعود جميع اقسام اللعنة عليهم والمقام تفصيل لما اجمله عزوجل هناك .

ولعن الله تعالى لهم طردهم عن رحمته والدخول في سخطه كما ان لعن الملائكة هو الدعاء عليهم باللعنة ، واللعن من الخلق السبّ والدعاء عليهم ، وقد اذن عزوجل للناس بالدعاء عليهم باللعنة وهم إما المؤمنون خاصة فهو واضح لانهم يلعنون الكافرين أو المطلق فلان كل واحد من افراد الانسان يعلم بأن مَن لم يتبع الحق يستحق اللعن بل يلعن نفسه في حاق الواقع أيضاً لانه يعلم ان خلاف الحق باطل ولكن جهله المركب منعه عن درك ذلك .

قوله تعالى : خالدين فيها .

اي في اللعنة والطرد عن رحمة الله تعالى ، واللعنة عليهم تستلزم دخولهم النار ، فيمكن ارجاع الضمير في « فيها » إلى النار المستفاد من السياق ، اذ لا فرق في رجوع الضمير إلى السبب التام أو المسبب منه.

والجملة حال من الضمير في « عليهم » . وخلودهم فيها إيئاس لهم عن الهداية والتوفيق لملازمتهم للظلم .

قوله تعالى : لا يخفف عنهم العذاب .

بيان للخلود الذي استحقوه لخبث في ذواتهم ورسوخ حب الظلم في نفوسهم فالعذاب يدوم بدوام علته .

قوله تعالى : ولا هم ينظرون .

الانظار الامهال ، كناية عن انهم لا تنالهم الرحمة ولا يؤخر عنهم العذاب يوم القيامة فان المسبب لا يمكن ان يتخلف عن السبب الذي هو الظلم وخبث الذات .

قوله تعالى : الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا.

استثناء ممن ذكر سابقاً ، والمراد من « بعد ذلك » من بعدالكفر و « اصلحوا » اي صاروا صالحين وأتوا بالعمل الصالح ـ كقولهم « أغدّ البعير اي صار ذا غدة » ـ بقرينة سائر الآيات التي جمع فيها بين الايمان والعمل الصالح والبقاء عليه.

والمراد من التوبة البقاء عليها قلباً وعملاً ، فان الذنب كبير لا يكفي فيه مجرد الندم بل لابد من كون التوبة نصوحاً يظهر اثرها على الجوارح.

قوله تعالى : فان الله غفور رحيم .

اي : فان الله يغفر لهم ذنوبهم ليزكي به نفوسهم ويرحمهم بالرضا والثواب والدخول في رضوانه وجنته .

والجملة تعليل لما دل عليه الاستثناء وضع فيها العلة موضع المعلول تأكيداً ، ولبيان ان رحمته ومغفرته لازمتان لمن كان اهلاً لها .

قوله تعالى : ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً .

بيان للصنف الثاني من الكافرين وهم الذين انغمروا في الضلالة والكفر بعد ظهور الحق وتمام الحجة ، فانه لا سبيل لهم للصلاح ولا مطمع في اهتدائهم فلا يهديهم الله تعالى ولا تقبل توبتهم بعد الكفر لاستهزائهم بالدين واحكام الشرع المبين فهم أصروا على العناد وصدوا

عن سبيـــل الله تعالى واحلوا نفوسهم دار البوار وازداد الطغيان في نفوسهم لممارستهم الملكات السيئة .

ومن ذلك يعلم ان ذكر هذا الصنف بعد قوله تعالى : « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم » يكون من تطبيق الكلي على بعض مصاديقه فلا مجال للاشكال في عدم قبول التوبـة ، لمنافاته للآيات الكثيرة الدالة على قبول التوبة مطلقا قال عزوجل : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون » الشورى - ٢٥ وكذا السنة الشريفة الدالة على قبول التوبة حتى قبـل حضور الموت وقد تقدم في بعض مباحثنا تفصيل ذلك .

وملخص الكلام : ان التوبة مقبولة مطلقـاً الا اذا اسقط التائب نفسه عن قبولها وهذا الصنف وما ياتي من هذا القبيل . نعم لو آمن ثم ارتد وكفر ثم تاب فعن جمع من الفقهاء تبعاً لبعض الروايات عدم قبول توبته أيضاً . لكن صرح المحققون منهم تبعاً للعمومات والاطلاقات بقبول توبته أيضاً الا في الاحكام المختصة كقتله ، وبينونة زوجته ، وتقسيم تركته بين ورثته . ولكن هذا الفرد (الفطري) خارج عن مفهوم الآية الشريفة إذ ليس فيه العلة في عـــدم قبول توبته وهي الازدياد في الكفر ، بل هو كفر واحد بعد الايمان .

قوله تعالى : لن تقبل توبتهم

نفي مؤبد لقبول التوبة في المستقبل ، لانهم ازدادوا كفراً واصروا على العناد واللجاج وهم على ضلالة فلا تقبل توبتهم .

وانما عدل سبحانه وتعالى عن قول « لا تقبل توبتهم » إلى « لن تقبل توبتهم » للاشارة إلى ان توبتهم المستقبلة والمتأخرة لن تقبل

منهم ابداً . لانها لا تصدر عن خوف من الله تعالى ، بل هي تصدر عن نزعات النفس الامارة والاستهزاء بالحق ، والا فان التوبة الصادقة المنبعثة عن الخوف من الله عزوجل والتقوى مقبولة حتى قبل حضور الموت كما هو ظاهر اطلاق الآيات الشريفة وصريح جملة من الروايات.

قوله تعالى : واولئك هم الضالون .

الضالون المخطئون طريق النجاة والمعرضون عن الحق اي هم كذلك في مدة حياتهم ، ومن تحقق الحصر ، واتيان الاشارة البعيدة (اولئك) وتأكيد الجملة بالضمير المنفصل (هم) ووجود اللام في الخبر واسميته كل ذلك يدل على تأكيد الضلال وتمكنه فيهم وهو راسخ فيهم فلا يرجى هدايتهم .

والآية الشريفة تشمل علي علة عدم قبول توبتهم وهي الضلال الناشيء من ازدياد الكفر .

قوله تعالى : ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار .

هؤلاء هم القسم الثالث من اقسام الكافرين وهم الذين لا تقبل توبتهم لاجل انهم ماتوا على الكفر والعناد وموتهم على الكفر كناية عن فوت التوبة عنهم في مدة حياتهم بخلاف الطائفتين السابقتين ؛ فان الاولى تابت عن الكفر توبة نصوحاً ولم تعد اليه والثانية تابت عن الكفر ثم رجعت إلى الكفر وازدادت كفراً ، وهذه الطائفة لم تتحقق منهم التوبة في مدة حياتهم ابـداً فلا يستحقون المغفرة والرحمة ولا يهديهم الله تعالى في يوم القيامة وان حاولوا الافتداء عما فعلوه في الدنيا لتقبل توبتهم .

قوله تعالى : فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً .

ملء الشيء (بالكسر) مقدار ما يملؤه وفي الدعاء « لك الحمد ملء السموات والارض » ومعناه لو قدر ان تكون كلمات الحمد ، اجساماً لبلغت من كثرتها ان تملأ السموات والارض فالمراد التمثيل لكثرة العدد والا فالمكان ليس ظرفاً للكلام وإن كان ظرفاً للمتكلم .
والملاء (بالفتح) مصدر ملأه ملأً .

وقد شبه عزوجل الارض بالاناء الذي يملأه الذهب فتضمن الكلام استعارة بليغة ، وانما ذكر عزوجل ملء الارض ذهباً لانه غاية ما يعظم عند الانسان فيبذله للخلاص .

وانما دخلت الفاء في خبر « إن الذين كفروا » هنا ولم تدخل في الآية السابقة مع ان الآيتين سواء في ذلك ، لخروج المبتدأ ـ في المقام ـ باعتبار صلته مخرج الشرط بخلاف الآية السابقة .

قوله تعالى : ولو افتدى به .

اي : ولو قدم ذلك بعنوان الفداء في الآخرة ، وانما ذكره سبحانه وتعالى في هذه الطائفة دون السابقة لان الفداء استنقاذ محبوب بمال وقد فاتتهم التوبة في الدنيا فلا يمكن استنقاذها في الآخرة بشيء وان بلغ في نظر الانسان ما بلغ في العظمة ، وفيه غاية التهويل والتخويف لانه لا خلاص لهم من الوعيد .

والواو في « ولو افتدى » قيل انها للمصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر يكون الخبر المذكور منبهاً عليه بالطريق الاولى ، ففي المقام إن افتدائهم بملء الارض ذهباً من اكثر الاحتمالات بقبول الفدية فاذا لم يقبل فالاحتمالات الاخرى اولى بعدم القبول ، ومثل ذلك كثير في

الفصيح من الكلام ، فتكون « لو » منبّهة على ان ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء وما بعدها يكون اقوى الوجوه بالقبول ، فلا يندرج في ما قبلها . فهذا التركيب يفيد هذا المعنى الدقيق .

وقيل : ان الواو للعطف والتقدير اي التفصيل بعد الاجمال . ويمكن ارجاعه إلى السابق . ويحتمل ان يكون هذا التركيب لبيان غاية التهويل والتخويف . والظاهر ان بين جميع ما ذكر في المقام تلازم في الجملة .

قوله تعالى : اولئك لهم عذاب اليم .

مبالغة في التحذير ، ونهاية بُعدهم عن التوبة واستعدادهم لها وإيئاسهم عن جميع ما يمكن ان يتوسل به لدفع العذاب .

قوله تعالى : وما لهم من ناصرين .

نفي للانتفاع بالشفعاء الذين قد يتشفعون بهم في دار الدنيا وينصرونهم فلا تلحقهم الشفاعة المعدة لاهل الذنوب والمعاصي في يوم القيامة . و(من) تدل على استغراق النفي وعمومه لجميع افراد الناصرين لكل واحد منهم ولجميعهم بالاولى .

بحث دلالي

يبين عزوجل في قوله تعالى : « كيف يهدي الله قوماً كفروا .. » قاعدة كلية اثبتها علماء الفلسفة العملية - وذكرها علماء الاخلاق في كتبهم - واستدلوا عليها بأدلة كثيرة عقلية ونقلية وهي ان الرذائل

النفسانية انما ترسخ في النفس بممارستها ومزاولتها وعدم الاعتناء برفعها وازالتها وتطهير النفس عنها ، فاذا رسخت لا تزول الا بصعوبة شديدة ومتاعب مريرة بل لا يمكن زوالها في بعض النفوس وان امكن تخفيفها ولكنها تعود بين حين وآخر وتظهر آثارها ، لكون اصلها في الذات ، فاذا رسخ الكفر مثلاً في النفس فانه لا ينفعه الايمان فلو آمن وشهد الحقيقة والرسول واياته وبيناته ثم كفر يكشف كفره هذا عن رسوخ ملكة الكفر في نفسه ولا تزول الا بالتطهير اي التوبة النصوح المقارن مع الصلاح والاصلاح . ولأجل هذا اكد سبحانه وتعالى على الصلاح في هذه الآية الشريفة . وهي كبرى تنطبق على الاقسام التالية التي يذكرها سبحانه وتعالى في ذيل الآية المباركة ، كما عرفت في التفسير ، فيكون لفظ « كيف » للتعجب الانكاري اي الامتناع العادي .

بحث روائي

في المجمع في قوله تعالى . « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ـ الى قوله تعالى ـ الا الذين تابوا » قيل نزلت الآيات في رجل من الانصار يقال له الحارث بن سويد بن الصامت وكان قتل المحذر بن زياد البلوي غدراً وهرب وارتد عن الاسلام ولحق بمكة ثم ندم فارسل الى قومه ان يسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) هل لي من توبة ؟ فسألو فنزلت الآيات المتقدمة فحملها اليه رجل من

قومه فقال : اني لأعلم انك اصدوق وان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصدق منك ، وان الله تعالى اصدق الثلاثة ورجع الى المدينة وتاب وحسن اسلامه » وقال الطبرسي وهو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) .

اقول : روى قريباً منه السيوطي في الدر المنثور .

وفي الدر المنثور أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ارتد رجل من الانصار عن الاسلام ولحق بالشرك فندم فأرسل الى قومه ان يسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل لي من توبة فاني ندمت ؟ فنزلت : « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم ـ الى قوله تعالى ـ الا الذين تابوا » فكتب بها قومه اليه فرجع فاسلم» .

اقول: يمكن أن يكون سبب النزول متعدداً .

وفي الدر المنثور عن عطاء في قوله تعالى : « ان الذين كفروا بعد ايمانهم » قال : « نزلت في اليهود كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا كفراً ببعثة محمد (صلى الله عليه وآله) والقرآن » .

وفي اسباب النزول للواحدي عن أبي العالية في الآية : « انها نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد (صلى الله عليه وآله) بعد ايمانهم بنعته وصفته ثم ازدادوا كفراً باقامتهم على كفرهم » .

اقول : بعد كون دين الله واحداً في اصل التوحيد والنبوة والمعاد فلا فرق بين ان آمن بنبي واحد ثم كفر به أو آمن صنف بنبي خاص أخبر بالنبي ثم كفروا بالنبي اللاحق فتنطبق الآية الشريفة على كل منها بعد وحدة المناط فيها .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

بعد ان ذكر سبحانه وتعالى جملة من احوال الكافرين ، وبيّن الميثاق الذي أخذ منهم وحاجهم في ما ادعوه من الايمان . ثم سرد أقسام الكافرين وبيّن ان قسماً منهم تقبل توبتهم اذا كانوا في مقام الاصلاح وأتوا بالعمل الصالح .

يذكر عزوجل في المقام ان الايمان لابد وان يقترن بالعمل بالاحكام الالهية التي انزلها الله تعالى على رسله وان الميزان الصحيح هو متابعة ملة ابراهيم ونبذ الشرك والكفر والعناد وان من اهم مظاهر الايمان والعمل الصالح هو الانفاق في سبيل الله تعالى بل ان البر هو الثمرة الظاهرة للايمان فلابد ان يقترن ذكره لان البر يكشف عن محبة الله تعالى والزهد في حطام الدنيا والرغبة الى ثوابه عزوجل ورضائه ، فمن آثر شهوة المال وجمعه كان ممن آثر حب الدنيا على محبة الله تعالى، فالانفاق في سبيل الله تعالى هو الميزان الفارق بين الايمان الحقيقي والادعائي .

ثم بين بعض مفتريات اليهود على الله تعالى وفنّد مزاعمهم ووبّخهم على التعدي في احكام الله والشرك به واوعدهم العذاب .

التفسير

قوله تعالى : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

النيل هو الاصابة والوصول وفي الحديث : « خرج بلال بفضل وضوء النبي (صلى الله عليه وآله) فبين ناضح ونائل » اي مصيب منه وآخذ .

والبر هو كل ما يصح ان يتقرب به الى الله تعالى من الخير والاحسان والفعل المرضي ، ومن اسمائه تعالى « البر » بالفتح اي العطوف على عباده ببره ولطفه وتقدم في قوله تعالى : «ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » البقرة ـ ١٧٧ بعض ما يتعلق باشتقاق هذه الكلمة.

والمشهور ان الخطاب للمؤمنين ولكن يمكن ان يكون الخطاب للجميع لاسيما بعد ورود هذه الآية بعد الآيات التي بينت اقسام الكافرين وما سيذكره عزوجل من بيان خلاف اليهود وافترائهم .

والمراد بنيل البر هو الدخول في زمرة الابرار والوصول الى الدرجات العالية والثواب الجزيل الذي اعده الله تعالى لهم ، وقد اختلف المفسرون في المراد بالبر الذي يناله المنفق في المقام ، فقيل انه الجنة ، وقيل انه بر الله تعالى واحسانه ، وقيل غير ذلك ولكن كل ذلك يرجع الى ما ذكرناه ، وما ذكروه يكون احد افراده .

والبر كما يشمل الافعال الخيرة كعبادة الله تعالى والطاعة له عزوجل

أيضاً ما هو فعل القلب كالايمان بالله عزوجل وكتبه ورسله، والاعتقاد الحق، والنية الصادقة، وتهذيب النفس بمكارم الاخلاق ويدل عليه قوله تعالى: « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » البقرة ـ ١٧٧ . فانه تعالى جمع القسمين من البر: الافعال القلبية والافعال الجوارحية .

كما أن الانفاق عام يشمل الانفاق من الاموال وغيرها، ولكنه بقرينة ما يأتي يختص بتلك الاشياء التي يرغب اليها الانسان ويعتز بها الافراد ويهواها ويحبها، وهو يعم المستحب وغيره، ولا معنى للنسخ حينئذ، لان وجوب بعض افراد الانفاق لا ينافي استحباب بعضها الآخر.

وانفاق المحبوبات والمشتهيات في سبيل الله تعالى من أعظم ما يختبر به الايمان الصحيح عن الايمان الفاسد، لان فيه يظهر الاعتزاز بالايمان بالله ومحبته عزوجل التي لابد أن تعلو على محبة الاموال وغيرها التي يعتز بها الانسان وتشح بها نفسه ويرغب في ادخارها، فهو كاشف عن رضى الله تعالى والرغبة في ثوابه والايمان الصادق، فيكون الانفاق في حبه براً يرضاه الله تعالى بالشروط التي ذكرها عزوجل في آيات الانفاق في سورة البقرة

وذكر بعض المفسرين انه يفهم من الحصر المستفاد من النفي والاثبات ـ اي: من اثبات البر في الانفاق ونفيه عن غيره، وان الانفاق غاية لا ينال البر الا بها ـ أن من انفق مما يحب كان براً وان لم

يأت بسائر شعب البر من الايمان بجميع اركانه .

ولكنه باطل لان هذه الآية بانضمام سائر الآيات الواردة في الانفاق يستفاد منها ان انفاق المحبوب هو احد اركان الايمان ، وقد جمع سبحانه وتعالى الانفاق مع سائر اركان الايمان وشعبه في سورة البقرة آية ـ ١٧٧ . وانما جعل الانفاق غاية لنيل البر هنا للاهتمام به لما يترتب عليه عظيم الفائدة ، ولما فيه الآثار الكبيرة التربوية والنفسية والاجتماعية ولان الانفاق من أهم الاساليب في ترويض غريزة النفس في حب الدنيا وما فيها بحيث يكون فقد المال موجباً لتألمه بخلاف غيره ، كما قال علي (عليه السلام) : « ينام الانسان على الثكل ولا ينام على الحرب » ، وقد تقـــدم في آيات الانفاق في سورة البقرة بعض ما يتعلق به .

يضاف الى ذلك ان قوله « مما تحبون» يدل على ان الشيء الذي يبذل لابد ان يكون مرضياً لله تعالى فان الشيء الزهيد الذي لا ترضونه لا يدخل في الانفاق المحبوب ، لان القصد هو التقرب الى الله تعالى وابتغاء وجهه الكريم وهو من احد طرقه وبقية الاركان هي من شروطه .

ومن جميع ذلك يستفاد ان الالف واللام في « البر » إما للحقيقة اي حقيقة البر التي بيّنها عزوجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أو للعهد اي ذلك البر المعهود الذي جعله الله تعالى للابرار وهم المؤمنون الصادقون المتقون .

قوله تعالى : وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم .

ترغيب للانفاق ، وترهيب عن تركه وتطييب لنفوس المنفقين

وإخلاصهم ويجازيهم على ذلك ويضاعف لهم الجزاء ، كما وعدهم به فلا يخشى احد بعد ذلك عن الانفاق ، ولكن لابد من الاخلاص فيه ليفوز بالجزاء الاوفى .

وترشد الآية الشريفة إلى حسن الاخفاء في الانفاق والحث عليه، فان الله تعالى عليم به وان خفي عن الناس ولم يعلم به سوى المنفق .

قوله تعالى : كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه .

الطعام ما يطعم ويتغذى به وفي الحديث : « ما لنا طعام إلا الاسودان التمر والماء » وان كان يطلق عند اهل الحجاز على البر وخاصة وينصرف عند الاطلاق اليه عندهم ، وفي حديث أبي سعيد : «كنا نخرج زكاة الفطرة صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير »ويأتي بمعنى المطعوم.

والحل مصدر بمعنى المفعول كالحلّ مقابل العقد وهو ضد الحرام وهما قسمان من اقسام الاحكام الخمسة التكليفية ، وفي الحديث عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله : « من اكل من حلال القوت صفا قلبه ورق ودمعت عيناه ولم يكن لدعوته حجاب » .

واسرائيل هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وهي كلمة عبرانية مركبة ، ومعناها المحارب أو المجاهد في الله أو جندي الله ، وقد ذكر المؤرخون من اليهود في وجه تسمية يعقوب بهذا الاسم إنه صارع الله أو الملاك عند فنوئيل وهو اسم موضع . وهذا مما يكذبه القرآن الكريم والعقل السليم. واطلق على الاسباط الاثني عشر عموماً ، ويعرفون ببني اسرائيل وبعد ذلك صار اسماً للمملكة الشمالية التي لم تكن لقبائل يهوذا وبنيامين ، ولاوى ، ودان ، وشمعون شركة فيها . وبعد سبي

بابل اتخذ الراجعون من السبي اسرائيل اسماً لامتهم مع ان اكثرهم كانوا من مملكة يهوذا . وفي القرآن الكريم يطلق على مَن دان بدين موسى بن عمران .

والمعنى : كل الطعام بجميع اصولها كانت حلالاً لبني اسرائيل الا ما استثناه عزوجل من تحريم يعقوب على نفسه بعض المطعومات . وهذا الحكم ارفاقي امتناني بالنسبة اليهم كجملة كثيرة من الاحكام الامتنانية التي شرعها الله جل جلاله عليهم ابتداءاً ولكنهم ظلموا فحرم عزوجل عليهم بعض الطعام تأديباً لهم وعقوبة لما فعلوه من الجرائم كما حكي عزوجل في موضع آخر فقال : « فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » النساء ـ ١٦٠ .

ويستفاد من قوله تعالى « على نفسه » ان التحريم لم يكن عاماً يشمل جميع بني اسرائيل بل كان مختصاً به لاجل مصالح خاصة كانت تتعلق به .

وقد اختلف المفسرون في النوع الذي حرمه فنسب الى ابن عباس انه الشحم الباطن والكليتان وزائدتا الكبد. وعن آخر انه لحوم الانعام وعن ثالث انه حرم لحوم الابل والبانها ونقل الحاكم عن ابن عباس انه (عليه السلام) كان به عرق النساء فنذر ان شفي لم يأكل احب الطعام اليه وكان تلك احب الطعام اليه » .

ولكن نقل شيخنا البلاغي انه : « لم تذكر التوراة ان اسرائيل حرم على نفسه شيئاً بل انما تذكر ان اسرائيل ضرّب على حُقّ فخذه على عرق النساء لذلك لا يأكل بنوا اسرائيل عرق النساء إلى هذا اليوم فتوراتهم تقول ان ذلك تشريع منهم لا من اسرائيل كما في الفصل

والآية الشريفة مجملة من هذه الجهة فلم تعين شيئاً ولعل الغرض من ذلك اثبات ان التحريم كان لبعض انواع المطعومات لشخص معين لا لجميع الشعب ، وان الله تعالى قد أحل لهم جميعهـا ، فما تقوّله اليهود في هذا المجال افتراء على الله تعالى .

وقال بعض المفسرين ان المراد من اسرائيل الشعب كله كما هو شايع في الاستعمال عندهم لا يعقوب فحسب . ورد عليه : انه استعمال غير معهود في القرآن الكريم بل عند العرب في عصر النزول ، وقد ورد لفظ بني اسرائيل في ما يقرب من اربعين مورداً . مع ان ذكر بني اسرائيل اولاً شاهد على ان المراد من اسرائيل هو يعقوب (عليه السلام) ولا يتصور وجه لحذف المضاف من الكلمة الثانية في موضع الابهام والالتباس ، يضاف إلى ذلك رجوع الضمير المفرد في «على نفسه» اليه فلو كان بني اسرائيل لكان الضمير ضمير الجمع .

قوله تعالى : من قبل ان تنزل التوراة .

الظاهر انه متعلق بـ « حرم » والمعنى : ان الله تعالى لم يحرم من الطعام شيئاً على بني اسرائيل قبل نزول التوراة الا ما حرم اسرائيل على نفسه .

وذكر بعض المفسرين انه متعلق بـ « كان حلاً » . وأورد عليه بانه يلزم الفصل باجنبي وهو جملة « الا ما حرم اسرائيل على نفسه » المشعرة بتمام ما قبلها فيلزم التعقيد والابهام .

واجيب عنه بانه لا يضر الفصل بالاستثناء ، إذ هو فصل جائز لانه من متممات الكلام .

وكيف كان فالمعنى على كلا التقديرين واضح وهو اثبات الحلية العامة والحرمة الخاصة قبل نزول التوراة .

والاحتمالات في الآية الكريمة ثلاثة : الاول : إن تكون الآية الشريفة مقولة قول اليهود ، ومن مزاعمهم الفاسدة ، ويؤيده ذيل الآية المباركة « قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » الذي هو في مقام الرد عليهم بالرجوع إلى توراتهم . فيصير معنى الآية: ان بعض اهل الكتاب قالوا ان جميع المطعومات كانت حلالاً ابني اسرائيل قبل ان تحرم التوراة بعضاً منها واستثنوا من ذلك ما حرمه اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة ، فنزلت هي بتحريمه . وجميع ذلك كذب منهم وافتراء ، فان التوراة حرمت الرجس عليهم كما في العدد الثالث من الفصل الرابع من سفر التثنية ، ونصت في الفصل الحادي عشر من سفر اللاويين على حرمة الحيوانات البرية والمائية والطيور ، فكيف يكون الرجس حلالاً عليهم قبل نزول التوراة ، كما ان التوراة لم تذكر ان اسرائيل حرم على نفسه شيئاً كما عرفت آنفاً فما ذكروه افتراء وكذب .

الثاني : ان تكون الآية جملة خبرية في مقام الانشاء ، وهذا كثير شايع في المحاورة ، واعتمد عليه في علم الاصول ، نظير قوله تعالى « قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده » البقرة ـ ٧٤ وغير ذلك . وحينئذ فالآية في مقام الاستفهام الانكاري حذفت منه اداة الاستفهام لدلالة المقام عليه ، فيكون قوله تعالى : « قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » تفسيراً واثباتاً لمضمونها .

الثالث : ان يكون قوله تعالى : « كل الطعام كان حـلاً ابني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه » حكاية عن قول اليهود الذي اوردته لالقاء الشبهة على المؤمنين ، ونفي كون الاسلام دين الفطرة وعلى ملة ابراهيم ، وهي ان الرسول لو كان صادقاً لما اخبر بالنسخ

وان الله حرم الطيبات لظلمهم بعد ما كانت حلالاً لبني اسرائيل ويكون قوله تعالى : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » واردة في دفع الشبهة لاظهار كذبهم وابطال شبههم ، فامرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بتعليم من الله عزوجل بالرجوع إلى التوراة فانها الفصل في الدعوى ورد مزاعمهم وهي دالة على حلية كل الطعام فان ابيتم الاتيان بالتوراة وتلاوتها فاعلموا انكم المفترون على الله كذباً وانكم الظالمون وان الرسول هو الصادق في دعوته وان ملته على ملة ابراهيم.

وقد ذكر بعض المفسرين في المقام وجوماً لم يقم دليل على صحتها بل بعضها خلاف ظاهر الآية الشريفة فراجع .

قوله تعالى : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين.

خطاب إلى الرسول الكريم بالمحاجة معهم لاظهار حقيقة مدعاهم وامرهم باتيان التوراة وتلاوتها في الموارد التي حاجوا المؤمنين وافتروا على الله الكذب فيها ليتبين اي الفريقين على الحق واي منهما كاذب في دعواه .

وفي الآية الشريفة دلالة على صحة دعوة نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) فانه اخبر عن ان التوراة تدل على كذبهم وهو لم يقرأها ، وهذا لا يكون الا من وحي من الله تعالى .

قوله تعالى : فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون .

الخطاب توبيخي للفريق الكاذب بعد المحاجة معهم وقد ذمهم عزوجل

بافترائهم على الله بعد قيام الحجة والامر بالكف عن الافتراء على الله وإلا كانوا ظالمين لأنفسهم يستحقون العقاب .

والافتراء هو الكذب المخترع . واصله القطع ، وكأن المفتري يقطع صلة كلامه بالواقع والحقيقة فيكون كذباً .

قوله تعالى : قل صدق الله .

اي اعلمهم بان الله تعالى صادق في جميع ما أخبر به واني لم استطع ان انبئكم بذلك لولا وحي الله تعالى الي فاذا عرفتم صدقي في الدعوة واني على حق فلابد من متابعة ديني والاعتراف باني على ملة ابراهيم وفي الآية الشريفة تثبت لدعواه ونبوته .

قوله تعالى : فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

تفريع على معرفة الحق وثبوت صدق الرسول (صلى الله عليه وآله) وانما امرهم بمتابعة ملة ابراهيم لانهم كانوا معترفين بملته (عليه السلام) وليبان ان شريعته على ملة ابراهيم التي هي على دين الفطرة والمبتنية على الاخلاص لله تعالى والتسليم لوجهه الكريم ونبذ كل انحاء الشرك ، وللارشاد إلى ان عدم قبول الاسلام يستلزم عدم متابعة ملة ابراهيم كما تزعمون وهذه حجة اخرى على بطلان مزاعمهم واظهار كذبهم . وإنما وصف ابراهيم بكونه حنيفاً وعدم كونه من المشركين لاظهار عظيم منزلته وجلالة قدره ، ولبيان ان شريعته كذلك أيضاً وفيه التعريض لهم بانهم على الشرك .

بحوث المقام

بحث ادبي :

الطعام : مصدر منعوت وكل مصدر منعوت يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع وهو بمنزلة الجنس . وكل في قوله تعالى: « كل الطعام » لتأكيد الاستغراق المفهوم من الجنس المعرف بالالف واللام (الطعام) .

وذكر شيخنا الاديب النيسابوري الاول (رحمة الله تعالى عليه) ان بعض الآيات القرآنية تجيء في النظم والاسلوب وزان الشعر مع انه ليس ذلك مراد المتكلم ، وهو يدل على نهاية الفصاحة والبلاغة وكان يعد جملة كثيرة من الآيات الكريمة منها هذه الآية الشريفة « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » التي هي من البحر السابع وهو بحر الرمل. ومنها قوله تعالى : «ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف» الانفال ـ ٣٨ وهو من بحر الرّجَز .

بحث دلالي

يستفاد من الآية الشريفة امور :

الاول : كلمة البر الواردة في قوله تعالى : « لن تنالوا البر

موضوعة لذات البر وطبيعته بلا اختصاص له بنوع دون آخر فتشمل البر المادي والمعنوي بجميع مراتبها .

كما ان لفظ الانفاق كذلك فانه يشمل انفاق الماديات والمعارف الحقة والكمالات الانسانية ، وذلك لان الالفاظ موضوعة في حد ذاتها للمعاني العامة من غير تقييد في حاق الواقع بنوع دون آخر ولا لعالم مخصوص دون سائر العوالم ، وانما التقييد والتخصيص يحصل من ناحية الاستعمال بلا التفات اليها ، وقد جعل بعض الاعاظم ذلك من الاصول العقلائية النظامية واثبتها علماء الادب والاصول بأدلة كثيرة فالآية المباركة بعمومها تشمل من حيث المعنى جميع ما يمكن ان يفرض من الكمالات الانسانية الفردية والاجتماعية والنوعية والشخصية ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » البقرة ـ ١٧٧ في جمعها للكمالات الانسانية وانما الاختلاف بينهما بالاجمال والتفصيل .

الثاني : لعل وجه ارتباط قوله تعالى : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه » بآية البر من حيث المفهوم بيان لطيف واسلوب رفيع وهو ان غير الاخلاص والصدق ليس من البر حتى ينفق اعتقاداً كان أو قولاً أو عملاً فلابد في جميع ذلك من الاخلاص والصدق ليكون براً يقبله الله تعالى ويثيب عليه بالجزاء الاوفى فما ورد في الآية من الحلية والحرمة إذا كانتا من افتعال اليهود فلا

ربط لها بالبر وهما خارجان عن البر موضوعاً ، واما إذا كانتا من شرايع الله تعالى فهما عين البر فيشملها قوله تعالى : «حتّى تنفقوا مما تحبون » .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل - الآية - » التعريض باليهود في انهم يكذبون ولا يصدقون وانهم لا يعلمون احكام الله تعالى ويستهزئون بها مع ان الله تعالى في مقام الامتنان عليهم والتسهيل لهم .

الرابع : يدل قوله تعالى : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » على تحريف التوراة وانهم يكذبون في كثير من الامور التي ينسبولها اليها وليس المراد بالتوراة في الآية الشريفة هي التوراة المحرفة التي هي بين ايدي اليهود ، بل المراد منها التوراة التي نزلت على موسى (عليه السلام) والتي لم تنلها يد التحريف فان الله تعالى امرهم بالرجوع اليها وطرح التوراة المحرفة، فالآية الشريفة من الآيات الكثيرة التي تدل على تحريفها وتنهاهم عن الكذب والأفتراء على الله تعالى وتأمرهم بالرجوع إلى الحق ، ويشهد لذلك الآية التي تدل على انهم يفترون على الله الكذب بقرينة قوله تعالى : « ان كنتم صادقين » .

الخامس : يدل قوله تعالى : « فاولئك هم الظالمون » على انهم هم الظالمون الذين عرفوا بتحريف احكام الله تعالى وتبديل آياته عزوجل وان مقابلهم على الصدق والحق . كما تدل عليه الآية التالية ، فيكون تفريع قوله تعالى : « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً » من قبيل ترتب النتيجة على المقدمات المعلومة .

بحث روائي

في الكافي وتفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون » قال (عليه السلام): « هكذا فاقرأها » .

اقول : هذه قراءة اهل البيت والفرق بينها وبين قراءة المشهور ان الاولى تبين مصداق المحبوب عند المنفق والثانية تبين فرداً من كل محبوب فيشمل المصداق أيضاً .

وفي المجمع عن ابن عمر قال : «سئل النبي (صلى الله عليه وآله) عن هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هو ان ينفق العبد المال وهو شحيح يأمل الدنيا ويرجو الغنى ويخاف الفقر » .

اقول : وردت روايات كثيرة عن اهل البيت (عليهم السلام) في ذلك ، وانما عدد (صلى الله عليه وآله) هذه الجهات لان كل واحدة منها من الامور التي تورث محبة الشيء فاذا اجتمعت وانفق المال معها كان جزاؤه اعظم ونيله للبر اكثر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه » قال : « ان يعقوب كان يصيبه عرق النساء فحرم على نفسه لحم الجمل فقال اليهود ان لحم الجمل محرم في التوراة فقال عزوجل لهم « فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » انما حرم هذا اسرائيل على نفسه ولم يحرمه على الناس وهذا حكاية عن اليهود ولفظه لفظ الخبر »

اقول : ذكرنا سابقاً المحتملات في الآية الشريفة وهذا من احدها .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) : « ان اسرائيل كان إذا أكل لحم الابل هيج عليه وجع الخاصرة فحرم على نفسه لحم الابل وذلك قبل ان تنزل التوراة فلما نزلت التوراة لم يحرمه ولم يأكله » .

اقول : لا منافات بين وجع الخاصرة الذي ورد في هذا الحديث وعرق النساء الذي ورد في الحديث السابق لامكان اجتماعهما ، ويظهر منه ان التحريم لم يكن تحريماً شرعياً بل كان تنزيهياً لاجل ذلك العارض .

ومعنى قوله (عليه السلام) : « لم يحرمه ولم يأكله » اي لم يحرّمه اسرائيل بعنوان التشريع السماوي ولكنه لم يأكله خيفةً من عروض ذلك العارض عليه . ويحتمل ان يرجع الضمير فيهما الى موسى (عليه السلام) المدلول عليه بقوله تعالى : « فاتوا بالتوراة » .

وفي اسباب النزول للواحدي في قوله تعالى : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل » قال أبو روق والكلبي نزلت حين قال النبي (صلى الله عليه وآله) : « انا على ملة ابراهيم فقالت اليهود كيف وانت تأكل لحوم الابل والبانها ؟! فقال النبي (صلى الله عليه وآله): كان ذلك حلالاً لابراهيم فنحن نحلّه فقالت اليهود كل شيء اصبحنا اليوم نحرمه فانه كان محرماً على نوح وابراهيم حتى انتهى الينا فانزل الله عزوجل تكذيباً لهم : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه » .

اقول : على فرض اعتبار الرواية فان ما ورد فيها يكون من جملة الاحتمالات التي ذكرناها سابقاً وتقدم ان مقالة اليهود كذب وافتراء .

بحث عرفاني

- من افضل البر واهمه هو الانقياد لاوامر الله تعالى واطاعته في كل ما شاء وأراد ، والتفاني في مرضاته عزوجل الذي هو آخر حد الامكان واول حد الوجوب ، كما ان أعلى المحبوبات عند الناس هو حب الجاه والشرف والعزة ، ولابد من انفاق هذا المحبوب في ساحته جل جلاله لينال العبد الغاية القصوى من البر بالمعنى المطلق وعليه سيرة اولياء الله المخلصين ونسب إلى سيدهم علي (عليه السلام) : « الهي كفى بي عزاً ان اكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً انت كما احب فاجعلني كما تحب » حيث لم يجعل لنفسه عزاً ولم ينسب اليها فخراً مقابل جلال الله تعالى وعظمته ، وما ورد في هذا المعنى من اولياء الله اكثر من ان يحصى .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

بعدما ذكر سبحانه ان البر لا ينال إلا بالانفاق في سبيل الله عزوجل وان البر يشمل جميع ما ينفقه في سبيله تبارك وتعالى - عملاً كان أو مالاً أو جاهاً أو المعارف الحقة الالهية ، وبين سبحانه بعض مفتريات اليهود

وادعاؤهم الكذب على الله عزوجل في نسبة الاحكام اليه تعالى . وكان الواجب عليهم نيل البر باتيان الوظائف التي قررها الله تعالى في التوراة التي انزلها على موسى(عليه السلام)واتباع ملة ابراهيم(عليه السلام)حنيفاً.

وفي هذه الآيات الشريفة يقرر تعالى مظهراً آخر من مظاهر البر وهو تعظيم بيت الله الحرام الذي هو اول بيت تحقق فيه الهدى ودين الحق وتضمن شعار الوحدة لجميع الاديان السماوية في عبادة الواحد الاحد ، والذي فيه آيات بينات تدل على منزلته العظيمة في الملة الحنيفية التي أمرنا باتباعها . وان اليهود وغيرهم من اهل الكتاب إن كانوا حريصين حقاً على ديانة اوائلهم ومناسكهم وآثارهم فلابد لهم من تعظيم هذا البيت المبارك الذي فيه للناس هـدى وللخائف امن وان محمداً يدعوهم إلى البيت الذي دعى ابراهيم اليه .

وقد امر الله تعالى الناس بالحج اليه إذا توفرت فيه الشروط المعتبرة وان ممّن اعرض عن ذلك كان من الكافرين لنعمة عظيمة وأنكر حكماً الهياً .

وفي الآية الشريفة التعريض باهل الكتاب ولاسيما اليهود الذين طعنوا في نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) عندما امر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة واعترضوا على هذا الحكم بأن بيت المقدس اعلا شأناً واعظم منزلة من الكعبة وانه قبلة الانبياء ومنهم ابراهيم (عليه السلام) الذي يدعي الرسول انه على ملته ، فان استقبال الكعبة اعراض عن ملته ونسخ لها وهو محال عند اليهود ، فرد عزوجل عليهم وانكر هذه الشبهة باثبات المنزلة العظيمة والشأن الكبير لبيت الله الحرام والسبق الزماني له على بيت المقدس ، وجعل الآيـة على ذلك انه مبارك وان فيه مقام ابراهيم (عليه السلام) بخلاف بيت المقدس الذي لم

يحدث إلا بعد ابراهيم (عليه السلام) .

التفسير

قوله تعالى : ان اول بيت وضع للناس .

الاوّل من الأول وسمي اولاً لرجوع غيره اليه وهو كثير الاستعمال في الكتاب والسنة . والاولية من الامور الاضافية تستعمل بالنسبة إلى الزمان والمكان والشرف والرتبة والوضع وغير ذلك وقد اجتمعت جميعها في البيت الحرام فانه اول مكان خلقه الله تعالى ثم مدّ منه بقية الارض كما دل عليه النقل الصحيح ، واول من حيث الزمان إذ لا بيت عبادة قبله واول من حيث الشرف والعبادة لانه كان معبداً للملائكة .

والبيت معروف وتقدم اشتقاق الكلمة في قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلًى » البقرة ـ ١٢٥ وقد اضاف عزوجل البيت تارة إلى نفسه ، فقال : « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي الطائفين والعاكفين والركع السجود » البقرة ـ ١٢٥ وقال تعالى حكاية عن ابراهيم : « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ابراهيم ـ ٣٧ . واخرى : للناس كما في المقام . وثالثة اطلقه قال : « فليعبدوا رب هذا البيت » قريش ـ ٣ وقال تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت » البقرة ـ ١٢٧ والمراد به الكعبة المقدسة لقوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام » المائدة ـ ٩٧ وبقرينة قوله تعالى : بعد ذلك « للذي ببكة » وهي الموضع الذي يزدحم

الناس فيه وهو الكعبة التي يزدحم الناس عندها لاداء العبادة من الصلاة والطواف .

والوضع هو الجعل والاثبات وهو عام أيضاً يشمل جميع انواع الجعل والاثبات .

و « للناس » متعلق بـ « وضع » واللام فيه للغاية .

والمعنى : ان اول بيت جعله الله تعالى مشعراً لعبادة الواحد الأحد وشعاراً لدين الحق ، وقبلة للناس ، وقد وصفه الله تعالى بأوصاف متعددة تدل على سمو منزلته وعظمته ورفعته .

قوله تعالى : للذي ببكة .

مادة (بكك) تدل على التزاحم ودق العنق ، ومنهـا « تبارك القوم إذا ازدحموا » ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع . وهي ارض البيت التي يزدحم الناس فيها لاداء الطواف والصلاة ونحوهما وتذل فيها الجبابرة بالخضوع لرب العالمين .

وقد اختلف المفسرون في المراد منها فقيل انها اسم للمسجد ، وقيل انها المطاف ، وقيل : انها مكة ابدلت الباء ميماً لتقربها ، وقيل انها الحرم . ويمكن تصحيح الجميع بالاضافة التشريفية لان موضع البيت بكة معلوم من الآية الشريفة بلا ريب وتشمل مكـة والحرم والمطاف تشريفاً .

قوله تعالى : مباركاً .

حال من الضمير ، مادة (برك) تدل على الثبوت والاستقرار وفي حديث الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) : « وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم » اي اثبت له وأدم

ما اعطيته من التشريف والكرامة وهو من برك البعير إذا ناخ في موضع فلزمه . وبرك الرجل إذا ثبت على حاله ، والبركة هي ثبوت الخير واستقراره وزيادته. ومنه أيضاً « تبارك الله » اي ثبت فلم يزل ولا يزال كما يقال « بركاء الحرب » اي ثبوتها ودوامها . والبرك هو الصدر لثبوت المحفوظات فيـــه وفي حديث علي (عليه السلام) : « القت السحاب برك بوانيها » اي صدر البنية .

والمباركة المفاعلة من البركة بالتحريك وهي الخير الثابت بالنمو والزيادة وهي عامة تشمل البركات الدنيوية والاخروية وقد ذكر سبحانه وتعالى كلا القسمين في آيات اخرى قال تعالى : « يجبى اليه ثمرات كل شيء » القصص ـ ٥٧ مع انه بني في واد غير ذي زرع لا ثروة فيه ولا تجارة ولا صناعة ولا زراعة ، ومع ذلك عاشت فيه اقوام في سعة من العيش وتمتع من النعم وتوفر فيهم الهمم العالية إلى عمرانه واجتمعت الدواعي إلى احترامه وتوقيره واكرامه مع ما هم عليه من الاقتتال وسوء الحال . ومن جهة اخرى جعله الله تعالى : « هدى للعالمين » يقصده المتعبدون لأداء وظيفة العبودية ويتوجه اليه المسلمون في كل وقت .

وبالجملة : فان بركة هذا البيت أظهر من ان يخفى ، ويعتبر من معجزاته انه مسكن ابراهيم الخليل ومأوى الانبياء والمرسلين في أخص عباداتهم ومهوى قلوب المؤمنين . وقـــد ذكر سبحانه إجمال تلك البركات في قوله حكاية عن ابراهيم (عليه السلام) ، « ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ابراهيم ـ ٣٧

قوله تعالى : وهدىً للعالمين .

عطف على مباركاً وهذه فضيلة اخرى تدل على عظمة البيت ورفعته وله من المقامات المعنوية التي لم تكن لغيره من بيوت الله تعالى ، وانما خصه الله تعالى بالذكر لاهميته مع انه يمكن شمول البركات المعنوية لها .

وهدىً بمعنى هادٍ وانما اطلق عليه هدىً لمزيد هداه وجهات الهداية فيه كثيرة فمن جهة التوصل بالقرب إلى ساحة الرحمن والزلفى لديه لكونه مقصداً للناسكين وموئلاً للعابدين والطائفين والراكعين لانه جامع الناس تحت كلمة التوحيد ويحفظهم من التفرقة والاختلاف لانه بيت رب العالمين وهو يشعر إلى رب البيت فهو يقتضي الوحدة من جميع الجهات ففي العبادة تجتمع وحدة المعبود والعبادة والعبودية وجهة العبادة فتكون جميع الافراد فيه كنفس واحدة في عبادتهم وعبوديتهم وجهة عبادتهم فاذا اجتمعت مع ذلك وحدة القلوب كانت الآثار عظيمة والفوائد كثيرة .

يضاف إلى ذلك ان مكة مولد رسول الانسانية ومهبط الوحي المبين ومشرق القرآن الكريم ومبداء الدعوة إلى دين الحق فهو هدىً بجميع مراتب الهداية الدنيوية والاخروية لجميع العالمين لا لطائفة خاصة وعالم خاص وكل واحد منهم يستفيض منه بحسب استعداداته الخاصة على نحو الاقتضاء لا العلية كما في سائر موارد الهداية قال تعالى في شأن القرآن الكريم : « هدىً للمتقين » البقرة - ٢ وقال تعالى في شأن الرسول العظيم : « ما منع الناس ان يؤمنوا اذ جائهم الهدى إلا ان قالوا ابعث الله بشراً رسولاً » الاسراء - ٩٤ فالهداية عناية خاصة

هي أخص من البركة ، فان المشاعر العظام بذاتها هدىً للناس إذ لا معنى للمشعرية لله تعالى إلا الهداية المحضة .

قوله تعالى : فيه آيات بينات .

بينات جمع بينة وهي الواضحة اي الدلائل الواضحات وترتب الآيات البينات على كونه مباركاً وهدىً للعالمين من قبيل ترتب الدال على المدلول فانهما لا يعرفان إلا بجعل العلامات الواضحات الكاشفات عنهما ونظير هذا ورد في شأن القرآن الكريم أيضاً قال تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» البقرة ـ ١٨٥ .

قوله تعالى : مقام ابراهيم .

بعد ان ذكر سبحانه وتعالى فضائل البيت الشريف من كونه اول بيت وضع للناس ، وكونه مباركاً ، وكونه هدىً للناس يبين سبحانه آياته وهي : مقام ابراهيم ، وأمن داخله ، والحج اليه ، فتكون هذه الثلاثة بياناً للآيات البينات وشرحاً لها .

والآيات وان وصفت بالبينات الا ان الوصف لا يرفع ابهامها من كل جهة ولذلك وصفها بما يرفع الابهام في المقام وقد ذكر سبحانه وتعالى ثلاث آيات من بين الآيات الكثيرة التي تميز بها البيت كالحجر الاسود ، والحطيم ، والمستجار وغيرها .

وانما خص هذه الثلاثة لحِكَمٍ خاصة وهي تدل على منزلة البيت السامية في الشرف وكرامته عند الله عزوجل . وما ذكرناه اولى من القول بان مقام ابراهيم وبقية الثلاثة بدل تفصيلي من الآيات البينات ، أو القول بانه عطف بيان من الآيات فان جميع ذلك لا تخلو عن الاشكال

ومخالفة للقواعد المرعية في العلوم الادبيـــة ويأتي في البحث الادبي ما يرتبط بالمقام .

ومقام ابراهيم هي الصخرة الصماء التي كان يضعها ابراهيم (عليه السلام) تحت قدميه حين بنائه للبيت الشريف ، وقد اثرت فيها قدماه الشريفتان وبقي اثرهما وسيبقى ما بقي البيت الشريف .

وقد كان لهذا المقام اثر جلي يدل على عظمة البيت وعهداً أبدياً على خلوص باني البيت الشريف ووسيلة لتعظيمه وتوقيره جزاء خدمته للناس ، ولذا أمرنا سبحانه وتعالى باتخاذه مصلىّ حيث قال عزوجل: « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » البقرة – ١٢٥ عرفاناً لجميله علينا.

وانما خص سبحانه وتعالى هذه الآية بالذكر لان ابراهيم(عليه السلام) موضع احترام جميع الاديان الالهية وتقدير جميـــع الامم ، وهو اول مشرع الهي ومقنن الدستور الانساني وان الاديان بعده انما هي على ملته ودينه وهو أبو الانبياء العظام وهو الباني للبيت الشريف وان مقامه محفوظ على مرّ الزمان فليس في البين آية ابين واجلى من هذه الآيـة الدالة على عظمة هذا البيت الذي وضع للعبادة عند الملل الثلاثة وتحريض لهم فلابد لاتباع سائر الاديان الالهية من توقير البيت وتعظيمه والاهتمام بنداائه حين امر الناس بالحج اليـــه والتوجه اليه والا كانوا خارجين عن دينه معرضين عن شريعته وملته ، فهذه الآية الشريفة حجة على المعاندين للاسلام والمخالفين للتوجه إلى البيت الشريف وليس لهم اي عذر في الإعراض عن اوامره ، ولعل السر في بقاء أثر قدميه الشريفتين في الصخرة الصماء هو الاقتداء بـــه وان يخطو الناس خطاه والعمل باخلاص ليبقى اثره عند الله تعالى وفي هذا العالم .

والآية الشريفة لا غموض فيها في ان المراد منها هي تلك الصخرة

المعروفة عن القديم وقد ورد ذكرها في الاشعار القديمة كقول أبي طالب في لاميته :

وموطأ ابراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافياً غير ناعل

ولم يشك احد في ذلك الا ما ذكره بعض المفسرين من ان المراد من المقام المكان الذي اتخذه ابراهيم (عليه السلام) للعبادة واما الاثر فقد كانت العرب تعتقد انه موضع قدمي ابراهيم وقد تقدم في قوله تعالى : «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» البقرة ـ ١٢٥ ما يتعلق بالمقام .

قوله تعالى : ومَن دخله كان آمناً .

الضمير المنصوب راجع إلى البلد أو الحرم على سبيل الاستخدام بقرينة قوله تعالى حكاية عن ابراهيم : «رب اجعل هذا البلد آمناً» ابراهيم ـ ٣٥ وقوله تعالى : «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً» العنكبوت ـ ٦٧ وقوله تعالى : «نمكن لهم حرماً آمناً» القصص ـ ٥٧ ، والجملة عطف على سابقتها كما عرفت .

وأمن مَن يدخله آية اخرى دالة على شرف البيت وكان معروفاً في الجاهلية وقبل البعثة فقد كانت الاقوام حول البيت الشريف على ما هم عليه من الفوضى والوحشية والتهور في الاقتتال والعدوان والعصبية وغلظة في الاخلاق لا يمنعهم عن ذلك زادع من شريعة أو عقل ، ومع ذلك كله فقد كانوا يحترمون البيت ويعظمونه ويخضعون لامر اتفقوا عليه وهو أمن من دخل الحرم ويشير إلى ما ذكرنا قوله تعالى: «او لم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله» العنكبوت ـ ٩٧ فالحكمة من يراد هذه الآية الشريفة في المقام هي تحريض المشركين الى الدخول في الاسلام والايمان بخاتم النبيين والعمل بشريعته

كما ان الآية الاولى كانت لاجل تحريض اليهود والنصارى إلى الدخول في الاسلام ونبذ العناد واللجاج .

وهذه الآية وهي : أمن مَن دخل الحرم لم تكن من قسر الطبيعة وانما كان بجعل الهي فان العناية الالهية شملت هذا البيت استجابة لدعاء ابراهيم الخليل باني البيت في قوله : « رب اجعل هذا البلد آمناً » ابراهيم ـ ٣٥ وقوله في موضع آخر : « رب اجعل هذا البلد آمناً » البقرة ـ ١٢٦ فكان ذلك تشريعاً الهياً ، والهم الناس باحترام البلد الحرام اكراماً للبيت الشريف ، وساقهم إلى قبول هذا التشريع .

ومن ذلك يعلم انه لا وجه للنزاع في ان هــذا التشريع إلهي أو اخبار عن خاصة تكوينية ، أو هل هو تشريع عام أو خاص فان كل ذلك تطويل بلا طائل تحته بل هو تشريع الهي لم ينسخ يكشف عن حكمة وضعية وليس إخباراً عن خاصة تكوينية .

كما ان الحكم يختص بالانسان وتدل عليه كلمة (من) الموصولة الظاهرة في العقلاء لسياق الآية الشريفة وبقرينة الآيتين الاخريتين وهما مقام ابراهيم والحج اليه فانهما يختصان بالانسان . ويمكن جعــل هذا النزاع لفظياً لان العظمة تكوينية وتشريعية انشائية واخبارية فلا موضوع للنزاع ، ولكن شموله لمطلق الحيوان لا يستبعده العقل ، فان عناياته تعالى كثيرة وعامة وقد نقل في أمن الحيوانات في الحرم حكايات كثيرة ، وقد ورد في السنة الشريفة عدم جواز الاعتداء على الحيوان وعدم جواز قطع نباتات الحرم .

قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت .

جملة ابتدائية معطوفة على ما تقدم، ولا يضر الاختلاف في الخبرية

والانشائية ، واللام في (لله) للالزام والايجاب و (على) لتأكيد الوجوب كما هو معروف في مثل هذه الهيئة يقال: له عليّ كذا .وقد وكد سبحانه وتعالى الوجوب في الحج بما لم يؤكده في غيره من الواجبات .

ومادة (حجج) تدل على القصد ولكن استعمل في الحج إلى بيت الله الحرام لاداء النسك ، والاسم (الحج) بالكسر ، والحجة مرة واحدة . والالف واللام في البيت للعهد اي بيت الله الحرام لاداء نسك الحج المعروفة .

قوله تعالى : مَن استطاع إليه سبيلا .

بدل من الناس وسبيلاً تميز عن قوله استطاع . واستطاع فعل من الاستطاعة وهي استدعاء طواعية الفعل وتأتيه اي : أوجب الله على المستطيع من الناس حج البيت ومن تقييد الامر بالاستطاعة يعرف انها غير الاستطاعة العقلية التي هي شرط في كل تكليف .

ويستفاد منه ومن اطلاق الآية الشريفة وعدم تقييدها بشيء ان المراد بها الاستطاعة العرفية وهي تختلف باختلاف الاشخاص .

وقد اختلف العلماء في الاستطاعة المحصلة للوجوب ، فقيل انها الاستطاعة البدنية اي القدرة على المشي والكسب ولو كان في الطريق وقيل أنها الاستطاعة المالية .

والحق انها تشمل جميع أقسام القدرة في المال والبدن وتخلية السرب وقد وردت روايات متعددة عن الائمة الهداة (عليهم السلام) في تفسير الاستطاعة بجميع ذلك ويأتي في البحث الروائي نقل بعضها .

ثم ان الآيات الكريمة الواردة في البيت على طوائف :

الاولى : قوله تعالى : « واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت ان لا

تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» الحج - ٢٦.

الثانية: قوله تعالى: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود» البقرة - ١٢٥.

الثالثة: قوله تعالى: «واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» الحج - ٢٧.

الرابعة: قوله تعالى في المقام: «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» ومقتضى المتفاهم العرفي ان كل آية راجعة إلى جانب من جوانب البيت الشريف. فالآية الاولى راجعة إلى تعيين مكان البيت وهندسة البناء والحكمة في جعل المبني مرجعاً للطائفين والعاكفين. والآية الثانية راجعة إلى مقام الباني وفعليه البناء وشأنه والحكم المترتبة عليه ويدلك عليه قوله تعالى: «وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت» البقرة - ١٢٧. والآية الثالثة راجعة إلى الدعوة إلى حج البيت المعين. والآية الرابعة بيان لانشاء الدعوة إلى البيت وفتح باب ضيافة الله تعالى هذا بحسب الواقع والترتيب في الجعل. واما بحسب النزول الزماني فيصح التقديم والتأخير رعاية للنظم الطبيعي، وربما يكون الوحي إلى ابراهيم الخليل (عليه السلام) في زمان واحد وان كان النظم بينهما طبيعياً.

وقوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت» جملة خبرية مستعملة في الانشاء وهي ابلغ في الوجوب كما اثبتناه في علم الاصول. ويمكن ان تكون الجملة إخباراً محضاً عن قوله تعالى: «واذن في الناس بالحج» الحج - ٢٧ وكيف كان فالنتيجة واحدة على اي تقدير،

لان الاذان من الله تعالى وان صدر عن خليله (عليه السلام) فيكون المشرّع واحداً الا ان مبدأ التشريع من زمان ابراهيم بل في بعض الاخبار من حين آدم (عليه السلام) والمظاهر مختلفة واتمها تشريع خاتم الانبياء فان الحج بلغ فيه غاية الكمال كما في سائر تشريعاته المقدسة .

قوله تعالى : ومَن كفر فان الله غني عن العالمين .

تأكيد لوجوب الحج وتوبيخ لتاركه اي : ان تارك الحج كافر ولا يضر الله شيئاً فان الله غني عن العالمين وكفى مذمة لتاركه بان جعل تعالى مقره مقر الكافرين وهي النار ، وانما أقام عزوجل الكفر مقام ترك الحج تغليظاً عليه ولبيان شدة العصيان وان فعل تارك الحج كفعل الكافرين فيكون الكفر كفراً بالفروع . ثم اعقبه عزوجل بانه غني عن العالمين لبيان كمال السخط على تاركه والخذلان له فيكون من وضع العلة موضع المعلول .

وانما ذكر عزوجل استغناؤه عن العالمين دون تارك الحج بالخصوص للدلالة على الاستغناء الكامل ولبيان عظم السخط فانه تعالى لا تزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا تنقصه معصية العاصين .

وذكر بعض المفسرين ان الكفر هنا يرجع إلى جحود كون هذا البيت اول بيت وضعه ابراهيم للعبادة بعد أن قامت الادلة على ذلك وعدم الاذعان لما فرضه الله من الحج ، ولكن الظاهر ما ذكرناه وتدل عليه جملة من الاخبار الصحيحة ويأتي في البحث الروائي نقل بعضها ، ويمكن ارجاع ما ذكره إلى ما ذكرناه .

بحوث المقام

بحث ادبي :

قوله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة » إسم إن جملة « اول بيت وضع للناس » والخبر « للذي ببكة » واللام في « للذي » مزحلقة وانما اخبر عن النكرة بالمعرفـــة لتخصيص الأولى و « مباركاً » حال من الضمير المستتر في الظرف . وقيل : انه حال من الضمير في « وضع » .

وقوله تعالى : « فيه آيات بينات » مرفوع إما على الاستئناف جيء به بياناً وتفسيراً للهدى ، أو حال اخرى ولابأس بحذف حرف العطف في الجملة الاسمية الحالية .

و « مقام ابراهيم » إما مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبر محذوف المبتدأ اي منها مقام ابراهيم .

والجملة إما بدل البعض من الكل أو عطف بيان ، واشكل على الاخير بانه لا يجوز التخالف في عطف البيان في التنكير والتعريف . كما ان عطف « ومن دخله كان آمناً » يستلزم التقدير . يضاف إلى ذلك انه إذا عطفت جملة « لله على الناس » على الجملة السابقة يستلزم تأويلها إلى المفرد أو التقدير ، وكل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام .

والحق هو القول بأن جميع ذلك بيان للآيات البينات وبه يرتفع الابهام والاجمال من الآيات وانما ذكر عزوجل كل واحدة من هذه

الثلاث لغرض خاص .

واختلاف الثلاث في الخبرية والانشائية لا يضر بعد كون مجموعها بياناً ولا تحتاج إلى التقدير والتأويل ، كما عرفت . وهذا الاسلوب من الاساليب الفصيحة ومن بديع الكلام يؤتى به في ما إذا كانت الاغراض متفاوتة من الجمل الواردة في الكلام . وقد ورد مثل ذلك كثيراً في القرآن الكريم قال تعالى : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى رب اني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لاولي الالباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب » ص - ٤٤ وهناك وجوه اخرى في اعراب الجمل الثلاث مذكورة في الكتب المفصلة .

وجملة « ولله على الناس حج البيت » مشتملة على المبتدأ وهو حج البيت والخبر وهو « لله » و « على الناس » متعلق بما تعلق به الخبر ، أو بمحذوف وقع حالاً من المستتر ، والعامل فيه الاستقرار وقيل : إن « على الناس » خبر و « لله » متعلق بما تعلق به الاول .

و « مَن استطاع اليه سبيلاً » بدل من الناس والضمير محذوف تقديره (منهم) . وقيل : انه خبر لمبتدأ محذوف اي (هم من استطاع) .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول : يدل قوله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس » على

عظمة البيت وشرفه ومكانته العظمى عند الله تعالى فقد جعل له الاولية في كل شيء كما هو ظاهر الاطلاق ، فهو اول في الشرف لانه بيت الله وواضعه هو الله جلت عظمته ولا شرف اعلى واجل من ذلك . وهو اول في الزمان لانه اول بيت بني لعبادة الواحد الأحد ولم يكن قبله بيت آخر بهذا الشكل والمضمون وهو اول في المكان فان موضعه اول قطعة خلقت من الارض كما نطقت به جملة من الاخبار وهو اول في اجتماع جملة كثيرة من الآيات العظيمة فيها وقد ذكر سبحانه وتعالى بعضاً منها في الآيات التالية ومواضع اخرى في القرآن الكريم ووردت جملة اخرى في السنة المقدسة منها الحطيم ، والركن اليماني ، والحجر الاسود ، والمستجار فان جميع ذلك ابواب رحمة الله تعالى على عباده ، فهو بيت مبارك من جميع الجهات

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « وضع للناس » ان وضع هذا البيت قد سبق كل وضع من قبل الناس فلا يحق لاحد مزاحمته بوجه من الوجوه ولذا يؤمن الجاني الداخل إلى الحرم دون الجاني في نفس الحرم فان امنه قد حدث من وضع الله تعالى اياه لجميع الناس سواء . كما أن موضعه قد سبق تحديده من الله تعالى فلا يعارضه بناء آخر ولا يزاحمه حق ذي حق .

الثالث : انما عبر سبحانه وتعالى « للناس » لبيان انه لا يختص بطائفة خاصة أو قوم معين فان الناس سواء في شرعه وقد جعله تعالى موضع رفادته لجميع افراد الانسان يأمن فيه الخائف ويستجير به الملهوف لا يجوز لاحد منع آخر من الاستفاضة من فيضه إلا إذا ورد من قبل الشرع المبين تحديده كما بالنسبة إلى الكافر والمشرك فانهما ممنوعان من الدخول في الحرم الالهي .

ومن مفهومه يستفاد أن لغير الانسان بيتاً آخر أيضاً وقد ورد في احاديث كثيرة ان الله تعالى وضع البيت المعمور للملائكة في السماء بحذاء البيت في الارض.

الرابع : قد أكد سبحانه أمر الحج في قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت مَن استطاع اليه سبيلاً ومَن كفر فان الله غني عن العالمين » بوجوه من الدلالة من توكيد الوجوب بصيغة الخبر وابرازه في الجملة الاسمية وايراده على وجه يفيد انـه حق لله تعالى في رقاب الناس لا يسعهم ان يخالفوه ويتركوه وفي التعميم اولاً ثم التخصيص بالابدال فان فيه التفصيل بعد الاجمال والافصاح بعد الابهام كما ان فيه تنبيه المراد وتكريره وتسمية ترك الحج كفراً تغليظاً عليه ، ثم ذكر الاستغناء على تقدير عدم الفعل وهو دليل المقت والسخط وتعميم الاستغناء عن العالمين لما فيه من المبالغة في النكال والترغيم وايراد المطلب ببرهان قويم .

الخامس : انما عمم عزوجل الحج في هذه الآية وقوله تعالى : « واذن في الناس بالحج » الحج ـ ٢٠٠ لان الدعوة إلى بيت الرب الكريم الغني المطلق لابد ان تكون عامة من كل جهة فعن أبي جعفر (عليه السلام) : « ما يقف احد على تلك الجبال من بر ولا فاجر إلا استجاب له في آخرته ودنياه واما الفاجر فيستجاب له في دنياه » ويفتح من هذا الحديث أبواب من المعارف لعلنا نتعرض لبعضها في الآيات المناسبة ان شاء الله تعالى .

السادس : يستفاد من مجموع الآيات الشريفة امور تعتبر من مكارم الاخلاق التي لابد للانسان التحلي بها .

منها : ان البناء لابد ان يقتصر على الحد المطلوب فلا يبالغ فيه

من كل جهة كما يستفاد من ظاهر قوله تعالى : « إذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا » البقرة ـ ١٢٧ وتدل عليه جملة من الاخبار ان ما زاد على الحاجة فهو وبال على صاحبه .

ومنها : حسن الرفادة والاستضافة وعدم منع صاحب الدار ذوي الحاجات الشرعية من الدخول في داره ومراعات الشرائط المعتبرة كما يستفاد من الآيتين « وارزق اهله من الثمرات » البقرة ـ ١٢٧ وقوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » الحج ـ ٢٨ .

ومنها : المبالغة في زيادة الالفة والإيتلاف بين افراد العائلة وزيارة الاخوان في البيوت كما يستفاد من الآيات الواردة في سورة الحج .

ومنها : ايتمار الوارد بأوامر رب الدار والانتهاء عن نواهيه كما يأتي في سورة الحج ويظهر من بعض الاخبار .

ومنها : ان تكون الدعوة وفتح الضيافة عامتين من دون اختصاص بقوم دون قوم كما يستفاد من قوله تعالى : « واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً » الحج ـ ٢٧ .

ومنها : ان الدعوة لابد ان تكون من صاحب البيت أو باذن منه كما يأتي في سورة الحج إلى غير ذلك من الامور العقلية التي شرحها الكتاب والسنة .

السابع : يستفاد من الآيات الشريفة اهمية الحج وعظم امره كما عرفت وهو كذلك فانه قد يتحد العامل والعمل فيه كما في حج اولياء الله لكثرة تفانيهم في مرضات الله تعالى وانقيادهم له من كل جهة فيكون بنفسه حجاً اكبر يطوف حول البيت الشريف ويكون هو الحشر الاكبر يظهر في الحشر الاصغر ومثل هذا الحج يتباهى به الله جلت عظمته والملائكة والمشاعر العظام . وكشف السر عن هذا المقام لا يمكن

ان يكون بالمقال والكلام لما فيه تجلى الله تعالى .

وقد اهتم عز وجل بحرمه الاقدس بما لم يهتم به في سائر تشريعاته المقدسة ، فانه ما من قلامة ظفر في هذا المكان المقدس إلا وفيها ملك متخاصع لذي الجلال ، ومبهوت عن شروق مشارق ذلك الجمال ، وما من موضع شبر إلا وهو اثر قدم نبي نادى بالتلبية ، وما من موضع رجل إلا وقد دفن ولي من اولياء الله العظام ويكفينا ان مكة مقدم خليل الرحمن ومولد حبيب الله فهنيئاً لمن توجه إلى تلك المحال المقدسة مصدر الخير والبركة ومَعْلَم الهدى والنور للناس اجمعين .

بحث كلامي

كل تكليف سواء أكان خالقياً ام خلقياً لابد وان يتعلق بالمقدور وإلا كان تكليفاً بالمحال وهو قبيح عقلاً ويمتنع بالنسبة إلى الله تعالى وقد استدل الفلاسفة والمتكلمون على ذلك بأمور كثيرة ، ويكفي في ذلك الآيات الكثيرة الدالة على ذلك قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » البقرة ـ ٢٨٦ وغيرها من الآيات الشريفة المرشدة إلى حكم العقل .

ونسب إلى بعض الاشاعرة جواز التكليف بالممتنع الذاتي ، بل وقوعه ولكن ذلك مردود عقلاً ونقلاً كما فصل ذلك في محله ولعلنا نتعرض له في بعض الآيات المناسبة له ان شاء الله تعالى .

ثم إن القدرة المعتبرة في التكاليف على أقسام ثلاثة : الاول القدرة

العقلية - اي الامكان الذاتي - في مقابل الامتناع العقلي .

الثاني : القدرة التعبدية الشرعية .

الثالث : القدرة العرفية كما في جميع الامور الاختيارية الصادرة عن الناس . ولا وجه للاول وإلا لاختل النظام ولزم العسر والحرج في امتثال الاحكام كما لا وجه للثاني لعدم الاشارة اليها في الكتاب والسنة وما ذكر في الاحكام من الشروط والاجزاء أو الاوصاف يرجع إلى الثالث بل لا معنى عندنا للتعبد في الاحكام الشرعية مطلقا فضلاً عن موضوعاتها لان كل ذلك يرجع إلى مقررات الفطرة وانما اشار اليها الشارع الاقدس وكشف عنها كما تقدم منا مكرراً في هذا التفسير وبيناه في علم الاصول. فيتعين الاخير كما هو المستفاد من الكتاب والسنة الشريفة قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » البقرة - ٢٨٦ وقال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » البقرة - ١٨٥ وقال تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج - ٨٧ ومن السنة قول نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) المتواتر بين الفريقين : « بعثت على الشريعة السهلة السمحاء » . وقوله تعالى: « مَن استطاع اليه » في الآية التي تقدم تفسيرها يبين ذلك كما هو معلوم .

ومن ذلك يعرف ان ما فصله جمع بين الفقهاء في المقام لابد أن يرجع إلى ما قلناه وإلا فهو من التطويل بغير طائل .

بحث عرفاني

الكعبة المباركة من حيث مقام معنويتها ازلية وأبدية لانها وجهة

التوحيد وفناء المعبود الوحيد وفيها تفاني باني البيت ابراهيم الخليل الجليل بل وتفاني جميع الانبياء من صفيهم إلى حبيبهم ، فانهم بالطواف حول البيت الشريف يظهرون تفديتهم للعزيز المهيمن القهار ، ويطرحون جميع جهات انانيتهم من الحجب والأستار ويبرزون مقهوريتهم من جميع الجهات لرب البيت العتيق وينسون انفسهم وقد أتوا من فج عميق.

ترى المحبين صرعى في ديارهم   كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ولعل من أحد اسرار طواف نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) حول البيت الشريف وهو على البعير ان هذا المقام مقام علو العبودية التي يفيضها اللطيف الخبير فاظهر (صلى الله عليه وآله) العلو الجسماني رمزاً إلى العلو المعنوي الروحاني فليس المقام مقاماً لعروض الدهشة على الطائف من حضرت الكبرياء والجلال كما عن بعض العرفاء بل مقام ذل العبودية التي تشير إلى عز الربوبية واسرار المقام كثيرة لا يحصيها القول ولا رعاف القلم .

ثم إن الحج كسائر العبادات منه ما هو ظاهري مسقط للتكليف كحج عامة الناس ، ومنه واقعي يوجب نيل اقصى الكمالات والفوز باعلى المقامات في ما إذا أراد باحرامه ترك جميع ما يلهيه عن ربه ورأى في طوافه التفدية الحقيقية في مرضات ربه ، ومن سعيه الدنو إلى ساحة قربه ، وأراد من رمي الجمرات طرح جميع ما لا يرتضيه الرب ومن الذبح اهلاك القوى الشهوانية وافناؤها ، ومن صلاته في مقام ابراهيم (عليه السلام) الفوز بمقام ابراهيم الخليل وهو مقام الخلة.

بحث روائي

في الكافي عن الصادق (عليه السلام) : « إن الله اختار من كل شيء شيئاً واختار من الارض موضع الكعبة » .

اقول : الروايات في ذلك كثيرة ومعنى إختياره عزوجل كثرة عنايته به ويصح ان يكون هذا جهة من جهات اولية البيت .

وفي الكافي عن احدهما (عليهما السلام) قال : « لما اراد الله تعالى ان يخلق الارض امر الرياح فضربن وجه (متن) الماء حتى صار موجاً ثم أزيد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحا الارض من تحته وهو قول الله عزوجل « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » . وزاد في الفقيه : « فاول بقعة خلقت من الارض الكعبة ثم مدت الارض منها » .

اقول : قد شرح ذلك علي (عليه السلام) في خطبته التي أنشأها في خلق السموات والارض، والاخبار في دحو الارض من تحت البيت كثيرة وليس في القرآن الكريم ما ينافي ذلك بل يمكن ان يستفاد من قوله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » الاولية من هذه الجهة اي اول بقعة من بقاع الأرض ودحيت بقية الارض من تحتها .

واما كيفية الدحو وانبساط الارض ثم الرد إلى البيت كما في بعض الروايات فيمكن ان يكون من جهة كروية الارض والتفصيل يطلب من محله .

كما ان ذلك لا ينافي ما نسب إلى بعض القدماء من ان الارض

عنصر بسيط كسائر العناصر البسيطة فلأن قولهم هذا انما كان في البساطة العقلية لا البساطة الخارجية ولو بعد زمان على اصل الخلقة . مع ان العلماء قد اثبتوا بطلان القول بالبساطة في العناصر الاربعة وحللوا كل واحد منها إلى عناصر كثيرة ربما تبلغ إلى اربعين عنصراً منتزعة من عنصر واحد . وقد ذكر سيد مشائخنا العالم العامل الزاهد العابد سيد الحكماء المتألهين السيد حسين البادكوبي (قدس سره) في مجلس بحثه الشريف ان المراد بالبساطة في قولهم ، هي البساطة الفرضية العلمية الاعتبارية لا البساطة الحقيقية الواقعية وكان يستدل على ذلك بامور كثيرة وشواهد من كلماتهم ، فلا نزاع حينئذ بين ما ذكروه وما اثبته العلم الحديث .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) : « سألته عن البيت كان يحج اليه قبل ان يبعث النبي ؟ قال : نعم لا يعلمون ان الناس قد كانوا يحجون ونخبركم ان آدم ونوحاً وسليمان (عليهم السلام) قد حجوا البيت بالجن والانس والطير ولقد حجه موسى (عليه السلام) على جمل احمر يقول : لبيك لبيك ، كما قال الله تعالى : ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » .

اقول : ما ورد في الحديث هو مقتضى الاولية في البيت الشريف .

وعن ابن شهرآشوب عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس » فقال له رجل : « أهو اول بيت ؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ، ولكنه اول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة واول من بناه ابراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش » .

اقول : قد ورد مضمون ذلك في روايات والمراد منه هو اولية

البيت للناس الذي تضمن البركة والهدي ونحوهما . واما الاولية بالنسبة إلى اصل العبادة فيظهر من بعض الاخبار ان مسجد الكوفة كان مصلى آدم (عليه السلام) وغيره من الانبياء العظام والسائل انما سأل عن تقدم البيت الحرام على جميع البيوت المسكونة والامام نفى ذلك .

وفي الدر المنثور اخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في قوله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة » قال : « كانت البيوت قبله ولكنه كان اول بيت وضع لعبادة الله » .

وفي العلل عن الصادق (عليه السلام) قال : « انما سميت مكة بكة لان الناس يتباكون فيها » اي يزدحمون .

وفيه أيضاً عنه (عليه السلام) قال : « موضع البيت بكة والقرية مكة » .

وفيه أيضاً عن الصادق (عليه السلام) : (لمَ سميت الكعبة ببكة قال (عليه السلام) لبكاء الناس حولها وفيها » .

اقول : لان البيت في قديم الايام لم يكن محجوباً عن الدخول فيه وانما كان في محل الباب الستار فقط وكانوا يدخلون فيه ويبكون .

وفيه أيضاً عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) : « انما سميت بكة لانها تبك بها الرجال والنساء والمرأة تصلي بين يديك ، وعن يمينك وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك انما يكره ذلك في سائر البلدان » .

اقول : هذه استفادة لطيفة من لفظ بكة .

وفي الخصال عن الصادق (عليه السلام) : « اسماء مكة خمسة : ام القرى ، ومكة ، وبكة ، والبساسة إذا ظلموا بها بستهم اي اخرجتهم واهلكتهم ، وام رُحم كانوا إذا الزموها رُحموا » .

اقول وفي بعض الاحاديث « من اسماء مكة الباسة » والبس والحطم سميت بها لانها تحطم من اخطأ فيها، وعن بعض أن من اسمائها « الناسة » لجدبها ويبسها أو بمعنى الطرد عنها.

وفي تفسير العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال : « طلب أبو جعفر المنصور ان يشتري من اهـل مكة بيوتهم ان يزيد في المسجد فابوا فارغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فاتى أبا عبد الله (عليه السلام) فقال له : إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيـد في المسجد ، وقد منعوا في ذلك فقد غمني غماً شديداً فقال أبو عبدالله (عليه السلام) لمَ يغمك ذلك ؟!! وحجتك عليهم فيه ظاهرة فقال وبمَ احتج عليهم ؟ فقال بكتاب الله فقال في اي موضع ؟ فقال قول الله تعالى : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة » قد اخبرك الله ان اول بيت وضع للناس هو الذي ببكة فان كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم وان كان البيت قديماً قبلهم فله فناؤه فدعاهم أبو جعفر فاحتج عليهم بهذا فقالوا له : اصنع ما احببت».

اقول : وقريب منه رواية اخرى أيضاً إلا ان فيها « لما بنى المهدي » والظاهر ان أبا جعفر المنصور هو البادي في البناء واتمه المهدي فلا منافاة وكيف كان ما ذكره الامـام (عليه السلام) هو استدلال عقلي صحيح .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن ابن سنان عن أبي عبدالله (عليه السلام) في قوله تعالى : « فيه آيات بينات » قال (عليه السلام) : « مقام ابراهيم حين قام عليه فأثرت فيه قدماه والحجر الاسود ومنزل إسماعيل ».

اقول : الآيات كثيرة وانما ذكر (عليه السلام) بعضها .

وفي الكافي عن ابن سنان قال : سألت أبا عبدالله (عليه السلام)

عن قول الله عزوجل : « ومَن دخله كان آمناً » البيت عني أم الحرم ؟ قال (ع) : مَن دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله ، ومن دخله من الوحوش والطير كان آمناً ان يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم » .

اقول : أمن الوحوش والطير انما يكون من فروع أمن الآدميين وسيأتي في البحث الفقهي ما يتعلق بذلك .

وفي الكافي والعياشي عن عبد الخالق الصيقل قال : « سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عزوجل : « ومَن دخله كان آمناً » قال : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه احد إلا ما شاء الله ثم قال : إن مَن ام هذا البيت وهو يعلم انه البيت الذي امر الله تعالى به وعرفنا اهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة » .

اقول : الأمن والاستيمان يكون محدوداً بحدود ومشروطاً بشروط وإلا فان البيت ليس أمن على كل احد حتى مَن يحادد الله تعالى ومن شروطه هو معرفة اهل البيت وعقد القلب على ما هو الحق الواقع ونظير ذلك ما رواه الفريقان متواتراً عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) ان الله قال : « كلمة لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي » فلا ريب في ان الأمن من عذابه تبارك وتعالى مشروط بشروط كثيرة .

وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومَن كفر فان الله غني عن العالمين » قال : « يعني به الحج والعمرة جميعاً لانهما مفروضان » .

اقول : ان اعمال الحج مركب من هذين وهذا واضح في حج التمتع واما في غيره فليست العمرة واجبة إلا في بعض صور

حج الافراد وما إذا أوجب على نفسه بنذر ونحوه واما احتمال وجوب العمرة نفسها لمن استطاع دون الحج فلا دليل عليه .

وفي الكافي عن علي بن جعفر عن أخيه موسى (عليه السلام) قال : « ان الله عزوجل فرض الحج على اهل الجدة في كل عام ؛ وذلك قول الله عزوجل : « ولله على الناس حج البيت مَن استطاع اليه سبيلاً ومَن كفر فان الله غني عن العالمين » قلت فمَن لم يحج منا فقد كفر ؟ قال (عليه السلام) : « ولكن مَن قال : ليس هذا هكذا فقد كفر » .

اقول : المراد من اهل الجدة أهل القدرة وقوله (عليه السلام) « في كل عام » متعلق بالجــدة لا بقوله « فرض » اي كل مَن استطاع في كل عام يجب عليه الحج وحينئذ فان حج يسقط عنه الفرض وإلا فهو باق عليه .

والمراد بقوله (عليه السلام) : « ليس هذا هكذا » انكار اصل الفرض والوجوب فيكون كفراً جهتياً حاصلاً من انكار حكم إلهيّ وواجب ضروري ولا ينافي هذا ما يأتي من تفسير الكفر بالترك لانه لابد من حمله على الترك التسويفي .

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) أيضاً في قوله تعالى : « ومَن كفر » قال (عليه السلام) : « ترك » .

اقول تقدم ما يتعلق به في الحديث السابق .

وفي الكافي أيضاً عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت مَن استطاع اليه سبيلاً » قال : « مَن كان صحيحاً في بدنه مخلاً في سربه ، له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج ، أو قال : ممن كان له مال فقال له حفص فاذا كان صحيحاً

في بدنه فخلى سربه له زاد وراحلة فلم يحج فهو ممن يستطيع الحج؟ قال (ع) : نعم » .

اقول : قد ورد في مضمون ذلك احاديث كثيرة وهي تبين الاستطاعة العرفية كما قلنا في المال والبدن والسرب اي الطريق فلا اختصاص للاستطاعة باحدها كما عن بعض .

واما سؤال حفص الكناسي انما هو بالنسبة إلى استقرار الحج بعد تحقق الاستطاعة والمسامحة في اتيان الحج وقد حكم بأن المسامحة لا تسقط التكليف بعد ثبوته وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحج من (مهذب الاحكام) .

ثم انه قد ذكرنا جملة مما يتعلق بالبيت الشريف وبعض احكام الحج في آيات ١٩٦ - ٢٠١ من سورة البقرة فراجع .

وفي الفقيه في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) « ياعلي تارك الحج وهو مستطيع كافر قال الله تعالى : « ولله على الناس حج البيت مَن استطاع اليه سبيلا ومَن كفر فان الله غني عن العالمين » ياعلي مَن سوّف الحج حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً » .

اقول : ذيل الحديث يبين صدره والمراد من كونه يهودياً أو نصرانياً ان تركه يكون كذلك كما ان اليهود والنصارى يتركونه كما يتركون سائر الاحكام الالهية .

بحث فقهي

استدل الفقهاء بقوله تعالى : « وَمَن دخله كان آمناً » على عدم

إقامة الحد في الحرم على مَن التجاء اليه وقد تظافرت الاخبار بذلك فعن الصادق (عليه السلام) في معتبرة الحلبي قال : « سألته عن قول الله تعالى : « ومَن دخله كان آمناً قال : إذا أحدث العبد جناية في غير الحرم ثم فر إلى الحرم لم ينبغ لاحد ان يأخذه من الحرم ، ولكن يمنع من السوق ولا يبايع ، ولا يطعم ، ولا يسقى ، ولا يكلم فاذا فعل ذلك يوشك ان يخرج فيؤخذ واذا جني في الحرم جنايةأقيم عليه الحد لانه لم يرع للحرم حرمة » .

وفي صحيح معاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام) قال : « قلت له رجل قتل رجلاً في الحل ثم دخل الحرم ؟ فقال (عليه السلام) لا يقتل ، ولا يطعم ، ولا يسقى ، ولا يبايع ، ولا يأوى حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد . قلت : فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق ؟ فقال (عليه السلام) يقام عليه الحد صاغراً انه لم ير للحرم حرمة وقد قال الله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يقول هذا في الحرم ، فقال : لا عدوان إلا على الظالمين » .

اقول : وهناك روايات تدل على ذلك والحكم متفق عليه عند الامامية . وقد اقيمت عليه شواهد كثيرة في جميع الاعصار ، وهذا من خصائص الحرم الالهي ، وقيل بالحاق الحرم النبوي بالحرم الالهي ولكن الحكم لم يثبت عند الجميع فلا ترفع اليد عن الاصول المعتبرة النافية للتكليف بل عن الاطلاقات والعمومات .

واما كونه أمناً بالنسبة إلى حيوان الحرم ونباته فقد وردت روايات تدل على انه يحرم ايذائهن وتهييجهن ، وقلع النبات لاسيما على المحرم والمسألة مذكورة في باب تروك الاحرام من ابواب الحج وتقدم ما يدل

على ذلك في البحث الروائي .

وقد تظافرت الاخبار أيضاً في انه أمن من العذاب يوم القيامة منها ما عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « مَن مات في احد الحرمين بعثه الله من الآمنين » ولابد من تقييده بما إذا دفن فيه مع وجود سائر الشرائط .

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

هذه الآيات الشريفة راجعة إلى بيان حقيقة الاستكمالات المعنوية والموانع التي تمنع عن الوصول اليها ، ويشهد لها العقل السليم ولا يصل الانسان إلى تلك الحقيقة التي هي منتهى الغايات الكمالية واقصاها الا باتباع ما ذكره القرآن الكريم في ذلك والانقياد له انقياداً تاماً اثباتاً ونفياً امتثالاً واجتناباً .

وتبين هذه الآيات ان فريقاً من اهل الكتاب يكفرون بآيات الله ويصدون المومنين عن سبيله عزوجل بل انها ترشد إلى حقيقة من

الحقائق الاجتماعية التي طالما يعانيها المجتمع الانساني وهي ان طائفة من الناس على الباطل وتكفر بآيات الله وتنكر الحقائق الواضحة وتصد عن الحق وتمنع عن رقي الانسان واستكماله وتعرض الشبهات التي تمثل السبيل الضلال المعوج العقيم سبيلاً مستقيماً موصلاً إلى الكمال المنشود . وقد حذر سبحانه المؤمنين منهم وانذرهم من متابعتهم ، وإلا دخلوا في زمرتهم وكانوا كافرين ، وأمرهم بالإعتصام بالله ورسوله والعمل باحكامه فان ذلك هو الصراط المستقيم الذي يوصل الانسان إلى الكمال المنشود والهداية التي لابد لكل فرد ابتغاؤها وذلك هو الصواب الواقعي الذي جبلت القلوب السليمة المستقيمة عليه .

والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة التي بينت سبل الهداية وعرّفت الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه وانذرت المؤمنين من شبهات الكافرين والملحدين .

التفسير

قوله تعالى : قل ياأهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله .

الآيات في المقام هي الدلائل الدالة على الحق ونبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) والكتاب المنزل عليه وما اشتمل البيت الحرام من الآيات البينات بل كل ما يوصل إلى الهداية .

وانما خاطبهم عزوجل باهل الكتاب الزاماً لهم للايمان بالكتاب وتصديقه ومبالغة في تقبيحهم وتكذيبهم . والاستفهام للتوبيخ والتعجيز عن اقامة العذر في كفرهم واعمالهم الفاسدة .

قوله تعالى : والله شهيد على ما تعملون .

جملة حالية ، والشهادة هي الحضور والاطلاع على الامور والشهيد بمعنى العالم المطلع وهو من اسماء الله الحسنى اي الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية .

والمعنى : قل يارسول الله لاهل الكتاب الذين يعاندون الحق ويكفرون به لاي سبب تكفرون والحال ان الله يعلم اسراركم واعلانكم ومطلع على اعمالكم وهو يجازيكم عليها .

وفي الجملة غاية التوبيخ ، وفيها الارشاد إلى مراقبة الانسان اعماله وتزكية النفس بالتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل فان الله مطلع على السرائر وعالم بمكنون الضمائر .

قوله تعالى : ياأهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله مَن آمن .

مادة (صدد) تدل على المنع والصرف وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة في ما يقرب من اربعين مورداً .

والسبيل كالطريق يستعمل - مذكراً ومؤنثاً - ويستعمل في القرآن الكريم كثيراً مذكراً وقد جاء مؤنثاً في قوله تعالى : «قل هذه سبيلي» يوسف - ١٠٨ وفي المقام بقرينة قوله تعالى : « تبغونها » اي السبيل لتضمينها معنى الآيات بقرينة الآية السابقة .

والمراد بها طرق الهداية وهي الآيات البينات الدالة على الحق ونبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) وما انزله الله تعالى عليه .

والاستفهام كسابقه توبيخي تعجيزي . وفي خطابهم باهل الكتاب

لزيادة تقريعهم وشدة توبيخهم اي : مع انكم اهل الكتاب تعرفون الآيات الدالة على الحق وتنكرونها وتعرضون عن الايمان بها .

والمعنى : ياأهل الكتاب لاي سبب تصدون المؤمنين بالله عن الايمان والحقائق وتصرفونهم عن سبيل الله بالقاء الشبهات .

قوله تعالى : تبغونها عوجاً .

جملة حالية إما من الضمير في « تصدون » أو حال من السبيل جيء بها لبيان الصد . والضمير يرجع إلى السبيل لتضمنه معنى الآيات كما عرفت .

وعوجاً مفعول ثـان لتبغون والمفعول الاول هو الضمير المتصل بعد حذف اللام ، فان بغي يتعدى إلى مفعولين احدهما بنفسه والثاني باللام اي يبغون لها عوجاً . وقيل انه منصوب على المصدر نحو رجع القهقري . وقيل ان عوجاً حال وقع موقع الاسم مبالغة . وفيها نظر .

ومادة (بغي) تدل على طلب التجاوز عن الاقتصاد في ما يتحرى تجاوزه سواء تجاوز ام لا وهو تارة يكون في الكمية واخرى في الكيفية وكل منهما إما محمود كقوله تعالى : « يبتغون فضلاً من الله ورضوانا » الفتح - ٢٩ أو مذموم كقوله تعالى : « ولا تبغ الفساد في الارض » القصاص - ٨٨ فالبغي على اقسام :

الاول : أن يكون من الحق إلى الحق كقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » القصص - ٧٣ وقوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » الاسراء - ١١٠ باعتبار ذات الصلاة .

الثاني من الباطل إلى الحق كقوله تعالى : « انما تعبدون من دون

الله اوثاناً وتخلقون افكاً انالذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليـه ترجعون » العنكبوت ـ ١٧ وقوله تعالى : « فالآنباشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا » البقرة ـ ١٨٧ .

الثالث : من الحق إلى الباطل كقوله تعالى : « ومَن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » آل عمران ـ ٨٥ وقوله تعالى : « فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون » المؤمنون ـ ٧ .

الرابع : من الباطل إلى الباطـل كقوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » النور ـ ٣٣ . وكيف كان فتلك المادة كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيآت مختلفة .

والعوج خلاف الاعتدال وهو الميل عن الاستواء وفي الحديث في وصف نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « حتى يقيم به الملة العوجاء » اي ملة ابراهيم (صلى الله عليهوسلم) التي غيرها المشركون عن استقامتها .

والمعروف انه بفتح العين مختص بالمحسوسات كالاجسام المرئيـة وبالكسر فيما ليس بمرئي كالرأي والقول ومطلق المعاني قال أبو زيد في كتاب الفرق : « كل ما رأيته بعينك فهو مفتوح وما لم ترهفهو مكسور » ولكن يرد عليـه انه ورد في القرآن الكريم بكسر العين في المحسوسات قال تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً » طه ـ ١٠٦ ولذا قيل ان الكسر يقال فيهما معاً والاول اكثر . وقيل في المنتصب كالحائط والعصا يقال عوَج (بالفتح) وفي الارض والدين والمعاش يقـال

عوج (الكسر) وكيف كان ان المراد منه في المقام الزيغ والتحريف والكتمان والمخادعة .

والمعنى : انكم ـاهل الكتابـ تظلمون بصدكم عن سبيل الله بالخديعة والتزوير والزيغ والتحريف والكتمان والشبهات فيها لتردوا المؤمنين عن ايمانهم بغياً وكيداً ، مع انها الصراط المستقيم الظاهرة الحجة الساطع البرهان .

قوله تعالى : وانتم شهداء .

اي والحال انتم شهداء على استقامة سبيل الله . تعلمون ان صدكم عنه تعالى انما يكون صداً عن الحق وان منكره ضال مضل ويلزم من ذلك معرفتهم بحقية الرسول الكريم وصحة دعواه،وقد عرفوا البشارات بنبوته ودينه التي دلت عليها كتبهم واخبرهم انبياؤهم ، فكان الواجب عليهم الايمان به ، والسبق بالاعتراف بدينه لا الصد عنه .

قوله تعالى : وما الله بغافل عما تعملون .

تهديد لهم على صنيعهم فانه تعالى عليم بصدهم وضلالهم ومجزيهم عليه لا يفوته شيء وهو شديد الانتقام .

وانما ذكر سبحانه وتعالى عدم الغفلة في هذه الآية الشريفة ، لما نسب الشهادة اليهم على الحقية وانما احفوها بمكرهم وخداعهم الخفية في جعل السبيل المستقيم عوجاً ، فناسب ذكر عدم الغفلة عن جميع ذلك.

كما ان في الآية السابقة كان كفرهم وانكارهم لآيات الله تعالى، فذكر عزوجل انه شهيد على ذلك . وكيف كان ففي نسبة الشهادة إلى نفسه في الآية السابقة ، وفي المقام نسبتها اليهم من اللطف ما لا يخفى .

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين .

بيان لحقيقة من الحقائق الاجتماعية التي لا يخلو عنها اجتماع من بدء تكوينه وهي تأثير بعض طوائف المجتمع الانساني في البعض الآخر وتأثرها منها ، وهذه العملية ـ اي التأثير والتأثر ـ هي من اهم الامور الاجتماعية التي يبتني عليها الاجتماع الانساني ولها الاثر الكبير في تقدم المجتمع أو تأخره والقرآن الكريم لا ينكر هذه الحقيقة الاجتماعية ، وانما كان له الفضل الكبير في تهذيبها وبيان ما يترتب عليها من الاثار المهمة في النفس والتربية والاقتصاد وسائر الشؤون حيث انه ما يكون في الطائفة المطاعة يسرى إلى الطائفة المطيعة من مفاسد الاخلاق والضلال وبناء على ذلك لا وجه لتعيين معنى الفريق كما ذكره بعض المفسرين ، فانه من القضايا الحقيقية المنطبقة في كل عصر على الطائفة المضلة في ذلك العصر سواء كانت من اهل الكتاب ام كانت من غيرهم إذا كانت لها قوة الضلال والاضلال ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « فريقاً من الذين اوتوا الكتاب » فان المراد منه هم الذين عرفوا شيئاً من الكتاب ولكن جعلوه وسيلة للاضلال وقد نهى الله تعالى المسلمين من اطاعة هؤلاء وحذّرهم من سوء اثرها ومن اهمه انها تردهم كافرين بعد ايمانهم وفيه هلاك الدين والدنيا ، والذلة في العاجل والآجل وفناء استقلاليتهم في شؤونهم ، فلابد من التنبه إلى ذلك والالتفات اليه والعمل بما انزله الله تعالى .

وفي الآية الشريفة التشديد على انكار اطاعة المؤمنين للكافرين لكمال شناعة الكفر بعد الايمان وزيادة قبحه . وانما قدم عزوجل توبيخ

الكافرين على هذا الخطاب لبيان ان الكفر كالعلة الداعية اليه .

قوله تعالى : وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله .

استبعاد من ان يقع من المؤمنين الكفر وانكار لما يقع منهم وعندهم ما يكون سبباً في عدم وقوعه منهم والاجتناب عنه .

وقد ذكر سبحانه وتعالى امرين مهمين هما آيات الله تعالى ورسوله العظيم فهما حبلان ممدودان من السماء لا يضل من تمسك بهما ، دالان على كل حق وفيهما الهداية والرشاد . ومَن يعتصم بهما فقد اعتصم بالله العظيم ، والكفر بعد وجودهما يكون نظير الجمع بين المتناقضين .

ومن ذلك يعرف ان الآية المباركة عامة لا تختص بطائفة خاصة ولا عصر مخصوص .

قوله تعالى : ومن يعتصم بالله .

كبرى كلية تنطبق على جميع سبل الهداية والرشاد . ومادة (عصم) تدل على المنع والحفظ مما يخاف ويحذر ، وفي الحديث « مَن كانت عصمته شهادة ان لا إله إلا الله » اي ما يعصمه من المهالك يوم القيامة . والعاصم هو الحافظ المانع سواء كان بفعله أو بتسبيب منه ، والمعتصم هو الملتجىء إلى العاصم واللائذ به مما التجأ ولاذ حذراً منه والاسم العصمة وفي شعر أبي طالب في وصف نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) .

ثمال اليتامى عصمة للارامل

والاعتصام بالله هو الامتناع به بالتجاء العبد وانقطاعه اليه ليحفظه من مضلات الفتن وموبقات المعاصي وموارد غضبه ، ومن مفاسف الاخلاق

ويوفقه لموجبات رحمته ويرضى عنه . ولابد لهذا الاعتصام من سبب محقق له وهو مخالفة النفس الامارة ، واتباع العقل والفطرة اللذين دعا اليهما دين الله ورسله ، ولذا وجب الايمان بخاتم النبيين وقرآنه ومن يكون داعياً اليهما علماً وعملاً . فيكون ذكر القرآن الكريم والرسول من اسباب الاعتصام ومحققاته .

ومن ذلك يعلم ان المراد من الاعتصام العملي منه دون القولي والاعتقادي فقط .

قوله تعالى : فقد هدي الى صراط مستقيم .

اي ومن جرى على الاعتصام المزبور فانه يؤهله إلى توفيق الله تعالى للهداية إلى الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يخشى المهالك وترتب الهداية إلى صراط مستقيم على الاعتصام بالله تعالى ترتب المعلول على العلة التامة المنحصرة لا يتخلف ابداً ، كما يشعر به اتيان الفعل الماضي وحذف الفاعل في « فقد هدي » الدال على تحقق الفعل من غير قصد وشعور بفاعله .

وانما وصف سبحانه وتعالى الصراط بكونه مستقيماً للرد على الذين يبغونه عوجاً ، فانهم مهما حاولوا التمويه والاضلال واخفائه فان الصراط لا يخرج عن استقامته فهو الحق المبين ، وصراط الله منحصر في الصراط المستقيم قال تعالى : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » الانعام - ١٥٣ .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على امور :

الاول يدل قوله تعالى : « قل ياأهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل ياأهل الكتاب لمَ تصدون عن سبيل الله مَن آمَن تبغونها عوجاً وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » على قواعد عقلية نظامية اجتماعية منهـــا قاعدة « امتناع اجتماع المتنافيين » فان الكفر بآيات الله مع دعوى الايمان يكون من المتنافيين الذي هو ممتنع بفطرة العقول وبرهنت عليها العقلاء ولذا كان الخطاب بـ(كيف) الدال على التعجب .

ومنها ثبوت الاختيار للانسان الذي هو من مهمات مباحث الفلسفة والكلام .

ومنها : تفكيك المقتضى (بالفتح) عن فعلية المقتضي (بالكسر) من كل جهة وهي مما يستنكره العقل ، فان تـــلاوة آيات الله تعالى ووجود الرسول الاعظم فيهم مقتضيان للتخلق باخلاقه ، والامتثال لاوامره والانتهاء عن نواهيه فهم منكرون هذه القاعدة التي دلت عليها الادلة العقلية والنقلية .

الثاني : ذكر سبحانه وتعالى في المقام : «مَن آمن تبغونها عوجاً» وفي سورة الاعراف ـ ٨٦ : « مَن آمن به وتبغونها عوجاً » وانما حذف « به » والواو في المقام لان حذف (به) موافق لقوله تعالى « ومن كفر » فقد حذف (به) فيه أيضاً . كما ان حذف الواو انما هو لاجل ان قوله تعالى « تبغونها » جملة حالية والواو لا تزاد مع الفعل اذا وقع حالاً مثـــل قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » المدثر ـ ٦

واما في سورة الاعراف عطف على الحال هي قوله تعالى : «توعدون وتصدون » وكذلك « لا تبغونها عوجاً » .

الثالث: ذكرنا ان قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب » يدل على قاعدة اجتماعية لا ينفك عنها اي اجتماع إنساني وهي تبادل الافكار والعادات والتقاليد بين المجتمعات والقرآن الكريم يحذر المسلمين من ذلك ويبين ان كل طائفة إذا أطاعت طائفة اخرى واخذت بافكارها وثقافتها لابد ان تتأثر بها فان كانت الافكار فاسدة ومنحرفة فهي تؤثر في المؤمنين وتذهب فضائل افكارهم وتفسد عليهم ثقافتهم وتحرّمهم من سعادتهم وتوجب ضلالهم وذلهم وعبوديتهم وقد اوجز سبحانه جميع ذلك في قوله تعالى : « يردوكم بعد ايمانكم كافرين » الذي فيه قبح عظيم واثار سيئة . وقد لطف تعالى بالمؤمنين حيث خاطبهم بقوله « ياايها الذين آمنوا » وبين عز وجل اثره الكبير باسلوب رائع .

الرابع : انما عبر سبحانه وتعالى بالتلاوة في قوله تعالى : «وانتم تتلى عليكم آيات الله » لان التلاوة هي البيان بقصد التفهيم والتفهم فلا يكتفي بمجرد وجود القرآن الكريم فقط دون تلاوته والعمل به .

واما ذكر الرسول (صلى الله عليه وآله) مجرداً عن كل شيء فلأنه (صلى الله عليه وآله) بنفسه وحركاته وسكناته واقواله وافعاله حجة لله على خلقه ومعلم عظيم للكمالات الانسانية وشارح للآيات الشريفة ومفسر لها ومبين القرآن الكريم قولاً وعملاً وهو الصراط المستقيم الذي عقب الله تعالى به ذلك .

الخامس : إنما وصف سبحانه الصراط بالمستقيم لبيان انه لا يختلف ولا يغيره اضلال المعاندين وافساد المفسدين ، كما انه يحفظ سالكيه

عن الوقوع في الضلال .

بحث روائي

في الخصال عن الحسين الاشعر : « قلت لهشام بن الحكم ما معنى قولكم : إن الامام لا يكون إلا معصوماً ؟ فقال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن ذلك فقال : « المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله وقد قال الله تبارك وتعالى : ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » .

اقول : المراد من قوله (عليه السلام) : الممتنع بالله اي الممتنع بالاعتصام في جميع اموره وشؤونه فيحصل له توفيق ترك محارم الله بالاختيار ، فقد جمع الطاعة وترك المحارم وهذا هو معنى العصمة .

وفي اسباب النزول للواحدي عن عكرمة في قوله تعالى : «ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين قال : « كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال من الجاهلية فلما جاء الاسلام اصطلحوا والف الله بين قلوبهم وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج فأنشد شعراً قاله احد الحيين في حربهم ، فكأنهم دخلهم من ذلك ، فقال الحي الآخر قد قال شاعرنا في يوم كذا : كذا وكذا فقال الآخرون وقد قال شاعرنا في يوم كذا : كذا وكذا فقالوا تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت فنادى هؤلاء ياآل أوس ونادى هؤلاء ياآل خزرج فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال ، فنزلت هذه الآية فجاء النبي (صلى الله عليه وآله) حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته

فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون اليه فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجثوا يبكون » .

اقول: على فرض اعتبار الرواية انها تبين بعض مصاديق الآية الشريفة كما ذكرنا مراراً من ان مورد الآيـــة ومصاديقها لا تكون مخصصه للآية النازلة .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا
تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٠٢) واعتصموا
بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت
الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين
الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٣) ولتكن
منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
المفلحون (١٠٤) ولا تكونوا كالذين تفرقوا
واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك
لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه
وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم
أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما
كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت
وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧)
تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله
يريد ظلماً للعالمين (١٠٨)

هذه الآيات من جلائل الآيات الكريمة التي وردت في تكميل النفوس الانسانية وتنظيم نظام الدنيا والآخرة بالنحو الاحسن الاكمل الذي

يعترف به جميع العقول وتقبله الفطرة المستقيمة وهي مرتبطة بالآيات السابقة فانه تعالى بعدما حذر المؤمنين من مكائد الكافرين وفتن أهل الكتاب واضلالهم أمرهم بالاعتصام بحبل الله جلت عظمته ليهديهم إلى الصراط المستقيم ويوفقهم للدين القويم ويحفظهم من المهالك .

ويبين سبحانه في هذه الآيات المباركة الصلة به تعالى تلك التي يحبها كل قلب مؤمن وهي التقوى لانها من سبل الاعتصام بالله بل من اهمها فكل ما اقترب العبد من الله بتقواه اشتاق إلى مقام ارفع مما بلغ اليها .

وقد دعا سبحانه وتعالى في هذه الآيات الشريفة أيضاً إلى الاعتصام بحبل الله ، من الدعوة إلى الخير ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي كلها من سبل الاعتصام به .

ثم امرهم بالاجتماع وعدم التفرق ونهاهم عن الاختلاف ووعدهم الحسنى والخير إن هم قاموا بالوظيفة التي امرهم بها .

فهذه الآيات المباركة تعتبر تتمة الآيات السابقة فان السياق في الطائفتين واحد .

التفسير

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته .

تقدم ما يتعلق بهذا الخطاب في اول سورة البقرة وغيره من الآيات الشريفة ، وفي تكراره لا يخفى من اللطف بالمؤمنين والتشريف لهم لاسيما بعد خطاب « من الذين اوتوا الكتاب » الآية ـ ١٠٠ .

والتقوى كما تقدم مكرراً هي الطاعة لله تعالى والاحتراز عن الوقوع في ما يوجب سخطه وعذابه ويلزم ذلك الشكر لنعمه ، وانما امرهم بالتقوى لانها جوهرة الكمالات الانسانية ومفتاح السعادة واساس مكارم الاخلاق وبها يفوز العبد بالقرب إلى الله تعالى والبُعد عن النار وهي تحفظ ايمان المؤمن وتزيده قوةً وثباتاً .

هذا ولكن التقوى على نحوين تقوىً ظاهرية خالية عن الخلوص والإخلاص وباطنية حقيقة مشتملة عليها وهي التي لا يشوبها باطل ولا فساد وهي ذكر المنعم بلا نسيان وطاعته بلا عصيان وبالجملة فهي العبودية المحضة التي لا كمال بعدها وهذا النحو من التقوى هو حق في نفسه وحق لله تعالى وهي التي تليق بساحته تبارك وتعالى دون غيرها .

وقد ورد مثل هذا التعبير في ستة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى : « يتلونه حق تلاوته » البقرة ـ ١١٥ وقال تعالى : « جاهدوا في الله حق جهاده » الحـــج ـ ٧٧ وقال تعالى : « فما رعوها حق رعايتها » الحديد ـ ٢٧ وقال تعالى : « ما قدروا الله حق قدره » الانعام ـ ٩١ ومثله في سورة الحج ـ ٧٣ وسورة الزمر ـ ٦٧ والمستفاد من هذا التعبير هو الامر بالحقيقة الخالصة من شوائب الاوهام، وتدل تلك الجملات على كمال الاهمية بالمورد حتى انه تعالى نفى الحقية عن غيره كما هو المستفاد من النفي والاثبات وعرفان الحق لا يحتاج إلى البيان . فانه نفس واقع الشيء على ما هو عليه في ذاته .

ويحتمل ان يكون المراد في قوله تعالى : « حق تقاته » آخر مراتب التقوى واعلا درجاتها التي من صفات الانبياء والاولياء وهي حقيقة التقوى التي اوحاها عزوجل إلى انبيائه وبشرت بها رسله وغيرها خارج عن تلك الحقيقة وليست شيئاً زائداً عليها ، نعم الاشتداد والتضعف

الجاريان في كل مقولة يجريان في هذه الحقيقة أيضاً ولكن الآية المباركة ليست ناظرة إلى هذه الجهة ، كما انها ليست منسوخة ولا ناسخة ، فيكون تعميم الخطاب في صدر الآية لجميع المؤمنين تشريفاً لهم شيئاً وطلب حق التقوى شيئاً آخر وطلب الموت على الاسلام في ذيل الآية الشريفة شيئاً ثالثاً ، فيصير صدر الآية وذيلها شاهدين على ان ليس المراد بالتقوى هنا خصوص تقوى الانبياء والاولياء فقط بل هي عامة تشمل الآية جميع المراتب كل على حسب ما يقدر عليه .

ويحتمل التنزيل على مراتب القدرة والاستطاعة بل هي ظاهر الآية الشريفة ، فالصحيح يصلي قائماً مثلاً والمريض جالساً وهكذا كل على قدر استطاعته وعلى هذا فيكون قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » التغابن ـ ١٧ شارحاً لهذه الآية الشريفة .

ومحصل معنى الآيتين ان مراتب التقوى ، كمراتب اصل التكليف كما ان الاخير لا يتعلق إلا بالمستطاع وينحل الى مراتب كثيرة وكذلك التقوى فكل مؤمن لابد ان يحظى بالتقوى على قدر استطاعته وطاعته.

كما انه يحتمل ان يكون المراد من قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » التغابن ـ ١٧ الترغيب إلى اتيان المندوبات والتنزه عن اتيان المكروهات لان الأولى من شؤون الواجبات والثانية من شؤون المحرمات وكل ذلك من حمى الله تعالى كما في بعض الروايات . وعليه فلا ربط لها لهذه الآية الشريفة .

قوله تعالى : ولا تموتن إلا وانتم مسلمون .

تحريض على مداومة التقوى بعد الأمر بتحصيل حقيقتها والخلوص فيها ، فيكون المراد من الاسلام في الآية هو الاسلام الحقيقي الاستمراري

حتى الانتقال إلى النشأة الاخرى ووقوع الموت الذي هو امر غيبي في حال الاسلام والتسليم .

وعلى هذا لاوجه للتفصيل بكون الطلب في الآية الشريفة متعلقاً بأمر تكويني أو بجامع من الامر التكويني واختياري ، فان ظاهر الآية هو الامر بتحصيل المداومة على التقوى حتى الموت وتقدم بعض الكلام في آية ١٨٩ من سورة البقرة .

والمراد بالاسلام هو الطاعة لله تعالى وعدم المحادة له بالمعصية ، وهذه هي التقوى التي امرنا الله تعالى بها سابقاً . وذكر بعض المفسرين ان المراد بالاسلام هو الايمان القلبي ، لان الاعمال حال الموت مما لا تكاد ان تتأتى . وفيه من التكلف ما لا يخفى ، فما ذكرناه اظهر من الآية الشريفة وانسب إلى الامر بالتقوى كما عرفت ، وكيف كان ففي الآية المباركة التأكيد على ترك طاعة اهل الكتاب .

قوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

الاعتصام هو التمسك والالتجاء وتقدم اشتقاق الكلمة في الآية السابقة .

والحبل معروف ، ويستعمل في سبب منيع يوصل إلى البغية والحاجة وفي الدعاء « ياذا الحبل الشديد » والمراد به القرآن أو الدين أو السبب كما ورد في صفة القرآن « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الارض » اي نور هداه يكون كذلك ، وفي حديث آخر : « وهو حبل الله المتين » . وقيل المراد عهده وامانه الذي يؤمن من العذاب وقيل المراد منه العهد والميثاق وقيل غير ذلك وجميعها من باب التفسير بالمصداق .

والمراد به في المقام ما جعله الله تعالى سبباً عاصماً من الوقوع في

الضلالة والمهالك ، والمعروف ان في الكلام استعارة تمثيلية بأن شبه التمسك بما جعله الله عاصماً من الوقوع في المهالك بالتمسك بالحبل المتدلي من مكان رفيع وثيق مأمون الانقطاع الذي يمنع المتمسك به من السقوط والهلكة .

وجميعاً حال من فاعل اعتصموا أي : مجتمعين ، فيكون قوله تعالى : « ولا تفرقوا » تأكيداً والنهي عن التفرق باتباع السبل المختلفة فيوجب البعد عن سبيل الله تعالى كما قال عزوجل : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » الانعام ـ ١٥٢ .

واختلف المفسرون في المراد بالحبل في هذه الآيه الشريفة فقيل انه كتاب الله . وقيل انه الاسلام . وقيل انه الطاعة والجماعة . والحق ان يقال انه بعد ان بين عزوجل في الآية السابقة ان التمسك بآيات الله تعالى وبالرسول اعتصام بالله تعالى مضمون له الهدى ومأمون من الضلال والهلاك ، فان كل واحد منهما يكمل الآخر ويفسره . والرسول كتاب ناطق كما ان القرآن رسول صامت فيكون التمسك بالرسول (صلى الله عليه وآله) تمسكاً بالقرآن لا سيما بعد أمر القرآن بذلك قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الحشر ـ ٧ وقد امرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله في هذه الآية فتكون النتيجة ان حبل الله هو الكتاب والرسول . ولكن بما ان الحكم في الآية السابقة معلق على شخص الرسول الكريم باعتباره جامعاً لجميع الكمالات وملتزماً للطاعات ومعصوماً من المعاصي والزلات شارحاً للكتاب المبين ومفسراً لرموزه ودقائقه فمن يكون مثل الرسول من هذه الجهة يكون من مصاديق حبل الله ، ويدل على ذلك حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين « إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم

بها لن تضلوا كتاب الله وعترتي اهل بيتي » فان الكتاب والرسول وعترته كلها مشاعر هدايته عزوجل ومصاديق حبل الله ، وان حقيقة هذا الحبل هي الانسانية الكاملة التي هي في الحقيقة الصراط المستقيم، وان الكتب السماوية والانبياء والمرسلين تدعوا إلى الاهتداء اليها ، وهي حقيقة الجنة التي وعد الله عباده بها ، وهي التي توجب مخالفتهـا النار ، فلهذه الحقيقة صور كثيرة مختلفة في جميع العوالم والنشئآت ، فتارة : يكون موسى بن عمران والتوراة واخرى : يكون عيسى بن مريم والانجيل ، وثالثة : يكون حبيب الله محمد بن عبد الله والقرآن الكريم ورابعة : يكون عترته الطاهرة لانهم شراح القرآن وامتداد لشخص الرسول الكريم كما عرفت ، وحينئذ يكون الامر بالإعتصام بحبل الله امراً حقيقياً واقعياً تكوينياً وهو عبارة عن الاضافة بين العلة والمعلول أو المقتضى (بالكسر) مع المقتضى (بالفتح) أو بين الخالق والمخلوق فالخطاب من سنخ الخطابات التكوينية التي لا يختص بزمان دون زمان ولا بقوم دون آخرين . نعم افضل مصاديقه الانسان الكامل والاسلام لانهما افضل الممكنات .

ومن ذلك كله يعرف انه ليس المراد بالاعتصام القولي منه فقط أو الاعتقادي بل الاعتصام العملي والطاعة لله تعالى بكل ما شاء وأراد ومثل هذا الاعتصام تحكم بحسنه فطرة العقول ، لان اعتصام الفقير المطلق بالغني كذلك مما يحكم بلزومه الفطرة ، بل ان الممكن بذاته معتصم لمبداه لاسيما بعد ان اثبت المحققون من الفلاسفة ان مناط الحاجة هو الامكان لا الحدوث ، ولابد وان يظهر الانسان هـذا الاعتصام الذاتي في الاعتقاد والقول والعمل بان يطابق ما يصدر عنه لما هو المحبوب لدى المعتصم به .

وانما امر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله على نحو الجمع في قوله « واعتصموا » ثم اكده بقوله تعالى : « جميعاً » وثالثة بقوله « ولا تفرقوا » لان اختلاف الامة احزاباً أو اشياعاً أضر شيء بالنظام ، ويستفاد منه ان هذا الحكم لا يتحقق حدوثاً وبقاءاً إلا على نحو الجمع والاجتماع ، فالاعتصام الفردي من دون الجماعة لا يثبت المطلوب والغرض من هذا الحكم ، فيكون عدم الاجتماع على هذا الحكم من موجبات التفرق والاختلاف والوقوع في المهالك ، فالآية السابقة تتعرض لحكم الفرد من حيث التقوى والموت على الاسلام وهذه الآية لحكم الجماعة .

قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم .

دعوى إلى تذكر نعم الله تعالى التي فيها الموعظة والعبرة وفيها الحث على الاجتماع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى المؤدي إلى التآلف وزوال الاضغان والنفرة بين افراد المجتمع .

وفي الآية الشريفة دعوة إلى تعلم العلل والاسباب التي تؤدي إلى خير الانسان وسعادته وتهديه إلى الحق والتوفيق إلى الايمان الصحيح ونبذ التقليد الاعمى الذي لا يجنى منه الخير وهذا هو الاصل القويم الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في تعليم الانسان وهديه إلى سعادته فانه يأمره بالعلم النافع والعمل الصالح ليمكنه معرفة الحقائق وارتباط بعضها مع البعض ثم كيفية ارتباطها مع مسبب الاسباب والمبدأ الفياض ورجوعها إلى الله تعالى والامر بالاعتصام بحبله والتسليم لأمره ، فان في ذلك السعادة الحقيقية وفي غيره الجهل والبعد عن الحقيقة وقد نهى عزوجل عن التقليـــد الاعمى الذي يسلب الارادة عن الانسان وينفي

عنه التفكر الصحيح ، ويشوه الحقائق . وقد اقام سبحانه ادلة ثلاثة على ما حث عليه من التذكر وندب اليه من التفكر إثنتان منهـا تشهد عليهما التجربة والثالث مبني على البرهان القطعي .

قوله تعالى : إذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم .

هذا هو الدليل الاول وهو تذكر العداوة التي كانت سائــدة في المجتمع الجاهلي الفاسد والبغضاء التي كانت قائمة بينهم وقد قاسوا مرارتها وكابدوا شدائدها واهوالها فقد كانت الحروب والقتل والدمار والضغائن والاحقاد ملتهبة وبلغت ذروتها أبان الدعوة الاسلامية ، فالف عزوجل بين القلوب بالاسلام والرسول الكريم الأمين فزالت تلك الاحقاد وحل الصلح والوئام وقد تألفت قلوبهم وهو اكبر دليل على حقيقة الايمان بالله والاعتصام بحبله وتذكر نعمه فانه لولا الاسلام لما ذاق الاجتماع حلاوة المحبة والاخوة ولما زالت مرارة العداوة والفرقة.

قوله تعالى : فاصبحتم بنعمته اخواناً .

هذا هو الدليل الثاني والاخوان جمع الأخ . وقيل ان اكثر ما يجمع اخو الصداقة على الاخوان ، والأخ في النسب على الاخوة وقــد ورد في اخ الصداقة قوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » الحجرات ـ ١٠ وفي النسب قوله تعالى : « واخوانهن أو بني اخوانهن » النور ـ ٣١ وقوله تعالى : « أو بيوت إخوانكم » النور ـ ٦١ .

والمراد بها وقوع التآلف في القلوب كعادة الاخوة الاشقاء في كونهم يداً واحدة بقلوب مؤتلفة . وفي تكرار هذه المنة التنبيه على ما ذكرناه والحث على التمسك بحبل الله والاعتصام به وتذكر نعمه التي توصلكم الى السعادة ، وتهديكم الى الرشاد فان في الاخوة التي [illegible] الله [illegible]

منها

عليهم الاجتماع والتآلف .

قوله تعالى : وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .

عطف على « كنتم اعداء » وهـذا هو الدليل الثالث المبني على البرهان . وشفا حفرة اي طرف الحفرة وحافتها ، فان شفا كل شيء جرفه وحافته . ومنه حديث علي (عليه السلام) : « نازل بشفى جُرُف هار » أي جانبه وفي المأثور : « لا تنظروا إلى صلاة احد ولا إلى صيامه ولكن انظروا إلى ورعه إذا شفى » أي اشرف على الدنيا وأقبلت عليه ويقال : « اشفى على الهلاك » أي ورد على شفاه وقيل ان كلمة « شفى » لا تستعمل إلا في الشر .

وقد تستعمل في القليل أيضاً يقال « ما بقى منه إلا شفا » أي قليل ويثنى على شفوين والجمع اشفاء ويضاف إلى الاعلى وإلى الاسفل . وكنتم على شفا حفرة أي مشرفين على السقوط فيها .

والمراد من النار هي التي اوقدوها باعمالهم ومعتقداتهم التي كانت سبباً للنار الحقيقية وهي نار جهنم ونـار الدنيا التي هي الحروب والمنازعات فانها استعملت فيها كثيراً في المحاورات الصحيحة كقوله تعالى : « كلما اوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله » المائدة - ٦٤ .

وكيف كان فالآية الشريفة تبين حالهم في المجتمع الجاهلي الفاسد المبني على الضغائن والحروب والمنازعات والتنافر والافتراق كما تبين مآلهم الذي يصلون اليـه وهو الدخول في النار في الآخرة وسلب الطمأنينة والأمن فجلبت لهم الشقاوة والعناء والزوال في الدنيا . وقد انقذهم الله تعالى من مآلهم الفاسد بالاسلام الذي جلب لهم الطمأنينة والامن والرفاه والعيش الهنيء والسعادة وقد شاهدوا بدخولهم في الاسلام

ما لم يتخيلوه في الحسبان فلذلك كان هذا البرهان اوقع في النفوس من غيره لانه كان به خلاصهم من العذاب في الآخرة والشقاء والحرمان في الدنيا وهذا الدليل حاصل مضمون الدليلين المتقدمين المشتملين على الحس والوجدان دون محض التقدير ومجرد الحسبان .

قوله تعالى : كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

أي يبينها برهاناً ووجداناً ومشاهدةً لأجل اهتدائكم إلى حقيقة الايمان والاعتصام بحبل الله المبين وتدخلون في الصراط المستقيم وتتذكرون نعمه التي انعمها الله تعالى على المسلمين .

قوله تعالى : ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

أمر سبحانه وتعالى بتكميل الغير بعدما أمرهم بتكميل أنفسهم حيث ان الاعتصام بحبل الله تعالى المادة المهيأة لتوارد الصور الكمالية عليها. ومن المعلوم ان المادة لا فعلية لها الا بالصورة كما هو ثابت في الفلسفة الإلهية ، فلابد من السعي في تحصيل تلك الصورة وهي الدعوة إلى الخير سواء كان من النبي أو الوصي أو من يقوم مقامهما في هذا الشأن .

وانما تكون الدعوة إلى الخير بمنزلة الصورة الفعلية للاعتصام بالله تعالى ، والدعوة إلى الخير هي من اهم الاسباب التي تكون دخيلة في رقي الامة وتقدمها في كل المجالات ، فهي تحفظ العلم عن الضياع والعمل عن الفساد . والمجتمع عن الانهيار في مهلكة الشرور ، فهي جامعة السعادة ومانعة الشقاوة ، وان القوانين المجعولة خالقية كانت ام خلقية انما يترتب الاثر عليها من حيث البقاء ومداومة العمل بها لا بمجرد حدوثها فقط . وان البقاء يتقوم بامرين :

الأول : العمل بها بشرائطها المقررة .

الثاني : الترغيب إلى فعلها والترهيب عن تركها ، وبعبارة اخرى ان القوة المجرية لها في مقام حفظ القانون هي الدعوة . ويعبر عنهما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذا كانت لهما المنزلة العظيمة في الشرايع السماوية ، بل في القوانين المجعولة ، ولولاهما لاختل النظام وتعطلت الاحكام ، ولانبياء الله العظام واوصيائهم الكرام الزعامة الكبرى في التصدي لهذين التكليفين العظيمين .

والمراد من الخير كل ماله دخل في الاعتصام بحبل الله سواء كان من المعارف الحقة او الاعمال الصالحة أو مكارم الاخلاق ، وما ذكره عزوجل في المقام ترغيباً إلى الخير الذي تدعو اليه فطرة العقول ويحبه كل انسان ولا يمكن ان يجهله احد ، وابيان ان المجتمع الذي يكون الخير هو مطلبهم ومناهجهم وعملهم هو المجتمع السعيد والأمة الراقية .

وقد اختلف المفسرون في معنى الخير في المقام فقيل انه الاسلام وقيل انه اتباع القرآن وسنة الرسول ، وقيل غير ذلك . والحق ان ما ذكروه من مصاديق مطلق الخير ، والصحيح ما ذكرناه فان جميع ذلك دواع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى .

والامة: الجماعة التي تؤم امراً معيناً ، وقد اطلقت في القرآن الكريم كثيراً على اتباع الانبياء لانهم اجتمعوا على قصد واحد وهو اتباع الحق وراء قدوة شخص معين ، وتطلق أيضاً على الدين والملة قال تعالى : « انا وجدنا آباءنا على أمة » الزخرف - ٢٢ وعلى السنين قال تعالى : « وادكر بعد امة » يوسف - ٤٥ والجميع يرجع إلى معنى واحد ، وقد تقدم في قوله تعالى : «ومن ذريتنا امة مسلمة » البقرة - ١٢٨ وكذا في قوله تعالى : « تلك امة قد خلت » البقرة - ١٤١

بعض الكلام في اشتقاق هذه الكلمة .

والدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى كل ما فيه صلاح الأمة ديناً ودنياً وآخرة كما عرفت . وفي الحديث : « سأخبركم بأول امري : دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى » دعوة ابراهيم (عليه السلام) هي قوله تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك » البقرة ـ ١٢٩ وبشارة عيسى هي قوله تعالى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد » الصف ـ ٦ .

والمعروف : كل ما هو خير وحسن عقلاً ولم ينه عنه شرعاً فهو اسم جامع يشمل طاعة الله جل جلاله والتقرب اليه والاحسان إلى الناس ،وفي الحديث : « اهل المعروف في الدنيا هم اهل المعروف في الآخرة » يعني مَن بذل معروفه في الدنيــا واحسن العشرة مع الناس آتاه الله جزاء معروفه في الآخرة وروي عن ابن عباس في معنى الحديث : « يأتي اصحاب المعروف في الدنيا يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جامة (جامدة) فيعطونها لمن زادت سيآته على حسناته فيغفر له ويدخل الجنة فيجتمع لهم الاحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة » .

والمنكر : هو ما انكره العقل والشرع فيكون ضد المعروف .

وعطف الأمر بالمعروف على دعوة الخير يكون عطفاً تفسيراً لبيان ان دعوة الخير هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولمعلومية الخير ومحبوبيته لدى الجميع فلابد ان يكون المعروف والمنكر معلومين عند الداعي إلى الخير ، وللاعلام بأن المجتمع الذي بلغ من الكمال بالاعتصام بحبل الله تعالى صار المعروف عندهم هو الخير والمنكر هو الشر ، كما انه يمكن ان يكون أيضاً لأجل ان المعروف والمنكر عند

الشرع هو الخير والشر المعروفان عند العقل وتدعو اليهما الفطرة .

وقيل ان عطف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على دعوة الخير هو من عطف الخاص على العام فيكون من قبيل عطف افضل الافراد على الكلي . ولا ينافي ذلك ما ذكرناه .

وكيف كان فالآية الشريفة تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا شك في ذلك .

وانما البحث والخلاف في كونه كفائياً أو عينياً والظاهر انه يرجع إلى دلالة « من » فقيل انها للتبعيض ، فيكون الوجوب كفائياً . وقيل انها بيانية . والمعنى : كونوا امة كذلك فيكون الوجوب عينياً وسياق الآية الشريفة يدل على الاول ، ويرجحه ان الدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر انما تكون واجبة لأجل البعث على الطاعات والزجر عن القبائح والمعاصي ولا معنى لوجوبها بعد حصول الغرض من البعض ، فالخطاب وان كان متعلقاً بالجميع لكن الغرض يحصل من أي فرد كان ، وبما ان المقام يحتاج إلى التعاضد والتعاون حتى يكون له التأثير القوي في حصول الغرض وليسا كغيرهما من الواجبات كان الأمر متعلقاً بالجميع ، وبعد ذلك فلا وقع للنزاع في كون « من » تبعيضية أو بيانية فان الامر متعلق بالجميع بقدر ما يتعلق بالافراد والبعض ، فان هذا التكليف لطف الهي يتعلق بالجميع ولابد من التعاضد والتعاون ولا يمكن ترك القائم به لوحده والاعراض عنه وقد ذكرنا في الاصول انه لا فرق بين الوجوب الكفائي والوجوب العيني بحسب ذات الوجوب وانما الفرق بينهما باعتبار سقوط التكليف عن الكل بعد قيام البعض به في الاول دون الثاني وهذا يكون من باب تعدد الدال والمداول لا باعتبار حقيقة الوجوب ولذا اشتهر بين الفقهاء ان في ترك الجميع للامر بالمعروف والنهي عن المنكر يعاقب

الكل لا البعض فراجع ما ذكرناه في (مهذب الاحكام) ويدل على ما ذكرناه ذيل الآية الشريفة الظاهر في الرجوع إلى الموصوفين بهذه الصفة.

قوله تعالى : واولئك هم المفلحون .

جملة استينافية اي الداعون إلى المعروف والناهون عن المنكر هم الكاملون في الفلاح ، كما هو قضية الحصر .

ويستفاد من الآية الشريفة كمال الاهمية لهذا التكليف الالهي والمنصب الرفيع بل هما من مناصب الانبياء والاوصياء والاولياء الصالحين وقد ورد في فضلهما روايات كثيرة يأتي في البحث الروائي نقل بعضها ، ولهما شروط واداب كثيرة يستفاد بعضها من هذه الآيـة الشريفة والبقية من غيرها .

ويستفاد من مجموع الادلة الواردة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كتاباً وسنةً ان هذه الدعوة من صفات الباري جل جلاله كالحكم بين الناس بالعدل ، وقد فوّض الله تعالى ذلك إلى انبيائه واوصيائه والقائمين مقامهم ، وهذه الدعوة ترجع إلى التخلق باخلاق الله تعالى والتخلي عما لا يرضاه الله والتحلي بما يرضاه ، وتفاني الدنيا في عالم العقبى فيصير الكل باقياً ببقاء الله تعالى ولعل ما ورد في الحديث : « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله تعالى من احياهما احياه الله تعالى » يرجع إلى ذلك فان الخلق انما يعتبر في مرتبة الفعل لا في مرتبة الذات ، والمراد بالاحياء الاعم من الاحياء الدنيوي والاخروي وسبب الاحياء معلوم لانه اتصال فعلي بالحي القيوم .

قوله تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .

بعدما أكد سبحانه الدعوة إلى الاتحاد والاعتصام بحبل الله تعالى والدعوة إلى الخير . بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية ما يترتب على الاعراض عن ذلك والاحجام عن ما أمرهم في سبيل الوحدة والاتحاد بين أفراد المجتمع ، فانه لا يمكن ان تختلف امة إذا اجتمعت على مقصد واحد وهدف معين واتفقت عقائدهم ، وكانت بعيدة عن الاهواء الباطلة وما يوجب الضلال ، وتحقق التعاون والتناصر بين افرادها ، وقويت اواصر الوحدة فيهم وبعدت عما يوجب الافتراق والاختلاف بينهم ، فهذه الآية كالدليل على لزوم متابعة ما ورد في الآيات السابقة .

والتفرق انما يكون في ما يجب فيه الاجتماع مما فيه الصلاح والاصلاح ويكون ابتداءاً في الابدان والابتعاد عما يوجب اتحاد الافراد . واما الاختلاف انما يكون في العقائد والاراء ويوجبه الافتراق في الكلمة ، فهو كالمقدمة التي توصل إلى الاختلاف في العقائد والآراء ، فان كل اختلاف في الرأي انما ينشأ عن التفرق في الكلمة وتباعد افراد المجتمع والاختلاف هذا انما يكون عن ضـلال الاهواء والبغي ، ولذا نسب سبحانه وتعالى الاختلاف إلى البغي في عدة آيات منها قوله تعالى : « وما اختلفوا فيه إلا من بعدما جائهم البينات بغياً بينهم » البقرة - ٢١٣ ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في المقام « من بعدما جائهم البينات » فان الاختلاف بعد مجيء الآيات للحق الموجبة للاتحاد والاجتماع انما يكون عن اعراض عنها فيكون عن بغي وضلال .

والمعنى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا في الكلمة ولم يجتمعوا على

ما امرهم الله تعالى وخرجوا عن الجماعة فاوجب التباغض بينهم والتباين في آرائهم والاختلاف في عقائدهم فصاروا شيعاً واحزاباً وفي ذلك زوال سعادتهم ووقوعهم في الشقاق والنفـاق والحروب والمنازعات فتذهب كرامتهم واستقلالهم وامنهم وامانهم .

ويستفاد من الآية الشريفة ان الاختلاف المذموم هو ما إذا كان البغي والضلال واما غيره فلا ضرر فيه بل هو ضروري لاختلاف الافهام والادراكات ويكون سبباً للرقي والاستكمال ولكن لابد ان لا يصل إلى حد يوجب التباغض والتنافر .

قوله تعالى : لهم عذاب عظيم .

جملة استينافية هي نتيجة للسابق أي : ان الذين افترقوا واختلفوا في دين الله لهم عذاب عظيم جزاءاً لظلمهم وعدوانهم لما اوجدوا من التفرق والاختلاف .

وانما ختم سبحانه وتعالى هذه الآية الشريفة بهذه الجملة مقابلة للآية السابقة فان النتيجة إذا كان فيها الفلاح والنجاح فلا محالة يكون في عكس ذلك الخسران والعذاب .

قوله تعالى : يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

تفريع على التقسيم السابق وبيان لجزاء الطائفتين المتقدمتين ويكون التقسيم من اللف والنشر المشوش المصطلح عليه في علم البديع فتكون الوجوه المفلحين مبيضة ووجوه الظالمين مسودة .

وانما ذكر عزوجل الوجوه من بين سائر الاعضاء اعلاناً لرفعة شأن المفلحين في الآخرة حتى يعرفهم جميع اهل المحشر وينظروا اليهم وتبييناً لخسة الظالمين واذلالهم حتى يكونوا منفعلين في الآخرة كما كانوا

كذلك في الدنيا .

وقد خص سبحانه وتعالى من نِعَم الآخرة وعذابها بياض الوجه وسواده لان المفلحين لما كانوا معتصمين بحبل الله تعالى تلحقهم البشارات الالهية في كل آن وكانوا مجتمعين في الاعتصام بـه عزوجل كانت الطلاقة والبشاشة ظاهرة في وجوههم في الدار الدنيا ، فيكونون كذلك في الدار الآخرة ، واما الظالمون الذين اعرضوا عن الاعتصام بحبله ، فانقطعت عنهم البشارات الربانية ووقعوا في النزاع والتباغض والاختلاف فكانوا مخذولين قد ظهرت على وجوههم الانكسار والانفعال في الدنيا فلحقهم مثل ذلك في الدار الآخرة ، فكان الجزاء مناسباً لاعمالهم وصفاتهم .

قوله تعالى : فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم .

تفصيل بعد إجمال . والجملة مركبة من الشرط وهو « فاما الذين اسودت وجوههم » والجواب فيقال لهم أكفرتم بعد ايمانكم » وحذف القول واستتباع الفاء في الحذف له شايع في كلمات الفصحاء وانما الممنوع حذفها وحدها .

وعن بعض المفسرين يجوز ان يكون الجواب « فهم في عذاب اليم » كما يدل عليه قوله تعالى : « فذوقوا العذاب » ويناسبه قوله تعالى في الآية الاخرى : «ففي رحمة الله هم فيها خالدون » وفائدة ذلك التهويل بالجواب ليقدره السامع بكل نحو يشعر به المقام من الهول وهو باب واسع في البلاغة .

ولكن يمكن ان يقال انه لا وجه لهذا الاختلاف في الاسباب التوليدية كما اثبتناه في علم الاصول سواء كان الجواب السبب أو المسبب ، مع

ان هذا التهويل والتخويف يستفاد من لفظ العذاب المعهود الموصوف بالعظمة .

وكيف كان ففي قوله تعالى : « أكفرتم بعد ايمانكم » التفات لغرض التوبيخ والتقريع . وانما قدم عزوجل جزاء الظالمين لمجاورته لقوله تعالى : « تسود وجوه » وتوبيخاً لهم وتشنيعاً لفعلهم ، مع انه عزوجل ابتدأ بذكر اصل الثواب واختتم بجزاء المفلحين ليكون الابتداء والاختتام بما يشرح الصدر ويسر الطبع ، وللأعلام بأن رحمته سبقت غضبه . وحقيقة هذا الخطاب عامة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة.

والمراد بالايمان الظاهري منه أي الذين آمنوا به كما ان المراد بالكفر ترك الاعتصام بحبل الله فتفرقوا واختلفوا وبدلوا دين الله تعالى وهتكوا حرماته فكفروا بانعم الله وحينئذ لا تختص الآية الشريفة بطائفة خاصة كما قيل بل تعم جميع من آمن صورة وترك العمل بما آمن به وكفر بانعمه عزوجل .

قوله تعالى : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .

انما اطلق عزوجل العذاب ولم يصفه بأمر تعظيماً له وتهويلاً ، والامر للاهانة ، والفاء للايذان بان العذاب مترتب على الكفر كما يدل عليه ذيل الآية الشريفة « بما كنتم تكفرون » والباء للسببية .

وانما جمع عزوجل الفعل الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكفر وكأنه صار طبعهم وبذلك استحقوا الجزاء الاليم وان ذلك العذاب جزاء اعمالهم اختاروه بسوء اعمالهم .

قوله تعالى : واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون .

الرحمة عامة شاملة لجميع مواهبه تعالى وافاضاته بالنسبة إلى عباده

المؤمنين دنيوية كانت تلك الرحمة أو اخروية ، وكل ما يكون في الدنيا يتمثل في العقبى بصورة حسنة وكل ما هو في الجنة يكون في صورة الفلاح والنجاح فهما متحدان ذاتاً ، فيكون الجزاء في الطائفتين مناسباً لافعالهم ، فكل ما يصدر عنهم في الدنيا يكون لهم أو عليهم في العقبى .

قوله تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق .

الظرف متعلق بالآيات كما يصح تعلقه بقوله «نتلوها» لأن المتلو عين تلك الآيات وهي عين ما يتلوها الله تعالى على نبيه فلا فرق بين تعلق الظرف بالتلاوة أو بالآيات المتلوة . وهو قيــد توضيحي لان كل ما يصدر عنه تبارك وتعالى حق بجميع معنى الكلمة .

والمراد بالآيات والدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما ان المراد بالحق نفس الامر الواقعي الذي يقوم به نظام الدنيا والآخرة فان الاحكام التي شرعها الله تعالى لعباده تتضمن سعادتهم الدنيوية والاخروية بل لاجلها شرعت .

قوله تعالى : وما الله يريد ظلماً للعالمين .

بيان لمعنى الحق فان ما هو الحق واقعاً لا يعقل منه الظلم لانه انما يكون لترميم النقص وتكميله والمفروض انه محال عليه تعالى ، فهو عام يشمل جميع انحاء الظلم تشريعاً وجزاءً كما تدل عليه الآية الشريفة فان الظلم نكرة واقعة في سياق النفي .

والعالمين جمع محلي باللام يفيد الاستغراق يشمل كل عالم في سلسلة الزمان كما يشمل عالم البرزخ والآخرة إلى ما لا نهاية له . وهذه الآية

تأكيد لقوله تعالى : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » فان العذاب إذا كان نتيجة الكفر لا وجه لاحتمال الظلم بالنسبة إلى العامل الذي اختار الجزاء بنفسه ، فتكون جميع المساوي والشرور التي تصيب الانسان في العالمين ـ الدنيا والآخرة ـ من ترك الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً ، ومن التفرق والاختلاف كما تقدم .

بحوث المقام

بحث أدبي :

نصب « حق » في قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » على النيابة عن المفعول المطلق المضاف اليه لانه من صفاته .

واللام في قوله تعالى : « ولتكن منكم امة » للأمر ، والجمهور على اسكانها ، وقرىء بكسرها على الاصل و (تكن) إما من كان التامة ، فتكون « امة » فاعلاً وجملة « يدعون » صفته ، و « منكم » متعلق بـ (تكن) أو بمحذوف يكون صفة لأمة قدم عليها فصار حالاً ، وإما من كان الناقصة فتكون « امة » اسمها و (يدعون) خبرها و (ومنكم) إما حال من امة أو متعلق بكان الناقصة .

وانما اتى « يدعون » مذكراً باعتبار إرادة الجماعة من الذكور من الامة وتدخل النساء تغليباً ان لم نقل باشتراك الصيغة للمذكر والمؤنث .

ونصب يوم في قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه » للظرفية قيل ان العامل فيه «عظيم» بحو [illegible] في معنى يعذبون يوم

وقيل : انه منصوب على الظرفية اي (لهم) لان فيه معنى الاستقرارية .

وقيل انه منصوب باضمار (اذكر) على انه مفعول . وقيل انه ظرف لفلاح المفلحين وعاقبة المتفرقين .

والحق ان يقال : ان النصب لما كان يدل على الإعلان والاظهار والتفخيم فيكون المقدر «اعلن يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» فتدل الآية المباركة على عظمة هذا الخطاب وتجليله وتعظيمه بحيث يجذب القلوب وتصير العقول صرعى .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على امور :

الاول : قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » على مراعاة التقوى والمبالغة فيها في جميع الاحوال بحيث لا تشوبها غفلة فلا يتركها احد قدر المستطاع ، ولذا قسم اهل العرفان التقوى على مراتب ثلاث : تقوى العوام وهي الاجتناب عن ما لا يرضاه الله تعالى وتقوى الخواص وهي الاجتناب عن كل مرجوح حتى المكروهات ، وتقوى اخص الخواص وهي الاجتناب عما سوى الله تعالى في الكونين .

الثاني : يدل قوله تعالى : « ولا تموتن إلا وانتم مسلمون » على لزوم الاسلام في جميع الازمان وعدم الانصراف عنه في وقت من الاوقات ، والتمسك به حتى يقع الموت وهو على الاسلام بحيث لا تصرفه الشبهات ولا تعوقه المشكلات عن العمل باحكام الاسلام فلا يرده بعد ايمانه كافراً ؛ فان الحشر انما يكون على ما يقع عليه الموت

وقد ورد عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون» فاذا مات على دين الاسلام والالتزام به اعتقاداً وعملاً حشر على هذه الحالة وفاز بالسعادة والرضوان من حين موته ومن ذلك يظهر الوجه في التأكيد والحصر الواردين في الآية الشريفة.

كما انه يمكن ان يستفاد من هذه الآية أيضاً ان المعصية قد توجب الصرف عن الايمان حين الموت ، فتتحقق الخسران لا محالة ، فلابد من ترك المعصية مطلقا حتى لا يكون للشيطان فيه مطمع وعلى هذا يكون ترتب هذه الآية على قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته »من قبيل ترتب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر) ، واللازم على الملزوم .

الثالث : يستفاد من قوله « واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا » ان الاعتصام بحبل الله تعالى انما هو أمر من الامور الاجتماعية التي تؤثر في المجتمع ولا يمكن ان ينال الأثر المطلوب منه الا بعمل جميع افراد المجتمع به وعدم التفرق عنه بوجه من الوجوه ، وعلى هذا لابد ان يكون هذا الحبل ذا اثر إجتماعي قويم وله التأثير الكبير في المجتمع ، ويكون مقبولاً لديهم ، وهم مأمورون بالتمسك به عملاً وهو بمنزلة الروح للأمة ولولاه لما كان للافراد اثر اصلاً بل كانوا كالجسم بلا روح . والروح الاجتماعية في الاسلام إنما هي الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً وهذه الروح هي النعمة الحقيقية على المجتمع ومثل هذا الحبل في الاسلام هو القرآن الكريم ومن انزل عليه ومن شرح القرآن حق الشرح.

ومن ذلك يعرف السر في تعقيب هذه الآية بقوله تعالى : «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعـداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله

لكم آياته لعلكم تهتدون » فانه تعالى يبين بعض وجوه التفرق والاعراض عن الاعتصام بحبل الله في عصر ما قبل الاسلام ثم ما وصل اليه الامر بعد التمسك بحبل الله والالتفاف حول الرسول الكريم والاجتماع على الاخوة ، كما عرفت في التفسير . فيكون الاعتصام بحبـــل الله حق الاعتصام علة تامة منحصرة لحفظ الاجتماع عن الخلاف والاختلاف حدوثاً وبقاءاً ، كما ان الانفصام عنه علة تامة منحصرة للنفاق والتفرق والخلاف والسقوط في هاوية الهلاك ، والعيان في كل ذلك يغني عن البيان والبرهان .

الرابع : يستفاد من التأكيد في اتيان لفظ « جميعاً » والنهي عن التفرق في قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ان جعل الداعي إلى الاجتماع والمانع عن الخلاف والاختلاف امر حقيقي خارجي واقعي وواحد لاان يكون اعتقادياً بان يدعي كل احد انــه معتصم بحبل الله تعالى ولا يلزم الخلاف الباطل بضرورة العقل،فيصح ان يقال انه كل ما حصل الخلاف والاختلاف لم يتحقق الاعتصام الحقيقي بحبل الله فيرجع محصل معنى الآية : ان اجعلوا انفسكم من مظاهر الاعتصام بالله . ولعل من احـــد اسرار هذا التأكيد على الاجتماع والنهي عن الاختلاف هو ما كان يعلمه الله تعالى من مستقبل هذه الأمة من وقوع الاختلاف فيها وانها تختلف كما اختلف غيرهم من اليهود والنصارى وهذا هو دأب القرآن الكريم انه إذا بالغ في التحذير عن شيء انما يريد التنبيه على ترتب وقوعه ، وهو من ملاحم القرآن الكريم .

الخامس : يدل قوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » على وجوب النظر في الادلة والآيات والتفكر الصحيح المنتج فان في ذلك الهداية للانسان .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير » اهمية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أمر عزوجل الأمة إلى تحمل هذه المسؤولية اولاً ، لان المقام يحتاج إلى التعاون والتعاضد فلا يمكن ترك المتصدي وحده كما مر في التفسير ، ثم امر طائفة خاصة منها إلى التصدي لها لانه يشترط فيها العلم والقدرة ومن المعلوم عدم تحقق جميع الشروط في كل فرد ثم ثبوت الجزاء الجزيل على ذلك وتشديد النكير على تركه .

واخيراً ان هذا التكليف من اسباب التكميل والتهذيب والصلاح والاصلاح وترويض النفس وتزيينها بالفضائل والكمالات وسعادة الفرد والمجتمع وتحسين نظام الاجتماع والمدنية ، ولذا كان التكليف جارياً على احسن نهج وما هو الاوفق بالحكمة ، فهو من اعظم صفات الله تعالى أوكلها إلى انبيائه ورسله ويدل على ذلك جملة من الاحاديث فقد ورد عن الامام محمد الباقر (عليه السلام) في حديث : « إن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيـــل الانبياء ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن من المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمّر الارض ، وينتصف من الاعـــداء ، ويستقيم الامر ـ الحديث » .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير » مراتب هذه الدعوة فانها تبتني على كونها باعثة على الانقياد وداعية إلى الزجر ورادعة عن المنكر من القول والفعل وسائر الامور المحصلة لهذا الغرض وان كان في بعض المراتب يتوقف على اذن ولي الامر ، فان عموم الدعوة يشمل جميع هذه المراتب القولية والعملية وغيرهما.

الثامن : يستفاد من قوله تعـــالى : « يوم تبيض وجوه وتسود

وجوه » ان الدار الاخرة وما فيها من النعيم والجحيم بمنزلة المرآة للدار الدنيا (أو كالصورة) فكل ما هناك لا يعلم إلا بما هاهنا.

كما تدل الآية الشريفة على سنخية الثواب والعقاب مع العمل ، ويصح ان يراد باليوم في قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه » طبيعة اليوم المنطبقة على يوم الآخرة وايام الدنيا ، فان المفلحين مبيضة وجوههم في هذا العالم قبل يوم الآخرة : والظالمون عكس ذلك ، ويكون البياض كناية عن الراحة النفسية واستقرار الضمير واعتماد الناس عليه وفي الآيات الكريمة والسنة المقدسة شواهد كثيرة يأتي في المحل المناسب شرح ذلك ان شاء الله تعالى .

التاسع : يدل قوله تعالى : « وما الله يريد ظلماً للعالمين » ان ترك التكاليف الآلهية يوجب اختلال النظام وسوء الحال في كل عالم، فيكون كل ظلم يرد على الانسان انما يرد من ناحيته ، واما التكاليف فقد وضعها الله تعالى على عباده لسعادتهم وتحسين نظامهم وصلاحهم وإصلاحهم وحسن معيشتهم ورفع الظلم من بين افراد الناس .

بحث فقهي

جعل الاحكام مطلقا شرعية كانت ام غيرها على اقسام :

الاول : ما إذا تعلق الحكم بالطبيعة من حيث الافراد الانبساطية، ويلزمه محبوبية الاجتماع فيه ، بل قد يتعلق الامر الندبي بها مستقلة كالصلاة فرادى وجماعة وغيرها من العبادات التي يكون الاجتماع فيها مطلوباً ومرغوباً فيه .

الثاني : ان يكون الاجتماع فيه مطلوباً مستقلاً ، فتسرى المطلوبية فيه إلى كل فرد أيضاً ، ويكون ذلك مطلوباً لاان يكون هدراً وباطلاً والاعتصام بحبل الله تبارك وتعالى من هذا القبيل فيتعلق التكليف بالجميع كما تعلق بالافراد مستقلاً أيضاً ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك .

الثالث : ان يتعلق التكليف بالجميع ولكن ليس من قدرة كل أحد امتثال هذا التكليف بنفسه من نفسه ، كالتكليف بحمل حجر ثقيل لا يقدر على حمله إلا جماعة ، ولا وجه حينئذ لتعلق التكاليف بكل فرد مستقلاً ، بل هو ثابت للجميع وليس الاعتصام بحبل الله تعالى من هذا القبيل ، وهناك اقسام اخرى لعلنا نتعرض لها في المقامات المناسبة ان شاء الله تعالى .

ثم إن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما شروط وآداب كثيرة مذكورة في كتب الفقه وقد تعرضنا لها في كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من (مهذب الاحكام) .

ويستفاد من قوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » اصل الوجوب وانه كفائي كما ذكرنا مضافاً إلى علم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ومعرفته بوجوبهما لان الخير معروف لدى كل احد وان المعروف هو كل الخير كما عرفت .

بحث روائي

في المعاني والمحاسن وتفسير العياشي عن أبي بصير قال : « سألت

أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل : اتقوا الله حق تقاته قال : يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر » .

اقول : ورد مثله في الدر المنثور عن ابن مسعود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما ورد عن الصادق (عليه السلام)بعض مراتب التقوى التي ذكرها (عليه السلام)وهي تكفي في التلبس بالتقوى وترتب اثار التقوى في الدنيا والعقبى .

وفي تفسير العياشي قال : « سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله : « اتقوا الله حق تقاته » قال (عليه السلام) منسوخة بقول الله « واتقوا الله ما استطعتم » .

اقول : روي في المجمع وفي تفسير القمي أيضاً والمراد من المنسوخ هنا المرتبة الاخيرة من التقوى المسماة في علم الاخلاق بتقوى اخص الخواص . والمراد بالنسخ هنا عدم وجوب مراعاتها دفعاً للعسر والحرج وتسهيلاً على الامة واما لو رعاها احد مع مراعات القواعد الشرعية فلا محذور فيها .

وفي الدر المنثور اخرج الخطيب عن أنس قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه » .

اقول : فيكون المراد من قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » إستناد جميع الامور اليه تبارك وتعالى وجعله مسبب الاسباب في كل سبب اي الاعتقاد بقوله تعالى : « قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » النساء ـ ٧٨ وهذه عبارة اخرى عن الذكر المعروف المأثور «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم» .

وبعبارة اخرى : ان قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته »جامع

للتوحيد الذاتي وتوحيد المعبود والتوحيد الفعلي وهـــذه احسن كلمة جامعة للمعارف القرآنية .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع عن عبد خير قال : « سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال : والله ما عمل بها غير بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) نحن ذكرناه فلا ننساه ، ونحن شكرناه فلن نكفره ، ونحن اطعناه فلم نعصه فلما نزلت هذه الآية قالت الصحابة لا نطيق ذلك فانزل الله : فاتقوا الله ما استطعتم قال وكيع ما اطقتم ـ الحديث ـ » .

اقول : يبين (عليه السلام) اولاً ان المراد بالآية حقيقة الشكر وحقيقة الطاعة بجميع مراتبها وهذا هو الذي يعبر عنه في اصطلاح العرفاء وعلم الاخلاق بـ تقوى اخص الخواص وذيل الرواية يبين تقوى العامة .

العياشي عن الحسين بن خالد قال : « أبو الحسن الاول(عليه السلام) كيف تقرأ هذه الآية : « ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون » ماذا ؟ قلت: مسلمون فقال سبحان الله يوقع عليهم الايمان فيسميهم مؤمنين ، ثم يسألهم الاسلام . والايمان فوق الاسلام . قلت : هكذا يقرأ ؟ في قراءة زيد قال (ع) : انما هي قراءة على التنزيل » .

اقول : صدر الآية الشريفة تبين ان الايمان اخص من الاسلام ولا معنى لبيان الاعم بعد ذكر الاخص ولكن ذيل الرواية كما نسب ذلك إلى قراءة علي (عليه السلام) المراد من الايمان هو الاسلام كما كان ذلك شايعاً في صدر الاسلام من ان المراد من الايمان الاسلام كسائر الآيات

المشتملة على قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا » .

وفي المجمع عن الصادق (عليه السلام) : « وانتم مسلّمون بالتشديد » .

اقول : المراد بالتسليم اعتقاداً وقولاً وعملاً في كل ما يرتضيه الله تبارك وتعالى وهذا ليس الا تقوى الله حق تقاته .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً » اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الارض » .

اقول : لا ريب في صحته كما لا ريب في صحة ما ورد عنه (صلى الله عليه وآله) متواتراً انه كتاب الله وعترته افرض ان عترته شارحة لكتاب الله فلا ينافيه من هذه الجهة .

وفيه أيضاً اخرج ابن أبي شريح الخزاعي قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : ان هذا القرآن سبب ، طرفه بيد الله ، وطرفه بايديكم فتمسكوا به فانكم لن تزالوا ولن تضلوا بعده ابداً » .

اقول : وهو معنى الإعتصام بحبل الله. وحبل الله الممدود ونحو ذلك من التعبيرات اي الممدود اليكم لتأخذوا به .

وفي معاني الاخبار عن السجاد (عليه السلام) : « حبل الله هو القرآن ، والقرآن يهدي إلى الامام » .

اقول : كما ان الامام (عليه السلام) يهدي إلى القران فهما في الهداية اليه تبارك وتعالى سواء .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً » قال التوحيد والولاية » اقول : هما على نحو المتن والشرح .

وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : « آل محمد هم حبل الله الذين أمرنا بالاعتصام به فقال : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

اقول : لانهم لا ينطقون إلا عن القرآن ولا يبينون شيئاً إلا منه .

وفي الدر المنثور عن زيد بن ارقم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : اني لكم فرط وانكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين ؟ قيل وماالثقلان يارسول الله ؟ قال(ص): الاكبر كتاب الله عزوجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بايديكم فتمسكوا به لن تزالوا ولن تضلوا والاصغر عترتي ، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، وسألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تعلموهما فانهما أعلم منكم » .

اقول : هذا الحديث الشريف يبين جميع ما ورد في اخبار الثقلين وفي التمسك بحبل الله تعالى فليس لأحد ان يتمسك بتلك الاخبار إلا بعد عرضها على هذا الحديث لفرض انه في مقام البيان والشرح والتعليل .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا تفرقوا » عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : « ان الله تبارك وتعالى علم انهم سيفترقون بعد نبيهم ويختلفون فنهاهم عن التفرق كما نهى من كان قبلهم فامرهم ان يجتمعوا ـ الحديث ـ » .

اقول : قريب منه روايات كثيرة عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) .

وفي الدر المنثور عن انس قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) افترقت بنوا اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وان امتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة قالوا

يارسول الله ومن هذه الواحدة ؟ قال الجماعة ثم قال واعتصموا بحبل الله جميعاً » .

أقول : المراد بالجماعة : الجماعة التي تمسكوا بالقرآن وبالعترة كما في الحديث السابق آنفاً الشارح لمثل هذا الحديث .

وفي الدر المنثور أيضاً اخرج أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة والحاكم في صحيحه عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

اقول : في مضمون ذلك روايات كثيرة متواترة روتها الشيعة والجمهور .

وفي الخصال عن سليمان بن مهران عن جعفر بن محمد عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : « سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : إن امة موسى افترقت على احدى وسبعين فرقة فرقة منها ناجية وسبعون في النار وافترقت امة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة . فرقة منها ناجية ، واحدى وسبعين في النار وان امتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة فرقة منها ناجية واثنتان وسبعون في النار » .

اقول : لابد من عرض امثال هذه الروايات على الحديث المتقدم الشارح لها المنقول عنه (صلى الله عليه وآله) .

وفي جامع الاصول عن الترمذي عن ابن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأتي على امتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان فيهم من نكح امه علانية كان في امتي مثله ان بني اسرائيل افترقوا على احدى وسبعين ملـة

وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار الا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم واصحابي » .

اقول : رواه السيوطي في الدر المنثور والمراد من الاصحاب هم الملتزمون بالقرآن والعترة لئلا يقع التنافي بينه وبين ما دل على انهما المناط في الرشاد وعدم الضلال كما دلت عليه جملة كثيرة من الروايات .

وفي كمال الدين باسناده عن غياث بن ابراهيم عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) كل ما كان في الامم السابقة فانه يكون في هذه الامة مثله حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة » .

اقول : المراد بالقذة تقدير كل واحدة من الامتين على قدر صاحبتها وتقطع وقال ابن الاثير : « يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان » وذكر الحديث : «لتركبن سنن مَن كان قبلكم حذوا القذة بالقذة » .

وفي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها بمحمد » هكذا والله نزل جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله » .

اقول : وفي تفسير العياشي مثله الا من دون « والله نزل بها جبرئيل على محمد » وهذا تنزيل لمعنى القرآن لاان يكون تحريف في البين كما يتوهم . أو يحمل على بعض مراتب اصل النزول فلا تنافي بينه وبين نزول اصل الآيــة الشريفة كما في المصاحف ، فان مراده تبارك وتعالى قد يظهر بصورة الوحي ثم توحي الآية بصورة اخرى مع معلومية اصل المراد وتحققه .

وفي تفسير القمي عن النبي (صلى الله عليه وآله) : « لتركبن

سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة لا تخطون طريقهم ولا يخطى شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع حتى ان لو كان من قبلكم دخل حجر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى تعني يارسول الله ؟قال فمن اعني؟ لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة فيكون اول ما تنقضون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة » .

اقول : بعد وجود الشيطان في الامة المرحومة وعدم منعــه عن التدخل فيها فيعلّمهم الشيطان تلك الطرق المنتهية إلى الفساد المستلزمة للبُعد عن تقوى الله تعالى التي افسد بها الامم السابقة وقد جرب تلك الطرق في الامم السابقة واستنتج منها نتائج هامة فلا يعقل ان يخلي هذه الامة لنفسها وعن اعوانه باغواء هذه الامة بتلك الطرق .

والمراد بالأمانة : التكاليف الواقعية اصولاً وفروعاً والمراد بالصلاة ذهاب صورتها من بين المسلمين أيضاً وفي جملة من الاحاديث انه لا تقوم الساعة إلا على شرار خلق الله تبارك وتعالى ومن ذلك يستفاد ان الصلاة بمنزلة العمود للدين فما دامت هي بين المسلمين بحدودها وقيودها يحتفظ بها نظامهم ويتوحد بها كلامهم .

وفي صحيح الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال : « والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى إن كان فيهم من اتى امه يكون فيكم فلا ادري اتعبدون العجل ام لا ؟ » .

اقول : تقدمت الروايات الدالة على ذلك ، والسر في الاختلاف يرجع إلى اختلاف الآراء والاهواء وهو ذاتي بعد عــدم التزامهم بالشريعة الواقعية وتشرعهم بغير الواقع .

وفي الصحيحين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال :

« ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى اذا رفعوا اختلجوا دوني فلأقولن : اي رب اصحابي فيقال لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

اقول : هذا حديث صحيح يشهد له الوجدان والاعتبار .

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « يرد عليّ يوم القيامة رهط من اصحابي ـ أو قال من امتي ـ فيحلّؤون عن الحوض فأقول « يارب اصحابي فيقول : لا علم لك بما احدثوا بعدك ارتدوا على اعقابهم القهقري فيحلأون » .

اقول المراد من (يحلأون) اي يصدون عنه ويمنعون من وروده ومضمون هذا الحديث متواتر بين المسلمين مضافاً الى الوجدان الخارجي كما دلت عليه الآية الشريفة : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسول افائن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » آل عمران ـ ١٤٤ .

وفي الدر المنثور اخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر : « ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه حتى يراجعه ومن مات وليس عليه إمام جماعة فان موتته ميتة جاهلية » .

اقول : المراد من امام الجماعة امام زمانه كما وقع بهذا التعبير في جملة من الروايات .

وفي المجمع في قوله تعالى : «اكفرتم بعد ايمانكم» عن أمير المؤمنين (عليه السلام) : « هم اهل البدع والاهواء والآراء الباطلة من هذه الامة » .

اقول : في سياق ذلك روايات كثيرة .

وَللهِ ما فِي السَّموات وَما فِي الأَرضِ وَإلى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ (١٠٩) كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلَو آمَنَ أَهلُ الكِتابِ لَكانَ خَيراً لَهُم مِنهُمُ المُؤمِنُونَ وَأَكثَرُهُمُ الفاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُم إلّا أَذىً وَإن يُقاتِلُوكُم يُوَلُّوكُمُ الأَدبارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَت عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَ ما ثُقِفُوا إلّا بِحَبلٍ مِنَ اللهِ وَحَبلٍ مِنَ النّاسِ وَباؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَت عَلَيهِمُ المَسكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُم كانُوا يَكفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقتُلُونَ الأَنبِياءَ بِغَيرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوا وَكانُوا يَعتَدُونَ (١١٢)

الآيات الشريفة مرتبطة بالآيات السابقة فانها اختتمت بأن الله تعالى لا يريد أن يوقع بالعالمين ظلماً .

وفي الآية الاولى من هذه الآيات يبين سبحانه العلة لذلك من انه غني عن ظلمهم لانه يملك ما في السموات وما في الارض واليه مصير الامور وانما يريد جلت عظمته ان يحق الحق ويجرى العدل وينال كل انسان جزاء ما احسن أو اساء فيترتب الجزاء على العمل ويعيش الانسان بالحق وينتهي الى الحق فقد جمع الله فيها بين المبدأ والمعاد .

واما الآية الثانية منها فتبين قدر هذه الامة في هذه الارض وبم استحقت هذه المنزلة ونالت هذه الكبرياء والعظمة ؟! لم تكن محاباة

ولا مجازفة بل لانها اعتصمت بحبل الله تعالى ، فالآية الشريفة توصف المعتصمين به الداعين للخير بوصف شريف رفيع وتبين قدرهم وفضلهم على من سواهم .

كما ان الآيات الاخيرة تكشف عن هوان وتصغير اهل الكتاب بل وغيرهم من الكفار بانهم لا يملكون مايضروكم وانما هم في ذلة وكتبت عليهم المسكنة ، تعيش في ضمائرهم وتمزق مشاعرهم لانهم كفروا بآيات الله وتمردوا بقتل الانبياء والاعتداء على الحق والحقيقة .

التفسير

قوله تعالى : ولله ما في السموات وما في الارض .

اي : له وحده جميع ما في السموات والارض من جميع الجهات خلقاً وتصرفاً وتدبيراً وايجاداً وافناءاً لانه إله العالم ومدبره وخالقه وما سواه محتاج اليه في جميع شؤونه .

وانما ذكر اسم الجلالة لبيان وجه مالكيته ورجوع سائر الخلق اليه ، لانه الذات المستجمعة لجميع الصفات الكمالية ، ولما في الالوهية من السلطة التامة على جميع الممكنات .

والمراد بالملكية فيه عزوجل هي الملكية الحقيقية الايجادية والابقائية والافنائية والتربوية التامة الابدية لا الملكية الاضافية الاعتبارية ، فانها من الاعتباريات التي لا تليق به تبارك وتعالى كما ذكرنا في هذا التفسير مكرراً .

قوله تعالى : والى الله ترجع الامور .

بيان للمعاد بعد ذكر المبدء لان مَن كان موجداً لما سواه لابد ان يصير ما سواه اليه أيضاً لما هو ثابت في الفلسفة الالهية من التلازم بين المبدء والمعاد فليس لغيره من الامر شيء ، فلا محالة ترجع الامور اليه عزوجل ، فهو واحد في الايجاد والارجاع والمعاد .

وانما ذكر عزوجل ذلك في المقام لبيان التلازم بين المبدء والمعاد والاظهار في مقام الاضمار لبيان الدليل لاقامة المعاد ورجوع الامر اليه كما استدل بذلك على ايجاد الممكنات ، ولاظهار المهابة ومنتهى العظمة وغاية الكبرياء، فاذا كان الله تعالى مالكاً لسائر خلقه ومصيرهم اليه وهو يجازي كلاً بما تقتضيه حكمته وعدله حسب عمله ، فلا يتصور وجه للظلم فيه تعالى .

قوله تعالى : كنتم خير امة أخرجت للناس .

إخبار عن حقيقة الواقع على ما هو عليه ، وهو غير محدود بأي حد من الحدود الزمانية والمكانية كما هو شأن الحقائق الواقعية يكفي في صدقها صرف الوجود وقد تحقق ذلك عندما كان المسلمون متصفين بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وداعين إلى الخير فقد كانت لهم السلطة الروحية والظاهرية والتفوق على غيرهم من الامم وصدرت منهم العجائب . وسيستعيدون سلطتهم وعظمتهم وروحانيتهم وتفوقهم إذا ظهر العدل الحقيقي في الاسلام واتفقت كلمة المسلمين على التوحيد واجتمعت الامة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وشاعت الرحمة بينهم .

والمراد بالخروج هو الظهور بحسب مراتبه التدريجية الواقعية كخروج الاوراد من اكامها والنباتات عن منبتها قال تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » الرحمن ـ ٢٢ .

وجهة الخيرية معلومة وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخلق باكرم اخلاق الله تعالى ، فيصير حقيقة المعنى : كنتم خير امة ظهرت للناس لانكم متخلقون باعظم اخلاق الله تعالى ولا ريب في ان الصفة تعليلية يعني : انكم ما دمتم على تلك الصفة تتصفون بالخيرية وتنسلخ عنكم إذا زالت الصفة كما هو شأن كل وصف تعليلي فتكون هذه الجملة من قبيل القضايا العقلية المشتملة على العلة والمعلول المطابقة لفطرة العقول ، يؤتى بها لزيادة التحريض على الانقياد والطواعية ولبيان شدة الاهتمام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وتدل الآية الشريفة على مدح المؤمنين بالصفات الواردة فيها وتفوقهم على سائر الناس ، وقد تشرفت الامة بهذه الطائفة المعينة المتصفة بحقيقة الايمان وبأكرم صفات الباري عزوجل .

ومن ذلك يعرف ان (كان) ناقصة تدل على تحقق الشروط ، لا ما يقال : من انها تدل على تحقق مضمونها في الزمان الماضي وانقضى وانقطع ، على ما ذكر جمع كثير من ان الآية الشريفة نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة ، واخرج بعضهم عن عمر انه قال : « اولنا ولا تكون لآخرنا فلو شاء الله لقال انتم فكنا كلنا ولكن قال : كنتم في خاصة اصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير امة اخرجت للناس » .

ولكن حق القول أن (كان) وان كانت ناقصة وغير منسلخة عن الزمان ، ولكنها لا تدل على ما ذكروه فانه لو كان الامر كذلك

لكانت الآية الشريفة واردة في ذم الصحابة لا في مدحهم لانها تدل على انهم كانوا متصفين في وقت النزول بالمضمون ولكنهم انسلخوا عنه في وقت آخر . وهذا بعيد عن سياق الآية الشريفة ، ولأجل هذا قال بعضهم ان (كان) في المقام منسلخة عن الزمان وقد استعملت للأزلية قياساً على قوله تعالى « وكان الله سميعاً عليماً » النساء ـ ١٤٨ واشباهه فانها تستعمل على اللزوم من دون انقطاع وانقضاء.

ولكن ذلك مردود أيضاً فان كان كذلك بالنسبة إلى صفات الباري لان صفاته سبحانه وتعالى ازلية ابدية لا يعقل المضي والانقطاع فيها ولكن ذلك لا يوجب صرفها عن وضعها في المقام كما هو معلوم.

وقيل : ان (كان) تامة ـ كقوله تعالى : « وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » البقرة ـ ٢٨٠ ـ مأخوذة من الكون المطاوع للتكوين نظير قوله تعالى : « كن فيكون » البقرة ـ ١١٧ ، وخير امة حال من الضمير ، وجملة اخرجت صفة للامة بمعنى اخرجت من العدم إلى الوجود .

ولكن كل ذلك تطويل بلا طائل بعد ظهور السياق في مدح مَن اتصف بهذه الصفة سواء كان في عصر النزول أو بعد ذلك وقد تشرفت الامة بهذه الطائفة المؤمنة ، وقد اثبتنا في الاصول ان القضايا الحقيقية الواقعية تنطبق على موضوعاتها قهراً اينما تحققت ووجدت في الماضي والحال والمستقبل . فلا وجه للنزاع في ان (كان) تامة أو ناقصة أو منسلخة عن الزمان أو غير منسلخة بعد ان كانت الآية من قبيل القضايا الحقيقية وهكذا في سائر القضايا القرآنية .

قوله تعالى : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر .

بيان لسبب الصلاح والخيرية للمجتمع بل الحياة السعيدة كما تقدم فان بهما يتحقق صلاح المجتمع والامة وتبّعد الشر عنهما فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل ما فيهما من المتاعب والمشاق ضروريان لاصلاح المجتمع وكل ما ازداد، وانتشر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اتصفت الامة بالعظمة والخيرية وكل ما ضعفا انهارت الامة في كيانها .

قوله تعالى : وتؤمنون بالله .

اي : تؤمنون بالله تعالى حق الايمان ، وانما قدم عزوجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان بالله تعالى وان كان الاخير مشتملاً عليهما واصلاً لهما ، لبيان اهميتهما وان الاخلال بشيء منهما إخلال بالايمان ، ولان الايمان يمكن ان يدعيه كل احد الا إذا اقترن القول بالفعل . فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما الدلالة على صدق الدعوى فهما اظهر في الخيرية من مجرد ادعاء الايمان ، فيكونان كالمقتضي لتحقق الايمان وثبوته وصدقه . ولان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد ان يكونا عن علم بموردهما وعمل لهما فقد جمعا بين الاعتقاد والعمل .

ومن سياق الآية الشريفة يستفاد ان مجرد الايمان لم يكن كافياً في الاتصاف بالخيرية والفضل العظيم بل لابد من تحقق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فتختص هذه الفضيلة بطائفة خاصة وليس كل واحد من المؤمنين داخلاً فيهما فالخطاب يكون لجماعة مخصوصين ملازمين للامر بالمعروف والنهي عن المنكر متلبسين بحقيقة الايمان

قوله تعالى : ولو آمن اهل الكتاب لكان خير لهم .

اي: ولو كان اهل الكتاب على ما وصف به المؤمنون واستعصموا بالايمان بالله العظيم حقيقتاً وواقعاً لفازوا بالسعادة في الدنيا والآخرة ودفع عنهم العذاب .

قوله تعالى : منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون .

اي : لكنهم مختلفون فمنهم أمة مؤمنة واخرى فاسقة خارجة عن طاعة الله تعالى فكان هذا الاختلاف سبباً في بعدهم عن حقيقة الايمان فلم يجتمعوا على الاعتصام بحبل الله تعالى بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله) واجتمعوا على الاعتصام بحبله تعالى واتفقوا على طاعة الله عزوجل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ففازوا بسعادة الدارين وعلى هذا يمكن ان يكون الايمان والكفر في الآية الشريفة هما الايمان والكفر الجهتيان اي الاجتماع على الاعتصام بالله والتمسك بحبله والاتفاق على طاعته والكفر خلاف تلك .

قوله تعالى : لن يضروكم إلا اذى .

الأذى: ما يعرض الانسان من مكروه في نفسه أو جسمه أو تبعاته والمراد به في المقام إما في القول كالكذب والبهتان ، وقبيح الكلام أو في الفعل كالتهييـــج والتجمع للحرب والقتال أو ما يجرح قلوب المؤمنين باظهار الكفر والمجاهرة بالضلال وافساد القلوب الضعيفةوقد يستلزم الضرر اليسير فيكون الاستثناء متصلاً .

وقيل : ان الاستثناء منقطع باعتبار خروج الاذى عن مفهوم الضرر ولكنه بعيد لان الضرر مطلق النقص فيشمل الجميع .

والمعنى : ان اهل الكتاب لا يمكنهم ايقاع الضرر بكم الا ما يوجب أذيتكم فانهم مع اختلافهم المزبور وفسقهم لا يجتمعون على امر فيه الضرر عليكم ولا يقدرون على قتالكم والغلبة عليكم .

قوله تعالى : وان يقاتلوكم يولوكم الادبار .

تولي الادبار : كناية عن الانهزام وهو معروف والآيـة في مقام بيان الضرر الذي تقدم ذكره اي : وان اجتمعوا على ايقـاع الضرر بكم بالقتال معكم فانهم ينهزمون من غير ان يظفروا منكم بشيء .

قوله تعالى : ثم لا ينصرون .

جملة اخبارية مستقلة ووعد آخر منه عزوجل بانهم لا ينصرون عليكم ، لانه لا ينصرهم احد عليكم . ويمكن ان تكون الجملة تتمة للسابق اي مع انهزامهم لا ينصرهم احد فتكون عاقبتهم العجز والخذلان.

وكيف كان ففي الآية الشريفة ثلاث بشارات للرسول الكريم والمؤمنين ، وقد تحققت مصاديقها على احسن وجه وأكمله وتستمر ذلك أيضاً لو اتفق المسلمون على العمل بما نزل من القرآن الكريم وما جاء به الرسول العظيم ، ونبذوا الاختلاف والتفرق كما امرنا به.

قوله تعالى : ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا .

الذلة (بالكسر) ذل خاص قرين الاهانة ضـد العز الذي هو بمعنى الامتناع فيكون الذل بالمعنى العـام هو الانكسار والضعف ومن اسمائه تعالى «المذل» اي هو الذي يلحق الذال بمن يشاء من خلقه ، وينفي عنه جميع انواع العز كما ان من اسمائه عزوجل «المعز» و «العزيز» .

وهما اي الانكسار والضعف تارة يكونان عن قهر فهو ذل (بالضم)

واخرى : عن تصعب وشماس فهو الذل(بالكسر)وهي من صيغ الهيئة .

وضرب الذلة عليهم كناية عن ملازمتها لهم وظهور اثرها فيهم فلا خلاص لهم منها كضرب السكة على الفلز .

وثقفوا بمعنى وجدوا وادركوا الظفر بهم . والمعنى : ان الذلة قد تمكنت في نفوسهم بحيث يظهر اثرها فيهم عند الملاقات والظفر فيهم فانه لا منعة لهم بسببها .

قوله تعالى : إلا بحبل من الله وحبل من الناس .

استثناء مفرغ ، والحبل هو السبب الذي يوجب التمسك به العصمة والامتناع ويطلق على العهود ، والذمام والرعاية توسعاً ، وحبل الله هو الالتجاء اليه عزوجل بالايمان به والاخلاص له ، وحبل الناس هو الدخول في ذمامهم وعهودهم وحمايتهم .

والمعنى : انهم لن يسلموا من الذلة إلا إذا آمنوا ودخلوا في عهد الله تعالى وانقطعوا اليه باخلاص أو دخلوا في عهود الناس وذمامهم فانهم يسلمون من القتل والأسر وذل التباغض ونحو ذلك .

وإنما كرر سبحانه وتعالى لفظ الحبل لاختلاف المعنى فانه من الله هو الحكم والقضاء تكويناً أو تشريعاً ومن الناس العمل والبناء .

والمراد بضرب الذلة الاعم من التشريعي الذي هو القتال معهم وأخذ الجزية منهم والتكويني الذي جعله الله تعالى عليهم بسبب الجحود بآيات الله تعالى وقد اثبته التاريخ في العهود الماضية ، ولا تختص الآية الشريفة بطائفة خاصة منهم بل تشمل اليهود والنصارى وكل مَن جحد الحق .

قوله تعالى : وباءوا بغضب من الله .

اي : رجعوا من رحمة الله تعالى وهم متلبسون بغضبه عز وجل .

قوله تعالى : وضربت عليهم المسكنة .

المسكنة شدة الفقر ، والمراد بها الفقر الذاتي الذي لا خلاص لهم عنه وهو اشد انحاء الفقر والحال السيئة .

والمعنى : ان اصرارهم على الجحود أوجب إتصافهم بانحاء الرذائل المعنوية والظاهرية .

قوله تعالى : ذلك بانهم كانـــوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق .

تعليل لاتصافهم بالرذائل وقد ذكر عزوجل بعض الافراد وهو الكفر بآيات الله تعالى وقتل الانبياء بغير حق . ثم اجمله عزوجل بعد ذلك بوجه كلي .

وانما كان قتل الانبياء من اسلافهم ولكن نسب إلى الاخـــلاف باعتبار رضائهم بفعل الآباء كما انه وصف قتل الانبياء بغير حق تشديداً لهذه الجريمة النكراء لبيان أن قتل كل نبـي انما يكون بغير حق فيكون القيد توضيحياً اعلاماً لاهمية الجريمة وتشديد النكير فيها .

قوله تعالى : ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

تعليل لاتصافهم بالرذائل المعنوية والظاهرية وظاهر التعليل شموله لكل مَن اتصف به ولو لم يكن منهم فلا جه لما في بعض التفاسير من [illegible]

على الاعتداء الذي اوجب العصيان والكفر بآيات الله فيكون العصيان منهم مستمراً بسبب استمرار الاعتداء منهم .

بحث دلالي

قد اشتهر في العلوم العقلية ان الجزئي لا يكون كاسباً ولا مكتسباً وذلك لان العلم مطلقا انما يتعلق بالكليات والقواعد العامة واما الجزئيات والافراد فهي تابعة لها وهذا هوالمراد من قول الفلاسفةالالهيين والطبيعيين ان نتائج الافكار مطلقا ليست الا الكليات هذا في العلم المستفاد من الحواس الجسمانية .

واما ما يوحى من الله سبحانه وتعالى على انبيائه أو ما يقوله نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) فانها كلها ليست إلا قواعد كلية عقلية فطرية فان الجزئيات لا يمكن ان تكون مورد نظر الفلاسفة المتألهين فضلاً عن المبدء القيوم ونبيه الاعظم الذي يفتخر على سائر الانبياء بقوله (صلى الله عليه وآله) : « اوتيت جوامع الكلم » فالقرآن الكريم والسنة المقدسة كلاهما حقايق كلية وكليات واقعية تظهر للعقول آثارها وتنشر في العالم أخبارها ، ويستفاد من كل آية قواعد واصول كثيرة ، ولذا اتفق الجميع على ان المورد لا يكون مخصصاً ومقيداً .

ومن ذلك يعرف ان ما ورد في الآية الشريفة حقيقة من الحقائق لا تختص بعصر دون آخر ولا بطائفة معينة من المؤمنين فكل ما تحققت فيه الشروط كان داخلاً في مضمون الآية الشريفة وثبتت له الخيرية والتفضيل على سائر الناس ، فلا وجه للنزاع في ان (كان) في قوله تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس » ناقصة ام تامة منسلخة عن

الزمان ام لا وان كان ظاهر السياق بحسب العلوم الادبية يقتضي ان تكون (كان) ناقصة لكن حقيقة الواقع على ما هو عليه لا تتغير بالجهات الادبية ، فالآية المباركة في مقام الإخبار عن أمة مؤمنة وفت بما التزمت لله تعالى وثبتت على ايمانها ففازت بالسعادة والخيرية والفضل على سائر الناس ، ولا ينافي ذلك ان يقال : انهم كانوا في علم الله كذلك .

ثم انه يدل قوله تعالى : «منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون» على ان السبب في نفي الخيرية عنهم انهم اختلفوا ولم يجتمعوا على الايمان والثبات عليه ، فكان هذا الذيل راجعاً إلى صدر الآيات التي امرنا فيها بالاعتصام بحبل الله والاجتماع ، فيرجع الذيل إلى الصدر ، وهذا من بدايع الاسلوب كما فيه التأكيد على اهمية الاجتماع ونبذ الافتراق .

والسر في التعبير بالبناء للمجهول في «اخرجت» كون الناس في طريق الاستكمال تكويناً وان الحركة في سير الاستكمال ، فتصير هذه الامة خير الامم لا محالة ان طبقت على نفسها مبادىء دينها وذلك لا يتحقق إلا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تقدم .

وانما عبّر سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة بالمجهول «اخرجت» وفي قوله تعالى : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» البقرة ـ ٢٢٧ بالمعلوم ، وأضاف الفعل إلى نفسه الاقدس ، لان تأسيس الاهتداء إلى الصراط المستقيم وجعل هذا القانون القويم يختص بالله تعالى ولذا أضاف ذلك إلى نفسه الأقدس قال تعالى : «يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا عليّ اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان إن كنتم صادقين» ـ الحجرات ـ ١٧ . واما بعد البيان واتمام الحجة فتصبح النفوس مستعدة لنزول الفيض عليها وتلقيها الكمالات

اعتقاداً وعملاً ولذا أتى بالفعل مجهولاً « اخرجت » مدحاً لهم .
فالآيتان المباركتان تبيّنان السبب الفاعلي والمادة القابلة اي النفوس المستعدة .

والتعبير بـ (الاذى) في قوله تعالى : « لن يضروكم الا اذىً » للاشعار بان الضرر لا يكون عميقاً ولا اصيلاً بحيث يتناول امس الدعوة وانما هو مجرد عرض يزول وان النصر ليس من نصيبهم فالآية الشريفة تعد من ملاحم الآيات في القرآن الكريم وهي تدل على ان المسلمين لو داوموا على ما كانوا عليه في بدء الدعوة من الاتحاد والوحدة بينهم تاركين الخلاف والاختلاف لكانت لهم الكلمة العليا والسيطرة والاستيلاء على الاعداء والكفار ولن يقدر احد ان يضرهم ، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا وكان فعلهم هذا بمنزلة اعطاء السلاح بيد عدوهم فصار يقاتلهم بسلاح انفسهم فلا يلوموا في ذلك إلا انفسهم وفي مثل ذلك لا ينفع الدعاء ولا الاستغاثة بالله العظيم كما تقدم في مباحث الدعاء .

كما يستفاد من الآية الشريفة ان الذلة عليهم كانت مستمرة ما داموا مستحقين لها لسوء اعمالهم إلا ان يعتصموا بحبل الله أو يعتصموا بذمة المسلمين .

وانما جمع بين ضرب الذلة وضرب المسكنة على هؤلاء ، فان الاولى انما هي حالة خاصة تعتري الشخص الذليل من ناحية الغير إما لانكسار الشوكة وانحلال الجامعة أو لسلب الحق ونحو ذلك . والمسكنة هي حالة تعتري الشخص من ناحية نفسه منشؤها استصغار الشخص نفسه عند الغير كتوارد حالات الذلة والفقر عليه .

وتعدد كلمة « ضربت » في الآية الشريفة لاجل تعدد متعلقها .

كما ان تعدد إسم الاشارة « ذلك » انما هو لتعظيم الامر والتفخيم ولتعدد السبب والتأكيد واتمام الاحتجاج .

بحث روائي

في تفسير العياشي عن عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » قال : «يعني الامة التي اوجبت لها دعوة ابراهيم (عليه السلام) فهم الأمة التي بعث الله فيها ومنها واليها ، وهم الامة الوسطى وهم خير امة اخرجت للناس » .

اقول : يستفاد من هذا الحديث ان الامة التي ورد مدحها في مواضع من القرآن الكريم واحدة وهي التي تتصف بفعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي محصورة في افراد معدودين كما عرفت في التفسير .

في تفسير القمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال نزلت : « كنتم خير أئمة اخرجت للناس » .

اقول : قريب منه في تفسير العياشي وهذا على وجه التأويل وهو بيان لأظهر مصاديق الامة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر .

وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر (ع) : « كنتم خير امة اخرجت للناس » قال : « اهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)

اقول : تقدم ما يتعلق بذلك .

وفي اسباب النزول للواحدي في قوله تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس » عن عكرمة ومقاتل : « نزلت في ابن مسعود وابي ابن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الضيف ووهب بن يهوذا اليهوديين قالا لهم : ان ربنا خير مما تدعوننا اليه ونحن خير وافضل منكم فانزل الله تعالى هذه الآية »

اقول : لو صح الحديث وانطبقت عليه العلة يكون الحديث بياناً لبعض المصاديق فلا تنافي بينه وبين غيره .

وفي الدر المنثور اخرج احمد: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) إعطيت ما لم يعط احد من الانبياء نصرت بالرعب ، واعطيت مفاتيح الارض ، وسميت احمد ، وجعل التراب لي طهوراً وجعلت امتي خير الامم » .

اقول : الحديث معروف بين الفريقين ، والمراد بالفقرة الاخيرة هي البعض كما عرفت . أو تشرفت سائر الامة بهم .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

الآيتان المباركتان متحدتان في السياق مع ما قبلها من الآيات لانهما تبين وتقرر ان اهل الكتاب ليسوا جميعاً علي حد سواء في الانحراف والبُعد عن الايمان بالله تعالى كما اسلفتها الآيات السابقة بل استثنى سبحانه وتعالى عنهم امة مستقيمة على الهدى قائمة بالعبادة مؤمنة بالمبدأ والمعاد ناهضة بتكاليف الامة المسلمة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سباقة إلى الخير فهم مجزّيون على اعمالهم كما يجزى الصالحين والله سبحانه وتعالى يعلم ما اضمرته قلوبهم كما هو عليم بالمتقين .

التفسير

قوله تعالى : ليسوا سواء .

جملة استينافية تبين عدم استواء جميع اهل الكتاب في ما وصفهم الله تعالى به والحكم الذي حكمه عليهم آنفاً ، فانه سبحانه وتعالى قد قسمهم الى طائفتين هما المؤمنون وهم الأقلون ، والفاسقون وهم الاكثرون . قال تعالى : « منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون » آل عمران ـ ١١٠ ثم بين أوصاف الفاسقين وحذّر المؤمنين من غيّهم ومكرهم وبيّن تعالى جزاؤهم ثم حكم على النوع بما تقدم .

وفي هذه الآية المباركة يبين عز وجل حال الطائفة المؤمنة منهم وصفاتهم . والسواء مصدر ، ولذا أفرد مع كونه خبراً لجمع ، ولكن أريد به الوصف أي : ليسوا مستوين .

قوله تعالى : من أهل الكتاب أمة قائمة .

جملة تعليلية تفصيلية تبين الوجه في عدم الاستواء . ومادة (قوم) تدل على الثبات والاستدامة ، وقد استعملت في القرآن الكريم كثيراً بهيئآت مختلفة ، والمراد في المقام استقامة تلك الأمة على الطاعة والايمان والعبادة وثباتها على ذلك .

وبعبارة جامعة : الثبات على الحق مقابل مَن أنحرف عنه ، ويدل على ذلك ذيل الآية الشريفة الذي يبين انها كانت قائمة في الايمان بالله والطاعة له عزوجل والقيام بوظائف العبودية والعمل الصالح .

والمراد من أهل الكتاب هم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية

السابقة عند تقسيمه لهم . قال تعالى : « منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون » بلا فرق في ذلك بين اليهود والنصارى ، وذكر المفسرون أنهم النجاشي وجماعة من اليهود الذين ثبتوا على الحق وآمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله) المبشر به في الكتب الالهية .

وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف متعددة تبين صـــدق إيمانهم واستقامتهم على الحق .

قوله تعالى : يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون .

تفصيل بعد اجمال ، والتلاوة هى القراءة مع التأمل في الجملة . والآناء جمع (انى) بكسر الهمزة أو فتحها وهو مطلق الوقت والزمان أي قيامهم في الليل بقراءة آيات الله في صلاتهم وتهجدهم .

والمراد بآيات الله تعالى الأعم مما ورد في التوراة والانجيل والقرآن الكريم . وهذا الوصف يبين جهة عبودتهم وثباتهم فيها .

قوله تعالى : يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وصف آخر يبين سبقهم الى الايمان بالمبدء والمعـــاد الاعم من الايمان بهما في حالة العمل بشريعتهم وحالة ظهور شريعتنا وتصديقهم لها ، فهم في كلتا الحالتين يومنون بالله واليوم الآخر .

وإنما أخر سبحانه وتعالى الايمان بالله واليوم الآخر عن التلاوة والسجود اشعاراً بان العمل بالدين أهم اركانه . وانه ليس من مجرد الاعتقاد فقط وان عبادتهم لله تعالى وملازمتهم لها أوجبت توفيقهم بقبول الاسلام وعدم جحودهم له .

قوله تعالى : ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وصف ثالث يبين طاعتهم لله تعالى بأهم اركانها وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتشرفون بذلك بالاتصاف بما اتصف به خير أمة .

قوله تعالى : ويسارعون في الخيرات .

وصف رابع يبين الاخلاص في اعتقادهم والصدق في ايمانهم وسعادتهم .

والمسارعة : المبادرة . والفرق بينها وبين العجلة أن المسارعة وصف للحركة ، سواء كانت بارادة ام لا . وأما العجلة فهي وصف للمتحرك اي استعجل في فعله وحركته .

وعن جمع من اللغويين وبعض المفسرين ان الفرق بين السرعة والعجلة ان السرعة : التقدم في ما ينبغي أن يتقدم فيه ، وهي محمودة ونقيضها مذموم وهو الابطاء ، والعجلة : التقدم في ما لا ينبغي ان يتقدم فيه وهي مذمومة ونقيضها محمود وهو الاناءة .

ولكن لا يمكن قبول ذلك على الاطلاق لاستعمال العجلة بالنسبة اليه تعالى ، قال جل شأنه : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم ولتكن آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما » الفتح ـ ٢٠ .

والخيرات جمع خير وهو معلوم عند الجميع سواء كان في العبادة أو في غيرها ، ولكن الغالب استعماله في بذل المال وقضاء الحوائج به ولكن لابد ان لا يتعلق به نهي شرعي وإلّا سقط عن الخيرية

قوله تعالى : واولئك من الصالحين .

قضية حقيقية تبين نتيجة ما تقدم من الصفات والاعمال ، فتكون جميع الآية المباركة بمنزلة العلة والمعلول .

والصالحون هم اهل الحق في الدنيا والآخرة ، ولهم مقام محمود يتمناه الانبياء العظام قال تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام) : « توفني مسلماً والحقني بالصالحين » يوسف ـ ١٠١ ، وقال تعالى حكاية عن ابراهيم : « رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين» الشعراء ـ ٨٣ . فيكون المراد من الصالح من كمل اعتقاده وعمله فصلح للوصول إلى مقام القرب اليه تعالى ، ولهذه الصلاحية مراتب كثيرة يأتي التعرض لها ان شاء الله تعالى .

والمعروف بين المفسرين ان المراد بهؤلاء الممدوحين عبد الله بن سلام واصحابه . ولكن ذكرنا سابقاً أن الآيات الشريفة كليات حقيقية واقعية انما يتعرض المفسرون لبعض مصاديقها وذلك لا يوجب التخصيص بشيء ابداً .

قوله تعالى : وما يفعلوا من خير فلن يكفروه .

المراد من الخير ما تقدم في الآيات السابقة من الايمان بالله واليوم الآخر ، والطاعة له عزوجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة إلى الخيرات .

والمعنى : وكل ما يصدر منهم من خير اعتقاداً كان أو عملاً فلن يحرموا شكر الله تعالى والاثابة لهم ولن يضيع عملهم عند الله فيوفيهم أجورهم من غير نقصان ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى : « فمن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » البقرة ـ ١٠٨ .

قوله تعالى : والله عليم بالمتقين .

اي : ان الله تعالى يعلم السرائر وما تنطوي عليه نفوسهم وعليم باعمالهم وإن اسروا بها، وعليم بتقواهم فيجازي كل فرد بحسب ما يعمله.

وفي الآية الشريفة التحريض على تحصيل التقوى ، وقد ختم سبحانه وتعالى الخطاب بالتقوى للتنويه بفضلها ولبيان انها الاساس في جميع الاديان.

بحث ادبي

ذكرنا ان قوله تعالى : « ليسو سواء » جملة مستقلة مركبة من اسم ليس وهو الضمير ، وخبرها « سواء »وقوله تعالى : « من اهل الكتاب امة » جملة اخرى مركبة من المبتدأ والخبر .

وقيل « امة » اسم ليس وسواء خبرها ، وأتى الضمير في ليس على لغة من قال « اكلوني البراغيث»ورد بأن المقام ليس مثل اكلوني.

وقوله تعالى : « يتلون آيات الله في موضع رفع صفة لـ أمة .

وقيل : ان الجملة في موضع نصب على الحال من ضمير«يتلون» ولكن اشكل عليه بان التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع .

والحق ان يقال : ان المستفاد من الجملة استمرار التلاوة منهم في حال تهجدهم وعبادتهم سواء كانت في السجود أم الركوع ام في غيرهما ، مع انه لم يثبت بدليل امتناع التلاوة في شريعة اهل الكتاب في حال السجود .

وقوله تعالى : « آناء الليل » نصب على انه ظرف زمان .

وانما تعدى « فلن يكفروه » إلى مفعولين لانه بمعنى الكفران اي

ان يحرموا ثواب فعلهم والشكر عليه .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول : يستفاد من قوله تعالى : « ليسوا سواء » التفرقة بين الحق والباطل ، وهو امر فطري كالتفرقة بين النور والظلمة ويرشد الى ذلك قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » السجدة ـ ١٨ فانـه عزوجل ارجع عدم استواء الفريقين إلى فطرة الانسان وهو لا يختص بفريقين احدهما يكون مؤمناً والآخر فاسقاً ، بل يمكن ان يجري في الشخص الواحد في حالتين مختلفتين وهو أمر وجداني .

الثاني : يدل قوله تعالى : « امة قائمة » على ان مناط الايمان انما هو الاستقامة وانما تتحقق بالعمل بكتاب الله تعالى والطاعـة له عزوجل والايتمار باوامره والانتهاء عن نواهيه فيصير بذلك صالحاً ويدخل في زمرة الصالحين ، وقد ذكر عزوجل صفات متعددة في هذه الآيات كل واحدة منها تبين جانباً من جوانب الشخصية الايمانية .

الثالث : انما قرن سبحانه وتعالى الايمان بالله مـع الايمان باليوم الآخر لبيان ان ايمانهم كان ايماناً يثير الخشية لله تعالى والاستعداد للقاء الله تعالى والمحاسبة للاعمال ، فكان ايمانهم ايماناً اذعانياً لا ايماناً ادعائياً كما يدعيه ابناء جنسهم .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ان هذين التكليفين من اهم الواجبات النظامية في جميع الشرايع الالهية وكل مؤمن في اي دين كان انما يثبت ايمانه بالمعروف

بالأمر

والنهي عن المنكر .

الخامس : يدل قوله تعالى : « يسارعون في الخيرات » ان الخير قد تمكن في نفوسهم بحيث يبادرون إلى فعله غير متثاقلين لعلمهم بحسنه وعظيم اثره وجلالة مقامه ورفعة شأنه فهذه الصفة جامعة لجميع الفضائل ومكارم الاخلاق .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : « واولئك من الصالحين » ان تلك الصفات ثابتة فيهم وناشئة عن ملكات راسخة وقد صلحت سرائرهم فتكون الذات والاعتقاد والعمل صالحاً ويدخلون بذلك في زمرة الصالحين وهم عباد الله المخلصين وهم الاقلون في كل امة ، ولهم المقام المحمود في الدنيا والآخرة .

السابع : يدل قوله تعالى : « وما تفعلوا من خير فلن يكفروه » على حقيقة من الحقائق وهي ان اعمال العباد محفوظة عند الله تعالى ، فهو العالم بصلاحها وفسادها ، وهو يجازي كل فرد بما يستحقه ، وتدل عليها جملة كثيرة من الآيات الشريفة .

الثامن : يدل قوله تعالى : « والله عليم بالمتقين » ان المناط في قبول فعل الخيرات انما هو التقوى ، ويدل عليه قوله تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » المائدة ـ ٢٧ .

بحث روائي

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ليسوا سواء » عن ابن عباس قال : « لما اسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن عبيد ومن اسلم من اليهود

ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم ، وقالوا : لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره فانزل الله تعالى : « ليسوا سواء ـ الآية » .

وفيه أيضاً عن ابن مسعود قال : « نزلت الآية في صلاة العتمة يصليها المسلمون ومَن سواهم من اهل الكتاب لا يصليها » .

اقول : على فرض اعتبار الروايتين وغيرهما مما ورد في هذا الشأن فانها تبين بعض المصاديق وقد ذكرنا ان الآية الشريفة مطلقة تشمل جميع اهل الكتاب قبل الاسلام وحين الدعوة وأما بعد استقرار الدعوة فلا تنفعهم اعمالهم لفرض انهم مأمورون بالايمان .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

بعدما ذكر سبحانه وتعالى صفات المؤمنين المتقين من اهل الكتاب وبين حسن سريرتهم وسعادتهم يذكر تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين حال الكفار ـ الذين خسروا انفسهم وباعوها للشيطان فجحدوا الحق ـ توبيخاً لهم وتشنيعاً عليهم واتماماً للحجة ، ومقابلة للطائفة الاولى المتقدمة ليعرف المؤمنون بذلك مقاماتهم المعنوية ومالهم من الجزاء الكبير .

كما بين سبحانه وتعالى ان ما انفقت هذه الطائفة الكافرة بالله العظيم في هذه الدنيا لحفظ جاهها واستمرار ملذاتها لن تنفعها عما أعدلها من الجزاء في هذه الدنيا ولها في الآخرة عذاب الخلود ومثل تعالى

ما ينفقونها كعاصفة باردة تحرق الحرث وتدمره لانهم ظلموا انفسهم واندفعوا وراء شهواتهم مختارين فكان مصيرهم الهلاك والعذاب .

التفسير

قوله تعالى : ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً .

الآية المباركة تبين حقيقة من الحقائق الواقعية ، وتظهر سوء حال الكافرين لاسيما في يوم الجزاء ، وهي عدم انتفاع الانسان بما يعتبره رافعاً لحوائجه وما يدخره للانتفاع به ، وان بذل غاية جهده في نيله والاحتفاظ به الا إذا اضيف ذلك إلى الله تعالى لانه الدائم الباقي والغني المطلق وهو الذي يحفظ الاعمال ليجازي عليها ، وحيث أن اهم ما يبذل الانسان جهده فيه هو الاموال والاولاد ويعول عليهما في النوائب والشدائد فقد ذكرهما عزوجل .

وبما ان ما عند الكافر لم يكن مضافاً إلى الله تعالى لفرض كفره فلا موضوع لاغنائهما عنه في يوم حاجته اليهما وان تمتع بهما قليلاً لكن لا يغنيه شيء منهما ، ويؤكد ذلك قوله تعالى « شيئاً » الدال على عدم الاغناء بوجه من الوجوه ، وقد تقدم في الآية العاشرة من هذه السورة بعض الكلام .

والمراد من الذين كفروا مطلق مَن كفر بالحق وعانده سواء كان من اهل الكتاب أو المشركين . فهذه الآية الشريفة من جهة تكون مقابلة للطائفة المؤمنة كما عرفت ، ومن جهة اخرى تكون توطئة لما سيذكره

قوله تعالى : واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون .

اي : اولئك الكافرون داخلون في النار وملازموها ولا يمكنهم الخلاص منها لانهم كانوا ملازمين للكفر ومداومين على الظلم وقد جبلت نفوسهم على الفسق والضلال فلا موضوع لنجاتهم منها . وهذه الآية المباركة كقوله تعالى : « ان الذين كفروا لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً واولئك هم وقود النار » آل عمران ـ ١٠ .

وانما افترقت هذه الآية عن سابقتها في ان السابقة اختتمت بقوله تعالى : « واولئك هم وقود النار » وفي المقام « واولئك اصحاب النار » والمآل وان كان واحداً ولكن السابقة ناظرة إلى كيفية العذاب وهذه إلى أصله .

قوله تعالى : مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا .

الآية الشريفة في بلاغتها وفصاحتها وحسن اسلوبها تصور الواقع الذي عليه تصرفات الظالمين والكافرين والمنافقين وانفاقهم بأبلغ صورة واحسن تشبيه .

وفيها مثل عام لكل مَن ينفق في غير وجه الله تعالى وكان للدنيا وفي الدنيا . وهي كالدليل لعدم اغناء الأموال عن الكافرين ، وتبين عدم انتفاع المنفق بها بوجه من الوجوه بل يكون وبالاً عليهم لانهم كفروا بالله العظيم وآياته واشركوا به ، ولم يطلبوا من الانفاق وجه الله تعالى ورضاؤه وان كان بزعمهم منه فانه من مجرد الوهم والظن لوجود المانع فيهم .

والمثل في الكلام هو ايراد كلام يشبه كلام آخر يقصد به شيء معين يبين احدهما الاخر ويصوره ، والامثال في القرآن الكريم كثيرة

وهي تقرب المقصود إلى اذهان المخاطبين بأحسن وجه .

وانما خص سبحانه وتعالى التمثيل بالحياة الدنيا لبيان انهم منقطعون عن الدار الآخرة ، وهذا وجه آخر دال على ان انفاقهم كان للدنيا وفي الدنيا ومنقطعاً عن الله تعالى والدار الآخرة مضافاً إلى كفرهم، فهم لا ينفقون غالباً إلا على نظائرهم وامثالهم ، ولو اتفق انهم انفقوا في صلة الرحم والفقراء والمساكين ، ونفع المحتاجين وغير ذلك من المقاصد والشؤون ، فان كفرهم مانع عن قبول الله تعالى لها الذي هو المناط في جميع الاعمال .

وانما خص الاموال بالذكر ولم يذكر الاولاد لانهم يتبعون الآباء ان كانوا كفاراً وإلا فلا ارتباط بينهما لانهم مسلمون فهم عليهم لا لهم.

قوله تعالى : كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فاهلكته .

الريح واحدة الرياح ، وقيل ان المفرد يستعمل في العذاب ان لم تكن قرينة على خلاف ذلك مثل قوله تعالى : « وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها » يونس ـ ٢٢ والجمع في الرحمة وفي الحديث : « كان يقول إذا هاجت الريح : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» ومما يثبت ذلك ان اغلب المواضع التي ذكر الله تعالى في القرآن الكريم إرسال الريح بلفظ الواحد كان في العذاب . والجمع في آيات الرحمة قال تعالى : « فيرسل عليكم قاصفاً من الريح » الإسراء ـ ٦٩ ، وقال تعالى : « فاما عاد فاهلكوا بريح » الحاقة ـ ٦ ، وقال تعالى : «وهو الذي ارسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته » الفرقان ـ ٤٨ .

ومادة (صرر) تدل على الجمع والاشتداد والتأكد ، وقد

استعملت في موارد كثيرة بهذه الدواعي منها البرد الشديد ، ومنها الضجة والصيحة ؛ قال تعالى : « فاقبلت امراته في صرة » الذاريات ـ ٢٩ .

ومنها : الجمع والانضمام قال تعالى: « فصرهن اليك » البقرة ـ ٢٦٠ .

ومنها : الاصرار على الشيء ، وفي الحديث : « ما اصر من استغفر » . ولعل استفادة الشدة من المعنى للقاعدة المعروفة بين الادباء « ان زيادة المباني تدل على زيادة المعاني » .

والحرث: الزرع . وفي الآية الشريفة تشبيه مركب فقد شبه سبحانه وتعالى إنفاقهم في مقاصدهم وشؤونهم التي يزعمون انها وجه الله أو التي يريدون بها الصد عن سبيـــل الله تعالى بالريح الباردة التي تضر بالحرث والزرع ، فهي فاسدة ومفسدة فلا ينتفعون من انفاقهم ابداً لا في الدنيا ولا في الآخرة بل يكون مفسداً لاخلاقهم وموجباً لسقوط الآثار الواقعيـــة التي تترتب على كل انفاق ، ويحرمهم من السعادة الدنيوية والآخروية فلم يجنوا من انفاقهم الا الشقاء والحرمان ، فالآية المباركة تبين حال انفاقهم مع كفرهم في احباطه له فيكون الكفر والظلم بمنزلة الريح الباردة .

وانما وصف القوم بالظالمين لبيان ان ظلمهم هو السبب في هلاك الزرع والانفاق ، فهو يتلف الاعمال ويذهب اثارها الدنيوية والأخروية فيكون الهلاك والحرمان عقوبة لهم .

وانما عبر سبحانه وتعالى بالريـــح الباردة دون النار وغيرها التي توجب اتلاف الزرع وسقوط الانتفاع به بالكلية ، لان الريح الباردة تفسد الزرع وتهلكه فلا قابلية له للنمو ولكن يبقى حشيشها واصل المادة ويمكن الانتفاع بها في بعض الجهات وهكذا انفاق الكافرين فانه قد ينتفع به إما في الدنيا لقضاء مآربه أو في البرزخ فانه يوجب تخفيف

العذاب ان كان لاغراض حميدة .

قوله تعالى : وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون.

الضمير يرجع إلى الكافرين المنفقين . وهذه القضية مكررة في القرآن الكريم بأساليب مختلفة ، وهي تدل على نفي الظلم عنه عزوجل وثبوت الاختيار للانسان وانه الفاعل المختار ، وان الجزاء والآثار التي تترتب على الافعال انما يستحقها بما يختاره من الافعال والاعمال إن خيراً فخير وان شراً فشر . وذلك لان نظام العالم انما يتحقق بترتب المسببات على الاسباب والمعلول على العلة ، فاذا كان للشيء سبباً واحداً فالترتب واضح معلوم ، واما إذا كانت الاسباب متعددة والمقتضيات كثيرة ، فالمسبب والمقتضى (بالفتح) يترتب على السبب الأخير ، وان كان للجميع دخل في التحقق ، ولا ريب ان جميع الممكنات يستند إلى قضاء الله تعالى وقدره ، ومشيته الكاملة ، ولكنه تعالى أراد ان يجعل الانسان مختاراً في افعاله لحِكَمٍ كثيرة منها تصحيح قانون الثواب والعقاب على الفعل الاختياري وحينئذ يستنكر العقل ان يستند الظلم إلى الله تعالى بعد خلقه للانسان مختاراً في افعاله واعماله فتنحصر نسبة الظلم إلى الفاعل المباشر فالآية الشريفة هي قضية عقلية كما عرفت . ومن اهم الامور الدينية ، لان جميع الاديان الآلهية تستنكر استناد الظلم إلى الله عزوجل . ووجدانيته لان الله تعالى بعد ان أتم الحجة على العباد وبيّن لهم الصراط المستقيم وأرسل الرسل وانزل الكتب لتكميل الانسان ومنحهم العقل والشعور والاختيار ، فاذا اختار عبد غير المطلوب منه فقد ظلم نفسه بأن حرّم نفسه من الكمالات والاجر الجزيل .

والمعنى : ان الله لم يظلم الكافرين الذين انفقوا أموالهم في غير وجه الله فحرموا انفسهم من الثواب واحبطوا عملهم لكنهم هم ظلموا انفسهم باختيارهم الكفر المانع عن القبول فاختاروا العذاب والحرمان.

بحث دلالي

تدل الآيتان الشريفتان على امور :

الاول : يدل قوله تعالى : « ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً » على حقيقة من الحقائق الواقعية وهي : ان الاموال والاولاد انما يستفيد منها الانسان مطلقا ويستغنى بها في حوائجه ومآربه إذا كان كل واحد منها لله تعالى وفي وجه الله عزوجل حتى تكون محفوظة عنده تعالى ، وتبقى ببقاء الله لانها تدخل في خزائنه ، ولله خزائن السموات والارض ، ويوفي صاحبها الجزاء الاوفى ويدفع العذاب عنه ، والكافر قد انقطعت العصمة بينه وبين الله تعالى بسبب كفره فحرم نفسه عن جميع تلك الآثار فلن تغني عنه من الله شيئاً .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر » امور :

منها : ان انفاقهم للاموال انما كان للدنيا ولأجل الشؤون والمقاصد الدنيوية فقط ولا نظر لهم إلى ما ورائها .

ومنها : انهم ظلموا انفسهم باختيارهم الكفر ، كما ظلموا انفسهم في انفاق الاموال في غير وجه الله تعالى ، فقد حرموا انفسهم من

الآثار الواقعية التي تترتب على انفاقها .

ومنها : انهم لم يحرموا من بعض الآثار كما لم يحرم الزارع من حشيش الزرع وبقاياه بعد إصابته الريح الباردة واتلافها له ، ولذلك نرى إن التعبير يختلف بالنسبة إلى اعمالهم في آية اخرى قال تعالى : « والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمأن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » النور ـ ٣٩ .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « ولكن انفسهم يظلمون » على استمرار الظلم وتجدده باستمرار العلة وهي الكفر والعصيان .

الرابع : يستفاد من الآية الشريفة ان الذنوب والمعاصي قد توجب هلاك الزرع والنسل والكوارث والآفات ، لان للذنوب آثاراً واقعية لا يمكن التخلف عنها ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، بل ان كل ذنب له اثره الخاص به كما دلت عليه أدلة متعددة وفي كثير من الدعوات المأثورة ، منها الدعاء المعروف بدعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) .

بحث عرفاني

جميع الافعال الحاصلة من النفس الانسانية بواسطة القوى الباطنية الجسمانية انما هي بمنزلة الاشباح والاظلة للصور الحاصلة في النفس ، فهي كالمرآت التي تبث اشعتها إلى الخارج ، وقد اثبت ذلك المحققون من الفلاسفة وقال بعض المحققين :

النفس في وحدتها كل القوى وفعلها في فعلها قد انطوى

والقرآن الكريم والسنة الشريفة يثبتان ذلك ايضاً فاذا كانت النفس متوجهة إلى الله تعالى تكون اشعتها من سنخها متصلة إلى الله جل جلاله وإذا كانت متوجهة إلى غيره عزوجل تكون اشعتها كذلك فلاتتحقق أية اضافة لله تعالى والالزم الخلف الباطل هذا من جهة النفس .

واما من جهته عزوجل فقد قال الله تعالى : « انا خير شريك من عمل لي ولغيري تركته لغيري » فاذا كان العمل له تعالى ولغيره لا يعتني به الله تعالى فكيف إذا كان تمام العمل لغيره ، واذا كانت تربية الاولاد ومصرف الاموال في غير ما يرتضيه عزوجل لا يمكن ان ينتفع من ذلك نفعاً إلا ما يتصور من المنافع الوقتية الوهمية وهي عدم محض بالنسبة إلى النفع الواقعي الحقيقي، قال تعالى : « كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » النور - ٣٩ وقال تعالى : « انما اموالكم واولادكم فتنة » الانفال - ٢٥ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

بعدما ذكر عزوجل صفات خاصةمن الكافرين وهي المؤمنينمنهم وذكر بعض صفات الجاحدين منهم أيضاً وبيّن انهم لا يقدرون على تحقيق مقاصدهم في الصد عن سبيل الله تعالى مهما بذلوا من جهد وانفقوا من الاموال .

يبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات ما تنطوي عليه ضمائرهم وما تخفيه صدورهم بالنسبة إلى الحق الواقع والمؤمنين .

وبين سبحانه وتعالى ان الكافرين لا يحبونهم ويحقدون عليهم ويفرحون بما يصيبهم من المكروه ويضمرون ، كل عداوة لهم والحسد منهم . وقد حذرهم سبحانه المؤمنين من كيد الكافرين وسبل اضلالهم

وامرهم بالاجتناب عنهم والتصدي لهم .

التفسير

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم .

دستور إلهي يبين منهج المجتمع الاسلامي في احتكاكه مع المجتمعات الأخرى . وتتضمن الآية المباركة أهم الاحكام الاجتماعية التي اراد الله تعالى بها الاحتفاظ على وحدة المجتمع الاسلامي وصونه عن التفرق والفساد ، وذلك لان اسرار المجتمع الواحد لابد ان تكون محفوظة لدى افراده ، وأن لا يطلع عليه غيرهم ، بل في اطلاع العدو عليها هلاكهم وتفرقهم لاسيما إذا كان متصفاً برذائل الاخلاق كما ذكره عزوجل في هذه الآيات المباركة .

ومادة (بطن) تدل على الخفاء مقابل الظاهر ، وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، قال تعالى : « ما ظهر وما بطن » الانعام - ١٥١ ، وقال تعالى : « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » الانعام - ١٢٠ ومن اسمائه الحسنى « الباطن » قال تعالى : « هو الاول والآخر والظاهر والباطن » الحديد - ٣ اي هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط بهوهم ، أو هو العالم بما بطن . وبطانة الثوب خلاف ما ظهر من الثوب ، قال تعالى : « بطائنها من استبرق » الرحمن - ٥٥ .

والمراد بالبطانة في المقام هو وليجة الرجل وخاصته الذي يكاشفه باسراره ويستبطن امره ويشاوره في احواله وهو مصدر يسمى به الواحد

والجمع ، وفي الحديث : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان » . والمراد من « دونكم » اي غيركم والتعبير به لبيان ان غيركم أدون منكم فلا ينبغي ان تتخذوهم بطانة تلقون اليهم اسراركم ، وقد وصفهم الله تعالى باوصاف متعددة تدل على غاية بعدهم عن المؤمنين ونفرتهم عنهم .

قوله تعالى : لا يألونكم خبالاً .

بيان للنهي عن اتخاذ الاعداء والمنافقين بطانة فانهم يضمرون الشر والفساد ، فهذه الجملة في حين كونها تعليلية تكون مبينة لحقيقتهم وهي الصفة الاولى من صفاتهم بل الاصل لجملة كثيرة من الصفات الآتية .

ويألونكم من الإلو ، وهو التقصير والابطاء والضعف ، والفعل ألا كغزا ، يألو ، ألواً ، وهو لازم يتعدى إلى المفعول بالحرف وإلى المفعولين ويتضمن معنى المنع يقال : لاآلوك نصحاً اي لاامنعك وقد يجعل بمعنى الترك فيتعدى إلى مفعول واحد يقال : ما ألوت الشيء اي ما تركته .

وكيف كان ففي المقام إذا جعلناه بمعنى التقصير فلا يتعدى إلى مفعول فضلاً عن المفعولين ، فلابد من جعله بمعنى لا ينقصوكم كما في قوله تعالى : « ثم لم ينقصوكم شيئاً » التوبة ـ ٤ .

ومادة (خبل) تدل على الفساد سواء كان في الرأي أو غيره. يقال : « خبل الحب قلبه » اي افسده ، ومنه الحديث : « وبطانة لاتألوه خبالاً » ، اي : لا تقصر في إفساد امره وشأنه. وفي الحديث ايضاً « بين يدي الساعة الخبل » اى الفتن المفسدة . والخبل قد يصيب الحيوان فيؤدي إلى الاضطراب في شعوره وحركاته . وخبالاً مفعول ثان

والجملة صفة توضيحية تبين قبح اتخاذهم بطانة .

والمعنى : انهم لا يقصرون لكم فساداً ولا ينقصوكم شراً فيجهدون في الإضرار بكم ، وهذه حقيقة واقعية تترتب على اتخاذ الاعداء والمنافقين اعوانا وبطانة يعتمد عليهم ويلقى اليهم الاسرار مع انهم لا يضمرون المؤمنين الا العداء والخديعة والاضلال .

قوله تعالى : ودوّا ما عنتم .

الصفة الثانية من صفاتهم وهي حب الاضرار بالمؤمنين وإيقاعهم في الهلاك والمشقة .

والعنت : المشقة وشدة الضرر ، وفي الحديث : « ايما طبيب تطبب ولم يعرف بالطب فاعنت فهو ضامن » اي اضر المريض وافسده ، وما مصدرية .

يعني احبوا مشقتكم وتمنوا عليكم الوقوع في الضرر والهلاك .

قوله تعالى : قد بدت البغضاء من افواههم .

صفة ثالثة وهي ظهور علامات العداء والشنآن على اقوالهم ولحن كلامهم وفلتات ألسنتهم لان البغض قد استولى على قلوبهم فلا يقدرون على حفظ السنتهم ولا يمكنهم ان يملكوا انفسهم عند الملاقات وعز عليهم اخفاء ما في ضمائرهم من العداوة والبغضاء فكأنهم يتفوهون بما في ضمائرهم بلا اختيار منهم .

والبغضاء شدة البغض . والافواه جمع فم واصله فوه ولامه هاء والجمع يرد الشيء إلى اصله اي من اقوالهم وفلتات السنتهم .

قوله تعالى : وما تخفي صدورهم اكبر .

صفة رابعة وهي تدل على تمكن البغضاء في قلوبهم وان ما في قلوبهم اكبر مما يعلمه احد إلا ان يظهره الله تعالى ويبينه لكم .

وانما ابهم عزوجل ما في الصدور لبيان انه لا يوصف لعظمته وتنوعه ، وليذهب ذهن المخاطب كل مذهب ، وان كل ما صدر منهم كان قليلاً مقابل ما في قلوبهم . وبعدما بين الله عزوجل حقيقتهم وعرّف حالهم وطبايعهم لا يبقى للمؤمنين مجال وعذر أن يتخذوهم بطانة من دون المؤمنين .

قوله تعالى : قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .

اي قد اظهرنا لكم العلامات الفارقة بين الحق والباطل وبها يتميز الولي عن العدو . وقد عرف مَن يتخذ بطانةً ومَن هو خائن لا يصلح ان يكون كذلك إن كنتم تعقلون البيان وتلك الآيات وتفهموها وتجعلونها محط انظاركم ومورد عملكم فلا يبقى بعد ذلك عذر .

قوله تعالى : ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم .

تأكيد على ترك اتخاذهم بطانةً ، وتنبيه للمؤمنين على خطاء مَن يتخذهم كذلك وقد ذكر عزوجل ذلك باسلوب بديع وعبارة فصيحة وخطاب بليغ يثير المخاطب عند سماعه ويستفزه على أمر مهم قد خفي عليه .

و « ها » للتنبيه و « انتم » مبتدأ و « اولاء » إسم إشارة وهو منادى يفيد فائدة الاختصاص ، وجملة « تحبونهم » خبر ، وانما يؤتى مثل هذا الخطاب في مقام التحريض على التباعد والتنبيه على امر خفي وهو بيان حقيقة المنافقين الذي هو من اعظم مقاصد القرآن

الكريم ، وللنحويين مذاهب اخرى في إعراب مثل هذا التركيب متن شاء فليراجع كتبهم . و « لا يحبونكم » إما عطف أو حال .

وكيف كان فقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يحبون الناس بل يحبون اشدهم عداوة اللذين لا يقصرون في إفسادهم وتمني عنتهم كما ذكره عزوجل آنفاً مع انهم لا يحبونهم ، وانما احبوهم لان الاسلام دين المحبة والرحمة ومع ذلك كيف تتخذونهم بطانة وهم لا يملكون أية رحمة في قلوبهم وليس عندهم ما يدعو إلى حبكم لهم .

قوله تعالى : وتؤمنون بالكتاب كله .

المراد بالكتاب جنسه اي جميع الكتب التي انزلها الله تعالى على انبيائه ورسله كتابكم وكتبهم وهم لا يؤمنون بكتابكم .

وانما اكده عزوجل بقوله « كله » لبيان انهم يؤمنون بجميع جزئيات الكتاب واجزائه حتى في ما يكون مشقة عليهم بخلاف المنافقين والكافرين الذين لا يؤمنون بالكتاب ولو أمنوا ببعض كتبهم فانما يؤمنون بما ينفعهم ، فاذا كنتم تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بكتبهم ولا يؤمنون بكتابكم ، فانتم احق بان تبغضوهم وقد نهيتم في مواطن كثيرة عن الركون اليهم والاعتماد عليهم ، وقد وصفهم الله تعالى باوصاف كالظلم قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون » هود ـ ١١٣ ، والاعتداء قال تعالى : « ان الله لا يحب المعتدين » البقرة ـ ١٩٠ ، والخيانة قال تعالى : « ان الله لا يحب الخائنين » الانفال ـ ٥٨ ، والفساد قال تعالى : « ان الله لا يحب المفسدين » القصص ـ ٧٧ والكفر قال تعالى : مخاطباً لنبيه « اتق الله ولا تطع الكافرين »

الاحزاب ـ ١ فلا يبقى بعد ذلك عذر في اتخاذكم اياهم بطانة وليس من شأنكم ولا يحسن منكم ان تحبوا مَن لا يحبه الله تعالى ، فاذا كنتم مؤمنين بالكتاب فهو ينهاكم عن الركون اليهم ويرشدكم إلى ترك محبتهم في كل عصر وزمان إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .

بيان لشدة نفاقهم ، وانما حكم على الجميع باعتبار صدور ذلك عن بعضهم لان الجميع مسؤول عما يصدر عن بعض بحكم قانون التكافل الإجتماعي .

والعض هو الاخذ بالاسنان مع ضغط وهو إما ان يكون عن الندم أو عن شدة الغيظ بحيث لا يتمالك المغتاظ عن ان يعض أنامله ويؤلمها قال أبو طالب :

يعضون غيضاً خلفنا بالأنامل

والأنامل جمع أنملة وهي طرف الاصبع .

والمعنى : إذ القوكم قالوا نفاقاً آمنّا بما امنتم به ونحن معكم وإذا اختلى بعضهم مع بعض اظهروا ما في انفسهم وعضوا لاجلكم اطراف اصابعهم حنقاً وغيضاً وانما كانوا يعضون الأنامل لانهم لا يستطيعون التشفي من المؤمنين إلا بهذا الطريق .

قوله تعالى : قل موتوا بغيضكم .

دعاء عليهم وإن كان في صورة الأمر اي : امتهم بغيضهم .

والمعنى : قل لهم يامحمد افعلوا ما شئتم فان الله تعالى يعلي كلمة الحق

وان الاسلام الذي هو سبب غيضكم لا يزداد الا علواً وجلالاً وعزة وان الله تعالى خاذلكم فستموتون من شدة الغيظ .

قوله تعالى : ان الله عليم بذات الصدور .

اي ان الله تعالى لا يخفى عليه سرائركم وما في صدوركم من البغي والحسد والحقد وان جاهدتم في كتمانها .

وذات الصدور كناية عن السريرة أو الحالة أو العلة المتعلقة بالصدور من نفاق أو ايمان ونحو ذلك فان الصدور وعاء للقلب الذي هو مرجع جميع الامور ، ولذا قال تعالى في آية اخرى : «وليمحص ما في قلوبكم» آل عمران - ١٥٤ .

قوله تعالى : إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها .

المسّ هو اللمس والمراد به هنا الاصابة وانما عبر بالمس كناية عن قلة النفع . والمساءة خلاف السرور ، والحسنة الخير والنعمة ، والسيئة الفادحة والمحنة .

واختلاف التعبير في الحسنة والسيئة لبيان ان الكافرين يسؤهم ما يصيب المسلمين من الخير وإن قلّ ، ويفرحون باصابتهم السيئة دون مجرد المس ، وهذا يكشف عن شدة الغيظ واستيلاء البغض على قلوبهم وحسدهم الشديد للدين والمؤمنين .

قوله تعالى : وإن تصبروا وتتقوا .

اي : إن تصبروا على طاعة الله ونصرة دينه وجهاد الاعداء وعداوتهم والبعد عن الأهل والاوطان . وتتقوا الله في جميع الافعال

والاعمال وتنفيذ احكام الله تعالى .

قوله تعالى : لا يضركم كيدهم شيئاً .

وعد منه عزوجل بالحماية والنصرة . والكيد هو المكر والخديعة . ويضركم (بضم الراء وتشديدها) من الضرر ، وقرىء بكسر الضاد وسكون الراء المخففة من ضاره يضره بمعنى المضرة . وشيئاً منصوب على المصدر .

والمعنى : لا يضركم مكرهم وأذاهم شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً . وهذا من مكارم الاخلاق الاسلامية حيث لم يأمرهم عزوجل بمقابلة مكرهم وكيدهم بمثلها ، بل امرهم بالصبر والتقوى وعدم التعدي ، والخير والاحسان فانهم في حماية الله عزوجل وكنفه .

قوله تعالى : ان الله بما يعملون محيط .

وعد منه للمؤمنين بالحسنى ووعيد للكافرين بسوء العقبى فان الله تعالى يعلم كيد الكافرين وصبر المؤمنين وتقواهم وهو محيط بجميع الافعال والاعمال والاشخاص إحاطة علم وقدرة ، فيجازي كلاً حسب فعله ثواباً وعقاباً وفي الآية المباركة التأكيد على نجاة المؤمنين وخلاصهم من كيد الكافرين ومنعهم عن المؤمنين .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول ظاهر قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة

من دونكم » حرمة اتخاذ البطانة بالقيود المذكورة وهي : انهم لا يألونكم خبالاً ، وتمني العنت لكم ، وظهور البغضاء من افواههم ويمكن ان تحمل هذه القيود على الغالب ، فاذا لم يكن في العدو تلك الصفات والقيود ولكن علم منه العداوة بالقرائن فهو أيضاً داخل في الآية المباركة ، بل هو منافق بصريح ذيل الآية الشريفة .

الثاني : الآية الشريفة ترشد إلى اهم الاحكام الاجتماعية وهو الاهتمام بالصاحب الذي يريد أن يصحبه الانسان في حياته والقرين الذي يعتمد عليه في جميع اموره ، وقد اهتم الاسلام به اشد اهتماماً فان له التأثير الكبير على الفرد سلوكاً واخلاقاً وديناً، فامر سبحانه وتعالى المؤمنين ان يكون القرين الذي يتخذ مؤمناً ومتصفاً باوصاف حسنة ومتحلياً بمكارم الاخلاق ففي الحديث عن نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) : « المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل » . وفي المثل :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فان القرين بالمقارن يقتدي

الثالث : قد ذكر سبحانه وتعالى في الآيات المباركة اموراً قد اتصف بها الكافرون وكل واحد منها يبين جانباً من جوانب شخصيتهم النفسية والاجتماعية وحقدهم وحسدهم على الحق واهله وانما أكد عزوجل ذلك بسرد تلك الاوصاف اهتماماً بالموضوع وتذكيراً للمؤمنين بترك اتخاذ مثل هؤلاء الموصوفين وعدم صلاحيتهم للخلة والبطانة والمواصلة ثم ارشدهم إلى امر فطري وارجعهم إلى انفسهم عندما حكى عزوجل انهم لا يحبونكم فكيف يصلحون للمواصلة المبنية على الود والمحبة .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « وان تصبروا وتتقوا » أن الأمن من كيد الكافرين مشروط بالصبر على اذاهم وكيدهم بتقوى الله وترك كل معصية منها الرد بالمثل ، ويمكن ان يحمل التقوى على

خصوص ترك موادتهم واتخاذهم بطانة . وكيف كان فان ذلك وعد منه عزوجل لهم بالحسنى والظفر وحسن العاقبة والأمن من مكائدهم وما يضمرون من شرار الصفات .

الخامس : يستفاد من لفظ « البطانة » جميع ما ورد في الصاحب والقرين وغيرهما مما يستعمل في هذا المضمون فان البطانة مشتمل عليها مع زيادة وهذا هو دأب القرآن الكريم في استعمال الفاظ خاصة يبين الموضوع بتمام جهاته باسلوب رصين والفاظ بديعة ، وهذا اللفظ يشمل مثل تعليم اسرار القرآن ومعارفه فان افشاءهما لغير الأهل داخل في الآية الشريفة .

بحث روائي

في الدر المنثور عن ابن عباس في قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » قال : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود ، كما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع ، فانزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم » .

اقول : على فرض اعتبار الحديث انه يبين بعض المصاديق .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

الآيات الشريفة تذكر المؤمنين بالمواقف الصعبة التي مرت على الاسلام والمسلمين ، وما لاقاه صاحب الدعوة من المتاعب والمصاعب

من المنافقين والمشركين ، والحروب التي خاضها المؤمنون ضد العتاة والجبابرة الذين ارادوا النيل من الاسلام والوقوف أمام تقدمه ، كما تذكر الآيات النِعمَ التي انعمها على المؤمنين من الايمان والنصرة وكفاية الاعداء وهدايتهم إلى ما يوجب سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم ، وأوعدهم النصر والمغفرة إذا صبروا واتقوا المعاصي وأطاعوا الله والرسول الكريم .

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة غزوة أحد وبدر من بين سائر الغزوات لما فيهما من العبر والدروس العظيمة وان ما وقع في غزوة احد انما هو نموذج من أفاعيل المنافقين الذين كانوا مندسين في صفوف المؤمنين فميّزهم الله تعالى بما وقع منهم من المحنة فالآيات الشريفة تتمة لما أراده عزوجل من هذه السورة من تذكير المؤمنين بحقيقة الايمان ونِعمَ الله تعالى عليهم ، وما لهم من الجزاء الكبير في الآخرة وأمرهم بالصبر والتقوى .

التفسير

قوله تعالى : واذ غدوت من اهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال .

إذ ظرف في موضع نصب متعلق بمحذوف مثل (اذكر) ونحوه وجملة « تبوّيء المؤمنين » حال من فاعل « غدوت » . و «مقاعد» مفعول ثان لـ « تبوّيء » .

وغدوتَ : من الغدوة يقال غدا يغدو غدواً ، وهو الخروج اول

النهار ضد الرواح ، وقال بعضهم : انه بمعنى انطلق ، ويمكن ان يكون المراد به هو السير والانطلاق في زمان مخصوص وهو اول النهار وصدره ويستفاد منه قرب الموقع من المدينة ، وقد حدده ارباب السير والتواريخ ب (أحد) والغدو سحر يوم السبت سابع شوال من سنة ثلاث من الهجرة .

والاهل : قرابة الرجل ومّن يجمع واياهم نسب ، أو مصاهرة أو بيت ، أو دين ، أو صناعة ونحو ذلك ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع ، ويختص استعماله بالانسان والمراد به في المقام خاصة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومّن يتعلق به من قرابته واصحابه ، وانما عبر به عزوجل في المقام لبيان شدة الاتصال والألفة بينه (صلى الله عليه وآله) وبينهم ، فكأنهم جميعاً من اهله ولا يختص بفرد معين كما ذكره جمع من المفسرين ، وقدّر بعضهم (بيت اهله) ولكن ذلك لا دليل يدل عليه ، والحق ما ذكرناه .

وانما غدى من اهله بعد المشاورة معهم في أمر الجهاد مع العدو واستمالة قلوبهم اليه مقدمة لتوطين انفسهم على الجهاد واقامة دعائم الاسلام .

ومادة (بوأ) تدل على الرجوع والقرار ، سواء كان إلى الحق أو إلى الموضع المعين واصل البواء اللزوم يقال : تبوء المكان إذا استقر فيه والزمه ، وبوّأه المقعد إذا اقره فيه ، وبوّأته داراً إذا اسكنته إياها .وقد استعملت هذه الهيئة في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً مضافة إلى الله تعالى وانبيائه الكرام قال تعالى : « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت » الحج ـ ٢٦ ، وقال تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين » العنكبوت ـ ٥٨ وقال تعالى : « وكذلك

مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء » يوسف ـ ٥٦ وفي المأثور « ابوء بنعمتك عليّ وابوء بذنبي » وقال (صلى الله عليهوآله) في وصف المدينة « هاهنا المتبوّأ » . والجميـــع يشعر بعناية المبوّ (بالكسر) للمبوّ (بالفتح) .

وفي المقام تدل الكلمة على عناية خاصة من سيد الانبياء (صلى الله عليه وآله) للمؤمنين الذين هيء لهم مقاعدهم للقتال لانهقائدهم ومدبر شؤونهم ، وقد هيء بنفسه المقدسة لهم ذلك اهتماماً بهم ولعظمة الموضوع ، وقطعاً للمعاذير ، والدعاوي الباطلة من سائر الافراد ، وقد عين مواقع الجيش والمواضع التي يجب أن يتخذوها اثناء الحرب في القتال ، وقد ورد في الاحاديث انه (صلى الله عليه وآله) عين سفح أحد ـ بضم الالف والحاء ، جبل على نحو ميل من المدينة في شمالها على طريق العراق ـ موقعاً حربياً وجعله في ظهورهم وجعل على الشعب عبد الله بن جبير مع خمسين من الرماة ، وسياتي في البحث التاريخي نقل ذلك . وفي الآية الكريمة تقرير إلهي لحسن تخطيط نبيه الاعظم (صلى الله عليه وآله) وتدبيره لجهات الحرب .

قوله تعالى : والله سميع عليم .

اي : والله سميع لكل ما قيل في هذه الحرب ، سواء من المؤمنين والمنافقين وما قاله الرسول العظيم لهم ودعاؤه لهم بالنصر . عليم بالنيات وما في الضمائر .

وفي اختصاص هذين الاسمين بالذكر لما يتطلبه المقام من الشدة والسيطرة وما يجرى في الخلوات بين الناس وما يقال في تثبيط العزائم ووهنها ، وتنشيط المنافقين في هذا المضمار

وفي الآية الشريفة التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ولعله لأجل ما يلوح من الآية الشريفة اللوم والعتاب والتعريض بالمؤمنين لما ظهر من بعضهم من الوهن في العزائم والفشل في القتال ، ولذلك أعرض عن خطابهم إلى خطاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وذكر عزوجل ما يهم هذه الحرب وما يرتبط بها من تعيين مواقع الجيش ، وهو من مختصات قائدهم واميرهم وبه اختبر درجات ايمانهم وثباتهم وقوتهم .

قوله تعالى : إذ همّت طائفتان منكم .

إذ ظرف في موضع نصب متعلق بقوله تعالى « عليم » اي : والله سميع عليم حين همت طائفتان منكم ان تفشلا . وقيل : انه بدل من « اذ غدوت » . وقيل : انه متعلق بـ : «تبوىء» .

وكيف كان فان الآية المباركة تبين وجه اللوم والعتاب والتعريض بالمؤمنين .

والهم هو القصد واول العزيمة ، والفشل الجبن وضعف القلب، والطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الاوس وهذا هو المشهور بين المفسرين ، وقيل انهما طائفة من المهاجرين وطائفة من الانصار . وقيل : انه عبد الله بن أبي، وجماعة من اصحابه الذين اتبعوه في الخذلان ولكن من المعلوم أن هؤلاء قد نافقوا وفشلوا وقعدوا عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا انهم هموا بالفشل ، والله تعالى يذكرهم بالنفاق والخذلان والـذم والمقت وانهم يومئذ للكفر اقرب منهم للايمان في هذه السورة ، فالطائفتان غيرهم ، وسيأتي في البحث التاريخي ما يتعلق بذلك .

قوله تعالى : والله وليهما .

حال من فاعل « همت » اي: الحال انهما يعلمان ان الله ناصرهما ويعصمهما عن الفشل، وفي الآية الشريفة اللوم والعتاب لهاتين الطائفتين فان المؤمن لا ينبغي له أن يفشل أو يقصده وعنده رسول الله (صلى الله عليه وآله) السبب المتصل وقد امر بالتوكل على الله تعالى والاعتصام به.

وذكر بعض المفسرين أن هذا الهم لم يكن عن عزم وتصميم على مخالفة النبي (صلى الله عليه وآله) ومفارقته له . لان ذلك لايصدر عن مؤمن بل كان مجرد وسوسة وحديث نفس كما في قوله :

أقول لها اذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

ولكن ذلك اجتهاد في مقابل النص فان المعروف من معنى الهم هو القصد دون مجرد الخطور بالبال والوسوسة مع ان مجرد الخطور لو كان سبباً لهذا اللوم والعتاب لما نجى من ذلك مؤمن فلا وجه لاختصاص الطائفتين بهما . يضاف الى ذلك أن الأمر بالتوكل والتذكير بولاية الله تعالى لهما فيهما الدلالة على ان الهم لم يكن من مجرد الوسوسة بل هو قصد وعزيمة من دون فعل ، فالآية الشريفة تدل على ان الله تعالى عصمهما عما همتا به لانه عزوجل ولي المؤمنين يرعى مصالحهم ويثبتهم على الايمان . قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ابراهيم ـ ٢٧ .

قوله تعالى : وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

اي : على الله تعالى لا على غيره يتوكل المؤمنون لانه وليهم وناصرهم فلا يهنوا في نصرة الدين ، وان المؤمن بمقتضى ايمانه لابد وان يتوكل على الله تعالى في جميع اموره ولكن يجب أن لا يقصر

في إقامة الاسباب فانه تعالى ابى ان يجرى الامور الا باسبابها ، وهو الموفق بين الاسباب والمسببات ، وقد ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ويمدهم بالقوة المعنوية والظاهرية ، كما حكى جل شأنه في الآيات التالية .

قوله تعالى : ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة .

بدر : إسم ماء أو بئر بين مكة والمدينة يقال انه كان لرجل من جهينة فسمي الموضع باسمه ، وقد وقع فيه أول غزوة من غزوات النبي (صلى الله عليه وآله) في السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة اثنتين من الهجرة ، وفيها قاتل المشركين وانتصر فيها المسلمون .

واذلة جمع ذلة ، وانما ذكره عزوجل لبيان الذلة في جميع الشؤون الظاهرية المعدة لهذا المقام . وجملة « انتم اذلة » حال من مفعول « نصركم » والمراد من الذلة نوع خاص منها هو القلة في العدد والعدة والانقطاع عن جميع الجهات الدنيوية .

والآية الشريفة تؤكد نصر الله تعالى للمؤمنين فتذكرهم بالنعم التي انعمها عزوجل عليهم فقد نصرهم الله تعالى في بدر ذلك النصر الباهر على اعدائهم مع ما هم عليه من العدة والعدد كما أيد الله تعالى المؤمنين بالملائكة وهو يكفي في التنبيه على ان التوكل على الله تعالى بعد إقامة السبب الظاهري يؤثر الاثر الكبير العجيب ، فتكون الآية الشريفة مسوقة لإيجاب التوكل على الله تعالى بذكر أحد موارده ، كما انها تؤكد اللوم والعتاب على ما ظهر منهم من الهم بالفشل في أحد ، فكان الاجدر بهم ان لا يهنوا في الحرب فان الله تعالى على نصرهم لقدير كما نصرهم في غزوة بدر الكبرى مع ذلة المؤمنين ظاهراً واستذلال

المشركين لهم حيث لم يكن لهم أهبة حرب ولا عزة محارب، ولا منعة لهم لا في العدد ولا في العدة فقد كان عددهم ثلاثمأة وثلاثة عشر رجلا وليس لهم من العدة إلا جريد النخل وفرسين وأباعر معدودة يتعاقب عليها بعض المسلمين وقليل من الزاد بينما كان عدد المشركين ما يناهز الالف ولهم العدة الكاملة من الخيل والنعم والسيوف والدروع إلا ان الله تعالى نصر المسلمين بأعز وجه لانهم كانوا معززين بعزة الله تعالى واقعاً، قال تعالى: « فان لله العزة وللرسول وللمؤمنين » المنافقون ـ ٨ وقد اوجب على نفسه النصر الكامل لهم بقوله تعالى « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم ـ ٤٧ فهم وان كانوا أذلة من قبل العتاة والجبابرة مقابل تلك القوة والشوكة في يوم بدر، ولكن لهم العزة من جهة اخرى.

قوله تعالى: فاتقوا الله لعلكم تشكرون.

اي: فاتقوا الله بتذكر نعمه لاسيما نعمة النصر في يوم بدر وبترك المعاصي حتى الهم بالفشل والخذلان والنفاق، وبالصبر في عظائم الامور حتى تستعدون للقيام بوظيفة الشكر الذي هو من أجل المقامات لانه يوجب توادر النعم عليكم ويمنحكم النصر العظيم.

قوله تعالى: اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

اذ ظرف لـ (نصركم) وهو يبين ولاية الله تعالى على المومنين جزاء شكرهم وتوكلهم على الله تعالى. والكفاية هي الاستغناء بالشيء عن غيره. والامداد هو اعطاء الشيء حالاً بعد حال وعلى طريق الاتصال وقال بعضهم الامداد ما كان بطريق التقوية والاعانة، ومما كان

بطريق الزيادة يقال مده مداً ، وقال آخرون : مده في الشر، وأمده في الخير . والهمزة في « ألن » للانكار ، والنفي بـ « لن » لتأكيده وللدلالة على أنهم كانوا آيسين من النصر لقلة العدد والعدة .

وإنما اتى بلفظ الرب واضافه إلى ضمير المخاطبين للدلالة على كمال العناية بهم ، والتربيب العظمى وانـه لا يدعكم في هذه الحالة التي تحتاجون إلى عطفه وعنايته ونصرته ، وهو يدل على تقوية الانكار . والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) تعريضاً بالمؤمنين لما هموا بالفشل.

والمعنى : تقول يامحمد للمؤمنين في أحد عندما هموا بالفشل أليس الله تعالى بقادر على ان يكفيكم العدو كما كفاكم في بدر بأن يمدكم ربكم الذي رعاكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء وقد امدكم يوم بدر بأقل من ذلك .

والمراد بقوله « منزلين » اي متهيئين لنصركم وهذا خصيصة لبعض الملائكة دون كلهم، فكما ان جبرئيل موكل لجملة من الامور السماوية والارضية التي ليس ذلك من شأن كل ملك كذلك ملائكة النصر في بدر وأحد . وظاهر الآية الشريفة يدل على انه وعد من النبي (صلى الله عليه وآله) للمؤمنين وترغيب لهم إلى الصبر والتقوى حتى يتحقق الموعود به ، وتثبيت لعزيمتهم .

ولا يستفاد من الآية الشريفة وقوع ذلك في غزوة أحد بل كان مجرد وعد إن وفوا بما اشترط عليهم من الصبر والتقوى بخلاف غزوة بدر والاحزاب ويوم حنين ، قال تعالى في يوم بدر « فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين » الانفال ـ ٩ . وفي الاحزاب قال تعالى : « إذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » الاحزاب ـ ٩ ، وفي يوم حنين قال تعالى : « وانزل جنوداً لم تروها »

التوبة ـ ٢٦ .

ثم انه لا منافات بين تحديد الاستجابة لطلب الامداد في يوم بدر بألف ونزول ثلاثة آلاف من الملائكة فيه ، إذ ان مردفين في قوله تعالى : « بألف من الملائكة مردفين » يمكن أن يكون المراد به أن هذا العدد هو قسم خاص من الملائكة أردف لآخرين ، فتكون ثلاثة آلاف لمجموع العدد كما يأتي ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا .

تصديق لكفاية الله تعالى لهم من الاعداء ونصرتهم عليهم ولكنه وعد بشروط ان وفوا بها يف الله تعالى بوعده ، وهي الصبر على الجهاد ، والثبات في نصرة دين الله ، وتقوى الله عما يوجب الخذلان والوهن في العزائم وصرف الامداد الالهي والفيض الربوبي ، ومجيء الاعداء من فورهم .

ومادة (فور) تدل على الحركة والاضطراب يقال : فار الماء إذا نبع وجرى ، ويقال : فارت القدر إذا غلت ، وفي الحديث : « ان شدة الحر من فور جهنم » وتطلق على الغضب لانه يشبه فور القدر ، واستعملت في السرعة والحركة التي لا سكون ولا بطء فيها ، يقال جاء فلان في حاجته ثم رجع من فوره اي من حركته فكأنه في حركة مستمرة .

وقد استعملت هذه المادة في القرآن الكريم في أربعة موارد قال تعالى : « حتى إذا جاء امرنا وفار التنور » هود ـ ٤٠ » ومثله في سورة المؤمنون ـ ٢٧ ، وقال تعالى : «سمعوا لها شهيقاً وهي تفور» الملك ـ ٧ . وفي المقام .

واختلف المفسرون في المراد منه فقيل : انه من وجههم ، وقيل انه من سفرهم ، وقيل : انه من غضبهم . والحق إن جميع ذلك لا دليل عليه لاسيما إذا كان المراد من غضبهم من يوم بدر ، لكان الانسب أن يقول عزوجل من (فورهم ذلك) ، مع ان الآية الشريفة بملاحظة سياقها والقرائن نزلت في شأن غزوة بدر .

والصحيح ان المراد منه هو الفور ضد التراخي اي : يأتوكم المشركون والاعداء من ساعتهم من دون إبطاء ، وإنما وصف عزوجل مجيئهم بذلك لتأكيد السرعة وشدة غضبهم وتصميمهم على منازلة المؤمنين فاذا كانوا كذلك فان الامداد واقع لا محالة ويكون أسرع .

قوله تعالى : يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .

بيان لسرعة الامداد عند سرعة مجيء المشركين ، والآية الشريفة تبين اقصى الحالات التي يحتاج اليها المؤمنون إلى المدد ، وهي حالة المباغتة في الحرب وسرعة الحركة التي يتطلبها المحاربون في تلك الحالة وقد وعدهم عزوجل بانزال المدد فوق ما يتصور من السرعة .

و (مسومين) من السيما وهي العلامة ، يقال : سوّمه ويسومه تسويماً اي اظهر علامة الشيء . يعني : ان الملائكة كانوا معلمين بعلامة خاصة ، كما هو الشأن في جميع الحروب التي يكون لكلا الطرفين علامة خاصة يتميز بها عن الطرف الآخر وبها كان المسلمون يعرفون الملائكة ، كما عرفهم المشركون وقد ملئوا منهم رعباً كما هو المعروف.

وقد اختلفت الروايات في علامة الملائكة ، ففي بعضها انها (العمائم) وفي بعضها الآخر ان سيماء الملائكة يوم بدر الصوف الابيض في نواصي

الخيل واذنابها . وغير ذلك من الاخبار .

والحق ما ذكرناه فان المناط هو معرفة الطرفين الملائكة احدهما بعلامة النصر وتثبيت القلوب، والآخر بالخذلان والرعب ، ولا ينافي ذلك ان تكون للملائكة علائم خاصة ، ولا ثمرة في البحث عن العلامة الخاصة بعد وضوح الحال لكلا الطرفين .

والآية الشريفة لا تدل على نزول الملائكة في أحد لان سياقها بضميمة القرائن تدل على انها ناظرة إلى يوم بدر ، وقد وعدهم عزوجل بالامداد ولكنهم وهنوا وعصوا وتركوا أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولو انهم صبروا واتقوا الله لامدهم الملائكة بالنصرة والثبات .

قوله تعالى : وما جعله الله إلا بشرى لكم .

تثبيت آخر لقلوب المؤمنين لتطمئن نفوسهم . وهو يدل على عدم نزول الملائكة في أُحُد ، لان الله تعالى جعل نزول الملائكة مشروطاً بأمور ثلاثة وهي : الصبر ، والتقوى ، ومجيء الاعداء من فورهم ، ولم تتحقق تلك الشروط فلم يكن ذلك إلا وعداً منه عزوجل فيه البشارة والطمأنينة لقلوب المؤمنين .

والضمير يرجع إلى ما ورد في الآية السابقة من الاخبار بنزول الملائكة والوعد بالامداد فانه وان لم يتحقق الموعود به ، كما عرفت لكن ذلك بشرى للمؤمنين يذهب به خوفهم وتنبسط نفوسهم ، وهذه حكمة عظيمة من تذكيرهم عما مضى من المدد والوعد بالامداد .

قوله تعالى : ولتطمئن قلوبكم به .

حكمة أخرى في الوعد بالامداد وهي تسكين قلوب المؤمنين وتثبيتها

عند النزال فلا يلحقهم الخوف من كثرة العدو وعدتهم .

وانما أخر عزوجل « به » في المقام وقدمه في موضع آخر قال تعالى : « ولتطمئن به قلوبكم » الانفال ـ ١٠ . ولعل الوجه في ذلك ان المؤمنين لذلتهم وقلة عددهم وعدتهم في بدر لم يكن لهم أمل في النصر الا ارادة الله تعالى ونصرته وانجاز وعده عزوجل ، كما هو معروف من انقطاعهم إلى الله تعالى ؛ فكان القصر في الكلام بخلاف أُحُد ، فان الامر لم يكن كذلك فنزل الخطاب من غير قصر.

قوله تعالى : وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

(عند) يفيد مطلق الحضور الاعم من الجسماني والروحاني وما هو فوق ذلك كالحضور عند الله تعالى ، وقد استعمل في القرآن الكريم في الجسمانيات المحضة في الدنيا كقوله تعالى : « فاذكروا الله عند المشعر الحرام » البقرة ـ ١٩٨ ، وقوله تعالى : « وما عندكم ينفد » النحل ـ ٩٦ وفي الآخرة كقوله تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف عين » الصافات ـ ٢٨ وفي المجردات والروحانيات كقوله تعالى: « ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه » الأعراف ـ ٢٠٦ ، ومثل قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى » النجم ـ ١٤ . وفي فوق الروحانيات والمجردات كقوله تعالى : « وما عند الله باق » النحل ـ ٩٦ ، وقال تعالى : « للمتقين عند ربهم جنات » القلم ـ ٣٤ إلى غير ذلك من الآيات الشريفة بل استعمل مضافاً إلى الله تعالى في القرآن الكريم بانحاء مختلفة .

والحصر في الآية الشريفة يفيد ان جميع أنواع النصر ـ معنوية كانت أو مادية ـ تنحصر به تعالى ، لفرض ان الكل مسخر تحت

امره ومشيته وان الملائكة لا شأن لهم في ذلك إلا انهم بمنزلة الآلة الجسانية والقوى المحضة .

وفي ذكر العزيز الحكيم بيان لعلة انحصار النصر فيه تبارك وتعالى لان من كان عزيزاً وقوياً منيعاً بكل معنى الكلمة وعالماً حكيماً بدقائق الامور ينحصر النصر فيه لا محالة .

قوله تعالى : ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين .

بيان لبعض وجوه الحكمة التي من أجلها ينصر الله تعالى المؤمنين مطلقا ، وحينئذ لا فرق بين أن يكون اللام متعلقاً بقوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر » أو يكون متعلقاً بالنصر في قوله تعالى : « وما النصر إلا من عند الله » فان الله تعالى عزيز حكيم يضع الاشياء على ما تقتضيه الحكمة وقد ذكر عزوجل وجوهاً من الحكمة في نصر المؤمنين وهي قطع طرفاً من الكافرين ، وكبتهم .

وقطع الطرف كناية عن اهلاك طائفة من الكافرين وإضعاف قوتهم واذهاب شوكتهم كما وقع في يوم بدر وخيبر ونحوهما .

ومادة كبت تدل على الاهانة والذلة بدواعي مختلفة إما الخزي والعار ، أو الصرف ، أو الرد بالغيظ ، أو الرد بعنف وتذليل ، أو بالصرع على الوجه ، أو بالهزيمة ونحو ذلك ، وقد استعملت هذه المادة في القرآن الكريم في ثلاثة موارد احدها المقام . والثاني والثالث قوله تعالى : «كبتوا كما كبت الذين من قبلهم» المجادلة - ٥ والجامع هو الاهانة والذلة . وما ذكره اهل اللغة والتفسير من المعاني انما هو دواعي الاستعمال وان جعلوها من اصل المعنى .

وكبت الذين كفروا وقع في يوم الاحزاب وأحد وامثالهما حيث اذلهم الله تعالى بأخسّ وجه فقد رجعوا خائبين منهزمين قد انقطعت آمالهم ولم يلحقهم إلا الخزي والعار .

قوله تعالى : ليس لك من الامر شيء .

جملة معترضة تفيد ان جميع الامور المتعلقة بالخلق سواء كانت في الهدى أو التعذيب أو القتل أو الاسر أو التوبة ترجع إلى خالقهم وقدرته وارادته وليس للنبي (صلى الله عليه وآله) شيء من ذلك سوى انه ينفذ أمر الله تعالى فيهم فانه بشر مخلوق مثلهم .

وانما أدرج عزوجل هذه الجملة في التقسيم لبيان ان النبي (صلى الله عليه وآله) إذا أصابه مكروه أو إذا دارت الدائرة على المسلمين لا يلام على ذلك فانه ليس له في ذلك صنع وانما يرجع إلى قدرة الله تعالى وإرادته ، وكذا بالنسبة إلى الظفر على الاعداء فان الشكر لابد ان يكون لله تعالى على ما انعم .

ولهذه الجملة في هذا الموضع لها وقع كبير في النفوس ، فان امر الحرب شديد ولا يمكن ان تتقبلها النفس بسهولة فان تهيئة الناس لها تهيئة نفسية ومعنوية وظاهرية تحتاج إلى عناية خاصة ، ولأجل ذلك ادرج سبحانه هذه الجملة لبيان ان جميع الامور ترجع إلى الله تعالى وهو الذي يحكم ما يريد فليس للافراد دخل في هذا الأمر ، فكان لها تأثير كبير في نفوس المؤمنين ، وتزيد في انقطاعهم إلى الله تعالى ، وتظهر توكلهم عليه ، وحينئذ كان الامداد والفيض الربوبي كبيراً ، والاقدام على الحرب والمنازلة شديداً ، ففي هذا البيان الربوبي من الحِكَم الدينية والاجتماعية والحربية مالا يخفى .

قوله تعالى : أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون.

الجملتان معطوفتان على قوله « ليقطع » وهما من أفراد التقسيم التي ذكرت لبيان وجوه الحكمة في نصر الله تعالى للمؤمنين .

والمعنى : أو يتوب على الكفار والمشركين فيهديهم إلى الاسلام وتزيد بذلك شوكة المسلمين وعددهم وعدتهم ، وهذا هو نصر كبير فانه لا يختص في ساحة القتال ومنازلة الاعداء ، أو يعذبهم في الدنيا بما يريده الله تعالى ويشاء ، أو في الآخرة بما اعد لهم من العذاب الاليم . وذلك لانهم ظالمون لانفسهم فقد اعرضوا عن الاسلام ولم يحسنوا التوبة إلى الله تعالى .

والترديد الظاهري في الآية المباركة إما بداعي تهويل الأمر عليهم أو لأجل وقوع ذلك بالنسبة إلى الأفراد فبعضهم استأصلوا، وبعضهم كبتوا ، وبعضهم تاب الله عليهم بعد أن اسلموا ، وبعضهم عذبوا.

ويمكن أن يكون قوله تعالى : « أو يتوب عليهم » والآية اللاحقة لأجل ترغيبهم إلى التوبة . والعفو عما يفعله أراذل الأنام ، وأن العفو عند المقدرة من أخلاق الكرام .

وقد ذكر المفسرون في اعراب هاتين الجملتين « أو يتوب عليهم أو يعذبهم » وجوهاً مذكورة في كتب التفسير ، والجميع لا يرجع إلى محصل وتحتاج إلى عناية زائدة .

قوله تعالى : ولله ما في السموات وما في الارض .

كلام مستأنف يفيد عظمة مَن يرجع جميع الامور اليه فانه مالك لجميع ما في السموات والارض ملكاً حقيقياً يفعل فيها ما يشاء وما يريد ، خاضعة لديه ، مسخرة تحت إرادته ، حكيم في أفعاله .

والجملة في موضع التعليل لما تقدم .

قوله تعالى : يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء •

من حكمته انه يغفر لمن يشاء ، وقد فسره عزوجل في موضع آخر قال تعالى : «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» طه ـ ٨٤ . ويعذب مَن يشاء إذا أعرض عن الهدى والتوبة .

وتعليق المغفرة والعذاب على المشيئة لبيان انه تعالى يفعل ذلك وفق حكمته المتعالية ، وتنبيه الانسان على عدم الاغترار باعماله وافعاله وعدم إيئاسهم من رحمته تعالى ، وبياناً لاحاطة رحمته ومغفرته على غضبه وعذابه على أي فرض .

قوله تعالى : والله غفور رحيم •

تقرير لمضمون ما ورد في الصدر ، فهو غفور للمذنبين رحيم لهم لئلا يحصل لهم اليأس من رحمته تعالى .

بحوث المقام

بحث دلالي :

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول : يستفاد من قوله تعالى : «وإذ غدوت من اهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال» كثرة اهمية النبي الكريم بأمته وعنايته (صلى الله عليه وآله) بأمورهم فانهم رعيته وهو مسئول عن رعيته فقد

خرج من اهله الذين هم أولى الناس به غدوة ليعين مقاعد القتال ومواضع جيش المسلمين ، ولأهمية الأمر وعظمته فقد خرج غدوة اليه وقدمه على سائر اموره ويستفاد منه قرب الموضع من مدينة الرسول ، وقد عينه التاريخ بانه جبل أحد كما هو المشهور المعروف هناك .

الثاني : يستفاد من سياق الخطاب العتاب واللوم على ما فعله المؤمنون من الوهن في العزيمة والفشل في القتال ولذا أعرض عزوجل عن خطابهم إلى خطاب النبي الكريم في عدة مواضع من هذه الآيات الكريمة ، منها قوله تعالى : « واذ غدوت من اهلك » ، وقوله تعالى : « إذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم » ، وقوله تعالى : « ليس لك من الامر شيء » . ووجه الخطاب إلى المؤمنين في كل مورد يستفاد منه اللوم والعقاب .

الثالث : يستفاد من مجموع الآيات الشريفة الواردة في المقام وغيره كثرة هموم نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) بالنسبة إلى شؤون امته ، وقد قاسى في سبيل الله وإظهار كلمة الحق من الاعداء والمنافقين ما لم يقاسه أحد من أنبياء الله تعالى فان انبياء الله تعالى خصوصاً سيدهم (صلى الله عليه وآله) دائماً في حالة الجهاد والمحاربة مع غيرهم إلا أن مراتب الجهاد والمحاربة مختلفة قولاً وعملاً ، وذلك لانهم مظاهر العقل المجرد واخلاق الله تعالى ومعارفه الواقعية ، ومثل ذلك إذا اختلط مع غيره إنما يكون من اختلاط العلم بالجهل المركب أو البسيط ، وعداء الطرفين معلوم لكل ذي شعور .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » علم الله تعالى بالجزئيات كما تدل عليه الادلة العقلية والنقلية

قال تعالى : « يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » غافر - ١٩ . وتتضمن هذه الجملة العتاب مع الدلال وهو من أجمل الاساليب وابدعها كما في قوله تعالى : «والله وليهما» فان العتاب فيه ظاهر أي لأي شيء صدر منكم الهم بالفشل مع ان الله تعالى معكم يحفظكم ويرعى مصالحكم.

الخامس : يستفاد من قوله تعالى : «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» العفو عن ما صـــدر عنهم من الهم بالفشل وان ذلك يزول فتستقر النفوس ويثبت المؤمنون في امورهم بالتوكل على الله تعالى ، وإن من حق الايمان بالله تعالى هو التوكل عليه وهو يكفي المؤمنين .

وحذف المتعلق في التوكل للدلالة على أن المؤمن ينبغي انيتوكل عليه في جميع اموره وشؤنه جليلها وحقيرها سهلها وصعبها .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : « وأنتم اذلة » بقرينة الحال هي الانقطاع التام عن المخلوق وعالم المادة والتوجه الكامل إلى عالم الغيب ، وحينئذ يقع نصر الله تعالى لا محالة ، فان المستفاد منمجموع الآيات المباركة الواردة في نصرة الله للمؤمنين في مواضع مختلفة ان المناط كله هو تحقق هذه الحالة الانقطاعية الى الله عزوجل ، وكل مَن حصلت له هذه الحالة فهو من اصحاب بدر الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة دين الله تعالى وبـذلوا مهجهم في سبيله عزوجل ، فسلام عليكم يااهل بدر فقد فضلتم على بدر السماء لانكم انوار الهدى واصحاب محمد المصطفى ، فلا ينسى منارکم ، ويرتجى مقامكم ابداً ، وفيكم يدوي صوت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الآفاق : « زملوهم بدمائهم فانهم يحشرون يوم القيامة وتشخب اوداجهم دماً» واحمرار الشمس حين طلوعها وغروبها من شواهد بقاء حياتكم الابدية ورمز سعادتكم السرمدية .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : « ألن يكفيكم أن يمدكم » ان الكفاية انما يتحقق في الامداد الربوبي وهو لا يختص بنوع خاص ، بل يشمل جميع ما يتعلق بنصرة المؤمنين المادية والمعنوية وما يتعلق بشؤونهم العسكرية وثبات نفوسهم واستقرارها وإلقاء الرعب في قلوب الاعداء .

الثامن : يستفاد من قوله تعالى : « وما جعلــه الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم » ان الافاضات الربوبية بقدر اطمينان القلب الحاصل من التصفية ، ولابد اولاً من البشارات الالهية بالفيض والامداد ، وان لذلك الاثر الكبير في اطمينان القلب الذي يكون المؤمن بحاجة اليه في جميع حالاته لاسيما حالة الجهاد والحرب مع الاعداء .

وإنما وجه الخطاب إلى الرسول الكريم باعتبار انه واسطة الفيض ولبيان أن كل فيض لابد ان يكون عن طريقه ومن وجهه ، وإذا اجتمعت الواسطة من تصفية النفس واطمينان القلب والتوجه اليه عزوجل يقع النصر والفيض الربوبي لا محالة ، ويتقدران بقدر اطمينان قلب المفاض عليه وسائر خصوصياته .

التاسع : يستفاد من قوله تعالى : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا الآية » وجوه الحكمة في الجهاد مع الاعداء وقد عد سبحانه وتعالى جملة منها وهي قطع دابر الكافرين واذهاب شوكتهم ، وكبتهم أو الهداية والتوبة عليهم ، وزيادة شوكة المسلمين ، أو التعذيب بما يراه الله تعالى في شأنهم ، وقد ذكر عزوجل جملة أخرى منها في مواضع متفرقة يأتي التعرض لها في الموضع المناسب .

العاشر : انما عبر سبحانه وتعالى بقطع الطرف ، لأن الجيش انما يتقوم بقيام طرفه فاذا قطع فلا تبقى له قائمة ، كما في قطع أطراف الانسان ، والقطع هنا اعم من القتل أو الأسر أو الخذلان أو التطميع

بالمادة ، أو ايقاع الرعب في قلبه ، ففي كـــل ذلك قطع للطرف واذهاب للشوكة .

الحادي عشر : إن في وقوع جملة « ليس لك من الامر شيء » المستأنفة الواقعة بين جملتين مرتبطتين فيها من الحِكَم الكثيرة ما لا يخفى فمنها انها تكون لاجل التهويل وتعظيم الموضوع ، والتسلية للنبي العظيم (صلى الله عليه وآله) بما جرى على اهله وعشيرته من القتل والأسر ، وتسكيتاً لأقاويل المنافقين لما كثرت حيث قالوا لو كان نبياً لما كسرت رباعيته ولا شج وجهه ، ومنها دفع توهم الغلو فيه (صلى الله عليه وآله) نظير قوله تعالى : «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» الانفال ـ ١٧ وجلباً لقلوب المؤمنين ، ومنها توطئة لذكر التوبة بعد ذلك لئلا يستوحش المسلمون من قبول توبتهم ؛ فانها من الله تعالى ويكون التوفيق لتوبتهم منه تعالى أيضاً ، مضافاً الى أن لهذه الجمـــلة من التأثير المعنوي في ساحة القتال والوغى على النفوس ما لم يكن للسلاح وغيره ، وهي تؤثر في الروح المعنوية وتشدها وتقويها في حالة يكون المحاربون بأشد الحاجة اليها ، وغير ذلك من الحِكَم الكثيرة وقد جرت عادة الفصحاء والبلغاء على ذكر جملة مستأنفة بين جمل مترابطة يشد بعضها مع بعض وحدة كلامية إهتماماً بالموضوع .

الثاني عشر : ان قوله تعالى : « ليس لك من الامر شيء » بملاحظة سائر الآيات المباركة يدل على أن المنفي هو بعض مراتب القضاء والقدر ، والا فان امر التشريع وجعل الاحكام مفوض اليه فانه « وما ينطق عن الهوى إن هو الاوحي يوحى» النجم ـ ٤ فلا يصح لأحد ان يتمسك بهذه الآية الشريفة وينفي بعض الامور عنه (صلى الله عليه وآله) باعتبار انه ليس له من الامر شي .

بحث روائي

في تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال » قال (عليه السلام) : « سبب نزول هذه الآية ان قريشاً خرجت من مكة تريد حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فخرج يبغي موضعاً للقتال » .

أقول : سياق الآية المباركة يشهد على صحة ما ورد في مثل هذه الروايات ، كما عرفت في التفسير .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » قال : « نزلت في عبدالله بن أبي وقوم من اصحابه اتبعوا رأيه في ترك الخروج والقعود عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) » .

اقول : يمكن ان يكون فعل عبد الله بن أبي سبباً لحصول الهم بالفشل في جمع آخر ، والآية المباركة ناظرة إلى هذا الجمع واما عبد الله بن أبي فقد قعد عن القتال لأنه همّ بالفشل ، ويشهد لذلك ما رواه الطبرسي في المجمع والسيوطي في الدر المنثور ، والاختلاف في من همّ بالفشل لا يضر بعد معروفيته .

وفي المجمع عن الصادقين (عليهما السلام) : « هما بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الانصار ، وقيل هما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وكانا جناحي العسكر » .

وفي الدر المنثور عن السُدي في حديث : « وخرج رسول الله

(صلى الله عليه وآله) إلى أحد في ألف رجل ، وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد الله بن أبي في ثلاثمأة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له : مانعلم قتالاً ولئن إطعتنا لترجعن معنا ... ثم قال « اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » وهم بنو سلمة وبنو حارثة همّوا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله وبقي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سبعمأة » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وانتم ادلة » قال أبو عبدالله (عليه السلام) : « ما كانوا أذلة وفيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانما نزل « وانتم ضعفاء » »

اقول : وروى مثله في المجمع وهذه الروايات تؤيد ما ذكرناه في معنى الذلة ، وهو الانقطاع الى الله تعالى من كل جهة ، وإنما ينفي الأمام (عليه السلام) الذلة الحاصلة لبعض الجيوش عند غلبة العدو عليه لا المعنى الذي قلناه ، وقوله (عليه السلام) « ونزل » المراد به النزول تأويلاً لا النزول اللفظي .

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير قال : « قرأت عند أبي عبدالله (عليه السلام) « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة » فقال (ع): مه ليس هكذا انزلها الله انها انزلت : انتم قليل » .

اقول : هذا الحديث يبين ما ذكرناه ، والمنفي هو الذلة الحاصلة لبعض النفوس عند فقدان الحامي والكفيل . واما الذلة التي تكون بسبب قلة العدد والعدة والانقطاع عن الخلق فلا تنفيها الروايات .

وفي الكافي عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) في قول الله عزوجل « يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين» قال (ع) : العمائم اعتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسدل

لها من بين يديه ، ومن خلفه ، واعتم جبرئيل فسدلها من بين يديه ومن خلفه » .

وفي الكافي ايضاً عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : « كانت على الملائكة العمائم البيض المسترسلة يوم بدر » .

اقول : تقدم ما يتعلق بهذه الروايات في التفسير .

في الدر المنثور عن انس بن مالك قال : « كسرت رباعية رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم أحد ودمي وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ! فانزل الله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » .

وفي اسباب النزول للواحدي عن سالم عن ابيه : « انه سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : في صلاة الفجر حين رفع رأسه من الركوع : ربنا لك الحمد ، اللهم العن فلاناً وفلاناً دعا على ناس من المنافقين ، فانزل الله عز وجل : « ليس لك من الأمر شيء » .

اقول : روى قريب منه البخاري في صحيحه واختلاف الروايات لا يضر لما تقدم مكرراً من امكان تعدد منشأ النزول ولعل نزول قوله تعالى : « ليس لك من الامر شيء » في هذا الحال لأجل تسكين قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتوعيد على مَن فعل ذلك به (صلي الله عليه وآله) .

ثم انه قد وردت روايات كثيرة مختلفة المضامين في قصة أحد ونحن نذكر قسماً منها في البحث التاريخي إن شاء الله تعالى .

بحث عرفاني

يمكن ان يكون قوله تعالى : « واذ غدوت من اهلك تبوّئ المؤمنين » اشارة إلى معراج آخر لنبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) فان معراجه الاول كان في مكة من بيت أم هاني وكان من الخلق إلى الحق والانقطاع عن العلائق بالكلية والانقطاع إلى الرب الفياض من جميع الجهات وإعداد نفسه الاقدس لمعراج آخر والسفر من الحق لكشف الحجب الظلمانية عن النفوس ولا حجاب اقوى واغلظ من الكفر مطلقا ولا ينكشف ذلك الحجاب إلا بالسيف فكما أن لجهاده وحروبه المقدسة دخلاً في نظام التشريع لها دخل في نظام التكوين أيضاً ، وهو إثارة العقول المستترة بالسيوف التي تعمل في نصرة الحق . والغدو من الأهل لتعيين مواقع القتال للمؤمنين معراج للرسول الكريم لاظهار الحق وازالة الحجب والاغشية الظلمانية ، ومن المعلوم إن أغلى الاشياء واعظمها لدى الانسان هي الروح التي بين جنبيه ونفسه التي يقضي بها آماله ويفعل افعاله فهي الاصل وجميع ما سواها من الاهل والمال وسائر الجهات من الفروع التي ترجع إلى حفظ النفس وحب بقائها، وهذه الجوهرة النفيسة إن بذلت في الاوهام والخيالات والماديات فقد بيعت بارخص الاشياء وشريت بثمن بخس ، وان كان بذلها في الحقيقة التي لا حد لكمالها بوجه من الوجوه فهي السعادة العظمى . ومن مظاهر تلك الحقيقة الجهاد في سبيل الله تعالى فانه اتصال بالمبدأ القيوم قال تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون » آل عمران ـ ١٦٩ فهل يعقل حداً لمعنى «عند »

مَن لاتناهي لحد الحضور لديه ، مضافاً إلى ان في رفع الحجب والاستار من الاسرار والدقائق ما لا يعلمها إلا الله تعالى .

بحث تاريخي

الآيات الشريفة التي تقدم تفسيرها ترشد المؤمنين إلى بعض الامور التي لابد من مراعاتها في ميدان القتال والجهاد مع اعداء الله تعالى فقد أمرت المسلمين بالتوكل عليه في جميع امورهم ، والصبر والثبات والتقوى عن جميع ما يوجب البعد عنه عزوجل ، والاستعانة والانقطاع اليه لطلب الامداد الربوي والفيض الالهي المعد للمنقطعين اليه والمستغيثين به وقد بين عزوجل بعض الصفات التي يجب على المؤمن التحلي بها وهي طاعة الله تعالى ومتابعة الرسول الكريم ، والصبر والتقوى ، والتوكل عليه وترك ما يوجب الوهن في العزائم ، وقد ذكر عزوجل غزوة بدر وغزوة أحد .

اما الاولى فلاجل ما حصل من المسلمين من الالتفاف حول النبي الكريم والانقطاع إلى الله تعالى والامدادات الغيبية لهم وموجبات النصر على الاعداء .

واما الثانية فلما ظهر من بعض المسلمين من الهم بالفشل والوهن في العزائم وترك متابعة الرسول (صلى الله عليه وآله) في وصاياه واوامره وكادوا أن يقاسوا مرارة الهزيمة لولا ما مَنّ الله تعالى بسه عليهم من العفو والتوبة فأمدهم بالامداد الغيبي ، وسيأتي ذكر غزوة أحد في الآيات الآتية والاشارة إلى بعض غزوات رسول الله (صلى الله

عليه وآله) في مواضع مختلفة من القرآن الكريم . ونحن نذكر في هذا البحث عدد غزوات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وما يتعلق بغزوة أحد واما سائر الغزوات فيأتي البحث عنها في مواضعها .

حروب رسول الله (ص) :

تنقسم حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى قسمين :
الاول : الغزوة وهي القوة المؤلفة من اعداد كبيرة مقاتلة التي كان يقودها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنفسه الاقدس .

الثاني : السرية وهي مجموعة من الجنـد (يقدر عددها ما بين الثلاثين إلى الاربعين أو اكثر) يناط بهم مهمة قتالية محدودة أو مهمة استطلاعية حيث انها تستقصي اخبار العدو وتحصل المعلومات اللازمة عنه ولا تخرج إلا باذن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فيعقد لها رايتها ، والمعروف انـه (صلى الله عليه وآله) كان يودعها بنفسه الكريمة ويدعو لها بالنصر والتوفيق .

واما العين أو العيون فان المراد منها ارسال شخص أو اكثر يقوم بمهمة استطلاعية والتجسس على الاعداء فقط ، وعدد سرايا الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ست وثلاثون سرية على ما هو المعروف.

غزوات رسول الله (ص) :

المعروف ان عدد غزوات رسول الله (صلى الله عليه وآله) ست وعشرون

غزوة ، وقيل إنها اكثر .

أولها : غزوة الابواء وتسمى غزوة ودان ـ وهي قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الابواء ستة اميال ـ وذلك في محرم من السنة الثانية من الهجرة.

ثانيها : غزوة بواط وقعت في ربيع الاول من السنة الثانية أيضاً وبواط جبال جهينة على ابراد من المدينة جهة ينبع .

ثالثها : غزوة العشيرة في جمادي الاولى من تلك السنة .

رابعها : غزوة بدر الاولى بعد رجوع النبي (صلى الله عليه وآله) من غزوة العشيرة بقليل .

خامسها : غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ومعه ثلاثمأة وثلاثة عشر رجلاً ، مائتان ونيف واربعون من الانصار ، والباقون من المهاجرين ،ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يتعاقبون عليها والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري . وأما المشركون فقد كانوا تسعمأة وخمسين رجلاً معهم مأة فرس وسبعمأة بعير .

سادسها : غزوة بني سليم في النصف من شوال من نفس السنة.

سابعها : غزوة السويق وسميت هذه الغزوة بهـذا الاسم لان المشركين كانوا يلقون جرب السويق وهم يهربون .

ثامنها : غزوة ذي أمر وهو ماء وتسمى بغزوة عطفان أيضاً وقعت في شهر ربيع الاول من السنة الثالثة .

تاسعها : غزوة بحران عندما بلغ النبي (صلى الله عليه وآله) ان جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة فسار اليهم في ثلاثمأة من اصحابه لست من جمادي الأولى .

عاشرها غزوة احد لعشر خلون من شوال من السنة الثالثة على ما يأتي من التفصيل

الحادية عشرة : غزوة حمراء الاسد ـ وهي من المدينة على سبعة اميال ـ وأقام (صلى الله عليه وآله) بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء بعد رجوعهم من غزوة احد .

الثانية عشرة : غزوة بني النضير لما نقضوا العهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وارادوا قتله غـدراً فخرج لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عسكر ، فتحصنوا وحاصرهم حتى خضعوا لأمره ورضوا بالجلاء وذلك في السنة الرابعة .

الثالثة عشرة : غزوة ذات الرقاع بعد غزوة بني النضير بشهرين وهما ربيع الاول وربيع الثاني في السنة الثالثة ، وذلك لما تهيأت قبائل من نجد لحربه فتجهز لهم وخرج في سبعمأة مقاتل .

الرابعة عشرة : غزوة بدر الآخرة في شعبان من هذه السنة عندما بلغه توعد أبي سفيان .

الخامسة عشرة : غزوة دومة الجندل ـ وهي مدينة بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وبين دمشق خمس ليال عندما بلغه ان جمعـاً كثيراً فيها يظلمون من مر بها ويريدون الاغارة على المدينة فخرج لهم (صلى الله عليه وآله) لخمس ليال بقين من شهر ربيع الاول من السنة الخامسة وكان في الف من المسلمين .

السادسة عشرة : غزوة بني المصطلق ـ وتسمى بغزوة المريسيع ـ قبل غزوة الخندق بثلاثة اشهر من السنة الخامسة .

السابعة عشرة : غزوة الخندق وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة عندما اجتمعت قبائل قريش في اربعة آلاف مقاتل وغطفان في ألف فارس ، وبنو مرة في اربعمأة وبنو اشجع وبنو سليم في سبعمأة وبنو أسـد وغيرهم حيث بلغ المجموع عشرة آلاف مقاتل

يقودهم أبو سفيان بن حرب .

الثامنة عشرة : غزوة بني قريظة وكانت عند انصرافه عن الخندق ولما كان الظهر امر رسول الله (صلى الله عليه وآله) مؤذنـاً ان يؤذن مَن كان يصلي العصر لا يصليها إلا في بني قريظة بحكم سعد بن معاذ .

التاسعة عشرة : غزوة بني لحيان ، وهم قبيلة نزلت شمالي شرق مكة وهم الذين قتلوا سبعين صحابياً الذين ارسلهم النبي (صلى الله عليه وآله) في صفر من السنة الرابعة إلى نجـد ليدعوهم إلى الاسلام ، فخرج اليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جمادي الاولى من السنة الخامسة في مأتي راكب ومعهم عشرين فرساً .

العشرون : غزوة الحديبية في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة عندما خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) معتمراً لا يريد حرباً ومعه من المهاجرين والانصار وغيرهم ما يبلغ عددهم ألف وخمسمأة ولكن المشركون منعوه من الزيارة ودخول مكة إلا ان الجميع اتفقوا على الصلح ، وسمي بصلح الحديبية .

الواحدة والعشرون : غزوة خيبر في محرم من السنة السابعة عندما خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) اليها في ألف واربعمأة رجل معهم مائتا فارس وخيبر تبعد عن المدينة نحو مأة ميل من الشمال الغربي.

الثانية والعشرون : غزوة وادي القرى .

الثالثة والعشرون : غزوة الفتح أي فتح مكة ، وذلك إنه كان بين النبي (صلى الله عليه وآله) وبين قريش عهد يمنع احد الفريقين من مقاتلة الآخر والزعامة عليه وعندما حارب بنو بكر ـ وهم في عهد قريش ـ بني خزاعة ـ وهم في عهد المسلمين ـ والجميع بمكة ساعد القرشيون بني بكر بالسلاح وقاتل معهم مَن قاتل مستخفياً حتى أخرجوا

خزاعة إلى الحرم واصابوا منهم ما اصابوا وبذلك نقضت قريش العهد فارسلت قريش أبا سفيان بن حرب إلى المدينه لتجديد العهد ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عقد العزم على فتح مكة فتجهز للسفر وسار النبي (صلى الله عليه وآله) في منتصف شهر رمضان في عشرة آلاف ووصل إلى مكة في عشرين خلت من نفس الشهر حتى وصل الحجون موضع رايته .

الرابعة والعشرون : غزوة حنين عندما اجتمعت هوازن وثقيف وغيرهما من القبائل وخرجوا مع الاموال والذراري والنساء إلى غزو رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعندما بلغه (صلى الله عليه وآله) خبر هذه الغارة خرج في اثني عشر الف مقاتل في شوال من السنة الثامنة.

الخامسة والعشرون : غزوة الطائف وذلك لما قدم المنهزمون من ثقيف وممّن انضم اليهم من غيرهم إلى الطائف اغلقوا عليهم مدينتهم وجمعوا ما يحتاجون اليه واستحصروا فيها فسار اليهم النبي (صلى الله عليه وآله) بمّن معه في شوال من نفس السنة .

السادسة والعشرون : غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد خروجه من الطائف بستة أشهر عندما بلغه ان نصارى العرب قد اجتمعوا مع جند الروم لمحاربته ووصلت مقدمتهم إلى بلقاء - ارض بالشام - فامر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالتجهيز لغزوهم فتجهز ثلاثون الفاً في ساعة العسرة وساروا إلى تبوك في جمادي الثانية من السنة الثامنة ولما انتهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى تبوك لم يلق حرباً وصالح اهلها وقفل راجعاً .

واما غزوة موته فلم يشترك فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانما جهز جيشاً في ثلاثة آلاف مقاتل واستعمل عليه زيد بن حارثة

وقال : « ان اصيب فالامير جعفر بن أبي طالب ، فان اصيب فعبدالله ابن رواحه » فسار الجيش وشيعهم الرسول الكريم وذلك في جمادي الاولى من السنة الثامنة .

هذه جملة غزوات النبي (صلى الله عليه وآله) وهـذا الحصر استقرائي تاريخي يختلف حسب شدة الاستقراء وضعفه ولعله لاجل ذلك اختلفوا في عدد الغزوات .

ونحن نذكر في هذا البحث غزوة احد وما يتعلق بها من موقعها واسبابها ونتائجها وكيفية الحرب وغير ذلك على ما هو المعروف بين اهل السير والتواريخ وما ورد عن الائمة الهداة (عليهم السلام) ان شاء الله تعالى .

موقع القتال :

هذه الغزوة كانت في أُحُد وهو جبل بظاهر المدينة في شمالها على خمسة اميال وهو اقرب الجبال اليها ، وطوله من شرقه إلى غربه يساوي ستة كيلو مترات ، وترتفع قمة هذا الجبل عن سطح البحر بمقدار ألف ومأتي متراً .

وقد عسكر المسلمون والمشركون في هذا الموضع ، وكان موقفا الفريقين متعارضاً لاختلاف هدف كل واحد منهما . فالفريق الذي كان يريد مهاجمة المدينة (المشركون) فانه استقبل جبل احـد واستدبر المدينة ، والفريق الذي اراد الدفاع عن المدينة (المسلمون) فانـه استقبل المدينة واستدبر جبل احد .

ومن ذلك يعرف ان جيش المشركين وصل إلى جنوب غربي جبل احد عن طريق وادي العقيق غربي المدينة ، وتمكن من الوصول إلى الطرف الشمالي من المدينة المنورة ، فيكون الموضع الذي عسكر فيه المشركون يقع بالتحديد شمال شرق المدينة .

وقد اطلق المشركون ابلهم وخيولهم في مزارع المسلمين شمالي المدينة ليستنفروا المسلمين ويجبروهم على القتال خارج ابنية المدينة وعند السفوح الجنوبية بجبل احد .

وقد تجنبوا الدخول إلى المدينة المنورة وحاراتها وآطامها وتحصيناتها فانهم كانوا يعلمون بانهم لا يتمكنون من محاربة المسلمين فيها لانهم لم يكونوا يحسنون مثل هذا النوع من القتال .

وقد لفت الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) انظار اصحابه إلى هذه الجهة عندما اظهر رأيه لهم في البقاء داخل المدينة والتحصن فيها ومقاتلة المشركين إذا هموا الدخول فيها ، لعلمه (صلى الله عليه وآله) بانهم لا يقدرون على ذلك وسينصرفون عنها خائبين تماماً كما حدث في غزوة الخندق أو لغير ذلك من الاسرار ، وبعدما ورد في القرآن الكريم من الآيات المتقدمة يشير إلى بعض منها ولكن اكثر المسلمين اتفقوا على الخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة وكان ذلك خلاف المأمول منهم ، ولقد لاقوا المتاعب والمصاعب في خروجهم هذا .

وكيف كان فقد امر الرسول (صلى الله عليه وآله) اصحابه بالتهيؤ للخروج ودخل داره وتقلد سيفه وارتدى عدة القتال ، ولما تردد مَن خالف راي النبي (صلى الله عليه وآله) واظهروا الرغبة على النزول على رأيه قال قولته المشهورة « لا ينبغي لنبي لبس لامته ـ الدرع ونحوه ـ ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ولقد

تلقى الوحي من السماء بالخروج قال تعالى : «واذ غدوت من اهلك تبوّيء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومعه الف رجل من ناحية المشرق حتى نزل (الشيخين) ـ موضع بين المدينة وأُحُد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد ـ ولقد اختار النبي (ص) ارضاً للقتال في أحد بمنتهى الحكمة والمهارة ، ولقد اعترف بذلك غير المسلمين أيضاً فوضع خمسين من الرماة في فم الشعب خلف قواته لغرض حرمان العدو من الالتفاف على قواته من الخلف ، وتحمي ظهرها وتستر انسحابه عند الحاجة وحددت كتب السير والتواريخ ذلك الموضع بـ (جبل عينين) وان كان ذلك اقرب إلى الربوة منها إلى الجبل .

وكيف كان فقد اسند إلى هذا الموضع جناحه الايسر كما اسند جناحيه الايمن الى سفح جبل أحد الذي كان شديد الانحدار واستقبل قوات المشركين ، فكان في حصن منيع وكبير . ولذا لما سقط هذا الموضع بيد المشركين انهار دفاع المسلمين وتدفقت خيل المشركين على المسلمين ووقعت الهزيمة كما نطق بـه التنزيل قال تعالى : «إذ تصعدون ولا تلوون على احد والرسول يدعوكم في اخراكم» آل عمران ـ ١٥٣ هذا موقع القتال في غزوة أحد وهندسة الحرب فيها :

اسباب الحرب :

اذا راجعنا كتب السير والتاريخ نجد انهم يذكرون اسباباً عديدة لهذه الغزوة ولكن اكثرها لا تخلو عن المناقشة والذي يستفاد من مجموع

الحوادث الواقعة قبل غزوة أحد وبعدها امور هي :

الاول : خذلان المشركين في غزوة بدر الكبرى ورجوعهم إلى مكة مقهورين موتورين ؛ وفي المجمع عن الصادق (عليه السلام) : « كان سبب غزوة احد ان قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكة ، وقد اصابهم ما اصابهم من القتل والاسر لانه قتل منهم سبعون واسر سبعون » فحرصت قريش منذ نكبتها في بدر على الأخذ بثأرها من المسلمين وصممت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها.

الثاني : خوف القبائل المجاورة للمدينة سواء كانت من المشركين ام اليهود من قوة المسلمين مما كانوا يترقبون الفرص للأنتقام منهم ونقض العهد ويتربصون الدوائر ويتجسسون عليهم ويؤذونهم بالقول والفعل . ولما علمت بعزم قريش على الغزو حرضتها على ذلك .

الثالث : خوف قريش على الطرق التجارية المؤدية إلى الشام وإلى العراق من ان تقع بيد المسلمين فيمنعونهم عن التجارة كما وقعت المدينة بايديهم واصبحت قاعدة أمنية لدعوتهم وحركاتهم العسكرية.

الرابع : خوف انتشار الدعوة الاسلامية لانها كانت تلقى اذناً صاغية وارتفعت بعض الموانع عن قبولها بعد هزيمة قريش في بدر الكبرى فقد اسلمت اكثر مشركي المدينة بعد بدر .

الخامس : الدفاع عن المدينة بعدما عرف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) استعداد قريش لغزوها وابادة اهلها ومحو الدعوة في مهدها .

السادس : استفزاز قريش المسلمين في عدة مواقع منها انهم ارسلوا إبلهم وخيلهم ترعى زروع يثرب .

التعبئة :

لما رجعت قريش إلى مكة من بدر بعد اصابتهم الهزيمة والخذلان ـ قتلاً واسراً ـ حرصت على الأخذ بثارها من المسلمين وقد نذر أبو سفيان بن حرب ان لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً وصممت على استعادة كرامتها وشرفها كما عرفت فاستعدت لذلك استعداداً تاماً قرر كبراء قريش تخصيص ربح تجارة قافلة أبي سفيان التي جرت من اجلها معركة بدر لانجاز هذه المعركة وتقويتها بالمواد والسلاح ، وقد كان ربح تلك التجارة ـ كما في السيرة الحلبية ـ خمسين الف دينار فبذلوا الربح في معركة الثار ، وقال أبو سفيان : يامعشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فان الدمعة إذا خرجت اذهبت الحزن والعداوة لمحمد فلما غزوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم أحد اذنوا لنسائهم في البكاء والنوح » واجتمعت قريش للحرب بحدها ـ وهو البأس ـ وجدها ـ وهو العظمة والغنى ـ واحابيشها ـ وهم حلفاء قريش ـ ومن اطاعتها من قبائل كنانة واهل تهامة فكانوا نحو ثلاثة الاف ، الفان وتسعماة من قريش ومواليها واحابيشها ، ومأة من بني ثقيف ، بينهم سبعماة دارع ومعهم مائتا فرس وثلاثة الاف بعير ، وفي مجمع البيان عن الصادق (علية السلام) : « ان القوة لما خرجت من مكة كانت ثلاثة الاف فاوس والفي راجل » ولقد جاء المشركون من مكة إلى أحد وليس فيهم رجل واحد يمشي على قدميه واستصحب اكثرهم نساءهم للتشجيع ورفع المعنويات .

وقد بذلت نساء قريش ـ خاصة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ـ

اقصى جهودهن لتشجيع قريش وبعث الحماس في نفوس الرجال لأخذ الثار من المسلمين وهي التي حرضت وحشياً الحبشي على قتل حمزة عم النبي (صلى الله عليه وآله) فقتله بحربته المعروفة . ثم انه خرجت قريش من مكة ووصلت أحد في شوال من السنة الثالثة للهجرة في اربعة عشر شهراً .

وقد ارسل العباس عم الرسول (صلى الله عليه وآله) رسالة مع أحد الرجال لأخذ الثار من المسلمين يخبرهم عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قواتها فاسرع الرجل بعدما اشترط عليه العباس ان يسير ثلاثاً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلما بلغ رسول الله الخبر جمع اصحابه وحثهم على الجهاد فقال عبدالله بن أبي سلول الله لا نخرج من المدينة حتى نقاتل في ازقتها ، فيقاتل الرجـــل الضعيف والمرأة والعبد والامة على افواه السكك وعلى السطوح فما ارادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودورنا وما خرجنا إلى عدولنا قط إلا كان الظفر لهم علينا » وكان الرسول الكريم يرغب البقاء في المدينة ايضاً وقام سعد بن معاذ وغيره من الاوس فقالوا يارسول الله ما طمع فينا احد من العرب ونحن مشركون نعبد الاصنام فكيف يطمعون فينا وانت فينا ؟ لا حتى نخرج اليهم فنقاتلهم فقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) رأيه وخرج مع نفر من اصحابه يتبوؤن موضع القتال كما حكي عزوجل عنهم في الآية الشريفة وقد عرفت سابقاً موضع القتال وعبّأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) اصحابه فسار في الف من اصحابه كما سيأتي .

القوى :

وصلت قوات المسلمين وقوات المشركين الى أحد يوم الجمعة الخامس عشر من السنة الثالثة للهجرة اما قوى المسلمين فقد كانت مؤلفة من ستمأة وخمسون فارساً وحامل اللواء علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما ورد عن الصادق (عليه السلام) وقيل انحامل اللواء هو مصعب بن عمير اخي بني عبد الدار ، وخمسون من الرماة على الشعب قال الصادق (عليه السلام) : « ووافت قريش إلىاحد وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) عبّأ أصحابه وكانوا سبعمأة رجل ووضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب واشفق ان يأتي كمينهم من ذلك المكان فقال (ص) : لعبدالله بنجبير واصحابه ان رأيتمونا قد هزمناهم حتى ادخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان وان رأيتموهم هزمونا حتى ادخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم » وقد رجع عبد الله بن أبي مع ثلاثمأة من اصحابه عندما وصل الرسول مع الف إلى الشوط وقد كان خروجهم خيراً للمسلمين وقد ذمهم الله تعالى وقبح افعالهم ولما انتهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى احد وبالتحديد موضع القنطرة - وقد اندرست فلا يعلم موقعها - وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين امر بلالاً فاذن وصلى ولقد همت طائفتان من المؤمنين وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس بالفشل ، ولم يعرف عدد هاتين الطائفتين ، وكان معسكر المسلمين بالقرب من أحد على ما عرفت وقد

استعرض (صلى الله عليه وآله) المسلمون ورد من استصغر منهم وهم سبعة عشر شخصاً واجاز اشخاصاً من ابناء الخامسة عشر . وقد لبس رسول الله (صلى الله عليه وآله) الدرع فوق الدرع وجعل على أحد الجانبين الزبير بن العوام وعلى الآخر المنذر بن عمرو .

واما قوات المشركين فقد كانت مؤلفة من ثلاثة الاف أو خمسة الاف كما ورد عن الصادق (عليه السلام) وكان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وكان اللواء عند طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار ، وقد نظم المشركون قواتهم للقتال بأسلوب الصف وامنوا حماية ميمنة الصفوف وميسرتها بالفرسان . وكان مع القوة مائتا فرس وثلاثة الاف بعير وهذه القوات كانت بقيادة أبي سفيان .

وقال في المجمع عن الصادق (عليه السلام) : « ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مأتي فارس كميناً وقال : إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم » وعند إحتدام القتال انحط خالد بن الوليد في مأتي فارس على عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع .

وقد تفوق المشركون على المسلمين بالعدد إلى خمسة امثال المسلمين واما بالعدة فقد كان تفوقهم اكثر كما عرفت .

المعركة :

ابتدأ القتال عندما قامت مفرزة من قوات المشركين بقيادة أبي عامر

عبد عمرو بن صيفي الأوسي بالهجوم على قوات المسلمين ، وقد خرج إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس ومن عبيد اهل مكة وقال ابن هشام في السيرة « انه كان معه خمسون غلاماً من الأوس » وقريب منه ما ذكره الواقدي ، وكان يزعم لقريش انه إذا نادى أهله الذين في صفوف محمد (صلى الله عليه وآله) استجابوا له وانحازوا معه . وخرج أبو عامر منادياً : « يامعشر الاوس انا أبو عامر فاجابه المسلمون لاانعم الله بك عيناً يافاسق » وقد اذن الرسول (صلى الله عليه وآله) للمسلمين بالقتال فنشب بين الطرفين .

وقد حاول أبو عامر وعكرمة بن أبي جهل الهجوم على اجنحة المسلمين ولكن المسلمين ردوهم وفشلت محاولات اخرى لهم في الالتفاف حول المسلمين لانهم كانوا في حصن منيع وكبير ، كما عرفت ولما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها واخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرّضنهم فقالت هند :

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الادبار
ضرباً بكل بتار

وتقول :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

فاحتدم القتال بينهم وحميت الحرب ، وقاتل أبو دجانة حتى امعن في الناس ، وقدم قريش صاحب لوائهم طلحة بن أبي طلحة وصفوا صفوفهم وصاح طلحة مَن يبارز ؟ فخرج اليه عليّ (عليه السلام)

فقتله ، وفي المجمع عن الصادق (عليه السلام) : « وأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي (عليه السلام) ايضاً ، وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله علي (عليه السلام) حتى قتل تسعه نفر من بني عبد الدار حتى صار لوائهم إلى عبد لهم أسود يقال له : صواب فانتهى اليه علي (عليه السلام) فقطع يده اليمنى فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين إلى صدره ، ثم التفت إلى أبي سفيان فقال : عذرت في بني عبد الدار؟ فضربه علي (عليه السلام) على رأسه فقتله ، وسقط اللواء فاخذتها غمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها ثم شد اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على كتائب المشركين حتى نقضت صفوفهم وتصدعت فانهزم المشركون حتى أحاط المسلمون بنساء المشركين ووقع الصنم الذي احتملوه للتبرك به فوق الجمل الذي كان يحمله واخذ المسلمون يتعقبون المشركين حتى ابعدوهم عن معسكرهم ثم عادوا يجمعون الغنائم . قال الصادق (عليه السلام) : « وحمل الانصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة ووضع اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سوادهم وانحط خالد بن الوليد على عبدالله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع بل قام باكثر من محاولة للالتفاف حول المسلمين وعلى هذا الجناح الخطير بالخصوص فلم يفلح لشدة الرماة في موضعهم قبل تركهم له ونظر اصحاب عبد الله بن جبير ينتهبون سواد القوم فقالوا لعبد الله بن جبير : قد غنم اصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة ؟ فقال لهم عبد الله فان رسول الله قد تقدم الينا ان لا نبرح فلم يقبلوا منه ، وأقبلوا ينسل رجل فرجل حتى أخلوا مراكزهم وبقي عبد الله بن جبير في اثني عشر رجلاً » .

ومن ذلك يعلم ان هزيمة المشركين كانت منكرة بحيث ان المسلمين تركوهم وبادروا إلى جمع الغنائم والاسلاب ثم تبعتهم الرماة وانتصر المسلمون نصراً باهراً .

المحنة :

لما انشغل المسلمون بجمع الغنائم وغفلوا عن عدوهم انحط خالد ابن الوليد وكان على ميمنة جيش المشركين على عبدالله بن جبير وقد فر معظم اصحابه وبقي في نفر قليل ، فقتلهم على باب الشعب ثم اتى المسلمين من أدبارهم ونظرت قريش إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها ولم يتنبه المسلمون إلا والمشركون فوق رؤسهم وأحاطوا بهم فانهزموا هزيمة عظيمة واقبلوا يصعدون الجبال وفي كل وجـــه حتى خلص المشركون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجرحوا وجهه الشريف وكسروا رباعيته اليمنى من ثناياه السفلى ورموه بالحجارة حتى سقط في حفرة من الحفر التي كان ابو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين ، وحمل ابن قميئة على رسول الله (صلى الله عليـــه وآله) وقال : « أروني محمداً لانجوت ان نجا فضربه على حبل عاتقه ونادى قتلت محمداً واللات والعزى » وتطارد هذا الخبر في المعركة وكان حمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة سماك بن خراشه وجماعة اخرى قليلة قد التفوا حول الرسول الكريم مستقتلين فكلما حملت طائفة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) استقبلهم علي (عليه السلام) فدفعهم عنه حتى تقطع سيفه فدفع اليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) سيف

ذاالفقار وانحاز رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى ناحية أحد فوقف فلم يزل علي (عليه السلام) يقاتلهم حتى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه وبطنه ورجليه ستون جراحة ، فقال جبرائيل : إن هذه لهي المواساة يامحمد . فقال محمد (صلى الله عليه وآله) انه مني وأنا منه . فقال جبرائيل : وانا منكما ، قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) نظر رسول الله إلى جبرائيل بين السماء والارض على كرسي من ذهب وهو يقول : « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى إلا علي » . وقد نادى كعب بن مالك باعلى صوته بعد إشاعة المشركين قتل محمد (صلى الله عليه وآله) يامعشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله» وصاح حمزة بالهتاف المعروف للمسلمين في يوم أحد « أميتْ أميتْ » واندفع إلى قلب المشركين، واقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون اوزاع قد سقط في ايديهم فجعل يصيح : يامعشر الانصار إليّ إليّ انا ثابت بن الدحداحة ان كان محمد قد قتل فان الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم فان الله مظهركم وناصركم فنهض اليه نفر من الانصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتيبة خشناء من المشركين فجعلوا يناوشونهم وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فانفذه فوقع ميتاً وقتل مَن كان معه من الانصار ، ويقال : ان هؤلاء آخر من قتل من المسلمين .

اما حمزة بن عبد المطلب فكان يحمل على القوم فاذا رأوه انهزموا ولم يثبت له احد ، وكانت هند قد اعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لاعطينك كذا وكذا قال وحشي : أما محمد فلم أقدر عليه . وأما علي فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه . فكمنت لحمزة فرأيته يهد الناس هداً فر بي فوطىء على جرف نهر

فسقط واخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته وخرجت من ثنته فسقط ، فأتيته فشققت بطنه وأخذت كبده وجئت به إلى هند . فقلت : هذه كبـد حمزة فاخذتها في فمها فلاكتها فلفظتها ورمت بها .

واجتمع المسلمون رويداً رويداً وتجمعوا حول الرسول واستعصموا بالجبل وبلغ الاعياء برجال قريش حداً بالغاً ، وفشلت محاولاتها لقتل الرسول الكريم والقضاء على المسلمين وكانت هذه محنـة كبيرة على المسلمين ، وقد حكي عزوجل عنها فقال تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » آل عمران ـ ١٥٢ وآل حال المسلمين إلى الاضطراب ودخل قسم من المنهزمين المدينة ولاذ الباقون إلى الفرار .

النصر :

قررت قريش بعد المحاولات العديدة للقضاء على المسلمين وبلغ بهم التعب والاعياء اكثر مما لحق بالمسلمين فقررت إنهاء القتال وكان ذلك لاسباب عديدة نذكر المهم وسيأتي في الايات التالية قسم آخر .

منها : الامداد الغيبي الالهي بعد التوبة عليهم ، وصرف المشركين عنهم بالقاء الرعب في قلوبهم قال تعالى : « ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماواهم النار وبئس مثوى الظالمين »

آل عمران ـ ١٥١ .

ومنها : الوهن والاعياء والتعب في الطرفين بـل كان في طرف المشركين أعظم واكثر لما لحقهم من الهزيمة أول الامر ، وقتل ابطالهم وصناديدهم .

ومنها : ظنهم بانهم ادركوا الثأر من المسلمين لقاء ما اصابهم يوم (بدر) ولو انهم لم يكونوا قد قتلوا من المسلمين احداً غير حمزة بن عبد المطلب عم النبي لكفاهم ذلك .

ومنها : استقامة المسلمين بعدما لحقتهم النكسة والتفافهم حول رسول الله (صلى الله عليه وآله) واستعادة قواهم بأخذ الرايـة الكبرى بأيديهم ، ودعوات الرسول (صلى الله عليه وآله) المتتالية بالاجتماع وترك الهزيمـة فكان ذلك السبب المهم في لحوق الهزيمة بالمشركين فانهم استيقنوا بانهم لا يمكنهم البقاء واستمرار الحرب مع هذه الاستقامة من المسلمين ، وكانهم ادركوا انه ما بقي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم لا يمكنهم النصر ، فقررت انهاء القتال والرجوع في موعد آخر فلما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : وان موعدكم بدر العام القابل وقد اجبرتهم هذه الامور على الفرار وترك المحاربة مع المسلمين .

الخسائر :

قررت قريش بعد الهزيمة الرجوع إلى مكة وإنهاء الحرب ، مخذولين خائبين محرومين عما كانوا يأملون . وانتصر المسلمون بالتوبة

والثبات والعزيمة والتزام الطاعــة ، والالتفاف حول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وقد عرفت سير القتال في ما تقدم ، ولما انقضت الحرب اشرف أبو سفيان على الجبل فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، ثم انصرف أبو سفيان ومن معه وقال : ان موعدكم العام المقبل ، ثم بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً في اثرهم وقال : « انظر فان جنبوا الخيل ، وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة وان ركبوا الخيل فانهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده لئن ارادوها لأناجزنهم . قال علي (عليه السلام) : فخرجت في اثرهم فامتطوا الابل وجنبوا الخيل يريدون مكة » وكانت حصيلة هــذه الحرب انه قتل من قريش جمع غفير ، وقيل إثنان وعشرون رجلاً واثخن الجراح فيهم ، ودفن المشركون موتاهم .

واما المسلمون فقد استشهد منهم سبعون رجلاً أو نيف وسبعون وقد اصابهم الجراحات لاسيما الذين كانوا يحُوطون حول رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد وجد في علي (عليه السلام) ستون جراحة وفي أبي دجانة نيف وسبعون . والتمس المسلمون قتلاهم فرأوا أن المشركين قد مثلّوا بهم وكان التمثيل بحمزة (عليه السلام) شر تمثيل « ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يمثلن بهم واتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدماً (الخلخال) وقلائد » . وأقبلت صفية بنت عبد المطلب فقال : رسول الله (صلى الله عليه وآله) لابنها الزبير ليردهـا لئلا ترى ما بأخيها حمزة ، فلقيها الزبير فاعلمها بأمر النبي (ص) فقالت : انه بلغني انه مثل بأخي وذلك في الله قليل فما ارضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولأصبرن فاعلم الزبير النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك فقال : خل سبيلها فأتته وصلت عليه

واسترجعت » وامر رسول الله (صلى الله عليه وآله) به فدفن ونزل في قبره علي وأبو بكر وعمر والزبير وجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله) على حفرته . وحمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة فامر رسول الله (ص) بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدم إلى القبلة اكثرهم قرآناً وصلى عليهم ، فكان كلما أتي بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما ، وكان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم فيصلي عليهم . وأمر أن يدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام في قبر واحد وقال : « وكانا متصافين في الدنيا» وربما كانوا يلفون بثوب واحد لقلة الثياب ، ولم يغسّلوا ، وقيل : انه لم يصل على شهداء أحد ، كما في صحيح البخاري ولكنه مردود.

وخرجت نساء من المدينة لمساعدة الجرحى وكانت فاطمه (عليها السلام) هي التي داوت جرح النبي (صلى الله عليه وآله) ، وفي صحيح البخاري : « كانت ابنته تغسله وعلي يسكب الماء بالمجن(الترس) فلما رأت فاطمة ان الماء لا يزيد الدم الا كثرة اخذت قطعة من حصير فاحرقتها فالصقتها فاستمسك الدم » .

وفي الكافي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) : « انه اصاب علياً (عليه السلام) يوم احد ستون جراحة وان النبي (صلى الله عليه وآله) أمر أم سليم وام عطية ان تداوياه فقالتا : انا لا نعالج منه مكاناً إلا انفتق مكان وقد خفنا عليه ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة وجعل يمسحه بيده ، ويقول : ان رجلاً لقي هذا في الله فقد ابلى واعذر فكان القرح الذي يمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يلتئم ـ الحديث ـ » .

ولما اراد النبي (صلى الله عليه وآله) الرجوع إلى المدينة ركب

فرسه وامر المسلمين ان يصطفوا فاصطفوا خلفه وعامتهم جرحى واصطف خلفهم النساء وهن اربع عشرة امرأة كن باصل أحد فقال اصطفوا حتى اثني على ربي فاصطف الناس صفين خلفهم النساء ثم دعا فقال : « اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ولا هادي لمن اضللت ولا مضل لمن هديت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم اني اسألك بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك اللهم اني اسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم اني اسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة عائذاً بك اللهم من شر ما اعطيتنا وشر ما منعت منا اللهم توفنا مسلمين اللهم حبب الينا الايمان وزينه في قلوبنا وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين اللهم عذب كفرة اهل الكتاب الذين يكذبون رسولك ويصدون عن سبيلك اللهم انزل عليهم رجسك وعذابك اله الحق امين » واقبل (صلى الله عليه وآله) حتى نزل ببني حارثة يميناً واطلع على بني عبد الاشهل وهم يبكون على قتلاهم فقال (صلى الله عليه وآله) : « اما عمي حمزة فلا بواكي له » وكان رجوعه إلى المدينة يوم السبت من يوم الواقعة . وخرجت النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنظرت اليه ام عامر الاشهلية فاذا عليه الدرع كما هي فقالت « كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله » وقالت ام سعد بن معاذ : « اما اذ رأيتك سالماً فقد اشفت المصيبة » فعزاها رسول الله بابنها عمرو بن معاذ وقال : ياأم سعد ابشري وبشري أهليهم ان قتلاهم قد ترافقو في الجنة وقد شفعوا في اهليهم » .

شهداء أحد :

ذكرنا ان شهداء أحد من المسلمين سبعون رجلاً وقيل نيف وسبعون ثلاثه منهم من المهاجرين والباقون من الانصار اما المهاجرون فهم :

١ ـ حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي (صلى الله عليه وآله) وكان الذي اصابه وحشي بحربته .

٢ ـ عبد الله بن جحش وكان خاله حمزة وقتله أبو الحكم بن الاخنس ابن شريق . ٣ ـ مصعب بن عمير الذي قاتل دون رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومعه لواؤه حتى قتل ، وكان الذي اصابه ابن قميئة الليثي وهو يظن انه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمداً .

وقد ورد انه بعد ان انصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) راجعاً إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فنعي لها أخوها عبد الله ابن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعي لها زوجها مصعب ابن عمير فصاحت وولولت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) « ان زوج المرأة منها لبمكان » .

٤ ـ شماس بن عثمان قتله أبي بن خلف .

واما الانصار فهم : ١ ـ عمرو بن معاذ بن النعمان قتله ضرار بن الخطاب . ٢ ـ الحارث بن انس بن رافع . ٣ ـ عمارة بن زياد بن السكن ٤ ـ سلمة بن ثابت بن وقش قتله أبو سفيان بن حرب . ٥ ـ عمرو

ابن ثابت بن وقش قتله ضرار بن الخطاب . ٦ - ثابت بن وقش .
٧ - رفاعة بن وقش قتله خالد بن الوليد . ٨ - حسيل بن جابر أبو حذيفة اليمان
قتله المسلمون خطاءً . ٩ - صيفى بن قيظي قتله ضرار بن الخطاب
١٠ - الحباب بن قيظي . ١١ - عباد بن سهل ، قتله صفوان بن أمية
١٢ - الحارث بن أوس قتله ضرار بن الخطاب . ١٣ - اياس بن أوس
١٤ - عبيد بن التيهان قتله عكرمة بن أبي جهل . ١٥ - حبيب بن قيم
١٦ - يزيد بن حاطب بن امية ، وهؤلاء كلهم من بني عبد الاشهل .

واما من بني عمرو بن عوف . ١ - أبو سفيان بن الحارث بن
قيس بن زيد وهو أبو البنات الذي قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله)
أقاتل ثم ارجع إلى بناتي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله)
صدق الله عزوجل . ١٨ - حنظلة بن عامر وهو غسيل الملائكة بماء
مزن ، قتله الاسود بن شعوب . ١٩ - أنيس بن قتادة قتله أبو الحكم
ابن الاخنس . ٢٠ - عبدالله بن جبير بن النعمان أمير الرماة كما جعله
النبي (صلى الله عليه وآله) قتله عكرمة بن أبي جهل . ٢١ - أبو
حبة عمرو بن ثابت .

ومن قبائل اخرى : ٢٢ - خيثمة أبو سعد قتله هبيرة بن أبي وهب .
٢٣ - عبدالله بن سلمة قتله ابن الزبعري . ٢٤ - سبيع بن حاطب
قتله ضرار بن الخطاب . ٢٥ - خارجة بن زيد قتله صفوان بن امية .
٢٦ - سعد بن ربيع وهما دفنا في قبر واحد . ٢٧ - اوس بن ارقم .
٢٨ - مالك بن سنان وهو أبو أبي سعيد الخدري قتله غراب بن سفيان
٢٩ - سعد بن سويد . ٣٠ - عتبة بن ربيع بن رافع . ٣١ - ثعلبة
ابن سعد بن مالك . ٣٢ - حارثة بن عمرو . ٣٣ - سقف بن فروة
٣٤ - عبد الله بن ثعلبة . ٣٥ - قيس بن ثعلبة . ٣٦ - طريف .

٣٧ ـ ضمرة . ٣٨ ـ نوفــل بن عبد الله قتله سفيان بن عويف . ٣٩ ـ عباس بن عباده قتله سفيان بن عبد شمس . ٤٠ ـ النعمان بن مالك قتله صفوان بن امية . ٤١ ـ عبدة بن الحساس . ٤٢ـ المجدر ابن زياد قتله الحارث بن سويد غيلة وقد دفن هؤلاء الثلاثة في قبر واحد . ٤٣ ـ عنترة مولى بني سلمة قتله نوفل بن معاوية . ٤٤ـ رفاعة بن عمرو . ٤٥ ـ عبد الله بن عمرو من بني حزام قتله سفيان ابن عبد شمس . ٤٦ ـ عمرو بن الجموح ودفنا في قبر واحــد . ٤٧ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح قتله الاسود بن جعونة . ٤٨ ـ المعلى بن لوذان قتله عكرمة بن أبي جهل . ٤٩ ـ ذكوان بن عبد قيس قتله أبو الحكم بن الاخنس بن شريق . ٥٠ ـ عمرو بن قيس قتله نوفل بن معاوية الديلي . ٥١ ـ قيس بن عمرو . ٥٢ ـ سليط بن عمرو ٥٣ ـ عامر بن مخلد . ٥٤ ـ أبو أسيرة بن الحارث قتله خالد بن الوليد ٥٥ ـ عمرو بن مطرف . ٥٦ ـ اوس بن حرام . ٥٧ ـ انس بن النضر عم انس بن مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله) قتله سفيان بن عويف . ٥٨ ـ قيس بن مخلد . ٥٩ ـ كيسان بن مولى مازن بني النجار . ٦٠ ـ سليم بن الحارث . ٦١ ـ نعمان بن عمرو ٦٢ ـ سهل بن قيس . ٦٣ ـ حارث بن عدي بن خرشة . ٦٤ ـ أبو ايمن مولى عمر بن الجموح . ٦٥ ـ مالك بن اياس . ٦٦ ـ اياس ابن عدي .

ومجموع هؤلاء سبعون رجــلاً على ما هو المشهور بين المؤرخين وقد ضبط بعضهم اكثر من ذلك واقل ـ كالواقدي في المغازي وغيره كما مر ، وسجل التاريخ أيضاً اسماء قتلة المشركين .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يزور الشهداء ويقول

« السلام عليكم بما صبرتم فنعِمَ عقبى الدار » ومر (صلى الله عليه وآله) على قبر مصعب بن عمير فوقف عليه ودعا ، وقرأ : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر وما بدّلوا تبديلاً » الاحزاب ـ ٣٣ ـ وكانت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم وتدعو وكانت ام سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تذهب فتسلّم عليهم في كل شهر فتظل يومها فجائت يوماً ومعها غلامها نبهان فلم يسلم ، فقالت : اي لكع ألا تسلم عليهم ؟! والله لا يسلم عليهم احدٌ الاّ ردوا إلى يوم القيامة . وعن فاطمة الخزاعية تقول : «غابت الشمس بقبور الشهداء ومعي اخت لي ، فقلت لها تعالي نسلّم على قبر حمزة وننصرف . قالت : نعم ، فوقفنا على قبره فقلنا : السلام عليك ياعم رسول الله فسمعنا كلاماً رد علينا ، وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته ، قالتا : وما قربنا احد من الناس » .

المجروحين :

امر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبا عمرو ان يداوي كل مجروح في داره فباتوا يوقدون النيران ويداوون الجراح وان فيهم لثلاثين جريحاً أو اكثر وقال : لا يبلغ معي بيتي عزيمة مني فنادى فيهم سعد عزيمة رسول الله إلا ان سعد بن معاذ مضى معه (صلى الله عليه وآله) إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقهن ، ولم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيكين بين المغرب والعشاء

وقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى فرغ من النوم لثلث الليل فسمع البكاء فقال ما هذا ؟! فقيل : نساء الانصار يبكين على حمزة ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) رضي الله عنكن وعن أولادكن ، وأمرنا ان نرد إلى منازلنا فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليلٍ معنا رجالنا ، فما بكت منا امرأة قط الا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا ـ أي قبل واقعة الطف . فسلام عليك ياخير الشهـداء وياعم رسول الله ويااسد الله وأسد رسوله ، جزاك الله عن الاسلام وأهله خيراً .

نتائج الحرب :

وقعت الحرب بين المسلمين والمشركين في(أُحُد) وقد اقتسما النصر والهزيمة بينهما بادىء الأمر ، ولم يكن النصر حاسماً للمشركين ، كما زعمه بعض المؤرخين ، بل اذا تعمقنا في سير القتال ونتائج هـذه الغزوة نرى أن النصر كان أقرب إلى المسلمين منه إلى المشركين ، فانهم مع تفوقهم الكبير على المسلمين في العدد والعدة واحاطتهم بهم من كافة الجوانب بعد قتل رماة المسلمين في فم الشعب ، لم يتمكنوا من هزيمتهم والقضاء عليهم قضاءاً تاماً ، كما كان هو هدف المشركين من هذه الغزوة ، وقد نجح المسلمون بقيادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وحكمته وبراعتـه من تطويق المشركين واخراجهم من موقع الحرب باصابات قليلة ، قدرها بعض المؤرخين عشرة بالمئة بالنسبة إلى قوات المشركين المتفوقة وقد تمكن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله)من تخليص قواته من الموت المحتم ،وهذا هو النصر الكبير .

ثم إنه يمكن استخلاص نتائج كبيرة من هذه الغزوة نذكر المهم في المقام وتأتي البقية في مستقبل الكلام .

منها : ظهور عظمة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) في هذه الحرب كقائد عظيم وزعيم كبير في قيادة الجيش بحكمة ومهارة في احرج المواقف ، وظهرت عبقريته (صلى الله عليه وآله) في جعل النصر للمسلمين المغلوبين آخر الأمر ، وقد انهارت معنويات الكثيرين منهم إلا جماعة خاصة مؤمنة خلصت في ايمانها واستقامت على الحق والدفاع عنه .

ومنها : معرفة المنافقين المندسين في صفوف المسلمين مما اتاح لهم الفرصة في التخلص منهم على حكمة وبصيرة .

ومنها : حصول المسلمين على المعلومات الكثيرة عن نوايا المشركين وقوتها وسائر الامور التي تخصهم مما جعلت المسلمين على حيطة منهم .

ومنها : إن هذه الحرب نبّهت المسلمين أن التعدي عن أوامر القائد يؤدي إلى نتائج وخيمة يصعب تحملها ، فقد كانت مخالفة رماة المسلمين لتعليمات الرسول الكريم (ص) الدرس الكبير لهم لكي لا يعودوا إلى مثلها .

ومنها : معرفتهم أن الاستقامة على الحق والصبر في ميدان القتال والثبات في الشدائد والاهوال كل ذلك يؤدي الى النصر الحاسم والحاق الهزيمة بالاعداء .

ومنها : أن الاخلاق الرذيلة التي توجه النفس إلى الامور المادية والانشغال بامور تافهة توجب اعراض النفس عن الجانب المعنوي في الجهاد مع الاعداء ، وتؤثر في وهن العزائم ، فقد كان العُجب الذي لحق بعض المسلمين نتيجة نصرهم الساحق على المشركين في يوم بدر ،

الأثر الكبير في الحاق النكسة بهم .

هذا مضافاً إلى أنهم استفادوا من وقعة أحد أن التعليمات الالهية والفيوضات الربانية لها التأثير التام في الثبات في ميدان القتال والنصر الأكيد ، وهو مما يؤكد عليه القرآن الكريم في الآيات المتقدمة ، وما سيأتي في الآيات اللاحقة .

وبالجملة أن في غزوة أحد من الدروس العظيمة التي لابد للمسلمين الاستفادة منها ، والاعتبار بها ، وستبقى أُحد رمزاً للتفاني والجهاد المقدس مدى الدهر .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

ذكرنا مراراً أن الآيات القرانية نزلت لتكميل الإنسان وارشاد الناس إلى ما يوجب سعادتهم في الدارين ، وقد دأب القرآن الكريم على انزال الاحكام الالهية على سبيل التدريج والتأني لسبق النفوس بالجاهلية التي لابد من إزالتها واصلاح الفاسد فيها ، وبيان الصراط المستقيم وتهذيب النفوس بالعلم والعمل بكل ما يمكن التحريض عليه إما الوعد الجميل أو الثناء الجزيل حتى تستقيم النفوس بالتقوى ، ومن عادة الله عزوجل في تربية الانسان انزال الاحكام على سبيل التدريج لترتاض النفوس المستنفرة من علم وحكمة ، ولذا كان كل حكم في القرآن الكريم يتعقبه التحريض على العمل . وفي هذه الآيات الشريفة يأمر سبحانه الناس ببعض ما يوجب سعادتهم ويزجرهم عما

يوجب شقاوتهم ، ويرشدهم إلى ما هو الاصلح لهم ، كما أن الآيات السابقة دعتهم إلى الجهاد مع الاعداء ونبذ تلك الخصال المذمومة والصفات السيئة التي اوجبت الوهن في العزيمة والضعف في القتال ، فهذه الآيات وسابقتها والتي تليها لاتخرج عن ما رسمه القرآن الكريم في تعليم الانسان وتربيته وتهذيبه ، ومن ذلك يظهر السّر في الأمر باطاعة الله والرسول لان فيها الفلاح والنجاح .

التفسير

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا .

الآية المباركة تشتمل على الامر والنهي والترغيب والترهيب وترشد الناس إلى اهم موضوع اعتنى به الاسلام اعتناءاً بليغاً فحرمه وشدد النكير عليه وهو الربا الذي ذكره عزوجل في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، ولكثرة اهمية الموضوع تدرج الاسلام في تشريع الحكم فيه وبين وجوه المفاسد المترتبة عليه .

والآية الشريفة تنهي المؤمنين عن تعاطي الربا وتحرمه حرمة مؤكدة وقد تقدم في قوله تعالى : « الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » البقرة ـ ٢٧٥ بعض الكلام .

والمراد بالأكل هو الأخذ والتعاطي ، وقد ذكره بالخصوص لانه الاهم من المقاصد ، ولزيادة في التشنيع اي : انكم تفعلون ذلك مع ما فيه من المفاسد لأجل غرض دني وهو الاكل .

والربا هو مطلق الزيادة وشرعاً زيادة يشترط في القرض ، أو في بيع

احد المثلين بالآخر . على ما فصلناه في (مهذب الاحكام) .

قوله تعالى : أضعافاً مضاعفة .

بيان لبعض وجوه المفاسد لأن الربا بحسب طبعه يستهلك اموال المديون لتتراكم عند الدائن منضماً إلى رأس ماله فيكون ما يأخذه اضعافاً مضاعفة .

والاضعاف جمع قلة لضعف ، وهو مثل الشيء ، وضعفاه مثلاه، واضعافه امثاله وهو من الالفاظ المتضايفة التي يقتضي وجودها وجود آخر من جنسها في الكم أو من جهة اخرى .

قوله تعالى : واتقوا الله .

اي : اتقوا الله في ما نهاكم عنه فان في التقوى صلاح المجتمع ، وانتظام النظام بالوجه الاحسن الاكمل .

قوله تعالى : لعلكم تفلحون .

اي لكي تفلحوا في جميع اموركم الدنيوية والاخروية . والفلاح هو من اهم الغايات ، والآية ترشد الناس إلى ان التقوى توجب الفلاح كالاسباب التوليدية دون ما يتوهمه الانسان .

قوله تعالى : واتقوا النار التي اعدت للكافرين .

تأكيد للتحريم السابق اهتماماً بالموضوع وتشنيعاً على من اكل الربا الذي يؤدي إلى نار عظيم . وفيه الدلالة الواضحة على كفر آكل الربا .

قوله تعالى : واطيعوا الله والرسول .

الاطاعة المتابعة اعتقاداً وقولاً وعملاً وهي اعم من العبادة واطاعة

الله والرسول متابعتهما في جميع الاحكام والتكاليف ومنها حرمة الربا .

وانما قرن سبحانه وتعالى إطاعته باطاعة الرسول لبيان ان إطاعة الله لا تكون إلا باطاعة الرسول ولا تكون إطاعة الرسول إلا باطاعة الله تعالى ، فتكون اطاعة احدهما من دون الآخر باطلة .

قوله تعالى لعلكم ترحمون .

بيان لبعض ما يترتب على اطاعة الله واطاعة الرسول من رحمة الله تعالى للمطيعين وهي الغاية العظمى ، لان بالاطاعة تستعد النفوس لتلقي الرحمة والفيض الالهي .

وفي الآية الشريفة عتاب لمن ترك الاطاعة لله وللرسول في غزوة احد .

بحث دلالي

يستفاد من الآية الشريفة امور :

الاول : تأكيده سبحانه وتعالى النهي عن الربا بوجوه : الاول: قوله تعالى : « اضعافاً مضاعفة » الثاني : قوله تعالى : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » الثالث : قوله تعالى : « واتقوا النار التي اعدت للكافرين » الرابع : قوله تعالى : « واطيعوا الله واطيعوا الرسول » وهذه وجوه أربعة تؤكد التنفير عن الربا ، والتنزه عن اكله والتشنيع على فاعله ، لان الربا من اهم الموضوعات التي تمس الفرد والاجتماع من جهات شتى .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « لعلكم ترحمون » الحكمة في النهي عن اكل الربا واطاعة الله والرسول فيه هو اثبات [illegible]

الافراد الذي يفضي إلى التعاون والتعاضد بينهم ، وهو يستلزم الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « أعدت للكافرين » ان النار مخلوقة ومعدة للكافرين العاصين جزاءاً لهم ، وانما خص سبحانه الكافرين بالذكر إما لاجل انه النار قد اعدت لهم اولاً وبالذات ولغيرهم بالتبع ، أو لان الكافرين يخلدون فيها دون غيرهم ، أو لأجل بيان ان المرائي الذي لا يعمل الحكم الالهي بعد علمه به في حكم الكافرين فيشمل الكافر كل فاسق ايضاً وقد تقدم في هذا التفسير مكرراً ان للكفر مراتب .

ومن العجائب ان الآية الشريفة افتتحت بالخطاب للمؤمنين فما ايسر ان يخرج المؤمن عن ايمانه ويدخل في زمرة الكافرين بترك حكم الهي وارتكاب منكر عقلي ولذا قيل انها اخوف آية في القرآن الكريم .

الرابع : ان قوله تعالى : « واطيعوا الله واطيعوا الرسول » يتضمن حكماً عقلياً بتياً إرشادياً قرره الواحد الأحد على لسان سيد الانبياء احمد (صلى الله عليه وآله) ، وبذلك تتم الحقيقة الانسانية وتتحقق العبودية المحضة .

وانما قرن اطاعته عزوجل بطاعة الرسول (ص) لبيان ان اطاعة الرسول من اطاعة الله فلابد من المسارعة اليها ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الحكمة في الامر بالطاعة هي الفلاح المفضيّ للنجاح في جميع الامور والحالات وهو مطلوب كل فرد .

الخامس : انما عقب الوعيد بالوعد ترغيباً في الطاعة وترهيباً عن المخالفة كما هو دأبه تعالى في القرآن الكريم .

وَسارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها
السَّمٰواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالْكاظِمِينَ
الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلىٰ
ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولٰئِكَ جَزاؤُهُمْ
مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)
هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي يذكر فيها اهم الخصائل الحميدة الفردية والاجتماعية ، وهي تهدي الانسان إلى استكمال نفسه ومجتمعه وتعلمه كيفية علاج الرذائل النفسانية فهي تدعوه إلى الخير والاحسان ، والتحلي بمكارم الاخلاق والانزجار عن الشر والسوء ومساوي الاخلاق .

وهي المسارعة إلى الخير ، والانفاق في سبيل الله في السراء والضراء، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والتوبة عن المعاصي والذنوب التي تبعد الانسان عن خالقه وتوقعه في الورطات والمشاكل .

وقد امر عزوجل بنيـل الاحسان وكل خير فردي واجتماعي ، وبيّن سبحانه وتعالى ان في التخلق بها وفي افشائها يحقق للانسان الحياة السعيدة وتأمنه من الوقوع في المهالك وتوجب له النجاة من الشدائد وبها تثبت الوحدة بين افراد المجتمع ويشد بعضهم بعضاً .

فهذه الآيات الشريفة تبين الصراط المستقيم الذي مَن سلكه لا يضل ولا يشقى ، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة اهم ما يمنع الانسان من السير على ذلك الصراط المستقيم وما يعيقه من تكميل نفسه ومجتمعه وهو الربا الذي يعد في نظر الاسلام من اهم الموانع المادية والمعنوية التي تحرم الانسان عن الحياة السعيدة وتمنع من الانفاق الذي يعد من اهم الاسس في نيل السعادة .

وقد عد عزوجل ان التعدي عما ذكره والاعراض عما بينه يؤدي إلى الشقاء والحرمان وامر عزوجل بالاعتبار عما جرى في الامم السابقة التي أعرضت عما ارتضاه الله تعالى لهم .

التفسير

قوله تعالى : وسارعوا الى مغفرة من ربكم .

دعوة عامة إلى الغفران ، وبشارة عظيمة لجميع اهل الذنوب والعصيان واستضافة من الجواد الغني لجميع الواردين عليه ، وترغيب إلى العباد

في إزاحة جميع الاغشية والظلمات ، ودفع انواع الجهالات،ووعد منه عزوجل لمن اطاع الله واطاع الرسول ، وقد ذكر جزاء المتقين المطيعين اتباعاً للوعيد بالوعد الجميل ، واقتراناً للترهيب بالترغيب كما هو سنته عزوجل .

والمسارعة المبادرة والاشتداد في السرعة ، وهي في الخير ممدوحة وفي الشر مذمومة ، والمسارعة إلى الخيرات هي المبادرة اليها . وانما امر سبحانه وتعالى بالمسارعة اليها باطاعة الله تعالى والرسول للتنبيه على ترك التسويف الذي يفوت به الاجر والحظ وكثرة المثبطات ووسوسة الشيطان التي توهن العزائم .

ويمكن ان يكون قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم » مبيناً للمغفرة في هذه الآية الشريفة ، كما ان قوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء » مبيناً للمسارعة إلى الجنة .

وكيف كان فان اسباب المغفرة والدخول في الجنة معروفة مذكورة في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، كما ان اسباب الدخول في النار كذلك.

قوله تعالى : وجنة عرضها السموات والارض .

العرض خلاف الطول وهو اقصر الامتدادين عادة ، ويكنى به عن السعة،واستعماله في ذلك شايع يقال بلاد عريضة اي واسعة، ومنه قولهم : اعرض في المكارم إذا توسع فيها ، وفي الحديث عنه (صلى الله عليه وآله) : « لقد ذهبتم فيها عريضة » اي الارض الواسعة وقد قال (صلى الله عليه وآله) ذلك عندما هرب جماعة يوم أحد فراراً من الزحف

كذلك فاين الطول وما مقداره مع انه لا يجري ذلك إذا فرضنا كروية الجنة .

ويمكن ان لا يكون التعبير كنائياً بل كان على الحقيقة أما بناءاً على عدم تناهي الابعاد كما عن جمع من الفلاسفة فالامر واضح . واما بناءاً على التناهي كما عن بعض فلا ريب في انه على فرض صحته انما هو في الدنيا ، واما في الآخرة فهي غير متناهية من جميع الجهات زماناً ومكاناً وسعة ونعمة وغير ذلك .

وقد ذكر المفسرون في معنى العرض في المقام بما لا يرجع إلى محصل ونقل عن أبي مسلم بن بحر أن المراد من العرض في الآية الشريفة هو من عرضك الشيء على البيع والمقايضة اي لو عرضت الجنة بالسموات والارض لكانتا ثمناً . وهذا تأويل باطل .

وكيف كان فالآية الشريفة ترمز إلى معنى جميل ترغب المخاطبين إلى المراد باسلوب لطيف وجار على ما يتصوره الناس من التمثيل بالموجود في الخارج وتبين بلوغ الجنة في السعة بحيث لا يمكن أن يجدها حد وهمي ، وهذا مما يوجب اطمينان الانسان بأن له ما تشتهيه النفس من جميع الجهات ففي بعض الاحاديث القدسية : « اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهذا هو شأن النعمة التي أعدت من غير المتناهي من كل جهة إلى المنعم عليه المتناهي من كل جهة ، وهذه هي الحياة الكاملة الابدية التي لا ينبغي للانسان إلا السعي في دركها .

قوله تعالى : اعدت للمتقين .

الاعداد التهيئة وهو إما علمي أو خارجي ، في هذه النشأة أو

نشأة اخرى أو في عالم الملكوت الذي يكون كالصورة والمرآت لهذا العالم بجميع جزئياته وكلياته ، ويمكن ان يعبر عنه بعالم المثال الخارجي وهو موجود بوجود روحاني معنوي ، ودخله سيد الانبياء (صلى الله عليه وآله) في معراجه واطلع على خصوصياته فيكون الاعداد مطابقاً للوجود العلمي الازلي ، والوجود الخارجي في الدنيا والوجود الاخروي في ما لا يزال .

والتقوى هي سبب معد للجنة فتكون حقيقة التقوى منزلة من العلم الازلي مثل بالوجود المثالي ثم نزلت إلى هذا العالم وستعود إلى المحل الذي اعدته لنفسها ، كما ان حقيقة العصيان والطغيان والكفر كذلك ولكل منها مظاهر خاصة تناسب عالم ظهورها ، ويمكن التمثيل له في هذا العالم ايضاً فان بعض الاراضي لا قابلية لها إلا لزراعة مثل الزعفران وقطعة اخرى لا تصلح إلا ان تكون سبخة يعلوها الملح . وذلك كله بنحو الاقتضاء لا العلية التامة ومن ذلك يعلم المراد من قولهم (عليهم السلام) : « كل ما هناك لا يعلم إلا بما هنا » أو « ان الدنيا مزرعة الآخرة » .

وانما أتى عزوجل الفعل مجهولاً للاشارة إلى ان لفعل الفاعل دخلاً في الاعداد ، واضيفت الجنة إلى المتقين لبيان ان الوصف وهو التقوى علة لهذا الاعداد .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض » الحديد - ٢١ . ولعل الاختلاف في التعبير بالمسارعة والمسابقة لأجل ان المسارعة تكليف للجميع من غير اختصاص بفرد والمسابقة تكليف فردي بان يتسابق كل فرد فرداً آخر حين المسارعة ، فتكون المسابقة اخص من المسارعة ، ويكون

المراد بالجنة في آية المسابقة جنة خاصة عرضها كعرض السماء والارض فان لله تعالى جنات كثيرة بل غير متناهية .

كما ان المراد بالجنة في آية المسارعة الجنس التي يكون عرضها السموات والارض ، ويصح ان يراد بالسماء في آية المسابقة الجنس فيتحد مفاد الآيتين حينئذ .

ثم انه تعالى ذكر المتقين في المقام لغرض الاوصاف التي وصفهم بها ، وهي اوصاف جامعة لمكارم الاخلاق وهي تفيد المجتمع كما تفيد الأفراد أمروا بالتحلي بها لغاية تهذيبهم وتكميلهم وقد نزلت هذه الآيات بعد غزوة احد ، وقد جرى على المسلمين ما جرى، كما صدر منهم ما صدر فاستلزم ذلك تنبيه المؤمنين وتهذيبهم واعدادهم لما ستجري عليهم من الحوادث وقد وصف عزوجل المتقين باوصاف خمسة وهي :

قوله تعالى : الذين ينفقون في السراء والضراء .

السراء من السرور ، وهو الرخاء والفضل ، والضراء من الضرر وهو الشدة والعسر والضيق . اي : الذين ينفقون لوجه الله تعالى في حالة الرخاء والسرور ، وحالة الشدة والضيق والعسر .

وظاهر الآية الشريفة ان السراء والضراء حالتان للمنفق ، ويحتمل ان تكونان حالتان للانفاق في حالة الرخاء والسرور ، وحالتي الضيق والشدة فمن الاول الانفاق في التوسعة على العيال ، ومن الثاني الانفاق لرفع ما يضطرون اليه .

وانما حذف عزوجل متعلق الانفاق ليشمل القليل والكثير ، وكل ما يصلح للانفاق ، سواء كان مالاً أو غيره .

وقد بدأ سبحانه وتعالى من بين الاوصاف بالانفاق مقابلة للربا الذي نهى عنه عزوجل في الآية السابقة الماحق لكل فضل وفضيلة، ولان الانفاق في الحالتين يكشف عن محبة المنفق لله تعالى وتقواه لانه انفق احب الاشياء لنفسه. ولان الانفاق انفع للناس من سائر الصفات فان فيه يظهر التعاون بين افراد المجتمع وبه ترتفع المشكلات وتنحل المعضلات ويخفف من هموم الفقراء ويبعث في نفوسهم الامل ويشادهم مع سائر افراد المجتمع.

قوله تعالى : والكاظمين الغيظ .

وصف ثان ومادة (كظم) تدل على الحبس والامساك ، ومنه الحديث « اذا تثاءب احدكم فليكظم ما استطاع » اي يحبسه مهما امكن ويقال كظم البعير اي امسك عن الجرة ، وكظم القربة شد رأسها عند الامتلاء . والغيظ شدة الغضب وفوران الدم للانتقام .

قوله تعالى : والعافين عن الناس .

وصف ثالث وهو من أجل مكارم اخلاق الله تعالى فان بعفوه يتم تدبير نظام العالم . ومن اسمائه تعالى العفوّ وهو المبالغة في العفو الذي هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، واصله المحو والطمس والعفو عن الناس هو ترك مؤاخذتهم مع القدرة عليها والتجاوز عن عقوبة من استحقها ، وهو اقرب للتقوى وفي الحديث : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة » اما العفو فمحو الذنوب . والعافية ان تسلم من الأسقام والبلايا وهي الصحة ، والمعافاة هي صرف اذى الناس عنك وأذاك عنهم ويغنيك عنهم ويغنيهم عنك .

وإنما حذف المتعلق ليشمل كل ما يدخل تحت حقه .

وهذا الوصف يكشف عن كرم المتصف به وحسن سريرته وضبط نفس الامارة تحت ارادته وحكمته فتكون مرتبة هذا الوصف اعلى من مرتبة كظم الغيظ فان الشخص قد يكظم غيظه ولكن على حقد وضغينة والعفو دليل على انتفائها .

قوله تعالى : والله يحب المحسنين .

وصف رابع وهو الاحسان الذي له المرتبة الاعلى من بين جميع ما سبق بل هو اكرم المكارم ولعله لأجل ذلك لم يعطفه على ما سبق .

والاحسان : صفة كريمة تتصف بها النفس يكشف بها كظم الغيظ والعفو عن الناس فان هذه نعوت معدة لكسب الاحسان والتحلي به، والاحسان: هو جعل الاشياء في موضعها واتيان الاعمال على الوجه اللائق بها ، وبالاحسان يتم الانفاق الذي لابد ان يعري عن جميع ما يشينه ويكمل كظم الغيظ والعفو عن الناس ، ولذلك كان للمحسنين اجر عظيم ومنزلة كبيرة ، قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » العنكبوت ـ ٦٩ ويكفي في منزلة هذا الوصف ان الله يحب المحسنين ويثيبهم على احسانهم وكفى بذلك فخراً وفوزاً .

قوله تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم .

وصف خامس ، وهو اعظم آية في القرآن الكريم في تهييج رجاء العبد وفيها التنويه بمقام العفو والاحسان ، وتذكر المتقين بعدم اليأس لو صدر منهم ذنب فانه بعد ان ذكر اوصاف المتقين من كظم الغيظ والعفو والاحسان عقبه سبحانه بأعظم ما منّ به على العباد وهو العفو عن المذنبين والاحسان بهم تعليماً لهم وتنويهاً لمقامها واعلاماً بأن

الانسان لا يخلو عن الذنب إلا ان يكون معصوماً بعصمة الله تعالى ، فهو محتاج إلى العفو والاحسان فتكون الجملة معطوفة على المتقين ، واولئك في الآية التالية اشارة إلى الجميع .

والفاحشة من الفحش وهو مجاوزة الحد في السوء فتكون الفاحشة كل ما اشتد قبحه من الذنوب والمعاصي وشاع استعماله في الزنا باعتبار انه اظهر افراد الفحشاء ؛ وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الاقوال والافعال وفي الحديث : « ان الله لا يحب الفحش والتفاحش » .

والمراد بها في الآية الشريفة بقرينة المقابلة للظلم المعصية الفاحشة في قبحها ، سواء كانت مقتصرة على النفس كترك الصلاة ونحوه ، أو متعدية إلى الغير ، كالقتل والغيبة ونحوهما . والظلم ما دون ذلك كما يصح أن يكون الفرق بينهما كالفرق بين الكبيرة والصغيرة .

قوله تعالى : ذكروا الله .

اي تذكروا عظمة الله تعالى وآياته الموجبتين للخشية منه وانه مرجعهم في كل خوف ورجاء بعد أن اغفلهم الشيطان وأنساهم ذكر ربهم حين الذنب فيسرعون إلى الاستغفار وطلب المغفرة .

والمراد بذكر الله هو الذكر الحقيقي الذي يكون داعياً إلى ترك الذنب واستشعار الخوف والرجوع اليه تعالى لا مجرد الذكر اللفظي مع البقاء على الذنب فانه حينئذ يكون كالمستهزىء به تعالى .

قوله تعالى : فاستغفروا لذنوبهم .

اي حين ما ذكروا الله وتذكروا جلاله وكبريائه أحبوا التقرب اليه بعد أن انصرف عنهم طائف الشيطان فتابوا اليه طالبين المغفرة منه عز وجل لجميع ذنوبهم .

والآية الشريفة في مقام التمييز بين مَن يفعل المعاصي محادة وعناداً ولجاجاً فانه بعيد عن الاستغفار ولا يوفق اليه ابداً . وبين مَن تذكر الله تعالى حين المعصية وارتدع عنها خوفاً فتاب اليه تعالى وطلب المغفرة منه فان لهم مقاماً معلوماً .

قوله تعالى : ومَن يغفر الذنوب إلا الله .

بشارة عظيمة ، وتطييب للنفوس ، وتشويق إلى التوبة والاستغفار وتنبيه للمذنبين بالالتجاء إلى الله تعالى وعدم اليأس منه عزوجل، فانه لا منجى من الذنوب ولا ملجاء في الغفران الا إلى الله تعالى ، وهذا مما يؤكد الفزع والرجوع اليه عزوجل .

والآية المباركة باسلوبها البديع وخطابها البليغ تؤثر في المخاطبين ابلغ التأثير وينبه الضمير الانساني الذي تأثر بارتكاب الذنوبوالمعاصي بالرجوع إلى الله والانابة اليه لازالة ما يوجب ضلاله واغوائه .

وفي هذا الخطاب وجوه من الدلالة على المعنى المراد كاظهار اسم الجلالة ، واسناد المغفرة إلى ذاته المقدسة المستجمعة لجميع الصفات الكمالية ، ودلالة ذلك على الغفران الواسع وانحصاره فيه عزوجللانه المسلط على ذلك كله فان مَن بيده اصل الخلق وتدبير شؤونهميكون مسلطاً على الغفران بالاولى وليس لغيره هذا الحق ، وهذا ما يدل عليه الحصر المستفاد من النفي والاثبات . وفيه الانكار على مَن يطلب المغفرة من الاوثان أو الافراد الذين لم يأذن لهم الله تعالى بالاستشفاع لديه في غفران الذنوب بالخصوص .

ويؤكد ذلك ورود الخطاب على هيئة الانشاء دون الاخبار .

وفي ذكر الجمع المحلي باللام الدال على العموم اعلان بان اللهجل

شأنه يغفر جميع الذنوب صغائرها وكبائرها فيكون المذنب بعد الاستغفار والتوبة عنده كمن لا ذنب له كما في الحديث .

ثم ان مجيء هذا الخطاب بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس فيه الدلالة على سعة غفران الله تعالى وعدم مبالاته فيه فان الذنوب مهما كثرت وجلت ولكن عفوه وغفرانه أجل واعظم واكبر .

قوله تعالى : ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

الاصرار على الشيء المداومة عليه وملازمته واكثر ما يستعمل في الشر والذنوب ، وفي الحديث : « ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوه وهم يعلمون » وقد تقدم اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى: « كمثل ريح فيها صر » آل عمران ـ ١١٧ .

« وهم يعلمون » حال من فاعل الاصرار ومتعلق به .

والمعنى : انهم لم يداوموا على الذي فعلوه من الذنوب والمعاصي وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها والوعيد عليها .

وانما قيد الاصرار على الفعل بالمعصية لبيان ان مجرد الاصرار على المعصية مع الجهل بها لا يكون إصراراً شرعاً ، كما يبينه قوله تعالى « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » النساء ـ ١٧ .

والآية الشريفة ترشد الناس إلى ترك الاصرار في المعاصي لانه يوجب عدم المبالاة بحرمات الله تعالى والاستكبار عليه والاستهانة باحكامه المقدسة ويجعل النفس ميالة إلى الطغيان والخروج عن الطاعة فتنتفي العبودية وتخرج عن الفطرة المستقيمة فلا ينفع حينئذ ذكر الله تعالى الذي كان يمنع عن المعصية والاقامة على الذنب

قوله تعالى : اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها .

وعد منه عزوجل للمتقين الموصوفين بما تقدم من الاوصاف وبيان للاجر الجزيل والثواب الكبير المعد لهم وهو المغفرة والجنات العظيمة التي تجري من تحتها الانهار زيادة في بهجتها ، ولتامية النعمة انهم خالدون فيها لا يشوبها نقص .

ويمكن أن يكون ما ورد في هذه الآية المباركة هو نفس ما ذكره عزوجل في الآية السابقة من الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وجنة عرضها السموات والارض ، فتكون تلك الاوصاف من المعدات والاسباب للمغفرة والدخول في الجنة وتكون هذه الجنات ضمن تلك الجنة الفسيحة .

وقد اضاف سبحانه وتعالى الجزاء إلى ضمير « هم » تشريفاً ، وفي ذكر الرب المضاف إلى « هم » لبيان العلة في نيلهم لذلك الجزاء العظيم وتربيته تعالى المعنوية لهم .

قوله تعالى : ونِعمَ اجر العاملين .

تأكيد للوعد الجميل وتشويق لهم الى العمل اي : تلك المغفرة والجنات انما تكون على تلك الاعمال الحسنة التي تعد النفس اعداداً صالحاً وتهيئوها لنيل تلك المراتب العالية .

والخطاب على ايجازه يشمل على وجوه من الدلالات المحسنة الدالة على عظمة الموضوع والاهتمام به وتهييج الشوق والمسارعة الى نيله .

منها إقامة الاجر مقام الجزاء إعلاماً بانجاز الوعد وتحققه مما يزيد في شوق العامل وتنشيطه للعمل فكان العامل يستحق ذلك .

ومنها : ذكر الجمع المحلي باللام وإقامته مقام الضمير تأكيداً ،

وللدلالة على حصول المطلوب .

ومنها اتيان هذه الجملة بعد ذكر الجزاء وتفصيله لبيان الاهتمام بالوعد ، والتأكيد على المسارعة لدركه .

قوله تعالى : قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض.

أمر بالاعتبار بما جرى على الأمم الغابرة والنظر في ما بقي من آثارهم زيادة في التحريض على العمل والاستعداد لنيل الكمال ، وتشويقاً للجزاء الذي اعده الله تعالى للعاملين وتنبيهاً للمؤمنين على عدم الغفلة وتذكيراً لمن خالف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وتسلية للمؤمنين ، وتوبيخاً لمن اعرض عن آيات الله تعالى واحكامه المقدسة وغفل عن الاستكمال وتشنيعاً على مَن أدرج نفسه في عداد المكذبين بعد اتمام الحجة التي يكون منها الرجوع إلى احوال الماضين والسير في الارض والنظر في ما خلفته تلك الامم من الآثار فقد خلت عن اصحابها بعدما كانت قصوراً شاهقة أو عروشاً جمعت كل اسباب البهجة والسرور وقد ابتهج ساكنوها وعمارها مدة فيهـا ، أو كنوزاً إمتلأت بكل اسباب العيش الهنيء ، أو ذخائر عظيمة لم تدخل في الحسبان ، وقد جرت عادته عزوجل انه يرجع المخاطبين بعد سرد جملة من الحوادث وبيان الاحكام الفرديـة والاجتماعية إلى سنن الامم الغابرة والأمر بالاعتبار بها والنظر في آثارهم لمزيد التنبيه ، والاستفادة من تجاربهم ولئلا تتكرر ما جرى عليهم على هذه الأمـة وان يسلكوا الطريق المستقيم الذي سلكه الصالحون منهم والاعراض عن سبل المكذبين لئلا يدخلوا في زمرتهم فينالوا جزاءهم ، وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من سبل اتمام الحجة على العباد .

وخلت بمعنى مضت ، والسنن جمع سنة وهي الطريق المعبدة المسلوكة وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في ما يقرب من سبعة عشر موضعاً ، قال تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الاولين » الانفال _ ٣٨ ، وقال تعالى : « وقد خلت سنة الاولين » الحجر _ ١٣ .

والنظر في سنن الماضين من سبل الرشاد ، وفيها وجوه من الحكمة منها الاعتبار بها ، واتمام الحجة على اللاحقين ، وتسلية لما يجري عليهم ، والاستفادة من تجاربهم وغير ذلك ، ولذا اهتم بها عزوجل فذكرها في مواضع متعددة . وبالجملة : فهو إرشاد إلهي .

والمراد بها في المقام منهاج الماضين وما جرى عليهم سواء كان سنة المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله تعالى والعاملين المستعدين للقائه والدار الآخرة ، وما كابدوا من عتاة زمانهم وجبابرتهم وصعوبة العيش فرضوا بما قسمه الله لهم وصبروا وآثروا الآخرة على الحياة الدنيا الفانية ، وسنة الكاذبين الكافرين الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ونعيمها لانهماكهم في الضلال والشهوات مع وضوح الحجة ومعرفة البينات ، والامر بالسير في الارض لزيادة الاعتبار من آثار الماضين والتبصر منها ، ويدخل في السير في الارض السير في حالات اهل الارض من خلال التاريخ والحوادث الواقعة فيهم .

قوله تعالى : فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

المراد بالنظر هو التأمل والتبصر بانه كيف كان علاقة المكذبين مع المؤمنين وما جرى من الصراع بين الحق والباطل ، وما آل أمر المؤمنين اليه وعاقبة امر المكذبين وما حل بهم من العذاب والهلاك

بسوء اعمالهم فان النظر في ذلك كله يزيد المعرفة ويوجب التسلية بما يجري على المؤمنين، ويفيد العظة والاعتبار . والتوبيخ للمكذبين الكافرين .

قوله تعالى : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .

الاشارة راجعة إلى ما ورد في الآيات السابقة من ذكر غزوة أحد والمضامين العالية التي احتوتها تلك الآيات ، والتقسيم باعتبار حالات الناس ومدى تأثرهم بالقرآن الكريم ، فبعضهم يكون القرآن بالنسبة اليه بلاغاً وبيانــاً ، والبعض الآخر يكون هدى ً وموصلاً له إلى الهداية وموعظة تدعوه إلى الاتعاظ والاعتبار وزيادة الايمان وثباته ، كل ذلك لابد ان يكون للذين اعدوا انفسهم لقبول الهداية والاتعاظ ، وهم المتقون الذين يتأثرون بالبيان وينتفعون منه ويهتدون بهداه ويتعظون بمواعظه دون سواهم، وقد تقدم نظير ذلك في اول سورة البقرة فراجع .

بحوث المقام

بحث دلالي :

تدل الآيات الشريفة على أمور :

الاول : قد جمعت الآيات المباركة المتقدمة وجوه البر ومكارم الاخلاق التي لابد من التحلي بها ولا يسع لاحد الإعراض عنها فانها فاتحة الكمالات وجامعة للخيرات وهي من المكارم الفردية والاجتماعية بها يعيش الفرد حياة سعيدة خاليــة عن ما ينغصه من الكدورات

والشرور . وبها يصلح المجتمع .

ومن هذه الآيات الشريفة نستفيد المنهج الاخلاقي في الاسلام ، فانا ذكرنا في أحد مباحثنا الاخلاقية : أن المنهج الاخلاقي فيالاسلام يختلف عن المناهج الاخرى في الاصول والاسلوب والطريقة وانالاسلام ، ينظر إلى التقوى والعمل اولاً وبالذات وانه السبيل الوحيد لنيل الكمال والوصول إلى الغاية ، وهذه الآيات تبين المنهج العملي ، ونظير هذه الآيات قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرقوالمغرب ولكن البر مَن آمن بالله واليوم الآخر والملائكــة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذينصدقوا واولئك هم المتقون » البقرة ـ ١٧٧ فراجع ما ذكرناه هناك .

الثاني : انما قــدم عزوجل المغفرة على الجنة لان المغفرة سبب للدخول فيها ، وكل سبب مقدم على المسبب ، مع ان الجنة دار طهر لا يصلح لدخول غير المطهرين فيها وبالمغفرة يطهر المذنب فيصلح للدخول فيها .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « أعدت للمتقين » ان التقوى هي السبب في اعداد الجنة وتهيئتها للمتقين وحضورها لهم .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « عرضها السموات والارض » كمال الجنة من جميع الجهات وتامية النعمة فيها فان الجنة التي تكون سعتها كذلك فلابد أن تكون محفوفة بجميع موجبات البهجة والسرور وفيها الحياة الكاملة كما قال عزوجل : «وان الدار الآخرة لهي الحيوان» العنكبوت ـ ٦٤ .

الخامس : يستفاد من قوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ان كل وصف سابق معد للوصف اللاحق فان الانفاق يوجب ترويض النفس المحبة للاموال والملذات والسيطرة عليها ، فتستعد لكظم الغيظ وهذا موجب للعفو عن الناس ، وهو موجب لمزيد الاحسان .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : « ذكروا الله » ان ذكر الله تعالى هو السبب في انقلاع العبد عن المعصية والانزجار عن الذنوب وعدم العود اليها والتوبة إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه عزوجل لان غفران الذنوب تحت سلطته عزوجـــل ، وان الاصرار على المعصية يسلب التوفيق عن تذكر الله تعالى وهم يعلمون بان الاصرار يكون كذلك ويوجب التجري على الله تعالى والاستكبار عليه وعدم المبالاة بحرماته وتزول عنه حالة الندم والخوف عن نفسه .

السابع : انما جعل عزوجل قصص الماضين سواء الصالحين منهم أو الظالمين خاتمة لتلك التعاليم الاسلامية عبرة للَّلاحقين ودستوراً للعمل ومنهاجاً في سيرهم وسلوكهم ، مضافاً إلى كونها مواعظ يتعظ بها المتعلمون ، ويصلح بها الفاسد .

بحث روائي

في المجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه سئل إذا كانت عرضها السموات والارض فاين تكون النـــار ؟ فقال (ص) :

اقول: روى السيوطي أيضاً في الدر المنثور عن التنوخي في كتاب هرقل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) مثل ذلك ، ويمكن أن يكون هذا الجواب منه (صلى الله عليه وآله) اقناعياً اسكاتياً . كما يمكن ان يكون على وجه التحقيق بان نقول ان خلق النار تبع لخلق الجنة فهي لا تنفك عنها ، كما ان خلق الليل لا ينفك عن خلق النهار وأما وجه التبعية فلقوله تعالى : « وسعت كل شيء رحمة وعلما » غافر ـ ٧ و « سبقت رحمته غضبه » .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى : « اعدت للمتقين » قال (ع) . « انكم لن تنالوها إلا بالتقوى » .

أقول: لما تقدم من أن التقوى سبب لحصول الجنة فلا يعقل نيلها إلا بالتقوى ولابد من تعميم التقوى إلى التوبة والاستغفار ، كما في صدر الآية الشريفة .

وفي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : « ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده عزاً في الدنيا والآخرة ، قال الله عزوجل : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

اقول : وردت روايات كثيرة في شأن كظم الغيظ سيأتي في المحل المناسب التعرض لبعضها .

وفي الكافي أيضاً عن الصادق (عليه السلام) قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليكم بالعفو فانه لا يزيد العبد إلا عزاً فتعافوا يعزكم الله » .

اقول : لان العفو من صفات الله تعالى فيعز العبد العافي بعزه ، ويأتي في الموضع المناسب شرح ذلك .

وفي المجمع والارشاد للمفيد «إن جارية لعلي بن الحسين (عليهما السلام)

جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الابريق من يدها فشجه فرفع رأسه اليها، فقالت له الجارية : ان الله تعالى يقول: والكاظمين الغيظ ، فقال لها : كظمت غيظي ، قالت : والعافين عن الناس . قال : عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين قال : اذهبي فانت حرة لوجه الله » .

أقول : رواه السيوطي في الدر المنثور أيضاً عن البيهقي ، والحديث يدل على أن الإحسان أمر زايد على اصل العفو ، ومثل ذلك كثير في العالمين العاملين بعلمهم .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى : « ولم يصروا على ما فعلوا » قال (عليه السلام) : « الاصرار ان يذنب الذنب فلا يستغفر الله ، ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الاصرار » .

اقول : الاحاديث في ذلك كثيرة ، وقد تقدم ما يشهد لذلك ، وسيأتي ما يرتبط بذلك أيضاً .

وفي تفسير العياشي في حديث قال : « وفي كتاب الله نجاة من الرديء وبصيرة من العمى . وشفاء لما في الصدور في ما أمركم الله به من الاستغفار والتوبة قال الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » ، وقال تعالى : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه التوبة والاقلاع عما حرم الله فانه يقول : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »

اقول : تقدم مكرراً ان العمل الصالح من الايمان فلا ايمان إلا به .

وفي المجالس عن عبد الرحمن بن غنم الدوسي في قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة » نزل في بهلول النباش وكان ينبش القبور فنبش قبر واحدة من بنات الانصار فاخرجها ونزع اكفانها ـ وكانت بيضاء جميلة ـ فسوّل له الشيطان فزنى بهـا ثم ندم فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فرده ثم اعتزل الناس وانقطع عنهم يتعبد ويتبتل في بعض جبال المدينة حتى قبل توبته ونزل فيه القرآن » .

وفي اسباب النزول للواحدي عن إبن عباس في رواية عطا قال : « نزلت الآية وهي قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة » في نبهان التمار اتته امراة حسناء تبتاع منه تمراً ، فضمها إلى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية » .

اقول : قد وردت روايات متعددة في شأن هذه الآية وهي على فرض صحتها لا تكون مخصصة للآية بل هي بعمومها تشمل كل فاحشة تاب صاحبها عنها .

وفي المجالس عن الصادق (عليه السلام) قال : « لمـا نزلت هذه الآية « والذين إذا فعلوا فاحشة » صعد ابليس جبلاً بمكة يقال له ثور فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا اليه فقالوا له : ياسيدنا لمَ تدعونا ؟ قال : نزلت هـذه الآية فمنْ لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا وكذا . فقال : لست لها . فقام آخر فقال مثل ذلك . فقال : لست لها . فقال الوسواس الخناس : أنـا لها . قال : بماذا ؟ قال : أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة فاذا واقعوها أنسيتهم الاستغفار . فقال : انت لها فوكله بها إلى يوم القيامة » .

اقول روي مثله من طرق الجمهور أيضاً .

بحث اخلاقي

الاصرار على الذنب سواء كان صغيراً أم كبيراً من القبائح العقلية التي يحكم العقل بقبحه وشناعته بل هو من أشد القبائح لانه يوجب شقاوة النفس والجرأة على الله تعالى ، وقد يصل إلى حد الاستهزاء بحرماته عزوجل ، وهو على حد الكفر . والاصرار على الذنب على الإقسام :

الاول : اتيان الذنب ثم تكراره والبناء على اتيانه مكرراً من دون تخلل التوبة والاستغفار .

الثاني : اتيان الذنب والبناء على الاصرار والتكرار ولكن لم يتهيّء له اسباب اتيانه مع السعي في مقدمات الاتيان .

الثالث : نفس الصورة السابقة مع عدم السعي في المقدمات .

الرابع : أن يأتي بالذنب وكان بانياً على الاتيان قلباً من دون صدور عمل خارجي منه اصلاً .

الخامس : ان يأتي بذنب ثم يتوب ثم يأتي به ثانياً . وغير الاخير كله من الاصرار بحسب مراتبه . واما الاخير فمقتضى قوله (صلى الله عليه وآله) : « لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار » محو الأول وزواله بسبب التوبة فلا يتحقق موضوع الاصرار حينئذ ، والاصرار كما يتحقق بفعل المعصية يتحقق بترك الواجب عصياناً أيضاً.

آخر فيتعدد العقاب ولا موجب لتداخله فان تعدد المنشاء والسبب يستلزم تعدد المسبب لا محالة .

ثم ان الغفلة عن الله جل جلاله ، وعدم الاعتقاد بحضوره تعالى هي من اشد الذنوب والمداومة على هذه الحالة ذنب عظيم بل هي ام المفاسد ورأسها ، والكتب الالهية وانبياء الله تعالى انما اهتموا لإزالة هذه الحالة وارجاع العبد إلى الله تعالى ويتحقق التوجه اليه عزوجل باتيان الصلاة ، فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما نطق به التنزيل .

بحث عرفاني

لا ريب في ان عالم الدنيا متقوم بالخيالات والاوهام والجهالات، والناس بعيدون عن الحقائق والواقعيات وموجبات الاغراء بالشهوات كثيرة ومتعددة ، والآيات الشريفة المتقدمة ترشد الانسان الى اهم الحقائق التي بها يستقيم الفرد وينتظم نظام المجتمع وحقيقة هذه الآيات ترجع إلى التغافل عن ما يصيب الفرد من المكروه والأذى من الغير ، وبذل احب الاشياء لديه وهو المال والجاه وترويض النفس وجعلها تحت إمارة العقل والحكمة واعتبار الفرد نفسه من أفراد المجتمع وجزءاً لا يتجزأ منه بحيث يعتبر ما يكون كمالاً للمجتمع كمالاً له وما يصيبهم من السوء يصيب نفسه .

وقد اكد عزوجل إرساء قواعد العفو والمغفرة بين الناس فان كل فرد احوج من غيره إلى العفو والمغفرة لما يصدر منه من الذنوب والمعاصي ، فبالعفو عن اساءة الغير وبذل ما عنده اليه يدخل في زمرة مَن تخلق

باخلاق الله تعالى التي من اهمها بالنسبة إلى الانسان العفو والمغفرة فان الدنيا مزرعة الآخرة فما يزرع فيها يحصد في الآخرة ، وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع اليه عزوجل بأي وجه امكن ، فان لها جهتان جهة تكوينية وهي تربية الانسان ، وجهة تشريعية وهي تكثير صفوف المتقين وقد اهتم به الله عزوجل اهتماماً بليغاً واعلن في جميع الكتب السماوية خصوصاً القرآن الكريم بانه الغفور الرحيم وجهر بقبول التوبة والدعوة بالرجوع اليه ، وهذا هو عين ما يدعو اليه العقل المجرد فما ورد في تلك الآيات الشريفة كله من الاحكام العقلية النظامية صدر عن خالق العقل وموجده .

وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)
وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)
وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ
فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

الآيات الشريفة متصلة بالآيات السابقة وانها كالغاية واصل المقصود للآيات المتقدمة التي اشتملت على بعض الحقائق التي نبهت المؤمنين على ما صدر منهم وما سيجري عليهم وامرتهم بالاستعداد التام له والتخلق بمكارم الاخلاق ، ففي هذه الآيات المباركة يرشد سبحانه وتعالى المؤمنين إلى التعاون والتعاضد امام المصاعب وعدم الوهن والضعف فيها ونبههم بأن ما يصيبهم من المكروه هو سنة المجتمع البشري في هذه الارض ، وانما هي مداولة بين الناس . ثم بين سبحانه وتعالى ان السعادة في الدارين لا يمكن الوصول اليها إلا بالجهاد والصبر، وأمرهم بالاعراض عن الكافرين وترك الظلم فان الله لا يحب الظالمين.

وبين عزوجل انه لابد من الامتحان لتميز المجاهد الصابر الصادق عن غيره ، ففي هذه الآيات المباركة اجتمعت اصول الكلام من الامر والنهي والمدح والثناء والتوبيخ والارشاد وكفى بذلك دليلاً وهادياً .

التفسير

قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا .

ألوهن هو ضعف خاص في الخلق والخُلق ، والمراد به في المقام الضعف في القتال أو في العزيمة ، أو في الاهتمام في الجهاد في سبيل الله تعالى واقامة الدين .

والحزن خلاف الفرح وهو ما يعرض الانسان بفقد عزيز عليه أو ما يحبه من مال أو جاه .

اي : لا تهنو ايها المسلمون ولا يظهر عليكم اثر الضعف والخوف ولا تحزنوا على ما أصابكم ، لان الحزن انما يكون على ما فات من الانسان بغير عوض واما انكم فستجدون عوض ما أصابكم بأحسن وجه ومن يقتل منكم شهداء عند ربهم يرزقون ، وهو مما يتمناه كل مؤمن مع ان ما اصابكم انما هو امر طبيعي يقتضيه سير القتال وقد خلت من قبلكم السنن فاتخذوها عبرة .

والآية المباركة ترشد إلى أهم الأمور التي توجب الظفر وهو الثبات والاستقامة وعدم المبالات بما يصيب الانسان في الجهاد في سبيل الله تعالى وهو امر فطري يحكم بحسنه العقل أيضاً فلا فرق حينئذ بين ان تكون الجملة انشائية أو خبرية محضة لانها في مقام بيان الواقع

وارشاد الناس اليه .

قوله تعالى : وانتم الاعلون .

تشويق إلى الجهاد والمثابرة وبشارة بالغلبة وتسلية للمؤمنين . والجملة في موضع التعليل اي : مع انكم الاعلون فلماذا يقع منكم الوهن والحزن ، وفيه التوبيخ لما صدر منهم في يوم أحد من الفشل والهزيمة مع انهم ذاقوا حلاوة النصر اول الحرب حيث هزموا المشركين واثخنوا فيهم القتل فما اصابكم كان من كسب ايديكم .

وقيل ان الجملة ابتدائية اي : لا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وانتم الاعلون فتكون متضمنة للبشرى بالعلو مطلقا حتى في المستقبل.

والظاهر ان الجملة تتضمن معنى ادق من ذلك ، فانها تشير إلى العتاب والاحتجاج عليهم بان الله تعالى بشرهم بعلو امر الدين والظفر على الاعداء فلماذا هذا الوهن والحزن .

قوله تعالى : ان كنتم مؤمنين .

ايماناً صادقاً فان مثل هـذا الايمان يستلزم الغلبة والظفر ويوجب اطمينان النفس اي : لا تهنوا في عزمكم ولا تحزنوا لما فاتكم من الخير أو ما اصابكم من القتل ان كان فيكم الايمان فانه جنة واقية ويلازم الصبر والتقوى وهما الموجبان للنصر والظفر .

وفي الآية الشريفة عتاب لهم بأن الايمان فيهم لم يكن متصفاً بما يوجب النصر . كما ان فيها تشويق للمؤمنين منهم بالجهاد وتنشيط لنفس المؤمن .

قوله تعالى : ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله .

المس هنا بمعنى الاصابة عبر به لتهوين المصاب . والقرح ـ بفتح القاف ـ الجرح وعض السلاح ، وقرىء بضم القاف . وقيل : ان القرح بالفتح مصدر ، وبالضم اسم . وقيل : انهما لغتان . وذكر بعض اللغويين ان القرح بالفتح اثر الجرح من الخارج ، وبالضم الاثر من داخل كالبثرة ونحوها ، والمراد به في المقام القتل والجروح.

والمعنى : إن ما اصابكم ايها المسلمون من الجراح والقتل في الحرب فقد اصاب المشركين مثل ما اصابكم .

والمستفاد من الآية الشريفة انها في مقام التسلية ببيان اصل المثلية في الجراح والمصاب دون كميته وكيفيته فلا ينافي ذلك قوله تعالى : « قد اصبتم مثليها » آل عمران ـ ١٥٩ مضافاً إلى انه يمكن ان يكون المراد بالمثلين هو القتل والجرح والاسر في بدر واحد .

واسلوب الآية الشريفة يدل على تحضير الواقعة في ذهن المخاطب كأنها ماثلة امام عينه ، تمسه حرارتها ، ويكابد ألامها ، ولذا كان لمثل هذا الاسلوب وقع كبير في تنشيط عزيمة القوم ، وتشجيعهم على الاقدام والعمل لان اصاباتهم كاصابات العدو مع كمال استعداده في العدد والعدة وشدة نزاله في الحرب التي اشتملت على الكر والفر والاقدام والخذلان من كلا الجانبين ، وهذا هو امر طبيعي ، فانما هي مداولة بين الناس ، وقد جرت سنته عزوجل على ان يجري الامور باسبابها العادية وان كان التقدير بيده تبارك وتعالى .

قوله تعالى : وتلك الايام نداولها بين الناس .

حقيقة من الحقائق الواقعية نطق بها القرآن الكريم وصارت مثلاً

من الامثال القرآنية التي يستعملها الناس من حين النزول .

والمراد من الظرف المظروف اي ما يقع في الايام من الظفر والغلبة أو الحزن والسرور ، كما أن المراد من (نداولها) نصرفها بين الناس.

وقد استفاد العلماء من الآية الشريفة قواعد كلية في العلوم منها: ، ما استفاده العرفاء الشامخون من انه لا مؤثر في الوجود الا الله تعالى واستشهدوا له بهذه الآية المباركة ، وبقوله تعالى : « له مقاليد السموات والارض » الشورى - ١٢ ، وقوله تعالى : « ولله خزائن السموات والارض » المنافقون - ٧ ، وبقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب » الانعام- ٥٩ إلى غير ذلك من الآيات الشريفة والاحاديث المقدسة .

ومنها : ما استفاده الفلاسفة المتألهون من ان مناط الحاجة الامكان لا الحدوث واستشهدوا له بالآية الشريفة أيضاً وبقوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » الرحمن - ٢٩ ، وقوله تعالى: « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » المائدة - ١٤ .

ومنها : ما استشهد به بعضهم لمذهب الادوار والاكوار وهو مذهب قديم ومفاده ان الموجودات مطلقا تتكرر في الادوار والاكوار بحسب حركات الافلاك ونسبوا ذلك إلى يوذاسف من حكماء اليونان ورده المحققون من الفلاسفة ، وقال بعضهم في ذلك .

وما انقضى العام الربوبي اليوم كر امثـــال الاجسام وانفس أخر
لا ما مضى الا لدى يوذاسف والقول بالمحو والاثبات اصطفي

واصل المذهب مبني على قـــدم الافلاك وحركاتها وانها الفاعلة والمؤثرة في حدوث الكائنات مطلقا وكل ذلك باطل كما سيأتي في محله ان شاء الله تعالى .

وكيف كان فالمراد بالايام هي حوادثها الواقعة فيها كما عرفت

وهي عطف بيان لـ « تلك » و « نداولها » خبر و « بين الناس » ظرف لـ « نداولها » . والمداولة المداورة والتصريف وجعل الشيء يتناوله واحد بعد آخر قال الشاعر :

يرد المياه فلا يزال مداولاً   في الناس بين تمثل وسماع

ومداولة الأيام سنة تكوينية إلهية تابعة لمصالح عامة ومنوطة باسباب عادية فقد تكون الدولة مرة لفرد ومرة اخرى لفرد آخر وهي جارية في جميع الامم إلى ان يأتي امر الله تعالى وبها ينتظم النظام حتى تظهر دولة الحق .

قوله تعالى : وليعلم الله الذين آمنوا .

بيان لوجه من وجوه الحكمة في إقامة السنة الالهية في الناس ، وذكر لاحدى العلل في ثبوت المداولة بينهم ، والجملة معطوفة على محذوف إيماءاً بان الاسباب متعددة والمصالح كثيرة ، وأن الذي ينفع المؤمنين هو ما يذكره عزوجل لعدم امكان إحاطة العقول بجميع الجهات الا ما يبينه تعالى . وقد ذكر عزوجل وجوهاً ثلاثة في المقام وهي قوله تعالى « وليعلم الله الذين آمنوا » . وقوله تعالى : « ويتخذ منكم شهداء » . وقوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا » .

والمراد من قوله تعالى « وليعلم الله الذين آمنوا » مطابقة المعلوم الخارجي مع العلم الازلي وظهوره ووقوعه في الخارج ، لأن إرادته عزوجل بالعلم بشيء هي ارادة تحققه في الخارج على طبق السنة الالهية وهي قانون الاسباب والمسببات ، ومنها جريان المداولة بين الناس ، ولابد من امور توجب تحقق المعلوم بعد خفائه ، فان علم الله تعالى بما سواه ليس على نحو العلم الحصولي يؤخذ من انطباع الصورة نظير

علومنا ، بل هو أدق من العلم الحضوري للنفس بذاته أي أن العلم بالحوادث والاشياء في الخارج عين وجودها فيـــه ، وحينئذ يكون مراده عزوجل بالعلم بشيء تحققه في الخارج ، كما عرفت .

ومبحث علم الباري عزوجل من أدق المباحث الكلامية ، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى . ويمكن ان يقال في المقام على نحو الايجاز: وهو أنه يمكن فرض ذات قديمة تكون عين العـــلم بحقائق الممكنات من الجواهر والاعراض ، والجزئيات والكليات ، وهي عين جميـــع الكمالات الواقعية من الحكمة والتدبير والقيو ّمية ونحو ذلك ، ولابد أن يكون هذا المفروض متحققاً في الخارج وإلا يلزم الخلف ، وهو باطل . فالذات القديمة التي تكون كذلك منحصرة في الله تعالى ، وقد تقدم في قوله تعالى : « لنعلم مَن يتبع الرسول » البقرة ـ ١٤٢ بعض الكلام في مثل هذا الخطاب فراجع .

والمعنى : ليظهر الله تعالى ايمان المؤمنين وصدقهم وثباتهم ، فيميز المؤمن المجاهد الصابر من المنافق .

قوله تعالى : ويتخذ منكم شهداء .

حكمة اخرى في اقامة السنة الالهية . والشهداء: جمع الشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله تعالى ، فيشمل شهداء بدر وأحد وسائر غزوات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) المباركة .

وانما عبر سبحانه وتعالى بالاتخاذ لكمال العناية لهم والتكريم بهم فقد احبهم وارتضاهم فاتخذهم شهداء كما في قوله تعالى : « واتخـــذ الله ابراهيم خليلاً » النساء ـ ١٢٥ .

وذكر بعض المفسرين ان المراد بالشهداء في المقام شهداء الأعمال لعدم معهودية استعمال هذا اللفظ جمعاً للشهيد بمعنى المقتول في القرآن

الكريم ، ولان الاتخاذ لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين ، ولان قوله تعالى : « لا يحب الظالمين » قرينة على ان المراد بالشهداء هم شهداء الاعمال أو من يصلح للشهادة على الامم في يوم الحساب .

وفيه : اولاً انه خلاف سياق مثل هذه الآيات الشريفة إذ لا ربط لقبول قول الشهداء في عداد بيان خصوصيات القتال والجهاد في سبيله .

وثانياً : إذا كانوا من الشهداء في الحق يكونون من الشهداء على الاعمال أيضاً ، لما ذكرنا سابقاً من الشهداء في سبيل الله لهم مقام الشهادة على الاعمال والشفاعة لما ابتلوا بالصبر والايثار ببذل النفس .

وثالثاً : ان قوله تعالى : « لا يحب الظالمين » تفصيل بين الشهداء في الحق فهم ممن احبهم الله تعالى واتخذهم وارتضاهم وبين مَن قتل في غير الحق .

ورابعاً : ان استعمال الشهداء بمعنى المقتول في المعركة مطابق للقواعد العربيه الفصيحة فلا محذور في وروده في القرآن الكريم فليكن المقام من ذلك .

قوله تعالى : والله لا يحب الظالمين .

ارشاد للمؤمنين بترك الظلم وبيان لهم بان حب الله تعالى منحصر بهم ، ويمتنع تعلقه بغيرهم لمكان ظلمهم وقبح افعالهم ولا يتعلق حبه تعالى بالقبيح . والجملة معترضة بين وجوه العلل .

والآية المباركة تنبّه المؤمنين إلى مضمون قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس » فان الاسباب والمقادر وان اقتضت تسلط الظالمين استدرجاً وابتلاءاً للمؤمنين ولكنه تعالى لا يحب الظالمين ولا ينصرهم على الحق ولا يتخذهم شهداء .

وفي الآية الشريفة بشارة للمؤمنين بانه تعالى يحبهم وانذار لاعدائهم بانه جلت عظمته يبغضهم لانهم غير ثابتين على الايمان .

قوله تعالى : وليمحص الله الذين آمنوا .

وجه ثالث من وجوه الحكمة التي اقتضت المداولة بين الناس ، وقد ذكر سبحانه وتعالى اللام في « ليمحص » اهتماماً بهذه الحكمة ، كما ان اظهار اسم الجلالة في موضع اسم الاشارة يقتضي ذلك أيضاً .

ومادة (محص) تدل على الخلوص والتطهير من كل عيب ، يقال : محص الذهب بالنار اي خلصه مما يشوبه ، وعن علي (عليه السلام) في ذكر فتنة قال : « يمحص الناس فيها كما يمحص ذهب المعدن » اي يختبرون ، كما يختبر الذهب ويخلص ذهب المعدن من التراب ، وفي الدعاء « اللهم محص عنا ذنوبنا » اي خلصنا من ذنوبنا قال الشاعر :

حتى بدت قمراؤه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

اي تكشفت وخلصت ، ولكن في التمحص معنى زائداً على التطهير والتكفير ، وهو التطهير عن اختبار شديد وملازمة للبلاء .

والمعنى : ان من الحكمة في مداولة الأيام ومن مصالحها تخليص المؤمنين مع شدة بلائهم وتطهيرهم عن شوائب الرذائل كالنفاق والكفر ومفاسد الاخلاق والذنوب والمعاصي ، فيتجلى المؤمن بالتمحيص بأكمل وجه خالصاً عن كل شين وعيب ورذيلة ، وهذا هو التمحيص ، فهو التطهير مع شدة الاختبار والامتحان كما يتمحص الذهب بالنار عن كل شائبة .

وهذا التمحيص والاختبار بين الصحيح والفاسد من مدارك العقل السليم ، وان بعث الانبياء وانزال الكتب السماوية لم يكن إلا لهذه الجهة وهي دخيلة في تنظيم نظام الاحسن وبدونها يختل النظام .

قوله تعالى : ويمحق الكافرين .

بيان للطرف الذي قد خسر في التمحيص . والمحق هو الازالة والتنقيص شيئاً فشيئاً وقد تقدم في قوله تعالى : « ويمحق الله الربا ويربي الصدقات » البقرة ـ ٧٦ بعض الكلام ، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلا في هذين الموضعين فقط ، وفي الحديث : « ما محق الاسلام شيئاً ما محق الشح » وعنه (صلى الله عليه وآله) « الحلف منفقة للسلعة وممحقة للبركة » .

ومحق الكافرين إما باذهاب شوكتهم أو ابطال حججهم ، وازالتهم وافنائهم شيئاً فشيئاً فان تمحيص المؤمن يستلزم إبادة آثار الكفر والشرك والنفاق والكيد شيئاً فشيئاً حتى يضمحلوا .

وفي الآية المباركة بشارة عظيمة بغلبة المؤمنين ونصرهم على الكافرين وظهور دولة الحق .

قوله تعالى : ام حسبتم ان تدخلوا الجنة .

لوم وعتاب لما قد يصدر من المؤمنين كما صدر عنهم في يوم بدر وأحد من العُجب وما يدور في سرائرهم من الظنون الباطنة التي قد توجب اختلال نظام الامتحان والاختبار وفي ذلك بطلان نظام التشريع وبطلان الفطرة التي ابتني عليها الدين ، وفساد للسنة الالهية التي جرى عليها نظام الاسباب والمسببات للعادة فان الله تعالى لم يخلق العالم عبثاً [illegible] تعالى في هذه الآيات حقيقة الحال ليبطل

الظنون ، فهذه الآية المباركة تبين الغاية من المداولة والنتيجة لما ورد في الآيات السابقة .

و « ام » منقطعة تفيد الانكار جيء بها لبيان العلة في ما لقوه من المصاعب والمتاعب والشدائد ، ولكنه عزوجل لطفاً بهم جعل كل تلك الشدائد وسيلة للفوز وللوصول إلى المقام الاعلى ، وتمحيصاً لهم . وفي الآية الشريفة جعل المسبب موضع السبب .

والمعنى : ام حسبتم كما حسب بعض اهل الغرور من انهم على الحق ـ وهو لا يغلب ـ وان الظفر والغلبة لا تفوتهم وكذا الفوز بالسعادة الآخروية والله تعالى ينكر ذلك عليهم ويبين انه حسبان محض .

قوله تعالى : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين .

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعية وهي انه لا تمكن الوصول إلى الهدف الا ببذل النفس والنفيس في طريق الوصول فلابد من الامتحان والاختبار ليعلم الصابر المجاهد عن غيره ويستبين المستحق لنيل الدرجات الرفيعة من غيره .

ومعنى لما يعلم : انه لم يتحقق معلومه الخارجي بعد كما تحقق في علمه الازلي ، فالتعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم وهذا من مختصات علم الباري جل شأنه لان نفي علمه يستلزم عدم وجود ذلك الشيء ، لما تقدم في الآيات السابقة من ان علمه عين ذاته ولا يعزب عن علمه شيء قال تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين » يونس . ٦١ .

قوله تعالى : ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه.

ظاهر الخطاب انه لطائفة من المؤمنين كانوا يتمنون الشهادة في سبيل الله تعالى ، ويؤيـد ذلك ما ورد في الحديث ان المؤمنين لما اخبرهم الله تعالى بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنة رغبوا في ذلك وطلبوا منه عزوجل ان يرزقهم القتل في سبيله فلما أراهم الله تعالى يوم أحد اياه لم يثبتوا إلا مَن شاء منهم .

والمراد من الموت هنا هو الشهادة في سبيل الله تعالى والجهاد مع اعدائه مما يتمناه كل مؤمن لا مطلق الموت فان تمنيه مكروه .

وفي الآية الشريفة عتاب لمن كان يتمنى القتل في سبيل الله تعالى ثم لم يثبت عليه وتنبيه المؤمنين إلى ترك الغرور والتمني بما لا يقدرون على الثبات عليه .

كما ان هذه الآية المباركة تعطي درساً للمؤمنين بانهم إذا تمنوا خيراً لاسيما الجهاد والقتل في سبيل الله تعالى لابد من محاسبة انفسهم وامتحان قلوبهم ، واختبار استعدادهم على الثبات والمثابرة وإلا فان تمني كل أمر من دون ملاحظة تلك الخصوصيات انما يكون ضرباً من التخييل والوهم والغرور ، ولذا نرى ان كثيراً من المتمنين لم يثبت على ما تمناه عند الامتحان في الفعل ومرحلة العمل لانه لم يصدر عن قدم راسخ وعزيمة قويمة .

وانما عقب سبحانه وتعالى الاختبار والتمحيص بهذه الآية الشريفة لبيان كيفية التمحيص والاختبار ، وما في هذه الآية انما هو مثال لهما وزيادة في الايضاح .

والمراد من قوله تعالى : « من قبل ان تلقوه » : من قبل

الامتحان بالعمل والاختبار بالاقدام على الفعل .

قوله تعالى : فقد رأيتموه وانتم تنظرون .

الرؤية : الاحساس بالباصرة . والنظر هو المعاينة وهو غير الرؤية فان الثانية متعدية إلى المفعول بنفسها والنظر يتعدى إلى المفعول بـ إلى .

والجملة تبين شدة معاناتهم للحادثة والوقوع في الاختبار والامتحان فقد رأوا ما فيه الاختبار وتمعنوا فيه ونظروا إلى جميع الخصوصيات التي تمكنهم الوصول إلى ما تمنوه من الشهادة في سبيل الله تعالى .

وانما عبر سبحانه بالرؤية مبالغة في مشاهدتهم له وتأكيداً لظهور الخصوصيات لهم ومعاينتهم لها ولذا عبر عزوجل بـ«وانتم تنظرون» .

قوله تعالى: وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل.

مثال آخر من الامثلة القرآنية لاختبار الناس وتمحيص المؤمنين ، ويبين سبحانه وتعالى في هذه الآية حقيقة من الحقائق الواقعية التي يشهد عليها البرهان ووجدان المتأملين من افراد الانسان وهي انه متى ظهر في الدنيا مثال للعقل العملي والنظري ودعا الناس اليهما فآمن به جمع ثم غاب عنهم يكون اتباعه على قسمين ، قسم استعدت نفوسهم لنيل المعارف الالهية وتمكنت فيهم فيكون حضوره وغيبته عندهم على حد سواء ، بل لا يرون غيبته غيباً لحضور معارفه لديهم ابداً ويرون ان العمل بها منشا لسعادتهم الدنيوية والأخروية قال تعالى : « الم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون » ابراهيم - ٥٤ وقسم

آخر يكون ايمانهم طمعاً في الحطام أو خوفاً من الحسام فهم « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار » ابراهيم ـ ٢٦ فلا محالة يميلون مع كل ريح بعد غيبته يميناً وشمالاً ويسعون وراء كـل شهوة قال تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » مريم ـ ٥٩ ولا اختصاص لمضمون هذه الآية الشريفة باتباع سيد المرسلين بل هو متحقق في اتباع كل نبي بعد ارتحاله ، ولعل في قوله تعالى : « قد خلت من قبله الرسل » اشارة إلى ذلك ، ويدل على ذلك الحديث المعروف بين الفريقين : « ستفترق امتي بعدي ثلاث وسبعون فرقة » .

وهذه الآية المباركة من ملاحم آيات القرآن الكريم وقد اخبر سبحانه وتعالى نبيه الكريم تسلية لقلب سيد الانس والجان وان ما تحمل به من الاذى والصعاب في سبيل الله تعالى محفوظ عنده عزوجل ، وان لم تعرف الامة قدر نبيها الكريم (صلى الله عليه وآله) وفيها العتاب على مَن لم يثبت على الايمان .

ومحمد علم لنبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) وهو بمعنى مَن كثرت خصاله المحمودة سماه به جده عبد المطلب وقال : « رجوت ان يحمد في السماء والارض » ولم يسم به أحد قبله وهو مشتق من حمّد (المضاعف) وفي هذا الاسم العظيم اسرار لا يعرفها الا الراسخون في العلم .

والمعنى : ليس محمد (صلى الله عليه وآله) إلا بشراً رسولاً من الله مثل سائر الرسل والانبياء التي مضت من قبله بلغوا رسالات ربهم ولا يملكون من الامر شيئاً إذا دعاهم الله اجابوا فمن هداه الله عزوجل إلى الايمان فانما اهتدى بهداه فلا يضره موت النبي ، فهو

يبلّغ عن الله تعالى ويدعو اليه فالدين باق ببقاء الله تعالى وان تبدلت المبلغين عنه تعالى فلا يكون موت نبي موجباً للخروج عن طاعة الله تعالى ودينه .

قوله تعالى : أفإن مات أو قتل .

الهمزة للانكار والموت : هو زهاق الروح ، كما ان القتل كذلك ولكن الأخير متضمن لسبب الموت ، ولعله في المقام باعتبار اشاعة قتله (صلى الله عليه وآله) في يوم أحد ، كما عرفت في البحث التاريخي .

وذكر موته باعتبار وقوعه عليه (صلى الله عليه وآله) بعد ارتحاله عن هذا العالم ، فالآية الشريفة تبين جميع المحتملات ، سواء كانت باشاعة أو بوقوعه الخارجي حين ارتحاله والاثر مترتب على كل منهما .

قوله تعالى : انقلبتم على اعقابكم .

كناية عن الخروج عن الطاعة والرجوع إلى الكفر ، والتعبير بذلك اشارة إلى بقاء جميع رذائل الجاهلية وعدم رسوخ الدين في قلوبهم وإلا فلا معنى للانقلاب بعد معرفة الحق حقيقة . وفيه ايماء إلى انه إذا قتل أو مات ترجعون إلى الكفر وتكونوا محاربين مع الرسول .

قوله تعالى : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً .

تقدم ان المراد بالانقلاب على الاعقاب هو الرجوع عن الطاعة والكفر بالدين ، وهذا الخطاب يختص بالرجوع السريع من دون توقف ، فكانما ركب الفرس في الرجوع إلى الوراء .

والمعنى : مَن يخرج عن طاعة الله تعالى ويكفر بالدين فانه يضر

نفسه بتعريضها للسخط والهلاك وحرمانها عن الكمال المعد لها، ولن يضر الله كفر الكافرين ابداً ، لانه غني عن العالمين ، وهؤلاء هم الذين ذكرهم الشيطان في ما حكاه عزوجل عنه : « قال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين » الاعراف ـ١٧ ويقابلهم مَن سيذكره تعالى بعد ذلك الذين شكروا الله تعالى .

قوله تعالى : وسيجزي الله الشاكرين .

بيان لنوع آخر مقابل لمن ينقلب على عقبيه . والشكر هو صرف العبد جميع ما انعم الله به عليه من لسانه وقلبه وجميع جوارحه في ما خلق لأجله ، فهو اظهار النعمة بالعمل ويقابله الكفر ، ومقام الشكر من اعلى مقامات العارفين الشامخين ، واخص صفات المخلصين المتقين وقد تقدم في سورة الفاتحة الفرق بين الحمد والمدح والشكر فراجع.

والشاكرون هم الذين ثبتوا على الايمان واقاموا على طاعة الله عزوجل والاخلاص له ، واستقر فيهم وصف الشكر فهم في حالة ذكر الله تعالى بالقول والعمل ؛ وهم الاقلون الذين ذكرهم الله تعالى في قوله « وقليل من عبادي الشكور » سبأ ـ ١٣ ، كما انهم هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم واستثناهم عن اغوائه ؛ قال تعالى حكاية عنه «فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين» ص ـ ٨٣ .

والآية الشريفة ترشد إلى أن في القوم مَن يثبت على دينه ويعمل على طبقه فهو شاكر لله تعالى ولا يختص مضمونها بعصر الرسالة بل يجري في جميع الامة ، وإنما لم يذكر سبحانه وتعالى جزاء الشاكرين

تعظيماً له وإعلاماً بجلالة قدره .

قوله تعالى : وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله .

تثبيت لمضمون الآية المتقدمة فان موت الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكن جزافاً ولا بتحقق بالاشاعة ولا يمكن أن يكون سبباً للارتداد لو تحقق ، وتعريض بمن كان يثبط المؤمنين بالقعود عن القتال والجهاد في سبيل الله تعالى ، كما حكى عنهم عزوجل في موضع آخر قال سبحانه « ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » وتسلية للمؤمنين بمن قتل منهم ، وارشاد للناس إلى ان الموت والحياة بيد الله تعالى وقدرته لا يتحققان مصادفة من دون تقدير من الله عز وجل ، وهذه هي سنة محكمة فلا وقع للجبن والخوف ، ولا عذر للوهن والضعف والقعود عن الجهاد .

والمعنى : انه لم يثبت ولا هو ثابت لنفس ان تموت إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره فهذه سنة محكمة في خلقه ويجري عليها نظام الحياة.

قوله تعالى : كتاباً مؤجلاً .

تأكيد لمضمون ما قبله ، والكتاب مصدر منصوب بفعل مقدر من لفظه اي كتبه الله تعالى كتاباً مقروناً بأجل معين معلوم حدوده غير قابل للتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : « إذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » يونس - ٤٩ .

والآية المباركة تحرض المؤمنين على الجهاد والتشجيع على لقاء العدو وترك الحذر والخوف ، لانه لا يموت احد قبل الوصول إلى أجله .

قوله تعالى : ومَن يرد ثواب الدنيا نؤته منها .

بعدما ذكر سبحانه وتعالى خصائص الطائفتين المنقلبتين على الاعقاب والباقين مع الرسول (صلى الله عليه وآله) والراسخين على دينهم يبين جل شأنه في هذه الآيـة المباركة جزاء الطائفتين . فمنهم من يعمل للدنيا ويريد جزاء عمله في الدنيا فالله تعالى لا يحرمه منهـا ، ومنهم من يعمل للآخرة ولا يريد الجزاء إلا فيها .

والمعنى : مَن يريد من الله بعمله ثواب الدنيا والجزاء فيها فالله تعالى يؤتيه منها ومَن يرد بعمله من الله ثواب الآخرة وما اعده الله تعالى لمَن يطلبها نؤته منها على قدر خلوصه واخلاصه .

وفي الآية المباركة وعد منجز منـه عزوجل بالوفاء إن تحققت الشرائط فيهم قال تعالى : « مَن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحوراً ومَن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً » الاسراء ـ ١٩ فلابد ان يقيد المقام بهذه الآية الشريفة التي تكون تفسيراً لها .

قوله تعالى : وسنجزي الشاكرين .

بيان مستقل للتنويه بمقام الشاكرين ووفور جزائهم ، ولبيان ان الشاكرين لم يكونوا يقصدون في اعمالهم إلا وجه الله تعالى وشكره ، ولا يمكن أن ينقطع الجزاء عنهم ، ولذا لم يذكر سبحانه وتعالى كيفية الجزاء وكميته لعدم التحديد في كل منها ، وللتعظيم والترغيب حتى يذهب ذهن السامع اي مذهب ممكن .

قوله تعالى : وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير .

ثناء جميل على جميع السعداء الذين وفوا بعهدهم وثبتوا على الصراط المستقيم ، وشيدوا اركان التوحيد القويم . وبشارة هامة لمن استقام على الطاعة لله عزوجل ، وتشويق للمؤمنين بالإيتام بالمتقين الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة دين الله تعالى ،والاعتبار بما جرى عليهم والاتعاظ منهم ، وتثبيت لما ورد في الآيات السابقة ، فكأن الآية الشريفة خاتمة لجميع تلك الآيات ، واشتملت على مضمونها ،وتوبيخ لمن انهزم في اُحد فانهم لم يستنوا بسنة المجاهدين الربانيين ، وانذار للذين جاهدوا مع سيد الانبياء وتحملوا انواع البلاء والاذى بأن لا يعجبوا بفعلهم ، فان سنة ممّن قبلهم كانت كذلك أيضاً .

وكأين : تفيد معنى كم الخبرية والتكثير ، وقد استعملت في القرآن الكريم في سبعة مواضع . و (من) بيانية . و (ربيون) هو المنسوب إلى الرب كما يقال رباني . وقال في الكشاف قرىء بالحركات الثلاث وانما كسرت الراء لتغيير النسب ، فان النسبة تكون معها تغييرات كثيرة في بناء الكلمة ، وقد تقدم في قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » آل عمران ـ ٧٩ معنى الكلمة . وقيل : إن الكلمة مشتقة من (ربة) بكسر الراء أو ربّوة وهي الجماعة ثم اختلفوا في عددها فقيل : انها الجموع الكثيرة ، قيل : انها ألوف ، وقيل : انها عشرة آلاف ، وقيل : انها ألوف الالوف ، وقد وردت في القولين الاخيرين روايتين ، ويمكن أن يكون المراد بذلك كمية خاصة اتصفوا بالربانية فيختلف عددهم حسب اختلاف الازمنة ، فلا نزاع في البين وكيف كان فنسبة الربي إلى الربوة يحتاج إلى تصرف زائد بقلب

الواو ياءاً ثم حذف الياء ، مع أن ظاهر الآيه الشريفة التوبيخ لاصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) المنهزمين في أحد فلو كان لمجرد بيان العدد فلا يستفاد منه التوبيخ ولا موقع له ، يضاف إلى انه تعالى وصفهم بأوصاف حميدة وجليلة مما يدل على عدم وجودها في كل أحد .

والمعنى : وكم من نبي قاتل معه في جهاده في إقامة الحق ونصرة دين الله تعالى من كان منتسباً الى الرب وتخلق باخلاق الله تعالى وتربّى بتربيته الرسول الكريم والنبي العظيم فصبروا . فلماذا فررتم عن سيد الانبياء (صلى الله عليه وآله) ولم تصبروا؟!! وقد وصف الله تعالى الربيون باوصاف تدل على جلالة قدرهم .

قوله تعالىٰ : فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله .

وصف أول ، وهو عدم لحوق الوهن في عزائمهم بما اصابهم من الشدائد والاذى في الحرب، والجهاد في سبيل الله تعالى ، أو ما عجز عن الجهاد عند قتل انبيائهم أو شاع قتلهم ثبتوا على دينهم .

قوله تعالى : وما ضعفوا .

وصف ثان . وهو عـدم اصابة الضعف في ابدانهم وما فتروا لانهم لم يستسلموا للرعب والخوف وروعة الحرب وشدتها ، ويمكن ان يكون المراد بالوهن الضعف للمجموع والضعف للآحاد .

قوله تعالى : وما استكانوا .

وصف ثالث . والاستكانة : هي الخضوع والذلة بحيث يؤثر في نفوسهم ويوجب الرجوع عن الايمان والانقلاب الى الكفر . ويحتمل

ان يكون كل وصف من الاوصاف المتقدمة إشارة إلى طائفة من الطوائف التي كانت مع نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) فالاول إشارة إلى الجماعة التي رجعت عن الحرب وولّوا الادبار ، والثاني إشارة إلى الطائفة التي همت بالفصل واستسلموا للرعب أو المال كالذين رجعوا عن فم الشعب ، والثالث هم المنافقون المرجفون الـذين رجعوا عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

قوله تعالى : والله يحب الصابرين .

أي ان الربيون مع مقاساتهم الاهوال وتوارد انواع الشدائد عليهم صبروا ، وكفاهم فخراً ان الله يحب الصابرين فيوفيهم اجرهم بأحسن وجه ويعظم قدرهم ومنزلتهم ، وفي الآية الشريفة كمال الثناء عليهم وبيان وجه العلة فيه .

قوله تعالى : وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا .

بعدما بين عزوجل افعالهم واحوالهم ذكر في هذه الآية الشريفة اقوالهم لتتم الحجة على المؤمنين فان عليهم الاتعاظ من افعالهم واقوالهم والاعتبار بها والاستنان بسنتهم والاقتداء بهم حتى لا يتكرر منهم الوهن والفشل في جنب الله تعالى ونصرة دينه .

والآية المباركة تبين شدة صلتهم بالله تعالى وكمال خضوعهم له عزوجل فقد كان قولهم مطابقاً لفعلهم ولم يختلفا .

وما كان قولهم في تلك الحال الا الاعتصام بالله تعالى قولاً وطلب الغفران لذنوبهم التي توجب بُعدهم عنه تعالى وقطع الفيض الربوبي .

قوله تعالى : واسرافنا في امرنا .

اي : تجاوزنا عن الحدود التي حددها الله تعالى لنا ، فان شدة الحال قد توجب صدور بعض الهفوات والزلات والتجاوز عن الحد .

وهذا الدعاء منهم يدل على استصغار عملهم ، واعترافهم بالتقصير في مقام عبوديتهم ، وكمال انقطاعهم اليه تبارك وتعالى .

وانما قدموا الدعاء بالمغفرة على غيره لازالة الحجب عن وصول الفيض والعطف الربوبي ، ولتقدم التخلية على التحلية .

قوله تعالى : وثبت اقدامنا .

اي : لا تزل اقدامنا عن الصراط المستقيم ، وفي جميع الاحوال لا سيما عند الجهاد والطاعة لئلا تضلنا الاهوية ومضلات الفتن .

قوله تعالى : وانصرنا على القوم الكافرين .

لتطهير الارض من آثامهم ومفاسد اخلاقهم ، فان طهارتهم من الذنوب يستلزم النصرة على مَن يكون محاطاً بها .

وانما قدم طلب الغفران والتوفيق لأن الدعاء الصادر عن الخضوع والطهارة اقرب إلى الاستجابة .

قوله تعالى : فآتاهم الله ثواب الدنيا .

تعظيم لهم لما يترتب على طاعتهم الثواب العظيم اي : اعطاهم الله تعالى جزاءاً لما قالوا ثواب الدنيا فأنعم عليهم انواع النِعَم الدنيوية كالنصر وحسُن السمعة والسعادة الدائمية .

وترتب الآية الشريفة على ما تقدم من قبيل ترتب المسبب على السبب .

قوله تعالى : وحسن ثواب الآخرة .

تفضيل لثواب الآخرة على ثواب الدنيا وارتفاع قدره ومنزلته وتوصيف ثواب الآخرة بالحسن ، لبيان ان ثواب الدنيا في مقابل ثواب الآخرة ضئيل جداً بل ليس فيه حسناً .

قوله تعالى : والله يحب المحسنين .

اي جزاءاً لاحسانهم والله يحب المحسنين ومحبة الله تعالى لعبده مبدأ كل خير وسعادة ، وفي الآية الشريفة الترغيب إلى تحصيل تلك المناقب والتحريض على الدخول في المحسنين .

بحوث المقام

بحث ادبي :

قوله تعالى : « وانتم الاعلون » فيه وجوه من الاعراب فقيل انه جملة حالية من فاعل الفعلين « لا تهنوا ولا تحزنوا » فتكون كالاحتجاج عليهم في النهي عن الوهن والحزن . وقيل : ان الجملة ابتدائية فتكون متضمنة للبشرى بالعلو . وقيل : انها جملة حالية مطلقا في جميع الحالات في علم الله تعالى وبحسب علمكم بما وعده الله تعالى وبشره لكم ، كما عرفت .

والفعل المضارع في قوله تعالى : « ان يمسسكم قرح » لحكاية الحال واستمرار ذلك في المتقاتلين .

وتلك في قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس » اسم إشارة يشار به إلى البعيد يفيد التفخيم والتعظيم ، و « الايام » عطف و « نداولها » خبر ، وقيل : اسم الاشارة مبتدأ و « الأيام » خبره و « نداولها » في موضع نصب حال من « الايام » وفعل المضارع دال على الاستمرار والتجدد . واللام في « الايـام » إما للعهد اي : اوقات الظفر ، أو للجنس اي أيام الدنيا وما يقع فيها من الحوادث.

واللام في قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا » للعاقبة اي : ولتكون العاقبة ان يتحقق في الخارج المعلوم وهو ايمان المؤمنين.وقيل للتعليل . والجملة معطوفة على فعل آخر اي ليظهر امركم وليعلم أو ليتميز المؤمن من غيره وليعلم .

والالتفات إلى الغيبة في قوله تعالى : « وليعلم » واسناده إلى الاسم الظاهر لبيان ان كل صفة من صفاته المقدسة الكمالية لها مجمع واحد وهو اسم الجلالة ، ولاظهار المهابة والعظمة .

و « أم » في قوله تعالى : « ام حسبتم » منقطعة ، وقيل انها مقدرة بـ (بل) وهمزة الاستفهام الانكاري ولكن الحق إن هذه الكلمة تفيد الانكار ، ولا يحتاج إلى التقدير .

وجملة « ولما يعلم الله الذين جاهدوا » حال من « تدخلوا » مؤكدة للانكار ،وكلمة «لمّا» تفيد النفي المستمر حتى يتحقق المعلوم في المقام.

وانما ذكر عزوجل « لما » دون « لم » لبيان أن الجهاد قد يتحقق منهم في المستقبل .

والواو في قوله تعالى : « ويعلم الصابرين » بمعنى مع ، ويعلم منصوب بـ (أن) المضمرة ، فيكون العلم الصابرين قيداً لا اثر العلم بالمجاهدين . وقيل : ان الواو للاستيناف أو الواو للحال بتقدير وهو

و (يعلم) مرفوع على كلا التقديرين .

وتمنون في قوله تعالى : « ولقــد كنتم تمنون » اصله تتمنون فحذفت احدى التائين .

و (كأيّن) قيل : إنها مركبة من كاف التشبيه وأي الموصولة ورسمت النون للمحافظة على التنوين في الاصل وانها صارت بعــد التركيب اسماً تفيد معنى (كم) الخبرية والتكثير ، ومحلها الابتداء وما بعدها تمييزها وخبرها .

ثم ذكروا ان كم وكأين متشابهتان في خمسة امور هي : الابهام ، والبناء ، ولزوم التصدير ، وإفادة التكثير ، والافتقار إلى التمييز .

وتخالف كأين كم في خمسة امور أيضاً : انها مركبة ,وكم بسيطة - على ماذكره جمع - وان تمييزها مجرور بـ من غالباً ، وانها لا تقع مجرورة ، وان خبرها لا يقع مفرداً ، وانها لا تقع استفهامية .

والصحيح ان (كاين) كلمة بسيطة لاأنها مركبة والنون اصلية، والمعروف ان فيها لغات اربع قرىء بها « كأين » بالتشديد وهذه القراءة معروفة ومرسومة في المصحف و (كائن) مثل كاعن،و(كئن) مهموزاً مقصوراً مثل (كعن) و (كأين) مثل كعين .

وقاتل في قوله تعالى : « وقاتل معه ربيون » خبر و « ربيون » فاعل ، وقيل ان الفاعل ضمير يعود إلى النبي (صلى الله عليه وآله) و « معه ربيون » جملة حالية لقاتل وهو ضعيف لان الجملة الاسمية تحتاج في كونها حالاً إلى الرابط بالواو أو بها مع الضمير ، ولا يصح الاكتفاء بالضمير وحده كما هو المعروف عندهم . وقيل وجوه اخرى في إعراب هذه الجملة .

وجملة « وما كان قولهم الا ان قالوا » قولهم بالنصب خبراً لكان

واسمها المصدر المتحصل من ان وما بعدها . والاستثناء مفرغ من اعم الاشياء ، وقيل (قولهم) بالرفع على ان يكون اسم كان والخبر ان وما في حيزها أي : وما كان شيئاً الا قولهم .

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور :

الاول: يدل قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون» ان الوهن والحزن في الحق قبيح عقلاً مع العلم بالعلو ، فالنهي ارشادي لا ان يكون مولوياً مع ان الحزن انما يكون على شيء قد خسره الانسان وفات منه بدون عوض واما العمل الذي يكون محفوظاً لديه عزوجل ويجزى عليه بأحسن وجه فلا وجه للحزن عليه .

وفي الآية الشريفة تأديب للمؤمنين في كيفية حزنهم وهنهم .

الثاني : يدل قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » على ان الانتهاء عن الوهن والحزن انما يكون على قدر الايمان بالله تعالى لانه جنة واقية تمنع المؤمنين عن الوقوع في المهالك .

وهذا الخطاب ينبه الانسان إلى محاسبة نفسه والاستعداد للقاء الشدائد وأخذ الحيطة في الاقتحام في المهالك والنظر في مقدار الايمان ومعرفة خصوصياته فان الامداد الالهي والنصر انما يكون على قدر اللياقة .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم مثله » أن القرح الذي أصابهم لم يكن نكاية ، والتعبير بالمس لتهوين المصاب والخطاب يفيد حضور مضمون الآية في اذهان المخاطبين

واستمراره في جميع الاعصار .

ويمكن ان تكون تعقيب الآية الاولى بهذه الآية لبيان ان سبب الوهن والحزن هو ما شاهدوه من القرح الذي اصابهم .

الرابع : يدل قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس » على ان الزمان يكون ظرفاً للاعمال ، وإنما العبرة بالاعمال التي تقع فيه والتي لها الخلود وان العاقبة مع المتقين من الناس .

الخامس : الآيات الشريفة : « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » كلها تبين الغرض ووجوه الحكم في حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع الاعداء ، وقد ذكر عزوجل في الآيات السابقة بعض الوجوه وذكر في هذه الآيات بعضها الآخر وهي تحقق سنة الله تعالى واقامتها في الناس ، وتحقق معلوم الله في ايمان المؤمنين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء ، ومحق الكافرين . وهذه الوجوه يحكم بحسنها العقل السليم والفطرة المستقيمة ، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيها ان شاء الله تعالى .

السادس : يدل قوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين » على ان التخطي عن الاحكام الالهية والخروج عن طاعة الله عزوجل وما ورد في الآيات السابقة ظلم والله تعالى لا يحب الظالمين وكفى بذلك خزياً ، ويستفاد منه أيضاً ان ذلك يوجب تسلط الظالمين فان مقادير الامور ومجرى الاسباب العادية تقتضي استيلاء الظالمين لو تحققت المخالفة وتركت الطاعة .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا

ويمحق الكافرين ، ان تمحيص المؤمنين يستلزم محق الكافرين ، فان الله تعالى ينقص الكافرين شيئاً فشيئاً حتى يفنيهم ويقيم دولة الحق وتظهر كلمة الله ويستولي اهل الحق والعدل على الظلم والعدوان .

الثامن : يستفاد من اطلاق ما تقدم من قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ان التمحيص كما يقع على الفرد يقع على المجتمع أيضاً فاذا وقع على المؤمن اقتضى ظهور فضائله الكامنة وإذا وقع على المجتمع يوجب تميز المؤمن عن الكافر والمنافق .

واما المحق فانه يتحقق بعد توارد الامتحانات الالهية على الكافر التي توجب ظهور الخبائث الكامنة في الكافر وزوال الفضائل الظاهرية فكان ذلك محقاً تدريجياً حتى ظهور دولة الحق التي تقضي على اصل الظلم والعدوان قال تعالى : « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » الانبياء ـ ١٠٥ وانما قدم عزوجل التمحيص على المحق لسبق رحمته على غضبه .

التاسع : يدل قوله تعالى : « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة » على ان دخول الجنة انما يكون بالمجاهدة والصبر ، وبهذين العمادين انتظم النظام الاحسن وحفظ المجتمع الاسلامي واقيمت وحدتـه وتحققت شوكته لان الظفر والفوز في الدنيا والدخول في الجنة في الآخرة لا يكون بالأماني والغرور بل بالمجاهدة والمكافحة والمصابرة .

والآية الشريفة تبين حقيقة من الحقايق الواقعية التي لا يمكن التخلف فيها وسنة الهية لا يدخل فيها التغيير والتبديل .

العاشر : يدل قوله تعالى : « ولقـد كنتم تمنون الموت » على انه لابد للمؤمنين محاسبة انفسهم وامتحان قلوبهم في كل ما يريدون

التمني من دون عزيمة وعمل لا يوصل الانسان إلى الواقع فلابد من الامتحان والاختبار حتى ينال المقصود .

الحادي عشر : يستفاد من الشرط والجزاء في قوله تعالى : «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل» ان ايمان بعض كان قائماً بوجود النبي (صلى الله عليه وآله) ويزول بزواله وان موت النبي (صلى الله عليه وآله) أو قتله يقتضي ظهور الكفر الباطن عند جمع ويوجب تركهم القيام بالدين وان ايمانهم كان ظاهرياً لاجل الثواب الدنيوي كما في بعض الاحاديث ، ولذا أكد سبحانه على الشاكرين وكرر ذكرهم وبيّن جزاؤهم الاوفى ، ووعدهم الحسنى مقابلة لتلك الطائفة .

الثاني عشر : يستفاد من قوله تعالى : «وسيجزي الله الشاكرين» التنويه بمقام الشاكرين وهو يدل على وجود طائفة في من آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله) قد استحكم فيهم الدين واستقاموا على الصراط المستقيم واظهروا الشكر العملي ولم ينقلبوا على اعقابهم لانهم دخلوا في زمرة الشاكرين والذين استقر فيهم الشكر وصار ملكة فيهم لاتفارقهم ويدل على ذلك ذكر الوصف الذي يدل على الاستقرار وصيرورة المعنى ملكة في المتلبس بخلاف الفعل الذي يدل على مجرد التلبس ، ولذا لم يرد في القرآن الكريم اسم الشاكرين على نحو التوصيف إلا في هذين الموردين .

الثالث عشر : اطلاق قوله تعالى : «وما كان لنفس ان تموت إلا باذن الله» يشمل جميع النفوس نباتية كانت أو حيوانية ، أو انسانية ، أو روحانية ، فان موت كل ذي نفس لا يكون إلا بقضاء الله تعالى وقدره التفصيلي الاحاطي وهذا هو المراد بالاذن ، سواء كان بدون سبب اختياري من الغير أو كان كذلك ، ولكن لابد من انتهاء كل ذلك إلى الحي القيوم خصوصاً

ما يتعلق بالحياة مطلقا .

ومن ذلك يعلم انه لا معنى للنزاع في القتل أو غيره مما يوجب موت الانسان هل يكون هو الموت الطبيعي أولا ، فان الموت سواء كان طبيعياً أو غير طبيعي متحقق بزهاق الروح بلا اشكال . نعم مدة العمر والأجل شيء آخر وقال بعض المحققين :

موتاً طبيعياً غدى اخترامي قيس إلى كلية النظامي

يعني : كل موت اخترامي موت طبيعي إذا قيس الموت إلى كلية النظام الاحسن ، واما إذا لوحظ الموت الاخترامي بنفسه لنفسه فقد يكون مختلفاً مع الموت الطبيعي في الزمان والأجل .

الرابع عشر : تبين الآيات الشريفة : « وما كان لنفس ان تموت إلا باذن الله . . إلى آخر الآيات » حقيقة الطائفتين المتقدمتين وهما المنقلبون على الاعقاب والمؤمنون الثابتون ، فذكر عزوجل ان الأولى عملت لأجل الدنيا وثوابها واستهانوا بالسنة الالهية في الموت والحياة واعتقدوا بطلان الملك الالهي والتدبير الرباني . واما الطائفة الثانية فقد وصفهم الله تعالى بأحسن الاوصاف واعظمها ويكفي في فخرهم انه وصفهم بالشاكرين والمحسنين والله تعالى يحبهما .

الخامس عشر : يستفاد من قوله تعالى : « وكاين من نبي قاتل معه ربيون كثير » جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم فقد نعتهم عزوجل بنعوت تدل على كمالهم وتوجههم إلى الله تعالى وطاعتهم له عزوجل واحترامهم للانبياء وقد احبهم الله تعالى لجهتين تارة لاجل صبرهم واخرى لاجل احسانهم ، وهذا هو فضل عظيم وفخر كبير وفوز عظيم .

ربيون كثير » على ان جميع ما ورد فيها من مكارم الاخلاق وافضل المناقب ، وأنها من سبل الاحسان ومَن اتصف بها يدخل في زمرة المحسنين الذين يحبهم الله تعالى .

ويستفاد منها أيضاً انه لابد للمؤمن من ملازمة الخضوع والخشوع وظهور آثارهما على الاقوال والاعمال حتّى يحبهم الله تعالى

السابع عشر : يدل قوله تعالى : «وانصرنا على القوم الكافرين» ان هدف كل مؤمن في جهاده وكفاحه هو النصرة على القوم الكافرين وإخماد نارهم واذهاب شوكتهم وتطهير الارض من مكائدهم ومفاسدهم واحقاق الحق وهذا هو الحق الذي ذكره عزوجل في ما سلف من الآيات الشريفة ويطلبه المؤمنون في دعوتهم ولا معنى لحقانية الحق في مقابل الباطل الا طلب النصرة عليه تكويناً واختياراً .

بحث عرفاني

الاستقامة في الحق وبالحـــق من ابرز مقامات الانبياء والمرسلين والاولياء الصالحين والعرفاء الشامخين وهي عبارة عن الصراط المستقيم بل هي حقيقة الجنة التي تظهر في الآخرة بأحسن مطلوب ، ولا يمكن ان تحصل الاستقامة الا باختبار العبد وامتحانه وتمحيصه بأشد البلاء لتظهر مكارم اخلاقه الكائنة في نفسه واذهاب ما هو فاسد فيه فلو لم يكن اختبار لما كان هذا الجزاء الجزيل ولا ترتبت هذه الثمرات المطلوبة وبعد ذلك للتأييدات السماوية دخل في البين على نحو الاقتضاء لا العلية التامة وأس الاستقامة في الحق بالحق واساسها مبني على تجلي عظمة

الله تعالى في القلب وإحتقار ما سواه بحيث لم ير العبد شيئاً غيره جلت عظمته وكلما اشتد ذلك في القلب وظهر أثره على الجوارح اشتدت الاستقامة ورسخت في النفس ، وحقيقة المجاهدات الشرعية سواء كانت نفسانية أو خارجية مع اعداء الله تعالى لا تكون إلا من سبل الاستقامة واستحكام حقيقة الشكر في النفس وظهور الخشوع والخضوع على الجوارح والجوانح وهذا هو السر في تكرار « الشاكرين » في الآيات المتقدمة وذكر صفاتهم وما يوجب رسوخ الشكر في النفس .

بحث روائي

في الدر المنثور عن ابن عباس في قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين قال : « انهزم اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم أحد فبيناهم كذلك إذ اقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد ان يعلو عليهم الجبل فقال النبي (صلى الله عليه وآله) اللهم لا يعلون علينا اللهم لا قوة لنا الا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر فانزل الله تعالى هـــذه الآيات وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيـــل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله تعالى : « وانتم الاعلون » .

اقول : لا ريب في علو الاسلام مطلقا حقيقة فضلاً عن دعاء الرسول (صلى الله عليه وآله) .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله تعالى : « وتلك الايام نداولها بيــن الناس » قال :

« ما زال منذ خلق الله تعالى ادم دولة لله تعالى ودولة لابليس فان دولة الله ما هو الا قائم واحد » .

اقول : المراد بالقائم من يقوم بالحق واحقاقه في مقابل الباطل. وان المراد بالوحدة الوحدة النوعية لا الشخصية فتنطبق على كل نبي في كل عصر خصوصاً على سيدهم في عصر ظهوره ، وعلى مَن سيظهر في دولة الحق .

وفي تفسير العياشي أيضاً عن الوشا عن أبي عبدالله (عليه السلام) في قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »قال : « والله لتمحصن ، والله لتميزن ، والله لتغربلن حتى لا يبقى منكم إلا ندر [الأبذر] ـ الحديث ـ » .

اقول : الحديث مطابق للوجدان لان كل احد إذا اراد أن يتخذ صديقاً لنفسه لا يتبادر إلى كل مَن يدعي الصداقة إلا بعد الامتحان والاختبار .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » قال : « ولما ير لانه عزوجل قد علم قبل ذلك مَن يجاهد ومَن لا يجاهد ، فأقام العلم مقام الرؤية لانه يعاقب الناس بفعلهم لا بعلمه » .

اقول : المراد بالرؤية ما ذكرنا من الوقوع الخارجي فان الرؤية لا تتعلق إلا بما هو واقع في الخارج .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون » عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) : « ان المؤمنين لما اخبرهم الله تعالى بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنة رغبوا في ذلك فقالوا : اللهم

ارنا قتالاً نستشهد فيه فاراهم الله اياه يوم أحد فلم يثبتوا الا من شاء الله منهم فذلك قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه » .

اقول : هذا سيرة جميع الناس في كل عصر عندما يخبرون بالشهادة وفضلها ومناقبها فيتمنونها وفي مقام العمل يحجمون عنها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم » قال : « ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج يوم أحد وعهد العاهد به على تلك الحال فجعل الرجل يقول لمن لقيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قتل ، النجا ، فلما رجعوا إلى المدينة انزل الله تعالى : « وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل » قال عطية العوفي : لما كان يوم أحد انهزم الناس فقال بعض الناس : قد اصيب محمد فاعطوهم بأيديكم فانما هم اخوانكم وقال بعضهم : ان كان محمد قد اصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به ؟ فانزل الله تعالى في ذلك « وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل ـ إلى قوله تعالى ـ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ..الآية» .

اقول الروايات في ذلك كثيرة وجميعها من باب التطبيق .

وفي أمالي الشيخ عن ابن عباس : « ان علياً (عليه السلام) كان يقول في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان الله عزوجل يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم » والله لا ننقلب على اعقابنا بعد إذ هدانا الله ولئن مات أو قتل قاتلت عليه حتى اموت والله انى لاخوه وابن عمه ووارثه فمن احق به مني » .

اقول : الاحاديث في ذلك كثيرة والوجه في ذلك ان نبي كل زمان خصوصاً سيدهم انما يكون مثالاً لله تعالى من حيث الاخلاق والاقوال ولابد وان تكون امته مثالاً للنبي من هذه الجهة حتى تصير مثالاً لاخلاق الله تعالى بواسطة النبي ، فكل مَن بقي على كونه مثالاً لنبيه فقد وفى بعهده وبقي على ملته ولم يضره موت النبي أو قتله اذ لا فرق حينئذ لديه بين حياة النبي وموته ؛ وكل مَن تخلف عن ذلك فقد ارتد ورجع على عقبيه بلا فرق بين انحاء التخلف والرجوع فان الكفر والارتداد ذو مراتب كثيرة كما تقدم في هذا التفسير .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير » الربيون الجموع الكثيرة والربوة الواحدة عشرة الاف.

وفي المجمع : « الربيون عشرة آلاف وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) » .

وفي تفسير العياشي « الربيون ألوف الاف » .

اقول تقدم في التفسير ما يتعلق بهذه الروايات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

بعدما أمر عزوجل المؤمنين باتبـــاع الانبياء وانصاره المجاهدين الصابرين المكافحين في تثبيت دعائم الدين واركان التوحيد وبيّن مالهم

من الفضل العظيم والأجر الجزيل وحسن العاقبة يبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة اصلاً من أصول النظام الاسلامي وحقيقة من الحقائق الاجتماعية التي تحفظ وحدة الاجتماع وهو الايمان بالله العظيم والاعتقاد بانه مولى المؤمنين يكفيهم وينصرهم ، وقد امرهم بالاعراض عن الكافرين الذين ما برحوا في تثبيط عزيمة المؤمنين وارجاعهم إلى الكفر والارتداد عن الايمان وقد نهاهم عزوجل عن متابعتهم وبيّن ما يترتب عليها من الآثار السيئة وسوء العاقبة وقد وعد سبحانه وتعالى المؤمنين بالنصر على الكافرين الذين اوعدهم سوء العاقبة .

والآيات المباركة من تتمة الآيات النازلة في احـــد حيث يذكر عزوجل بعض ما جرى في هذه الغزوة العظيمة التي قلّما اشتملت غزوة أخرى مثلها من الحقائق والتعليم .

وقد أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات بأن لا يطيعوا غير ربهم الذي هو مولاهم يكفيهم امورهم ويعينهم على مقاصدهم .

التفسير

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا.

خطاب إلى المؤمنين اعتناءاً بشأنهم وتذكيراً بأن الايمان الذي هم عليه ينافي طاعة غير ربهم عزوجل ، وانما ورد « ان » في قوله تعالى « ان تطيعوا » ايذاناً بان الاطاعة بعيدة الوقوع من المؤمنين .

والمراد بالطاعة إما العامة في جميع الامور أو في خصوص الجهاد

كما ان المراد بالذين كفروا هم الذين لم يؤمنوا بنبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) سواء كانوا من المشركين أو المنافقين الذين كفروا بقلوبهم وان آمنوا بافواههم .

ويستفاد من الاية الشريفة ان الكافرين كانوا يلقون على المؤمنين ما يوجب التنازع والتفرقة والاختلاف وما يثبطهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال اعدائه عزوجل ، ويدل عليه ما ورد في الآيات اللاحقة التي يحكم سبحانه وتعالى فيها بعض مكائدهم .

ويمكن ان يقال بان ذلك من الامور الطبيعية في كل إجتماع مكوّن من طبقات أو مركب من فرق مختلفة الاهواء فان كل فرقة تعين على الفرقة الاخرى بكل ما يتاح لها من السبل قولاً أو فعلاً ، وفي المجتمع الاسلامي المنافقون والمشركون وغيرهم ممن يجحد نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) كان لهم الدور الكبير في هذا الشأن ، وقد حذر الله عزوجل المؤمنين من طاعتهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم وحكى تعالى بعض المصاديق اتماماً للتحذير ، وليكون الزجر على أكمل الوجه .

قوله تعالى : يردوكم على اعقابكم .

الرد على الاعقاب هو الرجوع إلى الوراء . ومادة (عقب) تدل على التأخر سواء كان في الخير أو في الشر زماناً أو شأناً ، والاول كما في حديث الذكر الذي علمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) للزهراء (سلام الله عليها) : « معقبات لا يخيب قائلهن اربع وثلاثون تكبيرة واربع وثلاثون تحميده وثلاث وثلاثون تسبيحة » والثاني كما في الرواية « ويل للاعقاب من النار » .

والمعنى : انكم لو اطعتم الذين كفروا يرجعونكم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلال والشرك بالله تعالى سواء كان الضلال والرجوع إلى الكفر دفعةً أو تدرجاً . ومن ذلك إطاعتهم في ترك الجهاد ، والقتال أو طلب الأمان منهم كما صدر عن بعض المؤمنين في غزوة أحد عندما غلبوا على امرهم بادىء الامر فانه يقتضي تسلط الكافرين على المؤمنين والميل إلى ولايتهم وهو يوجب الرد عن الايمان .

ومضمون الآية الشريفة لا يختص بعصر نزول القرآن الكريم بل هو حقيقة من الحقائق التي أكد القرآن الكريم عليها باساليب مختلفة قال تعالى : «ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » آل عمران ـ ١٠٠ .

قوله تعالى : فتنقلبوا خاسرين .

اي : فترجعون إلى ورائكم وانتم خاسرون للدنيا والآخرة وهو اعظم الخسران للانسان .

قوله تعالى : بل الله مولاكم .

اضراب عن تولي الكافرين لانهم ليسوا اهلاً للطاعة . اي : فلا تطيعوا الكفار بل اطيعوا الله تعالى مولاكم وناصركم وقد وعدكم النصر وتولي شؤونكم بعنايته الخاصة قال تعالى : « فاعلموا ان الله مولاكم نعِمَ المولى ونِعمَ النصير » الانفال ـ ٣٩ .

قوله تعالى : سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله .

بيان لكونه خير الناصرين ووعد منه تعالى بنصر المؤمنين بالرعب

وخذلان الكافرين .

والرعب : بسكون العين شدة الخوف والفزع وهو مما اختص به (صلى الله عليه وآله) كما في الحديث المعروف : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » فكان اعدائه قد اوقع الله تعالى في قلوبهم الخوف منه فاذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه .

والمعنى : سنفرغ في قلوب الذين كفروا الرعب بسبب اشراكهم بالله العظيم . وانما عبر سبحانه وتعالى بنون العظمة « سنلقي » والتفت في الكلام على طريق المهابة والكبرياء وأكد عزوجل الالقاء بالسين « سنلقي » اهتماماً بالموضوع .

وقد ذكر عزوجل من افراد النصر القاء الرعب في قلوب الاعداء وهو مما وعده به عزوجل المؤمنين في مواضع مختلفة وانه من مختصات خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) كما تقدم في الحديث وقد شهد به التاريخ في حروبه مع المشركين .

وانما ورد اسم الجلالة صريحاً لبيان ان هذا الاسم الجامع لجميع صفات الكمال ينافي اتخاذ الشريك له ويشمل الشرك كل انحائه في الذات والخلق والفعل واسناد التأثير لغيره كالدهر والمادة وغيرها .

قوله تعالى : ما لم ينزل به سلطاناً .

السلطان : هو الحجة والبرهان ، وانما عبر تعالى به لاثبات التسلط على الخصم ، فيستفاد ان كل ما زعموه من الحجج في اثبات الشرك باطل وموهون .

والآية المباركة تنفي النزول والوجود معاً ، فانه لا حجة في ثبوت الشريك حتى ينزلها .

قوله تعالى : ومأواهم النار .

المأوى : هو المكان الذي يؤمى اليه ليستراح فيه ويحتمي به، وفي هذا التعبير تبكيت لهم بسوء العاقبة . اي : ان مكانهم الذين يأوون اليه في الآخرة ليستراح فيه هو النار لا مأوى لهم غيرها .

قوله تعالى : وبئس مثوى الظالمين .

المثوى : هو المكان الذي يمكث فيه وهو من ثويت على وزن مفعل قلبت لامه ياءاً اي المكان الـــذي يؤوى اليه الظالمين هو بئس المكان الذي يمكثون فيه ولا يمكنهم مفارقته بسبب ظلمهم .

وانما وضع الظاهر موضع المضمر ولبيان ان ايوائهم انما يكون أبدياً وهم خالدون فيه ، كما ان في ذكر الظالمين بيان للعلة في استحقاقهم هذا الجزاء لانهم في اشراكهم ظالمون .

بحث دلالي

الآية الشريفة تبين جانباً آخر من الجوانب المتعددة في غزوة احد وهو أطاعة المنافقين والمشركين في شأن الجهاد وإقامة الدين وترتيب الاثر على اقوالهم وافعالهم وقد حذر سبحانه وتعالى المؤمنين في مواضع متعددة في القرآن الكريم وبيّن الآثار السيئة التي تترتب عليه بأساليب مختلفة ، فقد ذكر عزوجل في المقام من تلك الآثار السيئة الخسران في الدنيا والآخرة وهو معلوم لان في اطاعة الذين كفروا إذهاب شوكة المسلمين وحرمانهم مما اوعده الله تعالى لهم من النصر والسعادة وتبديل

الأمن إلى الخوف والامتهان والاذلال وهذا هو الخسران في الدنيا واما الآخرة فلهم عذاب أليم وحرمان مما وعد الله المتقين ، وتتضمن الآية الشريفة اهم التعاليم الالهية للمؤمنين .

كما ان الآية الشريفة تبين ان السبب في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا هو الشرك وهذا جار على طبق السنة الالهية في قانون الاسباب والمسببات وكلما تحقق هذا السبب يتحقق المسبب فلا اختصاص لذلك بالذين كفروا بل يجري في المؤمنين إذا هم اعرضوا عن الدين الحق وهذا ما نراه من حال المؤمنين فانهم كانوا في اعز مقام واحسن حال ولكنهم اصبحوا مرعوبين يخافون من كل احد ، مع ان الله تعالى وعدهم النصر وحسن العاقبة وهو يفي بعهده ان وفوا بعهدهم .

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ـ الآية ـ » عن علي (عليه السلام) : « يعني عبدالله ابن أبي حيث خرج مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم رجع قال للمؤمنين يوم أحد يوم الهزيمة ارجعوا إلى اخوانكم وارجعوا إلى دينكم » .

اقول الرواية من باب التطبيق .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب » قال السدي لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم انهم ندموا وقالوا

بئس ما صنعنا قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم، إرجعوا فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك القى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما عزموا وانزل الله تعالى هذه الآية » .

اقول : تقدم في التفسير ما يدل على ذلك .

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

لما وعد الله المؤمنين النصر والظفر على الاعداء وذكر سبحانه وتعالى ما يوجب نيل هذا الفيض الالهي وهو التقوى والصبر والثبات وشدة العزيمة يبين عزوجل في هذه الآيات صدق وعده كما يبين السبب في الهزيمة التي لحقت بالمؤمنين ، وهو عصيان امر الرسول (صلى الله عليه وآله) والتنازع في شؤون الحرب وعدم الثبات والصدق في النية.

كما ذكر سبحانه وتعالى بعض خصوصيات تلك الهزيمة التي كانت لها الاثر الكبير على المؤمنين ووعد عزوجل بالعفو والمغفرة .

وهذه الآيات المباركة تبين جانباً آخر من الجوانب المتعددة في غزوة احد التي كانت درساً كبيراً للمؤمنين .

التفسير

قوله تعالى : ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه .

مادة (حسس) تدل على وصول شيء إلى الحاسة (إي الإدراك) فان كان بآفة فهو القتل وامثاله وإلا فهو من مجرد الحس، ويستعمل هذه المادة في القتل على سبيل الاستئصال كما يقال « حسوهم بالسيف

حساً ، اي استأصلوهم قتلاً . والحسيس هو القتيل وزناً ومعنى .

اي : لما وعدكم الله تعالى النصر فقد وفى بوعده واظهر مصداقه لما وفيتم بالشروط وهي الصبر والتقوى والثبات كما عرفت ، وكان هذا النصر اول الامر في غزوة احد حين ظهروا على عدوهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً واجلوهم من مواقعهم وهزموهم باذن الله تعالى ، إلا انهم لم يستمروا على الشروط فكان الفشل والهزيمة والعتاب كما حكى عنهم عزوجل في الآيات التالية .

وانما قيد عزوجل القتل باذنه لبيان ان ذلك من مصاديق الوعد الذي وعدهم به .

قوله تعالى : حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم .

بيان بأن الوعد بالنصر كان مستمراً من الله تعالى إلى ان تحقق منهم ما أوجب إنقطاع ذلك الفيض ، وقد ذكر عزوجل اموراً ثلاثة وهي الفشل ، والتنازع في الامر ، وعصيان امر الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) .

اما الفشل فقد ظهر منهم عندما كر عليهم المشركون بعد فرارهم والمؤمنون لم يقدروا أن يملكوا انفسهم عن الغنيمة فظهر الجبن والجور عليهم .

واما التنازع فقد حصل من الرماة عندما رأوا ان اصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بدأوا بجمع الغنائم فتنازعوا بينهم في ترك المكان حيث رغب اكثرهم في الغنيمة فقالوا ما بقاؤنا هاهنا وقد انهزم المشركون ، وقال الآخرون لا نبرح من هذا المكان ولا نخالف امر الرسول .

واما العصيان فقد كان في مخالفة أمر الرسول (صلى الله عليه وآله)

بعدم ترك المكان مهما كان الأمر ، كما انه حصل أيضاً بالفرار عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما يأتي في الآيات التالية .

و « حتى » للغاية و « اذا » بمعنى الوقت والحين لا الشرط ، وقيل انها للشرط وقد حذف الجواب ليذهب ذهن المخاطب في تقديره كل مذهب .

قوله تعالى : من بعدما اراكم ما تحبون .

اي : ان كل ذلك حصل منكم من بعدما رأيتم النصر وقتل المشركين وهزيمتهم . وفيه التنبيه على قبح ما صدر منهم ، وعظم المعصية ، وزيادة في التقريع لان الذي يرى توارد النعم عليه وإنجاز الوعد بالنسبة اليه لابد ان يمتنع عن المعصية ولا يقدم على مخالفة المنعم وإلا كان كفراناً وسبباً في سلب الاكرام والفيض عنه وهذا ما جرى عليهم في أحد .

قوله تعالى: منكم مَن يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة .

تفصيل بعد إجمال وبيان لسبب التنازع الذي حصل منهم في ترك المكان فان مَن ترك فم الشعب وخالف امر الرسول (صلى الله عليه وآله) آثر الحياة الدنيا والغنيمة على طاعة الرسول (ص) والجهاد في سبيل الله ومنهم مَن آثر الآخرة وامتثل امر الرسول (صلى الله عليه وآله) فثبت وجاهد حتى استشهد .

قوله تعالى : ثم صرفكم عنهم ليبتليكم .

بيان للأثر الذي ترتب على افعالهم . والجملة عطف على « صدقكم الله » اي ان الله تعالى صدقكم وعده وايدكم بالنصر ومَن عليكم

بهزيمة الاعداء ولكن صرفكم عن المشركين بسبب ما صدر منكم من الفشل والتنازع والعصيان ، فكان ذلك طبق السنة الالهية من ايكال الامر إلى الناس إذا صدر منهم العصيان . والصرف هو الكف .

والمعنى : ثم كفكم عن المشركين وكان ذلك بانهزامهم بعدالظفر على المشركين وكان سبب ذلك ظهور الاختلاف في المسلمين بالفشل والتنازع والعصيان ، وكل ذلك كان لأجل امتحانكم واختباركم ليظهر صبركم أو رسوخ ايمانكم فيتميز المؤمن عن المنافق ليجزي الله تعالى المؤمنين بمراتب ايمانهم ويرفع درجات الصابرين المجاهدين .

قوله تعالى : ولقد عفا عنكم .

اي : ولقد عفا الله تعالى بفضله عنكم ببركة ايمانكم ، أو كان هذا العفو بعد الاختبار والتمحيص . وقد ظهر أثر هذا العفو بعد ذلك عليهم وانجز وعده لهم بالظفر على الاعداء بعد الهزيمة .

قوله تعالى : والله ذو فضل على المؤمنين .

تقرير لمضمون ما قبله وتأكيد لانجاز الوعد ، فهو يتفضل على المؤمنين بأنحاء النعيم فلا يذرهم على ما هم عليه من الضعف ويأتي في الآيات اللاحقة بعض وجوه نعمه وتفضله عليهم. وانما ذكر «المؤمنين» تشريفاً ولبيان العلة في الفضل وهي الايمان والتنوين في «فضل» للتفخيم.

قوله تعالى : إذ تصعدون ولا تلوُن على احد .

بيان للصرف اي صرفكم عنهم في الوقت الذي كنتم تنهزمون فيه والاصعاد هو الدخول في الصعود الى الجبال والابتعاد عن المواقع نظير انجد ، وابهم وقيل الاصعاد هو الدخول في السير في الارض قال الشاعر :

يبارين الاعنة مصعدات

اي مقبلات ومتوجهات نحوكم . وقال بعضهم : صعد بمعنى ذهب اينما توجه .

ومادة (لوي) تدل على الميل والالتفات والاعراض يقال : مرّ لا يلوي على أحد اي : لا يلتفت ولا يعطف او لا ينتظر ولا يبالي وقال في المجمع لا يستعمل الا في نفي فلا يقال : لويت على كذا .

والمعنى : ان الله تعالى صرفكم عن المشركين في الوقت الذي ابتعدتم عن مواقفكم منهزمين فراراً من القتل غير ملتفتين إلى احد سواء كان مؤمناً مسالماً أو عدواً محارباً لشدة الدهشة والخوف الذي وهكم .

قوله تعالى : والرسول يدعوكم في اخراكم .

الأخرى مقابل الاولى واخر القوم الجماعة التي في آخرهم .

اي :والرسول (صلى الله عليه وآله) من ورائكم يناديكم اليه . وهو يدل على امعان القوم في الفرار وابتعادهم عن الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى كان النداء والدعاء في آخرهم وهم لا يبالون إلى دعائه وندائه .

وقيل ان « في اخراكم » حال من الفاعل في «يدعوكم »اي الرسول يدعوكم حال كونه في الجماعة التي ثبتت معه وهي في اخراكم وهم الذين وصفهم الله تعالى في الآيات السابقة بانهم من الشاكرين .

قوله تعالى : فاثابكم غماً بغم .

مادة ثوب تدل على رجوع الشيء إلى حالته الاولى حقيقة أو اعتباراً ، ويسمى الثواب ثواباً لانه بمنزلة رجوع العمل إلى عامله

قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزلة ـ ٨ وتستعمل في الخير والشر وان كان في الاول اكثر قال تعالى : « فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة » آل عمران ـ ١٤٨ ومن الثاني قوله تعالى : « هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » المائدة ـ ٦٠ وكذا المقام .

والمعنى : اي رجع اليكم غماً مقابل غم اوقعتموه على المشركين ، فيكون هذا مبيناً لما تقدم في قوله تعالى : « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » وهذه هي المداولة المذكورة في قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس » فيكون متعلق الغمين متعدداً كما تقدم في القرحين .

ويحتمل ان يكون متعلقهما واحداً بالنسبة إلى المسلمين فقط ، فالغم الاول إشراف المشركين والغم الثاني وقوع الهزيمة ويشهد له بعض الروايات .

ويحتمل وجه ثالث وهو ان يكون الغم الثاني مؤكداً للغم الاول اي غماً متصلاً وشديداً ومنشاء الشدة توارد الهموم عليهم ، فالغم الاول هو غم الهزيمة والثاني غم الندامة والحسرة وذلك شايع في كل مقاتل انهزم حيث يتوارد عليه الغموم . وهناك وجوه اخرى ذكرها المفسرون لا طائل في ذكرها والخدشة فيها .

وكيف كان فيكون تفريع هذه الآية المباركة على الآية السابقة من قبيل ترتب المسبب على السبب ، فان الاختلاف ، وعدم الاعتناء بقول الرسول (صلى الله عليه وآله) اقتضى ان يقعوا في غم ولكن الله سبحانه وتعالى تفضل عليهم بان جعل هذا الغم مقابل الغم الذي اوقعه على المشركين ، فتكون هذه الجملة مبينة لجهات فضله تعالى عليهم كما يبينه عز وجل في الآية اللاحقة أيضاً .

قوله تعالى : لكي لا تحزنوا على ما فاتكم .

بيان لقوله تعالى : « اثابكم غماً بغم » وهو عدم الحزن على ما فاتكم من الظفر بعدوكم والنصر التام عليه أو الغنيمة والغلبة .

قوله تعالى : ولا على ما اصابكم .

بسبب إثم المخالفة والعصيان فانه كان لها الاثر الكبير في الانكسار والهزيمة والخوف والرعب . والمعنى : ان الله تعالى أثابكم غماً بغم لأجل التسلية وعدم تراكم الغموم عليكم ولاجل ان تذهلوا عن الحزن الذي اصابكم من الهزيمة وغلبة العدو ، وهذه حكمة الهية يختبر بها عباده المؤمنين ويعلمهم الصبر في الشدائد ويرزقهم الثبات في الايمان وللتمييز بين المؤمن والمنافق ولتكميل الفضائل ومكارم الاخلاق وهي سنة الهية قال تعالى : «ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الحديد ـ ٢٣ .

قوله تعالى : والله خبير بما تعملون .

اي والله لا يخفى عليه اعمالكم ونياتكم وهو محيط بكم وقادر على مجازاتكم .

والخبير : من اسماء الله الحسنى وهو بمعنى العليم ولكن العلم إذا اضيف إلى الامور الخفية سمي خبُرة وكان صاحبها خبيراً .

وفي الآية المباركة الترغيب في الطاعة والزجر عن المعصية .

قوله تعالى : ثم انزل عليكم من بعد الغم امنةً نعاساً يغشى طائفة منكم .

الغم معروف وهو حالة تعرض على الانسان عند المصائب والحزن ومادة غمم تدل على الستر والخفاء فكأن هذه الحالة تستر الفرح والسرور وتخفي اسارير الوجه وتضيق الصدر .

والأمنة بالتحريك مصدر ، كالمنعة وهو بمعنى الامن وفي حديث نزول المسيح بعد ظهور الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف): « وتقع الأمنة في الارض » اي تمتلىء الارض بالأمن فلا يخاف احد من الناس والحيوان .

والنعاس ما يتقدم على النوم من فتور ويظهر اثره على العين ابتداءاً وهو بدل اشتمال من أمنة الذي هو مفعول « انزل » وقيل غير ذلك في اعرابها . والغشيان الاحاطة .

والمعنى : ان الله تبارك وتعالى رأفة بكم أنزل عليكم من بعد الغم الذي اصابكم ما يشغلكم عن خوفكم ويغفلكم عن ذلك الغم بأن سلط عليكم النعاس الذي اصاب طائفة منكم واحاط بهم وكانت هذه الحالة بمنزلة الأمن لكم . وهذه الطائفة هي التي اصابها الغم الشديد وتراكم عليهم من عدة وجوه كالخوف من الله تعالى وغم المخالفة وغم الهزيمة وغم الندم على الذنب ، وكانت هذه نعمة كبرى عليهم وسكينة إلهيــة وعناية خاصة بهم في هذه الحالة التي سلبت عنهم لبهم وازداد غمهم فكان النعاس لهم راحة للاجسام بعد الضعف والفتور ، واطمينان للقلب الذي اصابه الغم والتسليم لقضاء الله وقدره . وهؤلاء هم الذين رجعوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) واحتفوا به ونصروه .

قوله تعالى : وطائفة قد اهمتهم انفسهم .

اي وطائفة اخرى مقابل الطائفة الاولى الذين لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الربانية واللطف الالهي بهم فلم يكن لهم هم الاحفظ انفسهم وحطام الدنيا فلم يهتموا بحفظ النبي (صلى الله عليه وآله) ودين الحق بشيء اصلاً . وانما كان شغلهم الشاغل انفسهم لما اعتراهم الخوف وهم الضعفاء في الايمان الذين لم يثقوا بوعد الله تعالى ولم يرسخ الايمان في قلوبهم يميلون مع كل ريح . ولا تختص هـذه الطائفة بخصوص المنافقين كما ذكره بعض المفسرين بل يجرى في كل مَن كان ضعيف الايمان.

ويستفاد من الآية الشريفة شدة الخوف واستيلائه عليهم بحيث سلب النعاس عنهم فلم يكن لهم همّ الا نجاة انفسهم فيكون المراد بالنعاس في الآية السابقة النوم الطبيعي الذي يعرض على الانسان ويوجب الراحة في الجملة لهوكان ذلك بفضل الله تعالى عليهم والندم على ما فعلوه بحيث حصل لهم الطمأنينة بوعد الله عزوجل .

قوله تعالى : يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .

بيان لقوله تعالى : « قد اهمتهم انفسهم » لان شغل اهل الجاهلية لم يكن إلا الاهتمام بالنفس وحفظها فقط فلا محالة تنتفي عنهم الثقة بالله تعالى وتعرض جهات الخوف على النفس فيظنون بالله ظناً باطلاً كظن اهل الجاهلية ، والمراد بالظن هنا الاعتقاد ، وسيأتي في الآيات اللاحقة ذكر بعض ما اعتقدوه كقوله تعالى : حكاية عنهم: «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » وقوله تعالى: «هل لنا من الامر من شيء».

ومن الظنون الباطلة ان مَن آمن بالله تعالى لابد ان يحفظ من جميع انواع البلايا ويسعد في الدنيا لفرض انه على دين الحق وهو لا يُغلب .

وهذا الظن باطل لان الايمان به تعالى لابد وان يجري على المجرى الطبيعي ، وقد حكى عزوجل في ما تقدم من الآيات ابتلاء المؤمنين واختبارهم وتمحيصهم ، ولا يخرج كل ذلك عن قانون الاسباب والمسببات . نعم لله تعالى عنايات خاصة لهم يظهر اثرها بين حين وآخر حتى تظهر دولة الحق .

قوله تعالى : يقولون هل لنا من الأمر من شيء .

بيان لظنهم الباطل وهذا القول سواء كان خطاباً للرسول (صلى الله عليه وآله) أو كان في ما بينهم . ويحتمل ان يكون القول بمعنى الاعتقاد اي يترددون في اعتقادهم وهو يكشف عن عدم ثبات الايمان في قلوبهم وتشكيكهم في الدين واستحكام روح الشرك والكفر .

والاستفهام انكاري ، والمراد من الأمر إما الحق أو النصر والظفر أو ان الأمر هنا هو الامر في قوله تعالى : « ليس لك من الامر شيء » الذي يكشف سبحانه فيه حقيقة الدين وهي ان العبد مطلقا لا يملك من الأمر شيئاً سوى التسليم لامر الله تعالى وهو المؤثر فقط إلا انه اقتضت حكمته ان تجري الامور باسبابها .

والمعنى : انهم يقولون ليس لنا من الحق أو النصر والظفر نصيب والله تعالى لا ينصر رسوله كما نصره في بدر وذلك لانهم اعتقدوا ان الدين والنصر متلازمان ولم يعلموا ان الله تعالى جعل الامر مداولة بين الناس واختباراً للمؤمنين وتمحيصاً لهم .

قوله تعالى : قل ان الامر كله لله .

خطاب للرسول الكريم بالتبليغ لهم لانه واسطة الفيض بان ازمة الامور كلها بيده عزوجل وتجري الامور وفق سنة محكمة متقنة بها

انتظم نظام الدنيا والآخرة وسينصر الله تبارك وتعالى المؤمنين المتقين على ما يشاء ويريد دون ما يعتقدون .

قوله تعالى : يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك .

تأكيد لظنهم الباطل وتوصيف لهم بأشد مما وصفهم اولاً ، وهم يضمرون امراً لا يبدونه لك لرسوخ النفاق والشقاق فيهم كما كانوا في الجاهلية .

اي : وان اظهروا ظنهم الباطل في صورة السؤال وكان ذلك كاشفاً عن شكهم وعدم ثبات ايمانهم إلا انهم يضمرون في انفسهم اكثر من ذلك فهم يكذبون الحقيقة وينكرون الحق ويكفرون بالدين ولكنهم لا يبدونه لك .

قوله تعالى : يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلناها هنا .

اي : يقولون في انفسهم أو في ما بينهم أو يعتقدون ذلك دون ان يبدونه للنبي لانه يشتمل على الكفر ، وهذا القول يحتوي على الانكار في صورة البرهان بزعمهم وهو لو كان الامر لنا كما وعد به رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما وقع القتل فينا وانما قالوا ذلك زعماً منهم بانهم مهما كانوا من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) بأي اعتقاد كانوا ينصرهم الله تعالى وهم غافلون عن حقيقة الدين وقد امر الله تعالى نبيه الكريم ببيان الامر لهم .

قوله تعالى : قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم .

البروز : الظهور والبراز الصحراء والارض المستوية . والمضاجع

جمع المضجع وهو في المقام المصرع الذي قدر القتل فيه .

أي : قل لهم يامحمد جواباً عما أخبره الله تعالى بما هو مكنون في قلوبهم وما يعتقدونه ان القتل تابع للتقدير والقضاء ابتلاءاً للمؤمنين وتمحيصاً لهم وتمييزاً بين الصابر المجاهد والمنافق الكاذب فاذا تعلقت ارادته بموت أحد لخرج بسبب من الاسباب من بيتـه إلى مضجعه فيلقى مصرعه من دون دخل ارادته فيفوز السعيـد ويشقى الشقي ويستفاد من الآية الشريفة امور :

الاول : ابطال زعمهم بأن الحق لابد ان لا يغلب وان المؤمن لابد ان يكون حليفه النصر دائماً فان مقادير الامور وتدبيراتها كلها بيد الله عزوجل وان النصر والظفر كسائر الامور انما تدخل تحت سنة الهية وهي جريان الامور باسبابها .

الثاني : ان مَن قتل في المعركة انما كان بتقدير الله تعالى وقضائه وليس قتله كان لأجل عدم كونه على الحق وعدم الأمر له ، بل لان القضاء الالهي إذا تعلق بذلك فلاراد لقضائه ولا مناص من وقوعه فلو لم يخرج احد من بيته لبرز مَن تعلق قضاؤه بمصرعه إلى مضجعه بل لو لم يخرجوا إلى القتل وكتب الله عليهم القتل والموت لماتوا وقتلوا وهم في بيوتهم لفرض تعلق القضاء والقدر بذلك .

الثالث : ان تلك سنة إلهية محكمة تتعلق بالانسان لاجل الاختبار والامتحان والتمحيص وتمييز الحق عن الباطل .

قوله تعالى : وليبتلي الله ما في صدوركم .

بيان لاحدى وجوه الحكمة في ما حل بهم . والواو هنا مقحمة ويحتمل ان يكون حرف عطف على غاية مقدرة

اي : ان كل ذلك يقع لاجل اختبار الله تعالى ما في قلوبكم بذلك وليظهر مكنونها من الطاعة والنفاق .

قوله تعالى : وليمحص ما في قلوبكم . وساوس ،

اي : ولاجل تخليص ما فيها من سوء الاعتقاد ووساس الشيطان ويطهرها من النفاق والشرك وتميز المؤمن الصابر المجاهد الثابت واظهار ما في قلبه من النيات الحسنة ومكارم الصفات عن غيره .

قوله تعالى : والله عليم بذات الصدور .

لاحاطته القيو ّمية بجميع الممكنات ايجاداً وابقاءاً وافناءاً ولا يعقل تلك الاحاطة إلا بالاحاطة العلمية . والله عليم بنياتهم ومكنونات ضمائرهم وفي الآية الشريفة التحذير عن سوء النية ومخالفة الفعل للنية .

قوله تعالى : ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا .

المراد من الذين تولوا هم الذين انهزموا من المعركة وفروا من اماكنهم إلى الجبال وغيرها كما حكى عنهم عزوجل في الآيات السابقة « اذ تصعدون ولا تلوون » .

والمراد بالجمعين : هما جمع المؤمنين وجمع المشركين لما التقيا في يوم أحد .

والاستزلال : هو الوقوع في الزلل الذي هو الخطيئة والانحراف ويستفاد من هذه الكلمة ~~هو~~ الوقوع في الذنب تدريجاً قال الراغب : « استجرهم الشيطان حتى زلوا فان الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الانسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه » وفي الحديث :

« فازله الشيطان فلحق بالكفار » .

والمعنى : ان الذين انهزموا وولّوا الدبر من المعركة يوم التقى الجمعان في أحد انما اوقعهم الشيطان في تلك الخطيئة الكبيرة وهي الهزيمة والاعراض عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) بسبب انقيادهم للشيطان بما كسبوه من سوء النية والسيئات التي سهلت لهم الوقوع في الذنب الكبير وكان ذلك سبباً في تمكين الشيطان ان يغويهم ويزلهم ويوقعهم في الهلكة . وذلك لان الانسان إذا اقترف الاثم والخطيئة تأثرت نفسه وهانت عليها فتميل إلى اكتساب الخطيئة وتندرج من الصغيرة إلى الكبيرة ، فان الذنب يجر الذنب ويدعوا إلى الخطيئة وارتكاب الآثام .

ومن ذلك يستفاد ان الباء في « ببعض ما كسبوا » هي للسببية فيكون الكسب متقدماً على الاستزلال والوقوع في الذنب العظيم وهو التولي .

وقيل ان الباء للآلة اي: ان الزلل الذي اوقعهم الشيطان فيه ودعاهم اليه هو التولي فيتحد ما كسبو او التولي . ولكنه بعيد عن ظاهر الآية الشريفة .

ومما يهون الخطب ان التولي لم يكن حدثاً آنياً بل كانت له مقدمات اوجبت هذه النتيجة المذلة وهذه المقدمات هي بعض ما كسبوا فحينئذ لا فرق بين ان تكون الباء للسببية أو للآلة .

وانما ذكر عزوجل بعض ما كسبوا دون الجميع إما لان في كسبهم ما هو طاعة لله عزوجل أو لان العقوبة انما كانت ببعض ما كسبوا دون الجميع فانها تستدعى ان تكون اكبر إلا ان الله تعالى منّ عليهم بالعفو عن كثير .

قوله تعالى : ولقد عفا الله عنهم .

اي : لقد عفى عن جميع المؤمنين الذين حضروا في أحد والمنهزمين وممّن تولوا عن الجهاد ببركة الرسول الكريم وما اظهروه من الندم وانما كانت عقوبة الهزيمة للاختبار والتمحيص وتربيتهم تربية عملياً .

قوله تعالى : والله غفور حليم .

الجملة في موضع التعليل لما تقدم اي عفا عنهم لانه غفور لجميع الذنوب ومن يحسن التوبة حليم لا يعجل بالعقوبة .

ثم إن المنساق من الآيات الشريفة ان هـذه الطائفة هم ضعفاء المؤمنين الذين لم يثبت الايمان في قلوبهم ولم يترسخ الدين في نفوسهم فلم تطهر قلوبهم من رذائل الجاهلية فظنوا بالله الظنون الباطلة وابدوا بعض ما في صدورهم واخفوا الكثير منه على ما حكى عنهم عزوجل . ولا يقدح ان يكون بعضهم من المنافقين الذين كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر وهم لا يعتقدون بالله العظيم لاان يظنون به الظن الباطل وسيذكرهم الله تعالى في الآيات التالية .

هذا ولكن المعروف بين جمهور المفسرين ان المراد بهؤلاء هم المنافقون الذين كانت تهمهم انفسهم ويظنون بالله ظن الجاهلية ويخفون ما في انفسهم من الكفر ولكنهم يعتذرون بألسنتهم عن انفسهم احتجاجاً على النبي (صلى الله عليه وآله) .

وفيه ان المنساق من الآيات المباركة غـير هؤلاء فان الخطاب للمؤمنين وارجاعه إلى المنافقين يستلزم التفكيك في الآيات الشريفة وهذا ينافي بلاغة القرآن الكريم مضافاً إلى ان الكلام في المنافقين يأتي في ما بعد . ولكن ذكرنا آنفاً انه لا ينافي ان يتفق هؤلاء الذين وصفهم

الله تعالى باوصاف تدل على ضعف العقيدة والايمان بالله تعالى مع المنافقين في بعض الاقوال والافعال .

ولا ينقضي العجب من بعض المفسرين حيث احتمل ان يكون الخطاب للمؤمنين وان الله تعالى يحكي عن كمال ايمانهم وثقتهم بان الامور كلها بيده عزوجل وتحت مشيته وانهم كانوا يظنون ان النصر والظفر لهم كما كان في بدر .

وبطلان هذا الاحتمال اوضح من ان يخفى فانــه لو كان الامر كذلك فكيف يجعله تعالى من الظنون الجاهلية التي ذكرها عزوجل في جملة من الآيات الشريفة قال تعالى : « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلّا الظن وان انتم إلا تخرصون » الانعام ـ ١٤٨ واحتمال ورود مثل هذه الآيات في المخلصين من المؤمنين وممّن رسخ الايمان في قلوبهم بعيد عن ادب القرآن بالنسبة اليهم .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول : يدل قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده » ان الله تعالى وعد المؤمنين وعداً حسناً بالنصر والظفر ، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكره ووعد بـه النبي (صلى الله عليه وآله) اصحابه في عدة

منها في الآيات السابقة وهي الطاعة والثبات ، والصبر والاستقامة فاذا تحققت تلك الشروط فلا محالة ينزل الفيض الالهي والامداد الربوي وعلى قدر الخلوص والاخلاص يتقدر الجزاء والفيض كما يدل عليه قوله تعالى : « منكم من يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة »ويؤكد ذلك نصر المؤمنين وهزيمة المشركين اول الامر وقتل المسلمين لهم قتلاً ذريعاً حتى أجلوهم عن مواقعهم وأخرجوهم عن ميدان المعركـــة ، وتوقف الامداد الربوي عندما ظهر الفشل والعصيان . فظهر صدق وعده عزوجل وتبين ان الامداد كان محدوداً بحد معين وهو تحقق الشروط وما عدى ذلك لا يستحقون العناية الخاصة ويكفي ذلك عبرةً للمؤمنين ودرساً لهم يجعلونه محط نظرهم وموعظة لهم يستفيدون منها في المواقع الحرجة إلى يوم الحشر .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « إذ تحسونهم باذنه » كمال العناية بالمؤمنين وان الله تعالى قد اذن لهم بقتل المشركين وامدهم بعناياته الخاصة مع قلة عددهم وعدتهم ولم يكلهم إلى انفسهم .

الثالث : يدل قوله تعالى : « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » على ان العناية الخاصة التي منحها عزوجل لهم انما كانت لاجل غاية حميدة وهي التربية تربية حقيقية واقعية ، فان الاسلام قد اهتم بهذه الجهة اهتماماً بليغاً حتى جعلها عزوجل من جملة غايات بعث الرسل والانبياء قال تعالى : « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبـــل لفي ضلال مبين » الجمعة - ٢ ومن سنن هذه التربية اسناد بعض الامور اليه عزوجل لانـــه تعالى ولي المؤمنين يؤيدهم بنصره واسناد بعضها الآخر إلى انفسهم قال تعالى : « ثم صرفكم عنهم » باعتبار تحقق

الاسباب الداعية إلى تحقق المسببات من عنـــد انفسهم ، فان قانون الاسباب والمسببات يدعو إلى ذلك ثم يأتي العفو والغفران وهذه هي التربية العلمية وفيها الفضل الكبير على المؤمنين ، ولذا ختم عزوجل هذه الآيات بقوله « والله ذو فضل على المؤمنين » وقد ظهر اثر هذه التربية في عدة مواطن بعد أحد ، ونرجوا ان يهتم المسلمون لهذه الجهة حتى يظهر اثر فضل الله عليهم .

الرابع : يدل قوله تعالى : « اذ تصعدون ولا تلوون على احد والرسول يدعوكم في اخراكم » على شدة الابتلاء وعظم المعصية فانهم بسبب الفشل والعصيان اعدوا لانفسهم هذه الهزيمةالتي أثرت في نفوسهم وكابدوا مرارتها برهة من الزمن وتعرضوا للنكاية بها ، ويستفاد من الآية الشريفة عظم الهزيمة فقد تفرقوا في كل وجه حتى انهم خرجوا عن موقع القتال ، لشدة الدهشة والذعر الكبير الذي حل بهم فلم يبالوا بالرسول (صلى الله عليه وآله) وهو واسطة الفيض وكان يجب عليهم ان يتأسوا به (صلى الله عليه وآله) ويبقوا معه في موقع القتال وكان عليهم الصبر وفيهم واسطة الفيض .

وفي ذكر الرسول في الآية الشريفة كمال التقريع والعتاب لهم ولذا كانت النكاية كثيرة حيث جازاهم الله تعالى بالغم الشديد الذي بقي اثره في نفوسهم واستمر زماناً ويكفي في ذلك انه نزل فيهم التقريع والتوبيخ الربوبي ولم يأمنوا من العذاب بعدما كانوا مطمئنين منه ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « والله خبير بما تعملون » فانه يدل على اضطراب احوالهم وعدم استقرارهم فانهم كانوا يلتمسون الاعذار لما فعلوه ولم يعاقبهم عزوجل لان فيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

والآية المباركة تدل على ان عدم اعتنائهم بدعوة الرسول (ص)

إلى الثبات والمقاومة لشيوع خبر قتله وانتشاره بينهم .

الخامس : يستفاد من قوله تعالى : « فأثابكم غماً بغم » على ان للمعاصي والذنوب آثاراً خاصة تؤثر في النفس وتوجب الهموم والغموم وان لكل ذنب الاثر الخاص به كما ستعرف .

السادس : يدل قوله تعالى : « ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً » على ان نزول النعاس كان معجزة خاصة للطائفة المؤمنة وان الله تعالى اظهر قدرته وعنايته بهم في إنزال ما يوجب السكون والطمأنينة والأمن في حال تقتضي الحركة والاضطراب ولا يتصور فيها السكون فضلاً عن النعاس فالمعجزة تظهر في جعل الفائدة والاثر في الامر المضاد لتلك الحالة ظاهراً .

ويمكن ان يكون المراد من النعاس حالة الراحة والاسترخاء والسكون الموجبة للأمن . والمعروف انه كان المؤمن منهم بعد انزال النعاس ينام حتى تحت تُرسه كأنه آمن بخلاف غيره فانه اهمتهم انفسهم فلم يكرمهم الله تعالى بهذه المكرمة . ونظير هذه النعمة نزلت في غزوة بدر قال تعالى : « اذ يغشيكم النعاس أمنة منه » الانفال - ١٢ إلا ان الفرق بينهما ان في أحد كانوا احوج إلى الأمن من يوم بدر لشدة الدهشة والذعر فاقتضى تقديم الأمن في هذه الآية المباركة بخلاف غزوة بدر فابدل الله تعالى حالة الذعر والخوف إلى حالة الأمنة والطمأنينة .

السابع : ترشد الآية الكريمة « وطائفة قد اهمتهم انفسهم » إلى ان في كل أمة طائفتان الاقوياء في الايمان الثابتون فيه المعتقدون بحدوده واحكامه العاملون بها الذين قد فوضوا امرهم إلى الله تعالى فمنحهم سعادة الدنيا والآخرة . والطائفة الثانية هم الضعفاء في الايمان الذين يعتقدون ان مجرد الانتساب إلى الدين وانتحال اسمه يكفي في فوزهم

بكل ما وعده الله تعالى في الدنيا والآخرة وقد جعلوا اسم الدين سبيلاً لنيل مقاصدهم يستدرون به حيث ما درت معايشهم ، وإذا لم يسعدهم الحظ انقلبوا على اعقابهم ، وقد وصفهم الله تعالى باوصاف بعضها ترجع إلى عقيدتهم ونفوسهم المريضة وهي الظن بالله تعالى الظنون الباطلة كالشك واضمار ان الله تعالى وكل اليهم امر النصر ووعدهم الظفر وهو لا يرضى بظهور اعدائه . وقد ابطل سبحانه وتعالى مزاعمهم واظهر عقائدهم الفاسدة ولا تختص الآية المباركة بعصر النزول بل انها جارية إلى يوم القيامة .

الثامن : يتضمن قوله تعالى : « قل ان الامر كله » دستوراً الهياً وحقيقة من الحقايق الواقعية التي يشهدها الانسان في الحياة وهي ان كل امر في هذا النظام الكياني يجري تحت ارادته ومشيته ووفق قانون محكم وسنة منتظمة لا يمكن التخلف عنها فان الله تعالى خالق كل شيء وبيده ملكوت كل شيء وخلقه انما يكون تحت ارادة حكيمة ووفق تدبير ربوبي ، والاعتقاد بهذا الامر يخفف عن الانسان كثيراً من الهموم ويذلل له جملة من الصعاب وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وجعلها من جملة الامور التي يجب على المؤمن الاعتقاد بها وفي الآيات التالية يبين عزوجل بعض مظاهر هذه الحقيقة .

التاسع : يستفاد من قوله تعالى : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » ان الابتلاء والاختبار والتمحيص من غايات قتل مَن يبرز إلى مضجعه بارادة الله تعالى ومشيته ، فان ذلك سنة لا يمكن التخلف عنها . وان السعادة والشقاوة لا تظهران إلا بهذه السنة الالهية . وقد ذكر عزوجل في المقام ان الابتلاء انما كان لاظهار

ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب .

وقد اطلق سبحانه في الآية المتقدمة « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » لان المقام اظهار لما في القلوب بعدما ان ظنوا بالله الظنون الباطلة وما اضمروا في انفسهم اكثر مما ابدوه بافواههم بخلاف الآية المتقدمة .

ولا يدل قوله تعالى : « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » بشيء من الدلالات على الجبر كما يدعيه بعض فانه بمعزل عن ذلك والآية المباركة في مقام بيان كون الأمر كله بيد الله تعالى ولا ينافي ذلك تطبيقه على قانون الاسباب والمسببات .

العاشر : يدل قوله تعالى : «ببعض ما كسبوا » على ان المصائب والمتاعب التي تعرض عليهم سواء الفردية منها أو الاجتماعية انما هي آثار طبيعية لبعض اعمالهم ، وان لكل ذنب أثره الخاص به وتترتب عليه عقوبة خاصة ، وتترك الذنوب والمعاصي آثاراً خاصة في النفس وتكدر صفائها وهـــذا ما يؤكده جلّ شأنه في القرآن الكريم قال تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى اجل مسمّى فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيراً » الفاطر - ٤٥ وتوجب تلك الآثار بُعدها عن بارئها حسب كبر الذنب وصغره وشدته وضعفه إلا اذا انمحت بالتوبة فيعفو الله تعالى عنها ويمحي آثارها .

الحادي عشر : يستفاد من قوله تعالى : « ان الله غفور حليم » ان الغفران سبب العفو فان الله تعالى يستّر الذنب ظاهراً ثم يمحي اثره عن النفس وهما يزيلان المانع ويرفعان المنافي المضاد في رضوان الله تعالى واطلاق قوله سبحانه يشمل جميع الآثار الوضعية والتشريعية اي يرفع العقاب وما يمنع السعادة وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام .

بحث روائي

في اسباب النزول للواحدي في قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده . الآية ـ » قال محمد بن كعب القرظي : « لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة وقد اصيبوا بما اصيبوا يوم أحد قال ناس من اصحابه : من اين اصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى نصره؟ فانزل الله عزوجل : « ولقد صدقكم الله وعده ـ إلى قوله جل شأنه ـ منكم من يريد الدنيا » يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد » .
اقول: على فرض صحة الرواية انها من باب التطبيق والله العالم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

الآيات الشريفة تبين جانب آخر من جوانب غزوة أحد وهو ما ظهر من بعضهم من الاسف والتحسر على الذين قتلوا فيها ، وكان

السابقة ، فقد ظنوا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو الذي اوردهم إلى هذه المهلكة وحذرهم سبحانه وتعالى ان مثل هذا الظن الذي من وساوس الشيطان هو الذي استزلهم واوردهم المهالك وأفسد قلوبهم.

ويبين سبحانه وتعالى ان الحياة والموت امران طبيعيان داخلان تحت ارادته ومشيته والجميع يحشرون اليه تعالى والغاية التي لابد للانسان في كفاحه وجهاده من ابتغائها هي المغفرة والرحمة وهي الخير الذي يبتغيه كل عاقل .

التفسير

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا.

بيان الهي يرشد المؤمنين إلى التخلي عن اتخاذ الكافرين قدوة يحتذى بهم في الاقوال والافعال والاعتقاد ، فان الكافر جاهل بحقيقة الدين ولا يعتقد الاعتقاد الحق فان مما اعتقده انه ينسب الحوادث والظواهر الكونية إلى اسبابها العادية فقط وإلى الصدفة دون الالتزام باستنادها إلى الله تعالى وتصرفه في العالم وان الامور تجري بارادته ومشيته وتقديره وقضائه . ومن المعلوم ان الاعتقاد الباطل يفضي بصاحبه إلى الخسران والشقاوة ، وقد نهى عزوجل المؤمنين ان يكونوا مثلهم في الجهل والخسران .

والمراد بالذين كفروا كل مَن يعتقد خلاف الحق سواء كان من المنافقين ام غيرهم . وقيل ان المراد بهم في المقام خصوص المنافقين ولكنه تخصيص بلا دليل مع ان الظاهر من الخطاب هو الاعم ، واما

المنافقون فسيأتي ذكرهم في ما بعد قال تعالى حكاية عنهم « لو اطاعونا ما قتلوا » ولكن قد يتحد المنافقون مع الكافرين في كثير من الامور.

قوله تعالى : وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزىً .

بيان لمظهر من مظاهر الاعتقاد الباطل للكافرين . والضرب في الارض كناية عن السعي إما للتجارة أو طلباً للمعاش أو لاغراض اخرى قال تعالى : « وإذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة » النساء ـ ١٠١ يقال : « ضربت الطيرُ » ذهبت تبتغي الرزق ، كما يقال : « ضرب يعسوب الدين بذنبه » اي اسرع الذهاب في الارض فراراً من الفتن .

وغزىً جمع غاز كعاف وعفىً وشاهد وشهد وطالب وطلب . واللام في « لاخوانهم » للشأن اي في شأنهم أو تعليلية اي لاجلهم.

والمعنى : وقال الكافرون في شأن اخوانهم في الدين أو في النسب إذا ضربوا في الارض سفراً عادياً أو كانوا غزاة فمات بعضهم أو قتل.

وانما قال عزوجل « إذا ضربوا » دون (اذ) حكاية للحال فيفرض وجود ذلك في النفس . وبعبارة اخرى : ان القضية حقيقية لا تتقيد بزمن معين و (اذ) يستعمل في الظرف إذا كان وقتاً شخصياً .

قوله تعالى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا .

اي: كان من اعتقادهم الباطل انهم قالوا لو كانوا مقيمين عندنا ولم يسافروا ولم يغزوا ما ماتوا وما قتلوا . وهذا من سوء الرأي ويدل على جهل قائله بحقيقة الدين فان مقادير الامور تحت مشية الله تعالى وقضائه وقدره

كما بين عزوجل ذلك في الآيات السابقة قال تعالى : « قل إن الامر كله لله » وان موت كل فرد انما يكون باذن الله عزوجل قال تعالى: « وما كان لنفس ان تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلاً » آل عمران - ١٤٥ وغير ذلك من الآيات الشريفة الدالة على ذلك ، وان القضاء والقدر وايكال الامر اليهما اصل من اصول الدين . ويكفي في بطلان قولهم ومخالفته للعقل انهم يعتقدون ان مَن مات أو قتل فقد ختم حياته وانتهى أمره كما تدل عليه كلمة «لو» في قوله تعالى«لو كانوا» الدالة على امتناع موتهم أو قتلهم عند حضورهم لديهم ولكنهم غافلون عن حقيقة الامر .

قوله تعالى : ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم .

اي : ان قولهم واعتقادهم انما يبعث في نفوسهم الحسرة واللام للعاقبة.

يعني : تكون عاقبة اعتقادهم الحسرة والندامة فيعذبون بهما ، والجملة من قبيل وضع الغاية موضع المغيى ، فانهم يتألمون كل ما يفكرون في امواتهم قتلاً أو غيره ويتحسرون عليهم ويتأسفون ويقولون لماذا تركناهم يسافرون أو يغزون ، ولم ندفع عنهم السوء فيزيدهم ضعفاً ويورثهم ندماً وحسرة .

قوله تعالى . والله يحيي ويميت .

رد لمزاعمهم الباطلة وبيان لحقيقة الأمر التي لابد من الاعتقاد بها وهي ان الله تعالى بيده امر الحياة والموت وهما من الامور المختصة به عزوجل وحده فيحيي مَن يشاء من عباده ويميت مَن يشاء بمقتضى قواعد وسنن خاصة لا يعلمها إلا هو لان اسرار القضاء والقدر في التكوينيات مما لا يمكن للعقل الاحاطة بها فاذا تحقق مؤثرهما فلا محالة تقع الحياة أو الموت

ولاراد لقضائه .

قوله تعالى : والله بما تعملون بصير .

اي : لا يخفى على الله تعالى ما تعملون فلا تكونوا ايها المؤمنون مثل الذين كفروا في الاعتقاد والعمل ، وفي الآية الشريفة كمال الترهيب عن المعصية والترغيب في الطاعة ، والتهديد للمؤمنين عن المماثلة مع الكفار فليتقوا الله في تركها . والآية المباركة صريحة في ان الله تعالى يعلم الجزئيات ويراها .

قوله تعالى : ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم .

حكمة اخرى من وجوه الحكم في النهي عن المماثلة للكفار في الأقوال والاعمال والاعتقاد ، وهي ان عمدة ما يبتغيه الانسان في كفاحه في هذه الحياة الدنيا هو ما يجمعه من المال والمتاع اللذين بهما يقضى مآربه ويحقق آماله ومقاصده ويمضي بهما شهواته وما عند الله تعالى اعظم واكبر من ذلك وهو الخير الذي لابد من السعي في ابتغائه ونيله.

والسبيل الذي يصل الى الله عز وجل هو القتل في سبيل الله أو الموت في رضاء الله تعالى كالموت على الايمان والاعمال الصالحة فان ذلك هو الفوز العظيم وما سواه ضئيل لابد ان لا يعتنى به .

قوله تعالى : لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون .

اي : يكون اجركم على الله تعالى وهو مغفرة من الله تمحو بها الذنوب ورحمة ينال بها رضوان الله تعالى وترتفع بها الدرجات وهما خير مما يجمعه الانسان من حطام الدنيا .

وانما قدم القتل في سبيل الله على الموت لان القتل اقرب الى

المغفرة والرحمة ، وللترغيب اليه ، والتعريض عن كان يثبط المؤمنين عنه والرد على الكفار .

قوله تعالى: ولئن متم أو قتلتم لألى الله تحشرون . .

بيان للواقع الذي عليه الانسان في الدنيا والآخرة ، وهو ان أي فرد من أفراد الانسان بأي سبب كان هلاكه سواء كان بالموت أو القتل لابد ان يحشر إلى الله تعالى وحده فيحاسبه على اعماله ويجازيه بها ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وعليه تعالى يقدم الانسانفيوفيهم اجورهم وعداً مؤكداً عليه .

وانما قدم الموت على القتل لان الاول أعم من الثاني وإكثر فناسب الترتيب الطبيعي بخلاف الآية السابقة .

بحوث المقام

بحث ادبي :

تقدم ان « غزى » جمع نادر في المعتل وهو خبر (كانوا)منصوب بفتحة مقدرة على الالف المنقلبة عن الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين لان اصله (غزوا) فتحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت الفاً ثم حذفت ، وقرىء بتخفيف الزاي .

وانما أتى عزوجل بجمع القلة للاشارة إلى انه لابد من ترك ذلك والتقليل منه إذا لم يكن في سبيل الله تعالى .

والواو في قوله تعالى : « والله يحيي ويميت » للحال كما ان اللام في قوله تعالى : « ولئن قتلتم » موطئة للقسم ، وان اللام في قوله تعالى : « لمغفرة من الله » واقعة في جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

والتنوين في « لمغفرة ورحمة » للتنكير ، ولبيان عدم حد للمغفرة والرحمة ، وليذهب ذهن المخاطب إلى اي مذهب ممكن

وقرأ الجمهور (متم) بالكسر من مات يمات مثل خفتم من خاف يخاف ، وقرأ بعضهم بضم الميم من مات يموت مثل كنتم من كان يكون .

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة امور :

الاول : الآية الشريفة « ياايهـــا الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا » تؤكد مضمون الآيات السابقة ، وتضع حداً فاصلاً بين الاقاويل الكاذبة وما هو الحق ، وتبين للمؤمنين ما يجب الاعتقاد به لاسيما في الظروف الصعبة التي لابد من أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والتمسك بتعاليم الاسلام ولدفع كيدهم .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » انما قالوا ذلك تثبيطاً لمن بقي من اخوانهم لئلا يلحقوا بالمؤمنين حتى لا يصيبهم ما أصاب السابقين فيموتوا او يقتلوا فهم كانوا يعتقدون امتناع موت اخوانهم أو قتلهم عند حضورهم لديهم فكانهم العلة في حفظهم ، وهذا نحو من الشرك .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » ان بعض الاعتقادات الفاسدة توجب الحسرة في الحال أو في المآل ، ويمكن ان يكون إشارة إلى ان عمل المؤمنين بالتعاليم الالهية والاحكام الشرعية يوجب الحسرة في قلوب الاعداء لانهم يرون ان العمل بها لا يزيد المؤمنين الا ثباتاً وشدة في جنب الله تعالى وهذا مما يزيد في حزنهم وندامتهم وهم يريدون عكس ذلك فان الايمان لا يزيد صاحبه إلا تسليماً وثباتاً واستقامة وارتفاعاً لمقامهم .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : « والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » ان جميع ما يحتماه الانسان نافعاً في دفع المكروه عنه هو من مجرد الظن لا يغير الواقع عما هو عليه وان الأمر بيد الله تعالى يجريه بمقتضى قانون الاسباب والمسببات ، والله يعلم ما في الضمائر فقد يخيب آمال الانسان جزاءاً لاعتقاده الفاسد فلابد من تسليم الامر اليه عز وجل وطلب العون منه .

الخامس : يستفاد من الترديد في قوله تعالى : « لمغفرة من الله ورحمة » اختلاف مقامات العاملين فمنهم من يكون عمله هباءً منثوراً لاجل شركه أو كفره ومنهم من يعمل لثواب الدنيا ومنهم من يعمل لثواب الآخرة بحسب مراتبه الكثيرة .

السادس : يستفاد من اطلاقه قوله تعالى : «لالى الله تحشرون» بروز الاعمال حينئذ فيحشر كل احد مع عمله ويجازى به كما مر .

بحث روائي

في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : « ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم » قال (ع) : « ياجابر أتدري ما سبيل الله ؟ قال: لا أعلم إلا ان اسمعه منك قال (ع) : سبيل الله علي وذريته (عليهم السلام) ومن قتل في ولايتهم قتل في سبيل الله ومن مات في ولايتهم مات في سبيل الله .

اقول : هذا من باب التطبيق وذكر احد المصاديق لانه ورد من الموت في سبيل الله الموت في طريق الحج والجهاد، كما ورد أيضاً في الموت في سبيل الله الموت في تعلم الاحكام وتحصيلها، والموت في المشي الى الصلاة .

في تفسير العياشي أيضاً عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : « ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون » وقد قال الله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » فقال ابو جعفر (عليه السلام): « قد فرق الله بينهما ثم قال : أكنت قاتلاً رجلاً او قتل اخاك ؟ قلت : نعم قال : (ع) فلو مات موتاً كنت قاتلاً به ؟ قلت : لا قال (ع) : ألا ترى كيف فرق بينهما ؟!! » .

أقول : لا ريب في اختلاف اصناف الموت وانواعه ولا ربط لاحد الأصناف والأنواع بالآخر ، فذات الموت شيء والقتل شيء آخر وان كان الأخير سبباً له وهو (عليه السلام) يبين منشأ الخلاف والراوي تمسك بذكر جنس الموت كما في قوله تعالى : « كل نفس

ذائقة الموت » .

ويحتمل ان تكون هذه الرواية اشارة الى تعدد الموت والقتل بحسب تعدد العوالم فمن مات في هذا العالم يمكن ان يقتل في عالم الرجعة والعكس بالعكس كما وردت به روايات متعددة يأتي ذكرها في الآيات المناسبة لها ان شاء الله تعالى .

والحمد لله أولاً وآخراً

فهرس الجزء السادس من مواهب الرحمن في تفسير القرآن

[سورة آل عمران الآية : ٦١ - ٦٣]

٦ المباهلة ومعناها وانها لا تصدر إلا من نفوس قدسية .

تعميم المباهلة لغيره (صلى الله عليه وآله) أيضاً .

٩ المراد من الابناء .

١١ دخول النبي (صلى الله عليه وآله) في المباهلة .

١٢ كيفية المباهلة .

الوجه في التأكيد الوارد في الآية الشريفة .

حصر الألوهية فيه تعالى يستلزم ابطال دعاوى النصارى .

الآية المباركة تطييب لنفس النبي (صلى الله عليه وآله) .

بحوث المقام :

١٤ بحث دلالي وفيه ان الآيات الشريفة تدل على امور :

(الاول) : ان ما اوحى الله تعالى الى الرسول الكريم هو العلم المطابق للواقع وان ما معه يشمل على البرهان الساطع .

(الثاني) : ان المراد من العلم هو الحق المطابق للعقل .

(الثالث) : الوجه في اتيان هيئة الجمع في الآية الشريفة والمراد من الابناء والنساء القضية الحقيقية لا الخارجية .

(الرابع) : يستفاد من الآية الشريفة ان اللعنة كانت موجودة ومقررة ومفروغ عنها .

(الخامس) : تدل آية المباهلة على الفضل العظيم والمنزلة الكبرى لاهل بيت النبي من وجوه .

١٦ ما اورد على الاستدلال بأن الآية المباركه تدل على فضل اهل البيت بوجوه اربعة والجواب عنها .

١٨ (السادس) : المناقشة في ما ذكره

بعض المفسرين من عدم صحة استعمال النساء في البنات .
(السابع) : الوجه في ذكر النساء في الآية الشريفة مع ان دأب القرآن التحفظ عليهن وذكرهن بالكناية .
(الثامن) : الوجه في تأخير كلمة «انفسنا» .
١٩ (التاسع) : ان كلمة انفسنا تدل على شمولها لغيره (صلى الله عليه وآله) وما اشكل على دلالة الآية الشريفة والجواب عنه .
٢١ (العاشر) : الآية الشريفة تدل على نبوة الرسول (صلى الله عليه وآله) بل هي من أجلى الآيات الواردة في ذلك.
(الحادي عشر) : تدل الآية المباركة على الحد الفاصل في كل من دعوى الالوهية ودعوى الشرك أو الحلول.
٢١ (الثاني عشر) : تدل الآية الشريفة على انحصار الالوهية فيه تعالى .
(الثالث عشر) : يستفاد من الآية المباركة أن كل من لم يتبع الحق فهو من المفسدين .
٢٢ بحث روائي يتعلق بالمباهلة وفيه ما ورد من الروايات عن طريقنا وعن طريق الجمهور لتنص في ان علياً (ع) كان في المباهلين مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) .
٣١ بحث كلامي وفيه ان المباهلة تتقوم بأمرين ثبوت حق ووجود رابط بين عالم الغيب وعالم المادة.
٣٣ بحث عرفاني يتعلق بالمباهلة .
[سورة آل عمران ٦٤ ـ ٦٨]
الآيات المباركة تدعو الى التوحيد وتعلن كلمة الفصل في ابراهيم (عليه السلام) .
٣٦ المراد من الكلمة الواردة في الآية الشريفة .
الآية المباركة تدل على حصر الالوهية فيه تبارك وتعالى وتشير الى امر فطري.
٣٨ يستفاد من الآية المباركة على وجوب نبذ كل انواع الشرك في الالوهية .
٣٩ الآية الشريفة تنفي إطاعة الانسان لمثله في التشريع والتصرفات .
٤٠ الوجه في التعبير بـ (بعض) الوارد في الآية المباركة ، وكذا التعبير بـ (دون الله) .

٤٢ الاحتجاج على اهـل الكتاب بان ابراهيم (عليه السلام) لم يكن يهودياً ولا نصرانياً .
٤٢ الآية الشريفة تثبت تكذيب كل من الدعويين .
٤٣ المراد من قوله تعالى : « في ما ليس لكم به علم » والتأكيد الوارد في الآية المباركة :
٤٥ الآية الشريفة توصف ابراهيم (عليه السلام) باوصاف ثلاثة :
٤٦ الآية المباركة تبين ان اولى الناس ابراهيم الذين اتبعوه والرسول (صلى الله عليه وآله) وان الله تعالى ولي المؤمنين .
بحوث المقام :
٤٥ بحث ادبي يتعلق بالآية الشريفة :
٤٩ بحث دلالي وفيه ان الآيات المباركة تدل على امور :
(الاول) : الكلمـــة الواردة في الآية الشريفة هي من اساسيات كتب اهل الكتاب واوليات العقل .
(الثاني) : يستفاد من قوله تعالى : « ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً » علية الحكم بالرجوع إلى كلمة السواء .
(الثالث) : الآية الشريفة تصرح بعدم الولاية لاحد إلا ما منحها الله تعالى لعبد كما انهـا تدل على نفي ربوبية غيره تعالى :
(الرابع) : يستفاد من الآيـة ان الاحتجاج المنتج لابد ان يكون عن علم صحيح مطابق للواقع .
(الخامس) : الآية الشريفة تدل على ان الاوهام الباطلة توجب عزل الكفر عن الواقع :
(السادس) : يستفاد من الآيـة الشريفة ان المناط في كل دين وملة هو الخضوع لله تعالى ونبذ الشرك بكل أنحائه ولذا لم يكن ابراهيم (عليه السلام) يهودياً ولا نصرانياً .
(السابع) : يدل قوله تعالى : « والله ولي المؤمنين » ان الايمان علة لولايته تعالى .
(الثامن) : يستفاد من الآية المباركة الاختلاف بين الواقع والاعتقاد .
٥١ بحث روائي يتعلق بالآية الشريفة .

٥٩ بحث تاريخي يتعلق بمهاجرة اصحاب النبي (ص) الى الحبشة .

[سورة آل عمران الآية ٦٩ - ٧٤]

٦٠ تبين الآيات الشريفة حال اهـل الكتاب بالنسبة الى الحق والمؤمنين به من الكذب والافتراء وماتضمره نفوسهم من الحقد والعداوة على المسلمين وقـد امر الله المسلمين بالثبات ومتابعة الهوى ووعدهم الحسنى .

٦١ الود معناه .

ما يتعلق باضلال الكفار المؤمنـين وضلال انفسهم .

٦٢ الاستفهام الوارد في الآية الشريفـة والمراد من آيات الله تعالى .

٦٣ التوبيـخ والانكار لالتباس الحق وتغطيته أو انكار الحق مع العلم به .

٦٤ الآية الشريفة في الانكار على اليهود لمخادعتهم المؤمنين .

٦٦ الآية المباركة تبـين مكيدة اخرى لليهود على المسلمين .

الهداية التي هي غرض الشرايع هي هداية الله تعالى .

الآية الشريفة تبـين امرين لسبب نهيهم عن التصديق بغيرهم .

٦٩ الآية المباركة تفسد مزاعمهم وتبطل حججهم .

٧٠ ما ذكر في الآية الشريفة برهان على بطلان مقالتهم .

٧٢ بحث دلالي وفيه يستفاد من الآيات الشريفة اصول مكر اهل الكتاب .

بحث روائي يتعلق بالآية الشريفة .

[سورة آل عمران الآية ٧٥ - ٧٨]

٧٥ يبين سبحانه وتعالى في نقض اهل الكتاب العهد وخيانتهم للامانة .

٧٧ الاميّ ومعناه .

٨٠ في أن محبة الله تعالى من أجل الكمالات .

٨١ الخلاق : ومعناه والوجه في اتيان اسم الاشارة البعيدة .

٨٣ لوى ومعناه والمقصود منه في الآية الكريمة .

٨٤ بحث دلالي وفيه ان الآيات تدل على امور :

٨٥ (الاول) : يستفاد من الآية الكريمة الاختلاف بين اهل الكتاب في حفظ الأمانة والوفاء بالعهد ، ولانها من

أجزاء الايمان .
(الثاني) : تدل الآية الكريمة ان جرائم اليهود وموبقاتهم التي ارتكبوها حصلت من الغرور الذي هو ام الفساد .
(الثالث) : الوجه في التمثيل بالقنطار والدينار .
٨٦ (الرابع) : يستفاد من الآية المباركة ان التقوى في كل دين هي الاساس فيه .
(الخامس) : تدل الآية الشريفة ان كل ما يتصور ان يقع بازاء الايمان وعوضاً عنه يكون قليلاً .
(السادس) : يستفاد من تكرار الوعيد واختلاف انواعه عظم الذنب وبشاعة الجريمة .
٨٧ بحث روائي يتعلق بالآية المباركة .
٨٩ بحث قرآني وفيه ان الآيات الشريفة التي وردت في احوال اهل الكتاب هي من ادق الآيات القرآنية وانها تدل على امور ستة .
[سورة آل عمران ٧٩ - ٨٠]
٩١ الآيات الشريفة تبين حال اهل الكتاب وما نسبوا الى انبيائهم من الالوهية وتفسدها .
٩٢ البشر ومعناه والوجه في اتيان اللام الوارد في قوله تعالى: «ما كان لبشر» .
٩٤ الرباني ومعناه .
٩٥ الآية المباركة تنفي النسبة التي نسبوها اهل الكتاب الى انبيائهم .
٩٧ بحث ادبي يتعلق بالآية الشريفة .
٩٨ بحث دلالي وفيه ان الآيات الكريمة تدل على امور :
(الاول) : تدل الآية المباركة على امتناع ادعاء البشر الالوهية بادلة ثلاثة :
٩٩ (الثاني) : الوجه في تقديم الكتاب على الرسالة في الآية الكريمة .
(الثالث) : الآية الشريفة تدل على ان الاتصاف بالاوصاف المذكورة فيها له دخل في التربية الالهية .
(الرابع) : الوجه في التعبير بالايتاء .
(الخامس) : الآية المباركة تدل على شرف التعليم والتعلم وان شأن الانبياء انما هو الارشاد الى الحق والدعوة اليه .
(السادس) : في الآية الشريفة

التعريض بالنصارى .
١٠٠ (السابع) : تدل الآية المباركة على ان انبياء الله تعالى لا يأمرون بأي نحو من انحاء الكفر .
(الثامن) : تدل الآية الكريمة ان الاسلام لا يجتمع مع الكفر .
(التاسع) : يستفاد من الآية الشريفة ذم العلو والاستعلاء في اي فرد تحقق .
١٠١ (العاشر) : الآية الشريفة تدل على ان تعلم الكتاب وتدريسه لابد وان يكون عن معرفة .
بحث روائي يتعلق بالآيات المباركة .
١٠٣ بحث عرفاني يتعلق بالعبودية .
١٠٥ بحث فلسفي يتعلق بوحدة المعبود .
[سورة آل عمران ٨١ - ٨٥]
الآيات الشريفة تبين منهج الانسان وتقرر حقيقة من الحقائق وهي عالم الميثاق واخذ العهود المؤكدة من افراد الانسان ودعوة كل نبي سابق إلى نبي لاحق كما انها تدعو إلى الاسلام .
١٠٧ عالم الميثاق وانه ذو اطراف عديدة .
١١٠ الوجه في لفظ « لما » الوارد في الآية الشريفة .
الآية الكريمة في مقام حقيقة النبوات السماوية وكيفية ارتباط بعضها مع بعض .
١١٢ معنى الاقرار والاصرار والوجه في العدول من العهد إلى الاصر .
١١٣ سياق الآية الشريفة يدل على ان الشهادة من النبيين على الامم .
١١٤ ان الشهادة أو المحاورة وقعت في ما مضى من الزمان ولا تكون من مجرد التمثيل .
في ان التولي عن الميثاق بعد اخذه يوجب الخروج عن طاعته تعالى .
١١٥ في ان الآية الكريمة توبيخ لمن اعرض عن الميثاق .
المراد من التسليم الوارد في الآية المباركة وفيها حجة اخرى للخروج إلى الدين .
١١٧ امر للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) بالجري على الميثاق والايمان بالاسباط .
١١٩ في ان الايمان المطلوب هو الاسلام وبه أخذ الميثاق وانه الجامع لجميع الاديان الالهية والاعمال بدونه فاسد

ومفسد للآخرة .

بحوث المقام :

١٢٠ بحث ادبي يتعلق بالآية الشريفة .

١٢٣ بحث دلالي وفيه ان الآيات المباركة تدل على امور :

(الاول) : يستفاد من الآيات الكريمة اهمية الميثاق وانه كالبذرة والاعمال ثمارها

١٢٤ (الثاني) : يستفاد من الاية الشريفة ان هذا الميثاق يقوم على وحدة الدين بين جميع افراد الانسان على حد سواء .

(الثالث) : تدل الاية الكريمة على ان حقيقة الميثاق هي الايمان بالمبداء والمعاد :

(الرابع) : قد يقال ان المستفاد من الاية المباركة ان الميثاق مأخوذ من النبين للمرسلين من غير عكس . ولكن ذلك يستلزم تقديم الفرع على الاصل :

١٢٥ (الخامس) : الوجه في انه تبارك وتعالى ذكر ما يتعلق بنقض الميثاق ولم يذكر ما يتعلق بالوفاء به .

(السادس) : يستفاد من الاية الشريفة ان الميثاق لا يكون من العلة التامة في شيء وانما هو من المقتضى المحض .

(السابع) : الاية الشريفة تدل على المنهاج السليم للانسان وهو التسليم لله تعالى والانقياد له عز وجل .

(الثامن) : يستفاد من الاية الكريمة ان جميع ما في السموات والارض لا يخرج عن التسليم له تعالى طوعاً أو كرهاً ويمكن ان يكون كلا الامرين في فرد واحد :

١٢٦ (التاسع) : الايات الشريفة تدل على صحة نبوة نبينا الاعظم (صلى الله عليه وآله) .

(العاشر) : الوجه في تقديم الايمان بما انزل علينا على الايمان بما انزل عليه من قبلنا .

(الحادي عشر) : الوجه في افتتاح الايات المباركة بالايمان بالله تعالى وختامها باخذ الاسلام ديناً .

(الثاني عشر) : الوجه في نفي القبول لصيغة المجهول :

١٢٧ بحث روائي يتعلق بالايات الكريمة.
١٣٢ بحث كلامي يتعلق بأخـذ العهد والميثاق .
١٣٣ بحث عرفاني وفيه ان الانسان الذي هو من اشرف الموجودات بل اجلها لابد وان يتجلى الله تعالى في جميع نشآته .
[سورة آل عمران ٨٦ - ٩١]
١٣٦ الايات الشريفة تبين حال الكافرين والظالمين الذين خرجوا عن هدايته تعالى وقد قسم سبحانه الكافرين الى اصناف ثلاثة :
١٣٧ ما يراد من لفظ الاستفهام في الاية الكريمة .
الاية الشريفة تـدل على استحالة هداية الكافرين مع تلبسهم بالظلم .
١٣٩ الوجه في اتيان الوصف مقام الضمير في الاية الكريمة .
١٤٠ اللعن ومعناه .
السر في خلود الكافرين في النـار والاستثناء من الكافرين الخالدين في اللعن .
١٤١ الصنف الثاني من اصناف الكافرين وهم الذين لا سبيل لهم للصلاح ولا تقبل توبتهم .
١٤٢ الصنف الثالث من اقسام الكافرين وهم الذين ماتوا وهم كفار .
بحوث المقام :
١٤٥ بحث دلالي وفيه ان الآية المباركـة تبين قاعدة كلية اثبتها علماء الفلسفة العملية وذكرها علماء الاخلاق .
١٤٦ بحث روائي يتعلق بالايات الشريفة.
[سورة آل عمران الاية ٩٣ - ٩٥]
١٤٨ في هذه الايات الكريمة يبين سبحانه وتعالى ان الايمان لابد وان يقترن بالعمل . وان المقياس الصحيح هو متابعة ملة ابراهيم (عليه السلام) وذكر مفتريات اليهود .
١٤٩ النيل والبر ومعني كل منهما :
١٥٠ الانفاق والمراد منه في الاية المباركة.
الطعام والحل ومعنى كل منها :
١٥٣ المراد من الطعام الذي حرمه اسرائيل على نفسه
١٥٥ الاحتمالات في قوله تعالى : « من قبل ان تنزل التوراة » .
١٥٦ الخطاب في الاية الشريفة توبيخي .

بحوث المقام :
١٥٨ بحث ادبي يتعلق بالاية الكريمة .
بحث دلالي يستفاد من الاية الشريفة
امور :
(الاول) : ما يتعلق بلفظ البر والانفاق .
(الثاني) : الوجه في ارتباط قوله تعالى : « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل » بآية البر .
١٦٠ (الثالث) : يستفاد من الاية المباركة التعريض باليهود في انهم يكذبون ولا يصدقون .
(الرابع) : تدل الاية الكريمة على تحريف التوراة .
١٦١ بحث روائي يتعلق بالاية الشريفة :
١٦٣ بحث عرفاني في البر الوارد في الاية المباركة :
[سورة آل عمران ٩٦ - ٩٧]
١٦٤ ذكر سبحانه وتعالى مظهراً آخراً من مظاهر البر وهو تعظيم بيت الله الحرام
الأول : وجه اشتقاقه وانه من الامور الاضافية وقد اجتمعت في البيت تمامها .
١٦٦ بكة ومعناها :
١٦٧ ما يتعلق بلفظ (مباركاً) الوارد في الاية الشريفة .
١٦٨ الهداية واتصاف البيت بها .
١٦٩ ما ورد في الاية المباركة من اوصاف البيت .
١٧٢ وجوب الحج .
١٧٣ الايات الكريمة الواردة في البيت على طوائف .
١٧٥ التأكيد في وجوب الحج والتوبيخ على تاركه .
بحوث المقام :
١٧٦ بحث ادبي يتعلق بالايات الشريفة :
١٧٧ بحث دلالي وفيه يستفاد من الايات الكريمة امور :
(الاول) : شرف البيت وعظمته وان له الاولية في كل شيء :
(الثاني) : ان وضع البيت قد سبق كل وضع .
(الثالث) : الوجه في التعبير بـ « الناس » .
(الرابع) : التأكيدات الواردة في الاية الشريفة بالنسبة الى الحج .

١٧٩ (الخامس) : الاية الشريفة تدل على تعميم الدعوة .
(السادس) : يستفاد من مجموع الايات الشريفة امور .
١٨٠ (السابع) : انه قد يتحد العمل والعامل .
١٨١ بحث كلامي يتعلق بالقدرة في التكليف
١٨٢ بحث عرفاني يتعلق بالبيت :
١٨٤ بحث روائي يتعلق بالاية الشريفة .
١٩٠ بحث فقهي يتعلق بأمن الحرم .
[سورة آل عمران الاية ٩٨ - ١٠١]
١٩٢ الايات الكريمة تبين حقيقة الاستكمالات والموانع التي تستهدفها والصد عن نيل الانسان لها .
١٩٣ الايات ومعناها والوجه في التعبير بـ (اهل الكتاب) .
١٩٤ الصد والسبيل ومعنى كل منها :
البغي ومعناه وأقسامه .
١٩٦ العوج ومعناه :
١٩٨ الاية الشريفة تبين حقيقة من الحقائق الاجتماعية وهي التأثير والتأثر .
١٩٩ الاعتصام ومعناه .
بحث دلالي وفيه ان الايات المباركة تدل على امور :
٢٠٠ (الاول) : يستفاد من الاية الكريمة قاعدة امتناع اجتماع المتنافيين ؛
(الثاني) : الفرق بين الاية الواردة في المقام وما وردت في سورة الاعراف
(الثالث) : الاية المباركة ترشد الى قاعدة اجتماعية .
(الرابع) : الوجه في التعبير بالتلاوة في الاية الكريمة .
٢٠٢ (الخامس) : الوجه في توصيف الصراط بالمستقيم .
٢٠٣ بحث روائي يتعلق بالايات الشريفة.
[سورة آل عمران الاية ١٠٢ - ١٠٨]
الايات الشريفة وردت لتكميل النفوس والاعتصام به تعالى وقد أمر عز وجل فيها بالاجتماع ونهى عن الاختلاف فهي من جلائل الايات.
٢٠٧ التقوى ومعناها ومراتبها على نحوين .
٢٠٨ الاية المباركة تحرض على مداومة التقوى .
٢٠٩ الحبل ومعناه والمراد منه .
٢١٣ الادلة التي ذكرها عز وجل في الحث على التذكر .

٢١٣ الشفا ومعناه .
٢١٤ المراد من النار التي وردت في الاية الشريفة .
٢١٥ دعوة القرآن الى تكميل الغير بعد تكميل النفس وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٢١٦ حفظ القانون واعتباره بالبقاء لا بالحدوث .
الخير والامة والمراد من كل منهما :
المراد من المعروف والمنكر .
٢١٩ فضل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانهما من اخلاق الله تعالى :
٢٢٠ التحذير من التفرق والاعراض عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٢٢٢ الوجه في التخصيص ببياض الوجه من نعم الآخرة :
٢٢٣ الرحمة ومعناها :
بحوث المقام :
٢٢٥ بحث ادبي يتعلق بالآية الشريفة .
بحث دلالي وفيه تدل الآيات الكريمة على امور :
٢٢٦ (الاول) : يستفاد من الآية الشريفة مراعاة التقوى في جميع الاحوال :
(الثاني) : يستفاد من الآية الكريمة الاستمرار على الاسلام في جميع الازمان وعدم الانصراف عنه في وقت من الاوقات .
٢٢٧ (الثالث) : يستفاد من الآية الشريفة ان الاعتصام بحبل الله تعالى انما هو من الامور الاجتماعية التي تؤثر في المجتمع :
٢٢٨ (الرابع) : الوجه في التأكيد بالاعتصام الوارد في الآية الشريفة:
(الخامس) : يدل قوله تعالى على وجوب التفكر والنظر في آيات الله تعالى :
٢٢٩ (السادس) : يستفاد من الآية الكريمة اهمية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .
(السابع) : يستفاد من الآية المباركة مراتب هذه الدعوة :
(الثامن) : يستفاد من الآية الكريمة ان الدار الآخرة وما فيها بمنزلة المرآة والصورة لدار الدنيا كما تدل الآية الشريفة على سنخية الثواب والعقاب :

٢٣٠ (التاسع) : تدل الآية الشريفة على ان ترك التكاليف الالهية يوجب اختلال النظام وسوء الحال .
بحث فقهي وفيه ان جعل الاحكام على اقسام :
٢٣١ بحث روائي يتعلق بالآيات الشريفة .
[سورة آل عمران الآية ١٠٩ - ١١٢]
٢٤٠ الآيات المباركة تبين العلة في عدم ظلمه تعالى للناس كما تبين قدر هذه الامة في الارض وتكشف عن هوان وتحقير اهل الكتاب .
٢٤١ المراد من الملكية في الآية الشريفة .
٢٤٢ الوجه في ذكر المعاد بعد ذكر المبدأ الآية الكريمة تخبر عن حقيقة الواقع على ما هو عليه
ما يتعلق بـ (كان) الوارد في الآية الكريمة .
٢٤٣ تدل الآية المباركة على تفضيل الامة المسلمة على غيرها ما دامت متصفة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٢٤٦ الاذى : ومعناه .
ما يتعلق بالاستثناء الوارد في الآية الشريفة .
الذلة ومعناها .
٢٥٠ بحث دلالي يتعلق بالآية المباركة .
٢٥١ الوجه في التعبير بـ (اخرجت) بالمجهول في الآية الكريمة .
٢٥٣ بحث روائي يتعلق بالآيات الشريفة .
[سورة آل عمران الآية ١١٣-١١٥]
٢٥٤ الآيات الكريمة تستثنى من اهــل الكتاب امة مستقيمة على الهدى .
٢٥٥ الاوصاف التي وردت لاهل الكتاب في الآية الشريفة .
٢٥٧ المسارعة ومعناها والفرق بينها وبين العجلة .
٢٥٩ بحث ادبي يتعلق بالآية الكريمة .
بحث دلالي وفيه ان الآيات المباركة تدل على امور :
٢٦٠ (الاول) : يستفاد من الآيــة الشريفة ان المائز بين الحق والباطل كالمائز بين النور والظلمة امر فطري .
(الثاني) : الآية الكريمة تدل على ان المناط في الايمان الاستقامة .
(الثالث) : الوجه في اقتران الايمان بالله بالايمان باليوم الآخر .
(الرابع) : يستفاد من الاية المباركة

ان الايمان بالله لا يثبت الا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .
(الخامس) : تدل الآية الشريفة على محبوبية الخير وان قسماً من اهل الكتاب يبادرون الى فعله غير متثاقلين عنه
(السادس) : يستفاد من الآية الشريفة ان تلك الصفات الصالحة كانت ناشئة عن ملكة راسخة عند بعض اهل الكتاب .
(السابع) : تدل الآية الشريفة على ان اعمال العباد محفوظة عند الله تعالى .
(الثامن) : تدل الآية الشريفة على ان المناط في قبول فعل الخيرات انما هو التقوى .
٢٦١ بحث روائي يتعلق بالآية الكريمة .
[سورة آل عمران الآية ١١٦ - ١١٧]
٢٦٢ الآيات المباركة تدل على ان ما انفقت الطائفة الكافرة في هذه الدنيا لحفظ جاهها واستمرار ملذاتها لن تنفعها وان جميعها يكون وبالاً عليهم .
٢٦٣ الآية الكريمة تدل على حقيقة من الحقائق الواقعية .
المراد من الكفر في الآية الشريفة

٢٦٥ مثل ما ينفقه الكافر في هذه الدنيا .
الصر ومعناه والوجه في التشبيه به .
٢٦٧ نفي الظلم عنه تبارك وتعالى وان الجزاء والآثار انما يترتب على افعال العباد واعمالهم .
تدل الآيتان الكريمتان على امور :
٢٦٨ (الاول) : ان الاموال والاولاد يستغنى بها لو كان كل منها في وجه الله تعالى والا يكون وبالاً على الانسان .
(الثاني) : يستفاد من قوله تعالى: « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر » امور :
٢٦٩ (الثالث) : يستفاد من الآية الشريفة ان الظلم مستمر باستمرار علته .
(الرابع) : يستفاد من الآية الكريمة ان الذنوب والمعاصي قد توجب هلاك الزرع والنسل .
بحث عرفاني وفيه ان افعال الانسان واعماله منبعثة من الاظلة الحاصلة في النفس فلو كانت النفس متوجهة الى الله تعالى يكون العمل كذلك
[illegible]

[سورة آل عمران الآية ١١٨ ـ ١٢٠]
٢٧١ يبين سبحانه وتعالى في الآيات الشريفة حقد الكافرين للمؤمنين وعداوتهم لهم وحذر تعالى المؤمنين من الكافرين .
الآية الشريفة في مقام بيان دستور اجتماعي .
٢٧٢ مادة بطن ومعناه .
٢٧٣ ما يتعلق بمفردات الآية الشريفة .
في الكافرين صفات يتضرر المسلمون منها وهي :
الاولى : الاضرار بالمؤمنين .
الثانية : حب ايقاع المشقة بالمؤمنين .
مادة عنت ومعناها .
٢٧٤ الثالثة : وهي حب ايقاع الاضرار بالمؤمنين .
٢٧٥ الرابعة : وهي تمكن البغضاء في قلوبهم
بحث دلالي وفيه يستفاد من الآيات الشريفة امور :
٢٧٩ (الاول) : حرمة اتخاذ البطانة مع القيود المذكورة في الآية الكريمة .
٢٨٠ (الثاني) : الآية المباركة ترشد الى اهم الاحكام الاجتماعية .
(الثالث) : ورد في الآية الشريفة امور قد اتصفت بها الكافرون وليبين كل منها جانباً من جوانب شخصياتهم
(الرابع) : يستفاد من الآية الكريمة ان الامن من كيد الكافرين مشروط بالصبر .
٢٨١ (الخامس) : يستفاد من لفظ البطانة جميع ما ورد في الصاحب والقرين .
بحث روائي يتعلق بالآيات المباركة .
[سورة آل عمران الآية ١٢١ ـ ١٢٩]
٢٨٢ الآيات الشريفة تذكر ما لاقاه صاحب الدعوة من المتاعب والمصاعب ويبين الله تعالى فيها كل من غزوة بدر وأحد وما وقع فيها من العبر والدروس .
٢٨٣ الغدو ومعناه .
٢٨٤ مادة (بوأ) واستعمالاتها في القرآن .
٢٨٥ الوجه في اتيان لفظي (السميع والعليم) في الآية الكريمة .
٢٨٦ الوجه في التفات الخطاب من المؤمنين الى الرسول الاعظم .
الهم والفشل ومعنى كل منهما .

٢٨٨ بدر وموقعه .
الآية الشريفة تؤكد نصر المؤمنين
على المشركين مع ما في المؤمنين من
الضعف كالتذكر النعم التي انعمها
الله عز وجل عليهم .
٢٨٩ الامداد الربوبي في غزوة بدر .
٢٩٣ المراد من الفور .
ما يتعلق بسيماء الملائكة .
الآية المباركة تدل على عدم نزول
الملائكة في غزوة أحد .
٢٩٤ الآية الشريفة تدل على انحصار النصر
منه تعالى .
٢٩٥ ذكر بعض وجوه الحكمة في نصرة
الله تعالى للمؤمنين .
مادة (كبت) ومعناها .
٢٩٦ الجملة المعترضة في الآية الكريمة
ووقعها في النفوس .
٢٩٧ الترديد الواقع في الآية الشريفة .
بحوث المقام :
بحث دلالي وفيه يستفاد من الآية
الكريمة امور :
٢٩٨ (الاول) : اهمية النبي (صلى الله
عليه وآله) وأمته .
(الثاني) : يستفاد من الخطاب ان
اللوم على المؤمنين .
(الثالث) : يستفاد من الآية الشريفة
كثرة هموم نبينا الاعظم (صلى الله
عليه وآله) .
(الرابع) : يستفاد من الآية
الكريمة علمه تعالى بالجزئيات .
٣٠٠ (الخامس) : يستفاد من الآية المباركة
العفو عن ما صدر من المؤمنين .
(السادس) : يستفاد من قوله تعالى
« وانتم اذلة » الانقطاع التام عن
المخلوق وعالم المادة .
٣٠١ (السابع) : يستفاد من الآية
الشريفة ان الكفاية انما يتحقق
بالامداد الربوبي .
(الثامن) : يستفاد من الآية الكريمة
ان الافاضات الربوبية تكون بقدر
اطمينان القلب الحاصل من التصفية
والوجه في عدول الخطاب من المؤمنين
الى الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله)
(التاسع) : يستفاد من الآية الشريفة
وجوه الحكمة في الجهاد .
(العاشر) : الرجوع في التصرف الى ...

تعالى « ليقطع طرفاً » .
(الحادي عشر) : الحكمة في وقوع جملة « ليس لك من الامر شيء » بين الآيات الشريفة .
(الثاني عشر) : ان النفي في الجملة لبعض مراتب القضاء والقدر .
٣٠٣ بحث روائي يتعلق بالآيات المباركة.
٣٠٦ بحث عرفاني وفيه يمكن ان يكون غدو النبي (ص) من الاهل معراج آخر له (صلى الله عليه وآله) .
٣٠٧ بحث تاريخي وفيه ان الآيات الشريفة التي وردت في ميادين القتال ترشد إلى امور لابد من مراعاتها .
٣٠٨ حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله) غزوات رسول الله (صلى الله عليه وآله)
٣١٣ غزوة أحد وموقع القتال فيه .
٣١٥ اسباب الحرب .
٣١٧ التعبئة .
٣١٩ القوى .
٣٢٠ المعركة .
٣٢٣ المحنة .
٣٢٥ النصر .
٣٢٦ الخسائر .
٣٣٠ شهداء أحد .
٣٣٣ المجروحين .
٣٣٤ نتائج الحرب .
[سورة آل عمران الآية ١٣٠ - ١٣٢]
٣٣٧ الآيــة الكريمة تشتمل على الأمر والنهي والترغيب والترهيب .
الربا ومعناه والنهي عن تعاطيه
٣٣٩ بحث دلالي وفيه يستفاد من الآيات الكريمة امور :
(الاول) :التأكيد الوارد في آية الكريمة بالنسبة الى الربا .
(الثاني): الحكمة في النهي عن الربا .
(الثالث) : يستفاد من الآية الشريفة ان النار مخلوقــة ومعدة للكافرين .
(الرابع) :الآية الكريمة تتضمن حكماً عقلياً .
(الخامس) : الوجــه في تعقيب الوعد بالوعيد .
[سورة آل عمران الآية ١٣٣ - ١٣٨]
الآيات الشريفة من جلائل الآيات القرآنية التي يذكر فيها اهم الخصال الحميدة الفردية والاجتماعية .

٤٢ المسارعة ومعناها .
العرض ومعناه والوجه في اتصاف الجنة به .
الاعداد ومعناه والوجه في اتيانه مجهولاً .
٤٦ السراء والضراء ومعنى كل واحد منها .
٤٧ ذكر اوصاف المتقين :
الاول : الانفاق والوجه في البدء به .
الثاني : الكظم عن الغيظ .
الثالث : العفو عن الناس .
٤٨ الرابع : الاحسان .
الخامس : الاستغفار وذكر الله تعالى .
٤٩ الفاحشة ومعناها .
المراد من ذكر الله تعالى .
الآية الكريمة تتضمن بشارة عظيمة وتطييب النفوس .
٥١ الاصرار ومعناه والآية المباركة ترشد الناس الى ترك الاصرار .
١٢ الآية الشريفة تتضمن الوعد للمتقين المتصفين بالصفات المتقدمة .
في الآية الكريمة وجوه من المحسنات الدالة على عظمة الموضوع والاهتمام به .
٣٣ في الآية المباركة الامر بالعظة والاعتبار من عاقبة المكذبين
المشار اليه في « هذا » الوارد في الآية الكريمة .
بحوث المقام :
بحث دلالي وفيه ان الآيات المباركة تدل على امور :
٣٥٥ (الاول) : قد جمعت في الآيات وجوه البر ومكارم الاخلاق ويستفيد منها المنهج الاخلاقي في الاسلام .
٣٥٦ (الثاني) : في وجه تقديم المغفرة على الجنة .
(الثالث) : يستفاد من الآية الكريمة ان التقوى هي السبب في إعداد الجنة .
(الرابع) : يستفاد من الآية الشريفة كمال الجنة من جميع الجهات .
٣٥٧ (الخامس) : يستفاد من تعدد الاوصاف للمتقين ان كل وصف سابق معد للوصف اللاحق .
(السادس) : الآية الكريمة تدل على ان ذكر الله تعالى هو السبب في انقلاع العبد عن المعصية والانزجار عن الذنوب

(السابع) : الآية المباركة تدل على ان قصص الماضين تكون عبرة للاحقين .
٣٥٧ بحث روائي يتعلق بالآيات الشريفة
٣٦١ بحث اخلاقي يتعلق بالاصرار وأنه على أقسام :
٣٦٢ بحث عرفاني وفيه ان عالم الدنيا متقوم بالأوهام والناس بعيدون عن الحقايق .
[سورة آل عمران الآية ١٣٩ - ١٤٨]
تتضمن الآيات الشريفة اصول الكلام من الامر والمدح والثناء والتوبيخ والارشاد وهي ترشد الناس الى التعاون والتعاضد امام المصاعب وعدم الضعف والوهن فيها وان السعادة لا يمكن الوصول اليها الا بالجهاد وان الامتحان لابد منه :
٣٦٥ الوهن والحزن ومعنى كل منها
٣٦٦ الآية الكريمة تتضمن الشوق الى الجهاد والها في موضع التعليل .
٣٦٧ المس والقرح ومعنى كل منها .
٣٦٨ ما يستفاد من الآية الكريمة من القواعد الكلية .
٣٦٩ الحِكَم التي وردت في مداولة الايام هي :
الاولى : ما يتعلق بعلم الباري جل شأنه.
٣٧٠ الثانية : اتخاذ الشهداء والمراد من ذلك :
٣٧١ الثالثة : التمحيص والمراد منه الحق ومعناه :
٣٧٣ تتضمن الآية الكريمة اللوم والعتاب على المؤمنين :
٣٧٤ الآية الكريمة ترشد الى انه لا يمكن الوصول الى الهدف الا ببذل النفس والنفيس .
٣٧٥ المراد من الموت الوارد في الآية المباركة .
٣٧٦ الرؤية ومعناها .
الآية المباركة وهي : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »
من ملاحم آيات القرآن الكريم
٣٨٠ لا يتحقق الموت الا بمشيته تعالى
الآية الشريفة تحرض المؤمنين على الجهاد مع الكفار .
٣٨٢ ثناء من الباري جل شأنه على جم

الشهداء والربيون الساين وفوا بعهدهم :

٣٨٣ ما يتعلق بالصفات التي كانت في الربيين .

الآية الشريفة تحكى اقوال الربيين :

٣٨٤ اتصاف الربيين بالصبر .

٣٨٥ الوجه في تقديم الدعاء بالمغفرة على غيره .

بحوث المقام :

٣٨٩ بحث ادبي يتعلق بالآيات الشريفة .

بحث دلالي وفيه ان الآيات الكريمة تدل على امور :

٣٨٩ (الاول) : ان النهي الوارد في الآية المباركة ارشادي وان الوهن والحزن في الحق قبيح عقلاً :

(الثاني) : ان انتهاء الوهن والحزن انما يكون على قدر الايمان :

(الثالث) : ان القرح الذي اصاب المؤمنين لم يكن نكاية .

٣٩٠ (الرابع) : تدل الآية الكريمة «وتلك الايام» على ان العبرة بالاعمال لا بالظروف .

(الخامس) : الآية الشريفة تبين وجوه الحكم في حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

(السادس) : يستفاد من الآية الكريمة ان التخطي عن الاحكام الالهية والخروج عن طاعة الله تعالى ظلم.

(السابع) : تدل الآية المباركة على ان تمحيص المؤمنين يستلزم محق الكافرين .

٣٩١ (الثامن) : ان التمحيص كما يقع على الفرد يقع كذلك على المجتمع ايضاً، وكيفية المحق الوارد على الكافر.

(التاسع) : تدل الآية الشريفة على ان دخول الجنة انما يكون بالمجاهدة والصبر .

(العاشر) : يستفاد من الآية الشريفة انه لابد للمؤمنين من محاسبة نفسه .

(الحادي عشر) : تدل الآية الشريفة ان ايمان بعض بالنبي (ص) كان قائماً بوجوده .

٣٩٢ (الثالث) : يستفاد من الآية الكريمة التنويه بمقام الشاكرين .

(الثالث عشر) : اطلاق الآية

المباركة يدل على ان الموت يرد على جميع اقسام النفوس .
٣٩٣ (الرابع عشر) : الآيـة الكريمة تبين حقيقـة الطائفة المنقلبة على اعقابها والطائفة الثانية على الايمان.
(الخامس عشر) : يستفاد من الآية المباركة جلالة قدر الربيون .
(السادس عشر) : تدل الآيـة الكريمة على ان كل مؤمن اتصف بالصفات التي ورد ذكرها فيهـا يكون في زمرة المحسنين ولا بد للمؤمن من ملازمة الخضوع والخشوع .
(السابع عشر) : تدل الآية المباركة على ان الغاية من الجهاد هي النصرة على القوم الكافرين .
٣٩٤ بحث عرفاني وفيه ان الاستقامة في الحق وبالحق من ابرز مقامات الانبياء ولا تتحقق في العبد الا بالامتحان والتمحيص .
٣٩٥ بحث روائي يتعلق بالآيات الشريفة.
[سورة آل عمران الآية ١٤٩- ١٥١]
٣٩٩ الآيات الشريفة تبين بعض ما جرى في غزوة احد وقد امر فيها سبحانه وتعالى ان لا يعبد الا هو .
تتضمن الآية الكريمة الخطاب الى المؤمنين اعتناءاً بشأنهم وتذكيراً بان ايمانهم في طاعة غير ربهم.
المراد من الطاعة الواردة في الآيـة الكريمة .
٤٠٠ الرد على الاعقاب ومعناه .
٤٠٣ بحث دلالي وفيه ان الآيات المباركة تبين جانبـاً آخر من الجوانب التي تحققت في غزوة أحد ، كما تبـين السبب في القاء الرعب في قلوب الكافرين .
٤٠٤ بحث روائي يتعلق بالآية الشريفة.
[سورة آل عمران الآية ١٥٢-١٥٥]
تبين الآيات الكريمة صدق وعده تعالى كما تبـين سبب الهزيمة وتذكر بعض خصوصيات الهزيمة .
٤٠٦ مادة حسس ومعناها .
٤٠٧ اسباب الفشل وانقطاع الفيض الالهي.
٤٠٨ تتضمن الآيـة المباركة التنبيه على قبح ما صدر منهم من اسباب الفشل.
٤١٠ مـادة (اوي) و (ثوب) ومعنى كل منها .

٤١٣ النعاس ومعناه .
٤١٤ المراد من الظن الوارد في الآيـة الكريمة .
٤١٥ الخطاب المتوجه الى النبي يتضمن بطلان ظن الطائفة التي اهتهم انفسهم
٤١٦ ما ورد في الآية المباركة من التأكيد لظنهم الباطل .
٤١٧ يستفاد من الآية الشريفة امور :
٤١٨ الاستزلال ومعناه .
٤١٩ موضع الباء في قوله تعالى « ببعض ما كسبوا » .
٤٢٠ الآية الشريفة في موضع العليل .
المراد من الطائفة المتصفة بالصفات الواردة في الآية الكريمة .
بحث دلالي وفيه يستفاد من الآيات الشريفة امور :
٤٢١ (الاول) : ان وعـد المؤمنين بالنصر والظفر مشروط بشروط وقد بينها تعالى .
٤٢٢ (الثاني) : يستفاد من الآية المباركة كمال العناية بالمؤمنين .
(الثالث) : ان العناية منه تعالى للمؤمنين انما كانت لأجل غاية حميدة وهي التربية .
٤٢٣ (الرابع) : يستفاد من الآية الكريمة شدة الابتـلاء وعظم المصيبة كما يستفاد منها عظم الهزيمة .
الوجه في ذكر الرسول في الآية الشريفة .
(الخامس) : يستفاد من الآية ان للذنوب آثاراً خاصة .
٤٢٤ (السادس) : تدل الآيـة المباركة على ان عروض النعاس كان معجزة خاصة .
(السابع) : ترشد الآية الشريفة ان في كل امـة طائفتين الاقوياء في الايمان والضعفاء فيه .
٤٢٥ (الثامن) : تتضمن الآية الشريفة دستوراً الهياً وهو كل امر في هـذا النظام يجري تحت ارادته ومشيئته .
(التاسع) : يستفاد من الآيـة الكريمة ان الابتلاء والاختبار والتمحيص غايات وان قتل مَن يبرز الى مضجعه لا يكون بارادة منه تعالى ومشيئته .

٤٢٦ (العاشر) : تدل الآية المباركة ان المصائب والمتاعب التي تعرض عليهم انما هي آثار طبيعية عن بعض اعمالهم وان لكل ذنب اثره الخاص.
(الحادي عشر) : يستفاد من الآية الشريفة ان الغفران سبب العفو .
٤٢٧ بحث روائي يتعلق بالآيات المباركة.
[سورة آل عمران الآية ١٥٦ ـ ١٥٨]
الآيات الشريفة تبين جانب آخر من جوانب غزوة أحد .
٤٢٨ الآية الكريمة ترشد المؤمنين الى التخلي عن اتخاذ الكافرين قدوة .
٤٢٩ تفسير مفردات الآية .
٤٣١ بيان بعض الحِكَم في النهي عن المماثلة للكفار .
٤٣٢ الوجه في تقديم الموت على القتل .
بحوث المقام :
٤٣٢ بحث ادبي يتعلق بالآية المباركة .
٤٣٣ بحث دلالي وفيه يستفاد من الآيات الشريفة امور :
(الاول) : الآية الكريمة تؤكد مضمون الآيات السابقة وتضع حداً فاصلاً بين الاقاويل الكاذبة وما هو الحق .
(الثاني) : يستفاد من الآية المباركة ان ما قالوه كان لأجل التثبيط وعدم الالحاق مع المؤمنين .
(الثالث) : يستفاد من الآية الكريمة ان بعض الاعتقادات الفاسدة توجب الحسرة .
٤٣٤ (الرابع) : الظن بالنفع لا يغير الواقع عما هو عليه .
(الخامس) : ان الترديد في الآية الشريفة انما هو لاختلاف مقامات العاملين .
(السادس) : يستفاد من اطلاق الآية الكريمة بروز الاعمال فيحشر كل احد مع عمله .
٤٣٥ بحث روائي يتعلق بالآيات المباركة .

تصويبات

الصفحة	السطر	الصواب
٤٢	٨	قوله
٤٣	١٥	تعقلون
٦٧	٦	النبي
٤٨	٦	سبحانه
٦٠	٣	طائفة
٦٥	٣	اخرى
٦٥	١٥	إن
٦٦	٦	ببعض
٦٦	٢٠	وسبيل آخر من سبل
٦٨	٣	المنطبقة
٦٨	١٦	مثل ما
٧٠	١٥	اعطائه
٧٥	١٨	اقترائهم
٧٥	٢١	بديهنار
٧٧	٢١	لا يقرأون
٧٧	٢	من عدا
٧٨	١٠	واوجز
٧٩	١٩	برسله
٨٠	٥	اخطأتم
٨٣	٢	يلون

الصفحة	السطر	الصواب
٨٥	٦	وتختلف
٨٥	٩	إنما يكونان . . . ولا يتحقق
٨٨	١٢	الاشعث
٩١	٨	وافترائهم
٩٤	٩	كما افتروا
٩١	١٩	براءته
٩٤	٦	ولا يخطر . . . . وافعاله
٩٤	١٥	قراءته
٩٥	٨	للناس
٩٥	٢١	أن يأمرهم
٩٦	٢٢	دعا
٩٨	١٠	والاحتياج
٩٩	٢٠	التعليم والتعلم
١٠١	١٧	ان يكونان
١٠٤	٥	جوارحه
١٠٨	١٧	تكثرت
١١١	٢	على ذلكم
١١١	١٥	النبي
١١٢	١٢	أأقررتم واخذتم
١١٤	٧	انما هي
١١٥	١٧	جاءت
١١٨	٤	فتكون

الصفحة	السطر	الصواب
١١٨	١٦	النبيين
١١٩	١٠	وفي التعبير . . . . أي مستسلمون
١١٩	١١	في الميثاق
١٢٠	٤	لتكون فاسدة ومفسدة
١٢٢	٥	بما آتاهم
١٢٥	٢٣	يكونان طوعاً . : . يكونان كرهاً
١٢٧	٧	الغالية
١٣٠	١٠	ما
١٣١	٥	ليست
١٣١	٢٠	قال : قال
١٣٥	٤	بالآلات
١٣٦	١٩	اهواءهم
١٣٦	٢٠	جزاءهم
١٣٧	١١	والجحد
١٣٨	١٦	اقراراً
١٣٩	١٩	وجزاؤهم مبتدأ
١٤٢	٢١	اللجاج
١٤٤	٩	ملء
١٥٢	١٣	كالحَل
١٥٤	١٦	إسرائيل على
١٥٧	٢	بأقرائهم
[illegible]	[illegible]	[illegible]

الصفحة	السطر	الصواب
١٧٤	٢	والركع
١٨٧	٢	والحطم سميت
١٩٨	٥	بدء
٢٠١	٥	عن سبيل الله
٢٠٢	٢٢	ذلك : ويمكن أن يستفاد من الآية الشريفة اشتداد العقوبة على المخالفة عند تمامية الحجة
٢٠٩	٥	واختياري
٢١٤	٢١	فقد جلبت لهم
٢١٧	٨	الصف - ٦
٢٢٣	٤	لمجاورته
٢٢٣	٢١	وجوههم
٢٢٨	١٥	الخلاف والاختلاف
٢٤٠	١٦	يبين سبحانه
٢٥٧	٢١	والاسقط
٢٦٠	٢٢	بالأمر بالمعروف
٢٦٣	١٥	لاغنائها
٢٦٤	٤	ملازمين للكفر ومداومين
٢٩٤	١٤	ينفذ
٢٩٨	١٧	تبوّىء
٢٩٩	١٧	ما لم يقاسه . . . : أنبياء
٣٠٠	٣	وابدعها

٣٠٠	١٢	السادس
٣٠١	٦	قوله تعالى
٣٠٢	٥	مرتبطتين
٣٠٣	٤	اهلك
٣٠٩	١٤	فرس
٣١١	٢	أبو سفيان
٣١٢	٢	قريش
٣١٢	٢١	الثانيـــة
٣١٣	١٤	غربه
٣١٥	١١	الى الجبل
٣١٧	١١	يبكين
٣٢٠	١٩	تفوقهم
٣٢١	١١	المسلمين
٣٢١	١٢	الالتفاف
٣٢٥	١٢	قسم
٣٢٥	١٦	قسم آخر
٣٣٠	١٨	قتله
٣٣١	٦	١٢ ـ الحارث بن أوس
٣٣٧	١٦	الربوا
٢٤٣	١٣	مبيناً
٣٤٧	٩	الغيظ
٣٥١	١٩	بحرمات

الصفحة	السطر	الصواب
٣٥٣	٢٢	جزاءهم
٣٥٩	٢٢	واشترط
٣٦٣	١٦	وليتمحص
٣٦٧	٧	ونحوها
٣٦٨	٩	مفاتح
٣٦٨	١٩	العام الربوبي
٣٨٥	١١	ويعظم
٤٠١	١٤	اعظم
٤٠٤	١١	يفي
٤٠٥	١٢	يدعوكم في أخراكم
٤١١	٢٣	مبينة
٤١٦	١٥	للنبي
٤١٨	٥	وساوس
٤١٨	٢٠	تحذف كلمة هو
٤٢٠	٦	حليم
٤٢١	١٢	إن تتبعون إلا
٤٢٨	٨	عاقل
٤٣١	٣	تعملون
٤٣١	١٩	تمحى

وافقت وزارة الاعلام على طبعه
رقم الاجازه ٦٢٣ تأريخها ١٠ / ٤ / ١٩٨٨
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٦٨ لسنة ١٩٨٩
سعر النسخة ٧ دنانير / عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠
مطبعة الآداب — النجف الأشرف — حي عدن